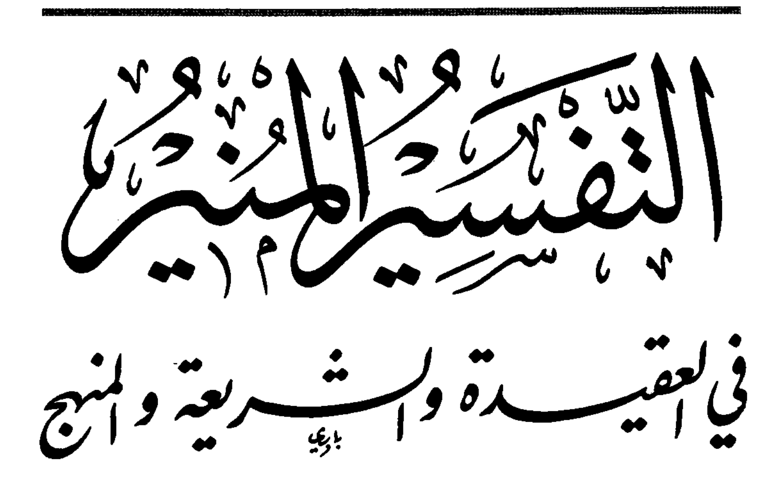
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ

الأنفال ٨ / ٢٤



التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

المجلد الثاني عشر
الجزءان ٢٣ ـ ٢٤





دار الفكر - دمشق - البرامكة

 ٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١

 ٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١

http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

أ.د. وهبة الزحيلي

المجلد الثاني عشر

الرقم الاصطلاحي: ١٢- ١١٠١١,٠١٦٩٠

الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-160-5

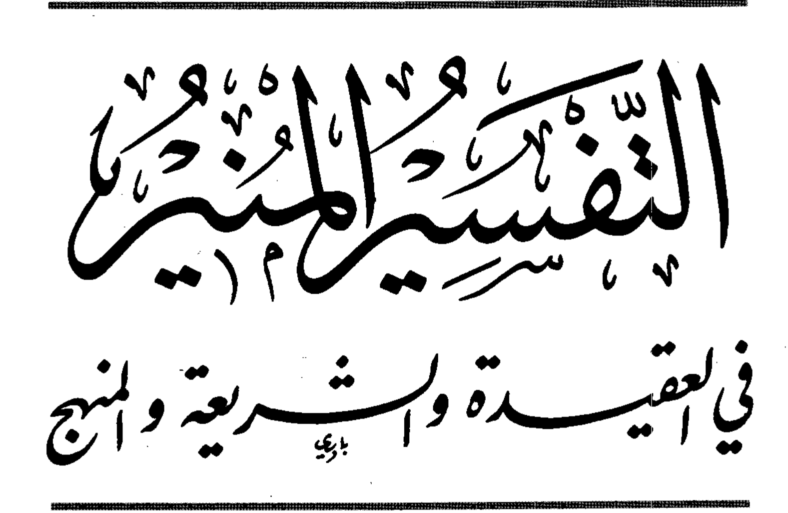
الرقم الموضوعي: ٢١١ (القرآن وعلومه)

٥٨٤ ص، ١٧ × ٢٥ سم

الطبعة العاشرة: ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م

ط٢ / ٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم



المجلد الثاني عشر

الجزءان ٢٣ ـ ٢٤



تتمة قصة أصحاب القرية

- تعذيب مكذبي الرسل -

﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

القراءات: ﴿لَّمَّا جَمِيعٌ﴾ : قرئ:

١- (لَمَّا جميع) وهي قراءة ابن عامر، وعاصم، وحمزة.

٢- (لَمَا جميع) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ ﴿وَمَا﴾ : إما زائدة وإما اسم معطوف على ﴿جُندٍ﴾.

﴿يَٰحَسْرَةً﴾ نداء مشابه للمضاف، مثل: يا خيراً من زيد، ويا سائراً إلى الشام، ونداء مثل هذه الأشياء التي لا تعقل: تنبيه للمخاطبين، كأنه يقول لهم: تحسّروا على هذا، وادعوا الحسرة، وقولوا لها: احضري فهذا وقتك.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ ﴿كَمْ﴾ : اسم للعدد في موضع نصب بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾ و﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ﴾ في موضع نصب على البدل من ﴿كَمْ﴾. و﴿كَمْ﴾ وما بعدها من الجملة في موضع نصب بـ ﴿يَرَوْا۟﴾ و﴿أَنَّهُمْ﴾ مفعول لفعل مقدر، أي حكمنا أو قضينا أنهم لا يرجعون.

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا﴾ ﴿وَإِن﴾ مخففة من الثقيلة، ولما خففت بطل عملها لنقصها

عن مشابهة الفعل، فارتفع ما بعدها بالابتداء. و﴿لَّمَّا جَمِيعٌ﴾: خبره، وما: زائدة، وتقديره: لجميع، وأدخلت اللام في خبرها، لتفرق بينها وبين «إن» التي بمعنى «ما». ومن قرأ (لمّا جميع) بالتشديد، فمعناه «إلا» و«إن» بمعنى «ما» وتقديره: وما كل إلا جميع، فيكون ﴿كُلٌّ﴾ مرفوعاً بالابتداء، و﴿جَمِيعٌ﴾خبره. و﴿مُحْضَرُونَ﴾خبر ثان.

البلاغة:

في الآيات المتقدمة من مطلع السورة إلى هنا يوجد فيها ما يسمى بمراعاة الفواصل، الذي يزيد في روعة البيان القرآني، ويؤثر في سمع التالي والمستمع.

المفردات اللغوية:

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي لم ننزل عل قوم حبيب النجار من بعد قتلهم له. ﴿مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾الجند: العسكر، والمراد هنا الملائكة لإهلاكهم وللانتقام منهم. ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ ملائكة لإهلاك أحد، لسبق قضائنا وقدرنا بأن إهلاكهم بالصيحة، لا بإنزال الجند، وهذا للدلالة على أن إنزال الجنود من عظائم الأمور، وهو تحقير لشأنهم، وتصغير لأمرهم، فهم ليسوا أهلاً لأن ننزل لإهلاكهم جنداً من السماء، بل أهلكناهم بصيحة واحدة. ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾أي ما كانت عقوبتهم إلا أن صاح بهم جبريل، فأهلكهم. ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ ساكتون هامدون ميتون لا يسمع لهم حسّ، كالرماد الخامد، فالخمود: انطفاء النار، والمقصود به هنا الموت.

﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ الحسرة: الغم على ما فات، والندم عليه، والعباد: هؤلاء ونحوهم ممن كذب الرسل، فأهلكوا، ونداء الحسرة مجاز، أي هذا أوانك فاحضري. ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ هذا سبب الحسرة وهو الاستهزاء المؤدي إلى إهلاكهم.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ألم يعلموا أي أهل مكة القائلون للنبي: لست مرسلاً، والاستفهام للتقرير، أي اعلموا .﴿كَمْ﴾ خبرية بمعنى كثيراً، والمعنى: إنا ﴿أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ كثيراً. ﴿مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الأمم. ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي ألم يروا كثرة إهلاكنا من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم بعد هلاكهم، وضمير ﴿أَنَّهُمْ﴾ عائد للمهلكين، وضمير ﴿إِلَيْهِمْ﴾ عائد للمكذبين، أفلا يعتبرون بذلك؟!

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ﴾ ﴿وَإِن﴾: نافية بمعنى ما، و﴿لَّمَّا﴾ بمعنى إلا، ويصح جعل «إن» مخففة من الثقيلة، ولما: بالتخفيف، واللام فارقة، وما: مزيدة .﴿جَمِيعٌ﴾ مجموعون في الموقف بعد بعثهم .﴿لَّدَيْنَا﴾ عندنا .﴿مُحْضَرُونَ﴾ للحساب.

المناسبة:

هذه الآيات تتمة قصة أصحاب القرية، أبان الله تعالى فيها حال المكذبين رسلهم، وأوضح سنة الله في أمثالهم في العذاب الدنيوي، ثم ما يتعرضون له من العذاب الأخروي. وذكرت هنا في بدء الجزء؛ لأن عدّ الأجزاء مراعى فيه العدّ اللفظي لا الاتصال المعنوي.

التفسير والبيان:

﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾ أي لم ننزل على قوم المؤمن حبيب النجار من بعد قتلهم له، لدعوتهم إلى الإيمان بالله، جنداً من الملائكة، وما كنا بحاجة إلى هذا الإنزال، بل كان الأمر أيسر علينا من ذلك، وقد سبق قضاؤنا بأن إهلاكهم بالصيحة، لا بإنزال الجند.

وهذا لتحقير شأنهم، فإن إنزال الملائكة لعظائم الأمور، وهؤلاء لا

يحتاجون لإهلاكهم جنداً من السماء، بل أهلكناهم بصيحة واحدة، كما قال تعالى:

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أي ما كان إهلاكهم إلا بصيحة واحدة صاح بها جبريل، فأهلكهم، فإذا هم أموات لا حراك بهم. وقوله: ﴿إِن كَانَتْ﴾ أي الأخذة أو العقوبة إلا صيحة واحدة، وقوله: ﴿وَاحِدَةً﴾ تأكيد لكون الأمر هيناً عند الله، وقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ فيه إشارة إلى سرعة الهلاك.

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي يا هؤلاء الذين كذبتم الرسل تحسروا حسرة أليمة، واندموا على ما فعلتم، بسبب أنه ما جاء رسول يدعو إلى التوحيد والحق والخير إلا استهزئ به وكُذِّب وجحد ما أرسل به من الحق. فقوله ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ أي هذا وقت الحسرة على مكذبي الرسل، وتنكير ﴿يَا حَسْرَةً﴾ للتكثير. وسبب التحسر عليهم: أنهم لم يعتبروا بأمثالهم من الأمم الخالية. ولا متحسر أصلاً في الحقيقة، إذ المقصود بيان أن ذلك وقت طلب الحسرة، حيث ظهرت الندامة عند مواجهة العذاب ومعاينته. وقيل: إنها حسرة الملائكة على الكفار حين كذبوا الرسل.

ثم أنذر الله تعالى الأجيال الحاضرة والمستقبلة فقال:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾ أي ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل كعاد وثمود، وأنهم لا رجعة لهم إلى الدنيا، خلافاً لما يزعم الدُّهْرية الذين يعتقدون جهلاً منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها، كما حكى الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٤٥/٢٤].

ثم أعلمهم أيضاً بوجود الحساب والعقاب في الآخرة بعد عذاب الدنيا، فقال تعالى:

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستُحْضَر للحساب يوم القيامة بين يدي الله عز وجل، فيجازيهم بأعمالهم كلِّها خيرها وشرها، وهذا كقوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [هود: ١١/١١١] .

وهذا دليل على أنه ليس من أهلكه الله تركه، بل بعده جمع وحساب، وحبس وعقاب، ولو أن من أهلك ترك لكان الموت راحة، كما قال القائل:

ولو أنّا إذا مُتنا تُرِكْنا لكان الموتُ راحةَ كل حيّ
ولكنا إذا متنا بُعِثْنا ونُسألُ بعدَه عن كل شيّ

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - إن تكذيب الرسل ما جاؤوا به من الحق يستدعي مزيد الألم والندامة والحسرة.

٢ - لا رجعة لأحد إلى الدنيا بعد الموت أو الإهلاك.

٣ - إن يوم القيامة يوم الجزاء والحساب والثواب والعقاب الدائم.

أدلة القدرة الإلهية على البعث وغيره

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾:

وقرأ نافع (الميِّتة). ﴿ٱلْعُيُونِ﴾: قرئ:

١- (العُيون) وهي قراءة نافع، وأبي عمرو، وحفص، وخلف.

٢- (العِيون) وهي قراءة باقي السبعة. ﴿ثَمَرِهِۦ﴾ قرئ:

١- (ثُمُره) وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (ثَمَره) وهي قراءة الباقين.

﴿عَمِلَتْهُ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (عملت) .﴿وَٱلْقَمَرَ﴾: قرئ:

١- (والقمرُ) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو.

٢- (والقمرَ) وهي قراءة الباقين.

﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر (ذرياتهم).

الإعراب:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ خبر للأرض، والجملة خبر لآية أو صفة لها.

﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ (ما): إما اسم موصول في موضع جر بالعطف على ﴿ثَمَرِهِۦ﴾. و﴿عَمِلَتْهُ﴾: الصلة، والهاء: العائد، وإما أنها نافية في قراءة «عملتْ» بغير هاء، والوجه الأول أوجه، لاحتياج «عملت» لتقدير مفعول إذا كانت «ما» نافية .﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ (القمر) إما مرفوع بالابتداء و﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾ الخبر، وإما منصوب بتقدير فعل دلَّ عليه .﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾ أي قدرنا القمر قدرناه. و﴿مَنَازِلَ﴾ أي قدرناه ذا منازل، فحذف المضاف، أو قدرنا له منازل، فحذف حرف الجر من المفعول الأول.

﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ﴾ الكاف في موضع نصب على الحال من ضمير ﴿عَادَ﴾ وهو العامل فيه و(العرجون): وزنه فُعْلول نحو زُنبور وقُرقور، وليس على وزن فُعلُون لأنه ليس في كلام العرب.

﴿أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ أن وصلتها في تأويل المصدر في موضع رفع فاعل: ﴿يَنۢبَغِى﴾. وقرئ ﴿سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ بالجر بالإضافة، وسابقُ النهارَ؛ لأن التقدير: سابقٌ النهار، فحذف التنوين لالتقاء الساكنين.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ﴿وَءَايَةٌ﴾ مبتدأ، وخبره إما ﴿لَّهُمْ﴾ وإما ﴿أَنَّا حَمَلْنَا﴾.

﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ ﴿صَرِيخَ﴾: مبني مع لا على الفتح، ويجوز فيه الرفع مع التنوين، لتكرار «لا» مرة ثانية.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ ﴿رَحْمَةً﴾: منصوب بتقدير حذف حرف الجر، أي إلا برحمة، أو مفعول لأجله.

البلاغة:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ التنكير للتعظيم، أي آية عظيمة دالة على قدرة الله على البعث وغيره.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ بين الموت والإحياء طباق.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ بين الليل والنهار طباق أيضاً، وفي قوله ﴿نَسْلَخُ﴾ استعارة تصريحية، صرح فيها بلفظ المشبه به، حيث شبه إظهار ضوء النهار من ظلمة الليل بسلخ الجلد عن الشاة، واستعار كلمة «السلخ» للإزالة والإخراج.

﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ تشبيه مرسل مجمل لأنه لم يذكر فيه وجه الشبه، وهو مشتمل على ثلاثة أوضاع: الدقة، والانحناء، والصفرة.

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ﴾ قدم الفاعل على الفعل لتقوية النفي، وللدلالة على أن الشمس مسخرة بأمر الله، لا تسير في مدارها إلا بإرادة الله.

﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ فيه تنزيل غير العاقل منزلة العاقل، حيث عبر عن الشمس والقمر والنجوم بضمير جمع المذكر في قوله ﴿يَسْبَحُونَ﴾ بدل: يسبح؛ لأن السباحة من صفات العقلاء.

﴿يَأْكُلُونَ﴾ و﴿الْعُيُونِ﴾ و﴿يَعْلَمُونَ﴾ و﴿مُظْلِمُونَ﴾ و﴿يَسْبَحُونَ﴾ و﴿الْمَشْحُونِ﴾ و﴿يَرْكَبُونَ﴾ سجع لطيف غير متكلف، وكذا في قوله ﴿الْعَلِيمِ﴾ و﴿الْقَدِيرِ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ علامة دالة على البعث. ﴿الْمَيْتَةُ﴾ التي لا نبات فيها، وتقرأ بتخفيف الياء أو بالتشديد، والأول أشيع لسلسها على اللسان. ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ بالماء فصارت حية بالنبات. ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ المراد جنس الحب كالحنطة. ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ قدم الصلة (الجار والمجرور) على الفعل للدلالة على أن معظم ما يؤكل ويعاش به هو الحب. ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين ذات أشجار مثمرة كالنخيل والأعناب. ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ فتّحنا وشققنا فيها شيئاً من العيون.

﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ ﴿ثَمَرِهِ﴾ يقرأ بفتحتين وضمتين، أي ثمر المذكور من النخيل وغيره. ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ قيل: ما: نافية أي لم تعمل الأيدي الثمر بل العامل له هو الله، والأصح: أنها اسم موصول عطف على الثمر، والمراد: ما يتخذ منه كالعصير والدبس ونحوهما. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أنعم الله تعالى عليهم وهو أمر بالشكر، من طريق إنكار تركه. ﴿سُبْحَانَ﴾ تنزيهاً لله عما لا يليق به. ﴿الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ الأنواع والأصناف المختلفة. ﴿مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾ من النبات والشجر. ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي وخلق الأزواج من أنفسهم، وهم الذكور والإناث من بني آدم. ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ من أصناف المخلوقات العجيبة في البرّ والبحر، والسماء والأرض، مما لم يطلعهم الله عليه، ولم يجعل لهم طريقاً إلى معرفته.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الَّيْلُ﴾ أي وعلامة دالة لهم على القدرة العظيمة وتوحيد الله ووجوب ألوهيته. ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ نفصل منه النهار ونزيله عنه، والسلخ:

إذهاب الضوء، ومجيء الظلمة. ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ داخلون في الظلام مفاجأة وبغتة. ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ آية مستقلة أخرى، تطلع وتسير لحد معين ينتهي إليه جريانها ودورها. ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي ذلك الجري تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور، ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ المحيط علمه بكل معلوم.

﴿قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ أي جعلنا له منازل، والمنازل: جمع منزل، والمراد به المسافات التي يقطعها القمر في يوم وليلة، وهي ثمانية وعشرون منزلاً ينزل القمر في كل ليلة في واحد منها، فإذا صار في آخرها وهو حينئذ دقيق قوْس، عاد إلى أولها. ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين يوماً، وليلة واحدة إن كان تسعة وعشرين يوماً. والمنازل معروفة: وهي الشَّرَطان، البُطَين، الثُّريّا، الدَّبَران، الهَقْعَة، الهَنْعَة، الذِّراع المبسوطة، النَّثْرة، الطَّرف، الجَبْهة، الزُّبْرَة، الصَّرْفَة، العوّاء، السِّماك الأعزل، الغَفْر، الزُّباني، الإكْليل، القَلْب، الشَّوْلة، النَّعائم، البَلْدَة، سَعْد الذّابح، سعد بُلَع، سَعْد السُّعود، سعد الأَخْبية، الفَرْغ المقدم، الفرغ المؤخَّر، الرِّشاء وهو بطن الحوت.

﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾ في آخر منازله في رأي العين. ﴿كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ كالشمراخ المعوج؛ لأنه إذا عتق يرق ويتقوس ويصفر. و﴿ٱلْقَدِيمِ﴾ العتيق.

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ﴾ لا يصح لها ويسهل. ﴿أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ في سرعة سيره، فتجتمع معه في الليل، لأن لكل واحد منهما مداراً منفرداً، فلا يتمكن أحدهما من الدخول على الآخر، وإن كانت في نظر العين تسبق الشمس القمر في كل شهر مرة.

والخلاصة: إن حرف النفي ﴿لَا﴾ للدلالة على أنها مسخرة، لا يتيسر لها إلا ما أريد بها. ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ أي لا يأتي قبل انقضائه، ولا يسبقه، ولكن يأتي عقبه، ويجيء كل واحد منهما في وقته، ولا يسبق صاحبه.

﴿وَكُلٌّ﴾ التنوين عوض عن المضاف إليه، أي وكل من الشمس والقمر وبقية الكواكب والنجوم .﴿فِي فَلَكٍ﴾ هو المدار الذي يدور فيه الكوكب، سمي به لاستدارته كفلكة المغزل .﴿يَسْبَحُونَ﴾ يسيرون فيه بسهولة، وقد نزّلوا منزلة العقلاء .﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ علامة دالة على قدرتنا .﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وقرئ: ذرياتهم أي أولادهم ومن يهمهم حمله الذين يبعثونهم للتجارة، وأصل الذرية: صغار الأولاد، ثم استعملت في الصغار والكبار، وتطلق على الواحد والجمع، وقيل: المراد آباؤهم الأقدمون الذين في أصلابهم هم وذرياتهم، وإنما امتن الله عليهم بذكر الذرية دونهم؛ لأنه أبلغ في الامتنان عليهم، وأدخل في التعجيب من قدرته، في حمل أصولهم إلى يوم القيامة في سفينة نوح. ﴿فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ السفينة المملوءة، قيل: إنها سفينة نوح عليه السلام.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ أي أوجدنا بتعليمهم صناعة السفن الصغار والكبار والزوارق، مثل سفينة نوح عليه السلام، وقيل: المراد الإبل، فإنها سفائن البر .﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ فيه، ولعل ذلك إشارة إلى المركبات والقطارات والطائرات المستحدثة .﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ إن نرد أغرقناهم مع إيجاد السفن. ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ لا مغيث .﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ ينجون .﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ أي لا أحد ينقذهم وينجيهم إلا بإنقاذنا لرحمة وتمتيع إياهم بلذاتهم إلى انقضاء آجالهم.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى ما يدل على الحشر بإحضار جميع الأمم إليه يوم القيامة للحساب والجزاء، ذكر ما يدل على إمكان البعث بإنبات النبات من الأرض الجدباء بالمطر، وإيجاد البساتين وتفجير الأنهار، لتوفير سبل المعاش بها، مما يستدعي شكرهم على تلك النعم.

وبعد بيان أحوال الأرض التي هي المكان الكلي، ذكر أربع آيات دالة على

قدرته العظيمة من أحوال الأزمنة، وهي تعاقب الليل والنهار، ودوران الشمس، ومسير القمر في منازله، وتخصيص مدار مستقل لكل من الشمس والقمر.

ثم أردف ذلك بدليل آخر دال على القدرة المقترنة بالرحمة وهو تنقل الأولاد والأجيال في السفن العابرة مياه البحار.

التفسير والبيان:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي ومن العلامات الدالة على وجود الله وقدرته على البعث وإحياء الموتى: إحياء الأرض الهامدة التي لا نبات فيها، بإنزال الماء عليها، وجعلها تموج وتهتز بالنبات المختلف الألوان والأشكال، وإخراج الحب الذي هو رزق للعباد ولأنعامهم، وهو معظم ما يؤكل، وأكثر ما تقوم به الحياة والمعاش. وكما نحيي الأرض الميتة نحيي الموتى.

﴿فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ أي وأوجدنا في الأرض التي أحييناها بساتين مشجرة من نخيل وأعناب وغيرها، وجعلنا فيها أنهاراً موزعة في أماكن مختلفة، يحتاجون إليها. وخصص النخيل والأعناب بالذكر من بين سائر الفواكه؛ لأن ألذ المطعوم الحلاوة، وهي فيها أتم، ولأن التمر والعنب قوت وفاكهة خلافاً لغيرهما، ولأنهما أعم نفعاً.

﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي إن القصد من إنشاء الحب والجنات أن يأكل المخلوقون من ثمر المذكور من النخيل والأعناب، ويأكلوا مما صنعته أيديهم من تلك الغراس والزروع أو الحبوب والثمار، كالعصير والدبس ونحوهما، وما ذاك كله إلا من رحمة الله تعالى بهم، لا بقدرتهم وقوتهم، فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى؟! وهذا أمر بالشكر من طريق إنكار تركه.

وقوله: ﴿مِن ثَمَرِهِ﴾ عائد إلى ما ذكر قبل ذلك، وقال الرازي: المشهور أنه عائد إلى الله. وقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ يشمل في رأي الرازي الزراعة والتجارة.

ولما أمرهم تعالى بالشكر، وشكر الله بالعبادة، نبّه إلى أنهم لم يقتنعوا بالترك، بل عبدوا غيره، وأتوا بالشرك، فقال:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي تنزيهاً عن الشريك لله الذي خلق الأنواع والأصناف كلها من مختلف الألوان والطعوم والأشكال، من الزروع والثمار والنبات، وخلق من النفوس الذكور والإناث، وخلق مخلوقات شتى لا يعرفونها، كما قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨/١٦] وقال عز وجل: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩/٥١].

والخلاصة: إن خالق هذا الخلق العظيم من إنسان وحيوان ونبات وخالق أشياء لا نعلمها منزه عن الشريك والنظير، قادر على كل شيء، وفي الآية الأمر بالتنزيه عما لا يليق بالله تعالى، كالأمر بالشكر في الآية المتقدمة.

وبعد الاستدلال على إمكان البعث والحشر بأحوال الأرض المكانية، ذكر تعالى أدلة أربعة من أحوال الأزمنة، فقال:

أ - ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي ومن أدلة قدرته تعالى العظيمة: خلق الليل والنهار، وتعاقب الليل والنهار دائبين، فينزع النهار من الليل فيأتي بالضوء وتذهب الظلمة، وينزع الليل من النهار، فيصبح الخلق في ظلمة ويذهب الضوء، وهكذا يتعاقبان، يجيء هذا فيذهب هذا، ويذهب هذا فيجيء هذا، كما قال تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤/٧] نتيجة لدوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق، فتشرق الشمس على نصف الكرة الأرضية، وتغيب عن النصف

الآخر، وفي كل من الظلمة والنور نفع وخير، ففي الظلام ترك العمل وسكون النفس والراحة من العناء، وفي النور متعة ولذة وحركة وعمل من أجل كسب الرزق.

وقوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ أي داخلون في الظلام، وإذا للمفاجأة، أي فهم داخلون في الظلمة مفاجأة وبغتة، لا يَدَ لهم بعدئذ، ولا بدّ من الدخول فيه.

٢ - ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ أي وآية مستقلة دالة على قدرته تعالى: دوران الشمس في فلكها إلى نهاية مدارها، وذلك الدوران تقدير من الله القاهر الغالب كل شيء، المحيط علمه بكل شيء. وهناك قولان للمفسرين في تفسير المستقر: الأول - أن المراد مستقرها المكاني وهو تحت العرش مما يلي الأرض من ذلك الجانب، وهي أينما كانت فهي وجميع المخلوقات تحت العرش. والثاني - أن المراد مستقرها الزماني وهو منتهى سيرها، وهو يوم القيامة[١].

وقد أثبت علماء الفلك أنه زيادة على دوران الشمس الظاهري وسط النجوم بسبب دوران الأرض حول الشمس مرة في السنة، للشمس حركتان أخريان: دورة حول محورها مرة في كل ستة وعشرين يوماً تقريباً، ودورة مع توابعها من الكواكب السيارة حول مركز النظام النجومي بسرعة تقدر بنحو مئتي ميل في الثانية. والمستقر في رأي العلماء في الحالة الأولى: هو المحور الثابت، وفي الثانية: هو مركز النظام النجومي بأسره.

٣ - ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ أي جعل الله للقمر منازل يسير فيها سيراً آخر، وهي ثمانية وعشرون منزلاً ذكرناها، ينزل

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٥٧١ وما بعدها.

كل ليلة في واحد منها بمعدل ١٣ درجة في اليوم، ثم يستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين يوماً، وليلة واحدة إن كان تسعة وعشرين يوماً، فإذا صار القمر في آخرها دق وصغر واصفر وتقوس، وعاد إلى أولها، حتى صار كالعُرْجون القديم: وهو الغصن الذي عليه طلع النخلة، وهو أصفر عريض يعوجّ، ويقطع منه الشماريخ، يبقى على النخل يابساً.

ويستدل بمنازل القمر على مضي الشهور، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار، كما قال عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩/٢] وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥/١٠] وقال تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢/١٧]. والشمس تطلع كل يوم، وتغرب في آخره، ولكن تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاء، يطول بسبب ذلك النهار، ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار. وأما القمر فقدره منازل يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلاً قليل النور، ثم يزداد نوراً في الليلة الثانية، ويرتفع منزلة، ثم كلما ارتفع ازداد ضياء مقتبساً من الشمس، حتى يتكامل في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر، حتى يصير كالعرجون القديم - عرجون النخل.

وعلماء الفلك قسموا النجوم التي تقع حول مدار القمر ثمانٍ وعشرين مجموعة تسمى منازل القمر. وقد كان العرب يعرفون بها الأنواء (أي الأمطار)، ويقيسون بالنسبة إليها مواقع الكواكب السيارة ومنها الشمس.

٤ - ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ أي لا يصح ولا يسهل لكل من الشمس والقمر أن يدرك

أحدهما الآخر؛ لأن لكل منهما مداراً مستقلاً، لا يجتمع مع الآخر فيه، ولأن الشمس تسير مقدار درجة في اليوم، والقمر يسير مقدار (١٣) درجة في اليوم.

ولا تسبق آية الليل وهي القمر آية النهار وهي الشمس؛ لأن لكل منهما مجالاً وسلطاناً، فسلطان الشمس ومجالها بالنهار، وسلطان القمر بالليل.

وكل من الشمس والقمر والأرض يسبح ويدور في فلكه في السماء، كما يسبح السمك في الماء، فالشمس تسير في مدار لها نصف قطره (٩٣) مليون ميل، وتتم دورتها في سنة، والقمر يدور حول الأرض كل شهر في مدار نصف قطره (٢٤) ألف ميل، والأرض تدور حول الشمس في سنة، وحول نفسها في يوم وليلة.

وهذا دليل على أن الله جعل لكل من الشمس والقمر والأرض مداراً مستقلاً يدور فيه، فلا يحجب أحدهما ضوء الآخر إلا نادراً حينما يحدث كسوف الشمس أو خسوف القمر.

وبعد بيان الدليل المكاني وهو الأرض والأدلة الزمنية الأربعة المتقدمة، أتى تعالى بدليل آخر على قدرته، وهو تسيير الإنسان في البحر كما يسير في البر، كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٠] وقال هنا:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ أي ومن دلائل قدرته ورحمته تبارك وتعالى: تسخيره البحر ليحمل السفن، وركوب الذرية، أي الأولاد في السفن المملوءة بالبضائع التي ينقلونها من بلد إلى آخر، لتوفير القوت والمعاش، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ٣١].

وقيل: الذرية: آباؤهم الذين حملوا في سفينة نوح عليه السلام، وهي السفينة المملوءة بالأمتعة والحيوانات التي أمره الله تعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، حفاظاً على أصول المخلوقات. والمعنى: أن الله حمل آباء هؤلاء وأجدادهم في سفينة نوح.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي وخلقنا للناس مثل تلك السفن سفناً برية وهي الإبل، فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبون عليها، لكن قال الرازي: الضمير في ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ عائد إلى الفُلْك، على قول الأكثرين، فيكون هذا كقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: ٣٨/٥٨] وعلى هذا فالأظهر أن يكون المراد الفلك الآخر الموجود في زمانهم، وليس المراد الإبل.

ويؤيد هذا قوله تعالى هنا: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾. ولو كان المراد الإبل، لكان قوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ فاصلاً بين متصلين. ويحتمل أن يعود الضمير إلى معلوم غير مذكور تقديره: من مثل ما ذكرنا من المخلوقات، مثل قوله تعالى هنا: ﴿لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ﴾[1] وعلى هذا، الآية تشمل كل وسائل النقل الحديثة من سيارات وقطارات وطائرات. ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل: ١٦/٨].

ودليل رحمته ولطفه تعالى حفظ الركاب في تلك الوسائط، فقال: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي وإن نرد إغراقهم في الماء مع حمولاتهم، فلا مغيث لهم يغيثهم مما هم فيه، أو ينجيهم من الغرق، ولا هم ينقذون مما أصابهم.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ ﴿إِلَّا﴾ هنا: استثناء منقطع،

(١) تفسير الرازي ٢٦/ ٨١، تفسير الألوسي: ٢٣/ ٢٧

تقديره: ولكن برحمتنا نسيركم في البر والبحر، ونحفظكم من الغرق، ونسلمكم إلى أجل مسمى، ونمتعكم بالحياة الدنيا إلى وقت معلوم عند الله عز وجل، وهو الموت.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - من الأدلة الدالة على وجود الله وتوحيده وكمال قدرته على البعث وإحياء الموتى وغير ذلك: إحياء الأرض الهامدة بالنبات الأخضر، وإخراج الحب منه، الذي هو قوام الحياة وأساس القوت والمعاش.

٢ً - ومن الأدلة أيضاً خلق بساتين في الأرض من نخيل وأعناب، وتفجير الينابيع في البساتين للأكل من ثمر ماء العيون، أو من ثمر المذكور وهو ثمر الجنات والنخيل، ومن الذي عملته أيدي الناس من الثمار، ومن أصناف الحلاوات والأطعمة، ومما اتخذوا من الحبوب كالخبز وأنواع الحلويات.

وخصص النخيل والأعناب بالذكر؛ لأنهما أعلى الثمار، كما تقدم.

٣ً - تستوجب هذه النعم شكر الخالق المنعم المتفضل، وشكره بعبادته، والإذعان لسلطانه وإرادته.

٤ً - يجب تنزيه الخالق عما لا يليق به، والبعد عن صنيع الكفار الذين عبدوا غير الله، مع ما رأوا من نعمه وآثار قدرته.

٥ً - إن آثار قدرة الله ومظاهرها في العالم كثيرة، منها خلق النباتات والثمار المختلفة والألوان والطعوم والأشكال والأحجام صغراً وكبراً. ومنها خلق الأولاد والأزواج أي ذكوراً وإناثاً، ومنها خلق أصناف أخرى لا يعلمها البشر في البر والبحر والسماء والأرض.

وإذا كان الله قد انفرد بالخلق، فلا ينبغي أن يشرك به.

٦ً - ومن العلامات الدالة أيضاً على توحيد الله وقدرته ووجوب ألوهيته: تعاقب الليل والنهار وما يتبعهما من ظلمة وضوء لتحقيق مصالح العباد، وضبط السنين والحساب، وجريان الشمس لمستقرّ لها هو محورها أو نهاية سيرها يوم القيامة، وتقدير القمر ذا منازل هي ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل القمر كل ليلة بمنزل منها، فإذا صار في آخرها، عاد إلى أوّلها، فيقطع الفلك في ثمان وعشرين ليلة، ثم يستتر، ثم يطلع هلالاً، فيعود في قطع الفلك على المنازل، وهي منقسمة على البروج، لكل برج منزلان وثلث.

ومنها جعل مدار مستقل وسلطان منفرد لكل من الشمس والقمر والأرض، فلا يدخل أحدها على الآخر، وإنما كل من الشمس والقمر والنجوم يجري في فلك خاص به.

٧ً - ومن دلائل قدرة الله ورحمته: حمل ذرية القرون الماضية والحاضرة والمقبلة في السفن المملوءة بالسلع والأمتعة، وخلق وسائط أخرى للركوب مماثلة للسفن وهي الإبل سفائن البراري، ووسائل النقل الحديثة في البر والجو من سيارات وقطارات وطائرات ومناطيد (أو مطاود) ونحوها.

والله قادر عل إغراق ركاب السفن في البحار، فيصبحون دون مغيث ولا مجير ولا منقذ مما ألم بهم، ولكن رحمته تعالى اقتضت إبقاءهم وإنقاذهم ليتمتعوا بمتع الحياة الدنيوية إلى آجالهم المرسومة، وأعمارهم المحدودة، والتمتع إلى حين هو الموت.

وقد عجَّل الله عذاب الأمم السالفة، وأخَّر عذاب أمة محمد ﷺ، وإن كذبوه، إلى يوم القيامة، تكريماً لهذا الرسول ﷺ.

موقف الكفار من تقوى الله وآيات الله والشفقة على خلق الله

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾

القراءات:

﴿قِيلَ﴾:

بإشمام كسرة القاف الضم، قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بكسرة خالصة.

البلاغة:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بين الكفر والإيمان طباق.

﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ استفهام أريد به التهكم.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ للكفار ﴿ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ احذروا ما هو قدّامكم من الآفات والنوازل وعذاب الدنيا، وما ستواجهون من عذاب الآخرة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لتكونوا راجين لرحمة الله. وجواب إذا محذوف تقديره: أعرضوا، دلَّ عليه الآية التي بعدها.

﴿إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي ما تأتيهم من آية من آيات القرآن إلا أعرضوا عنها، ولم يلتفتوا إليها ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي قال فقراء الصحابة ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا

رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي تصدقوا على الفقراء من الأموال التي رزقكم الله ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ استهزاءً بهم، وتهكماً بقولهم. ﴿أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾ في زعمكم ومعتقدكم، وقولكم: إن الرزاق هو الله، فكأنهم حاولوا إلزام المسلمين قائلين: نحن نوافق مشيئة الله، فلا نطعم من لم يطعمه الله ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي ما أنتم في قولكم لنا ذلك مع معتقدكم هذا إلا في ضلال واضح، حيث أمرتمونا ما يخالف مشيئة الله. ويجوز أن يكون هذا جواباً لهم، أو حكاية لجواب المؤمنين لهم.

وهذا غلط منهم، ومكابرة ومجادلة بالباطل، فإن الله سبحانه أغنى بعض خلقه، وأفقر بعضاً لحكمة يعلمها، وأمر الغني أن يطعم الفقير، وابتلاه به فيما فرض عليه من الصدقة، ليعلم الطائع من العاصي علم بيان وانكشاف، وإقامة حجة وبرهان.

المناسبة:

بعد بيان الآيات الدالة يقيناً وقطعاً على وجود الله وتوحيده وقدرته التامة، أخبر الله تعالى أن الكفار مع هذا الدليل القاطع يعرضون عن آيات ربهم، ولا يعترفون بها، وشأن العاقل الاقتناع بها، ولكن هؤلاء لا يتقون الله، ولا يحذرون بأن يصيبهم مثل هلاك الأمم الغابرة، ولا يفكرون في آيات الله، وليس في قلوبهم رحمة أو شفقة على عباد الله، فهم في غاية الجهل ونهاية الغفلة، وليسوا مثل العلماء الذين يتبعون البرهان، ولا مثل العامة الذين يبنون الأمر على الأحوط.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن تمادي المشركين في غيهم وضلالهم، وعدم اكتراثهم بذنوبهم الماضية، ولا بما يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة، فيقول:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء المعرضين عن آيات الله، المكذبين بها: احذروا أن يصيبكم مثلما أصاب من قبلكم من الأمم، مما هو قدّامكم، من الآفات والنوازل وعذاب الدنيا، وخافوا ما أنتم مقدمون عليه بعد الهلاك من عذاب الآخرة، إذا أصررتم على الكفر حتى الموت، لعلَّ الله يرحمكم باتقائكم ذلك، ويحميكم من عذابه، ويغفر لكم.

وإذا قيل لهم ذلك أعرضوا عنه، وإذا قيل لهم: اتقوا لا يتقون.

وليس إعراضهم مقتصراً على ذلك، بل هم عن كل آية معرضون، كما قال تعالى:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي وما تجيء هؤلاء المشركين آية من آيات الله على التوحيد وصدق الرسل إلا شأنهم الإعراض عنها، وعدم الالتفات إليها، وترك التأمل بها، وعدم الانتفاع بها، لتعطيل طاقة الفكر والنظر المرشد إلى الإيمان وتصديق الرسول ﷺ.

وفضلاً عن سوء الاعتقاد بالله ورسوله ﷺ، تركوا الشفقة على خلق الله، كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾؟ أي وإذا طلب منهم الصدقة، وأمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج، أجابوا المؤمنين استهزاء بهم، وتهكماً بقولهم: هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم: لو شاء الله لأغناهم، ولأطعمهم من رزقه، فنحن نوافق مشيئة الله تعالى فيهم.

وكان هذا الاحتجاج باطلاً؛ لأن الله تعالى إذا ملَّك عبداً مالاً، ثم أوجب عليه فيه حقاً، فكأنه انتزع ذلك القدر منه، فلا معنى للاعتراض. وقد صدقوا في قولهم: لو شاء الله أطعمهم، ولكن كذبوا في الاحتجاج بذلك.

وقوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ ترغيب في الإنفاق، فإن الله رزقكم، فإذا أنفقتم فهو يخلف لكم الرزق ثانياً كما رزقكم أولاً، وهو أيضاً ذم على البخل الذي هو في غاية القبح، فإن أبخل البخلاء من يبخل بمال الغير، وفي هذا ذم لهم على ترك الشفقة على خَلْق الله.

ومع هذا كله، عابوا الآمرين لهم بالإنفاق واتهموهم بالضلال، فقالوا تتمة لكلامهم:

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي ما أنتم في أمركم لنا بالإنفاق إلا في خطأ واضح، وانحراف عن جادة الهدى والرشاد.

وقوله ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا﴾ يفيد الحصر. وهذا فهم خطأ من المشركين؛ لأن حكمة الله اقتضت تفاوت الناس في الرزق، فهو يقبض الرزق عمن يشاء، ويبسطه لمن يشاء، ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٧] فقد أغنى قوماً، وأفقر آخرين، وأمر الفقراء بالصبر، وأمر الأغنياء بالعطاء والشكر: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٩٢/ ٥-١٠].

وقال ابن جرير عن قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: ويحتمل أن يكون من قول الله عز وجل للكفار حين ناظروا المؤمنين، وردوا عليهم، فقال لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ قال ابن كثير: وفي هذا نظر، والله أعلم.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على أمور ثلاثة هي:

أولاً - إن المشركين قوم تمادوا في الغي والضلال والعناد والكبر، ولم

يتأملوا في أحداث الماضي، ووقائع الزمان، وأحوال الأمم التي أهلكهم الله بتكذيبهم رسلهم، ولم ينظروا في مستقبل الحياة الآخرة، فتراهم إذا قيل لهم: اتقوا الله، لا يتقون.

ثانياً - وهم أيضاً شأنهم وديدنهم الإعراض عن آيات الله، والتكذيب لها، وعدم الانتفاع بها، لتركهم النظر المؤدي إلى الإيمان بالله وتصديق الرسول ﷺ.

ثالثاً - كما أنهم أخلّوا بتعظيم الخالق، حرموا العطف والشفقة على الإنسانية، وانعدمت عندهم عاطفة الرحمة بالمخلوقات، إذ قيل لهم: أنفقوا مما رزقكم الله، فبخلوا وتهكموا، وهو شأن البخلاء في كل عصر.

إنكار الكفار يوم البعث وبيان أنه حق لا شك فيه

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾

القراءات: ﴿يَخِصِّمُونَ﴾: قرئ:

١- (يَخَصِّمون) وهي قراءة ورش، وابن كثير، وأبي عمرو.

٢- (يَخِصِّمُون) وهي قراءة ابن ذكوان، وعاصم، والكسائي.

٣- (يَخْصِمون) وهي قراءة حمزة.

﴿ مَّرۡقَدِنَاۜ ﴾ :

قرأ حفص بالسكت على ألف (مرقدنا) سكتة لطيفة بدون تنفس.

وقرأ الباقون بغير سكت.

الإعراب:

﴿ يَخِصِّمُونَ ﴾ الأصل: يختصمون بوزن «يفتعلون» فحذف حركة التاء، ولم ينقلها إلى الخاء، وأبدل من التاء صاداً، وأدغم الصادين ببعضهما، وكسر الخاء لسكونها وسكون الصاد الأولى؛ لأن الأصل في التقاء الساكنين الكسر. وقرئ (يَخَصَّمون) بفتح الياء والخاء، بنقل تتمة التاء إلى الخاء، وقرئ أيضاً (يِخِصّمون) بكسر الياء والخاء، وقد كسر الياء اتباعاً لكسرة الخاء، والكسر للإتباع كثير في كلامهم، مثل قِسِيّ وعِصِي وخِفِي. وقرئ «يخصمون» كيضربون، أي يخصم بعضهم بعضاً.

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ الجار والمجرور في موضع رفع لقيامه مقام الفاعل ﴿ فَإِذَا هُم ﴾ إذا هنا ظرفية للمفاجأة.

﴿ يَٰوَيۡلَنَا ﴾ إما منادى مضاف، فويل: هو المنادى، ونا: هو المضاف إليه، ونداء الويل كنداء الحسرة في قوله تعالى: ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ ﴾. وإما أن يكون المنادى محذوفاً، و﴿ يَٰوَيۡلَنَا ﴾ منصوب على المصدر، كأنهم قالوا: يا هؤلاء ويلاً لنا، فلما أضيفت حذفت اللام الثانية.

﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾ مبتدأ وخبر، و﴿ مَا ﴾ مصدرية أو موصولة محذوفة العائد.

البلاغة:

﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ ﴾ استعارة، شبه حال موتهم بحال نومهم، أي من بعثنا من موتنا.

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فيه إيجاز بالحذف، أي تقول لهم الملائكة ذلك، أي وعدكم به الرحمن.

المفردات اللغوية:

﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ متى يتحقق ويجيء ما وعدتمونا به وهو وعد البعث ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ هي نفخة إسرافيل الأولى في الصور، وهي التي يموت بها أهل الأرض جميعاً ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي تأخذهم الصيحة فجأة في غفلة عنها، وهم يتخاصمون في معاملاتهم ومتاجرهم وأكلهم وشربهم وغير ذلك.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أن يوصوا في شيء من أمورهم بما لهم وما عليهم ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لا يستطيعون الرجوع من أسواقهم وأشغالهم إلى منازلهم، بل يموتون فيها ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ أي نفخ فيه النفخة الثانية للبعث، وبين النفختين أربعون سنة ﴿فَإِذَا هُم﴾ المقبورون ﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ القبور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ يخرجون بسرعة، أو يسرعون.

﴿قَالُوا۟﴾ أي الكفار منهم ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ يا هلاكنا، والويل: مصدر لا فعل له من لفظه وهو الهلاك ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾؟ من أخرجنا من موتنا؛ لأنهم بسبب ما رأوا من الهول، وما داهمهم من الفزع، ظنوا أنهم كانوا نياماً ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي هذا البعث الذي وعد به الرحمن ﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي وصدق فيه الأنبياء المرسلون، والمعنى: رجعوا إلى أنفسهم، فاعترفوا أنهم كانوا في الموت وبعثوا، وأقروا بصدق الرسل يوم لا ينفع التصديق أو الإقرار.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أي ما كانت الفعلة إلا النفخة الأخيرة التي نفخها إسرافيل في الصور، فإذا هم مجموعون عندنا بسرعة بمجرد تلك الصيحة للحساب والجزاء والعقاب. قال

البيضاوي: وفي كل ذلك تهوين أمر البعث والحشر، واستغناؤهما عن الأسباب المألوفة في الدنيا. وتنكير ﴿صَيْحَةً﴾ للتكثير.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أي يقال لهم ذلك، تصويراً للموعود، وتمكيناً له في النفوس.

المناسبة:

بعد بيان إعراض الكفار عن التقوى، وامتناعهم من الإنفاق، أبان الله تعالى سبب ذلك وهو إنكارهم للبعث، واستعجالهم له، استهزاء به، ثم أوضح أنه حق لا مرية فيه، وأنه سيأتيهم الموت بغتة، وهم في غفلة عنه، وأن البعث أمر سهل على الله لا يحتاج إلا إلى نفخة واحدة في الصور.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾؟ أي ويقول المشركون استعجالاً للبعث استهزاء وسخرية وتهكماً بالمؤمنين: متى يأتي هذا الوعد بالبعث الذي وعدتمونا به، وتهددوننا به، إن كنتم صادقين فيما تقولون وتعدون؟!

والخطاب للرسول ﷺ والمؤمنين الذين دعوهم إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر، فأجابهم الله تعالى:

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي ما ينتظرون للعذاب والقيامة إلا نفخة واحدة في الصور، هي نفخة الفزع التي يموت بها جميع أهل الأرض فجأة، وهم يختصمون فيما بينهم في البيع والشراء ونحوهما من أمور الدنيا أي وهم متشاغلون في شؤون الحياة من معاملة

وحديث وطعام وشراب وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٧/٩٥] وقال سبحانه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/٦٦] .

وقوله جل وعز: ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ هي النفخة الأولى في الصور، كما قال عكرمة، ويؤيده ما رواه ابن جرير عن ابن عمر قال: ليُنْفَخَنَّ في الصور، والناس في طُرقهم وأسواقهم ومجالسهم، حتى إن الثوب ليكون بين الرجلين يتساومانه، فما يُرسله أحدهما من يده حتى ينفخ في الصور، فيصعق به، وهي التي قال الله: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لتقومَنَّ الساعة، وقد نشر الرجلان ثوبَهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومَنَّ الساعة، والرجل يَليط[1] حوضه، فلا يسقي منه، ولتقومَنَّ الساعةُ، وقد انصرف الرجل بلبن لقحته (نعجته)، فلا يطْعَمُه، ولتقومنَّ الساعة وقد رفع أُكلته إلى فيه (فمه)، فلا يطعَمُها».

ثم أبان تعالى سرعة حدوث الموت العام أو الصيحة، فقال:

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي لا يستطيع بعضهم أن يوصي إلى بعض بما له من أملاك وما عليه من ديون، بل يموتون في أسواقهم ومواضعهم، ولا يتمكنون من الرجوع إلى منازلهم التي كانوا خارجين عنها.

ثم أخبر الله تعالى عن نفخة ثانية هي نفخة البعث والنشور من القبور، فقال:

(١) يليط حوضه، وفي رواية: «يلوط حوضه» أي يطينه.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١)﴾ أي ونفخ في الصور نفخة ثانية للبعث والنشور من القبور، فإذا جميع المخلوقين يخرجون من القبور، يسرعون المشي إلى لقاء ربهم للحساب والجزاء، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣)﴾ [المعارج: ٧٠/ ٤٣] .

ثم ذكر ما يطرأ عليهم بعد البعث من الأهوال والمخاوف فقال تعالى:

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ أي قال المبعوثون: يا هلاكنا من الذي بعثنا من قبورنا بعد موتنا؟ وهي قبورهم التي كانوا يعتقدون في دار الدنيا أنهم لا يبعثون منها، وظنوا لما شاهدوا من الأهوال وما استبد بهم من الفزع، أنهم كانوا نياماً.

وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد.

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي هذا ما وعد به الله وصدق في الإخبار عنه الأنبياء المرسلون، فهم رجعوا إلى أنفسهم، فاعترفوا أنهم بعثوا من الموت، وأقروا بصدق الرسل، يوم لا ينفع التصديق. فهذا الكلام من قول الكفار، وهو رأي عبد الرحمن بن زيد، واختاره الشوكاني وغيره.

واختار ابن جرير وابن كثير أن هذا جواب الملائكة أو جواب المؤمنين، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١)﴾ [الصافات: ٣٧/ ٢٠-٢١] .

ثم أوضح الله تعالى سرعة البعث، فقال:

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣)﴾ أي ما كانت النفخة إلا صيحة واحدة، فإذا هم أحياء مجموعون لدينا بسرعة

للحساب والجزاء، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ (١٤)﴾ [النازعات: ٧٩/١٣-١٤] وقال عز وجل: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ١٦/٧٧].

وأردف بعدئذ ما يكون في ذلك من القضاء العادل، فقال تعالى:

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤)﴾ أي في يوم القيامة لا تبخس نفس شيئاً من عملها مهما قلّ، ولا توفون إلا ما عملتم من خير أو شر.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - كان الرد الحاسم على استعجال الكفار قيام الساعة استهزاء أنها تأتي فجأة كلمح البصر أو هي أقرب، وتحدث بنفخة واحدة هي نفخة إسرافيل في وقت يختصم الناس في أمور دنياهم، فيموتون في مكانهم، وهذه نفخة الصَّعْق.

٢ً - من آثار الموت المفاجئ بتلك النفخة أنهم لا يتمكنون من العودة إلى ديارهم إذا كانوا خارجين منها، ولا يستطيعون الإيصاء إلى غيرهم بما لهم وما عليهم. وقيل: لا يستطيع أن يوصي بعضهم بعضاً بالتوبة، بل يموتون في أسواقهم ومواضعهم.

٣ً - ثم تأتي النفخة الثانية وهي نفخة البعث والنشور من القبور، فهما نفختان، لا ثلاث، بدليل هذه الآية: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١)﴾. وروى المبارك بن فضالة عن الحسن البصري قال: قال رسول الله ﷺ: «بين النفختين أربعون سنة، الأولى يميت الله بها كل حيّ، والأخرى يحيي الله بها كلَّ ميت».

٤ً - يتعجب أهل البعث ويذهلون ويفزعون مما يرون من شدائد الأهوال، فيتساءلون عمن أخرجهم من قبورهم، مفضلين عذاب القبر؛ لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد.

٥ً - النفخة الثانية أيضاً وهي نفخة البعث والنشور سريعة جداً، فإذا حدثت تجمّع الناس جميعاً وحضروا مسرعين إلى لقاء ربهم للحساب والجزاء، كما قال تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٨/٥٤] .

٦ً - الحساب حق وعدل، والجزاء قائم على العدل المطلق، فلا ينقص من ثواب العمل أي شيء مهما قل، ولا يجزى الناس إلا على وفق ما عملوا من خير أو شر.

جزاء المحسنين

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾

القراءات:

﴿ظِلَٰلٍ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (ظُلَل).

الإعراب:

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ﴿أَصْحَٰبَ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾، وخبرها: إما ﴿فِى شُغُلٍ﴾ وإما ﴿فَٰكِهُونَ﴾. و﴿فِى شُغُلٍ﴾: متعلق بـ ﴿فَٰكِهُونَ﴾ ويجوز أن يكونا خبرين. ولا يجوز جعل ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ خبراً؛ لأنه

ظرف زمان، وظروف الزمان لا تكون أخباراً عن الجثث. و﴿ٱلْيَوْمَ﴾ منصوب على الظرف، وعامله ﴿فِى شُغُلٍ﴾ وتقديره: إن أصحاب الجنة كائنون في شغل اليوم.

﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾ ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، ﴿وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾: عطف عليه، و﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾: خبر المبتدأ، و﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾: متعلق بـ ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾. و﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: صفة لـ﴿ظِلَٰلٍ﴾ ويجوز جعل: ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ و﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ و﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ أخباراً متعددة لمبتدأ واحد.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ ﴿فَٰكِهَةٌ﴾: مبتدأ، و﴿لَهُمْ﴾: خبره، و﴿فِيهَا﴾: معمول الخبر، وهو ﴿لَهُمْ﴾ ويجوز جعل كل من ﴿لَهُمْ﴾ و﴿فِيهَا﴾ خبرين للمبتدأ الذي هو ﴿فَٰكِهَةٌ﴾، ويجوز أيضاً جعل ﴿لَهُمْ﴾ وصفاً لـ ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ فلما تقدم صار في موضع نصب على الحال، ويجوز أيضاً جعل ﴿فِيهَا﴾ صفة لـ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ فلما تقدم عليها صار في موضع نصب على الحال.

﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ ﴿مَّا﴾: إما اسم موصول بمعنى الذي: مبتدأ، ﴿وَلَهُم﴾ خبره، وصلته: ﴿يَدَّعُونَ﴾، والعائد محذوف، وإما نكرة موصوفة، وصفتها ﴿يَدَّعُونَ﴾ وإما مصدرية، فتكون مع ﴿يَدَّعُونَ﴾ في تأويل المصدر. ويدعون أي يتمنون ويشتهون، وأصله (يَدْتَعيون) بوزن (يفتعلون) فأبدل من التاء دالاً، ونقلت حركة الياء إلى ما قبلها، فسكنت الياء، والواو بعدها ساكنة، فاجتمع ساكنان، فحذفت الياء لالتقاء الساكنين.

﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ ﴿سَلَٰمٌ﴾: بدل مما يدعون، مرفوع على البدل من ﴿مَّا﴾ أي ولهم أن يسلم الله عليهم، وهذا منى أهل الجنة. و﴿قَوْلًا﴾: مصدر مؤكد لقوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ، سَلَٰمٌ﴾ قال الزمخشري: والأوجه أن ينتصب على الاختصاص. ويصح جعل ﴿سَلَٰمٌ﴾ وصفاً لـ ﴿مَّا﴾ إذا جعلتها نكرة موصوفة، أي ولهم شيء يدعونه سلام، ويصح جعله خبراً لـ﴿مَّا﴾.

المفردات اللغوية:

﴿فِي شُغُلٍ﴾ الشغل: الشأن الذي يشغل الإنسان عما سواه، إما لمسرة أو لمساءة. والمراد به هنا: أنهم مشغولون بما هم فيه من اللذات، بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، يشتغلون بذلك عن الاهتمام بأمر أهل النار. وهو شغل متعة، لا شغل تعب؛ لأن الجنة لا نَصَب فيها. ﴿فَٰكِهُونَ﴾ متنعمون متلذذون. ﴿فِي ظِلَٰلٍ﴾ جمع ظل، وهو ما لا تصيبه الشمس. ﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾ جمع أريكة: وهو السرير المزيَّن في قُبَّة أو بيت، أو الفراش، فالأرائك: الأسرّة التي في الحجال. ﴿يَدَّعُونَ﴾ أي يتمنون ويشتهون.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى حدوث البعث لا شك فيه، وما يكون في يوم القيامة من الجزاء العادل، بيَّن هنا ما أعده للمحسنين، ثم أعقبه في الآيات التالية بما أعده للمسيئين، ترغيباً في العمل الصالح، وترهيباً من سوء الأعمال.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن حال أهل الجنة فيقول:

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي إن المؤمنين الصالحين إذا نزلوا في روضات الجنات يوم القيامة، كانوا في شغل عن غيرهم، بما يتمتعون به من اللذات، والنعيم المقيم، والفوز العظيم، بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

فهم في شغل عما فيه أهل النار من العذاب، وهم متنعمون متلذذون معجبون بالنعيم.

وليس التمتع وحدهم وإنما هم في أنس وسرور مع أزواجهم، فقال تعالى:

﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أي إنهم وحلائلهم في الجنة في ظلال الأشجار التي لا تصيبها الشمس؛ لأنه لا شمس فيها، وهم فيها متكئون على السرر المستورة بالخيام والحجال (المظلة الساترة). والأرائك كما بينا: الأسرّة التي في الحجال. وهذه المتعة في الظلال، وعلى الأسرّة والفرش الوثيرة الناعمة هي حلم الإنسان وغاية ما يطمح إليه.

والمتعة ليست روحية وإنما هي مادية، فقال تعالى:

﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي تقدم لهم الفواكه من جميع أنواعها، ولهم غير ذلك كل ما يتمنون ويشتهون، فمهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذّ.

وقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ ولم يقل «يأكلون» إشارة إلى اختيارهم وملكهم وقدرتهم.

والنعمة الأسمى من كل ما يجدون: سلام الله عليهم، فقال تعالى:

﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ أي إن ما يتمنونه هو تحية الله لهم بالسلام أي الأمان من كل مكروه، يقول لهم: سلام عليكم يا أهل الجنة، كما قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٤٤] أو بوساطة الملائكة، كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ، سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ١٣/٢٣-٢٤] والمعنى أن الله يسلم عليهم بوساطة الملائكة، أو بغير وساطة، مبالغة في تعظيمهم، وذلك متمناهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يلي:

أ - إن أصحاب الجنة يتمتعون فيها متعة مادية وليست روحية فقط، فهم

في شغل بما هم فيه من اللذات والنعيم عن الاهتمام بأهل المعاصي في النار، وما هم فيه من أليم العذاب، وإن كان فيهم أقرباؤهم وأهلوهم.

٢ً - يتمتع أهل الجنة بنعيمها هم وأزواجهم، تحت ستور تظللهم، وعلى الأرائك (أي السُّرر في الحجال، كالناموسيات) متكئون.

٣ً - لهم أنواع من الفاكهة لا تعد ولا تحصى، ولهم كل ما يتمنون ويشتهون، فمهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ.

٤ً - ولهم أكمل الأشياء وآخرها الذي لا شيء فوقه وهو السلام من الله الرب الرحيم، إما بوساطة الملائكة، أو بغير وساطة، مبالغة في تعظيمهم، وذلك أقصى ما يتمنونه.

جزاء المجرمين

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾

القراءات: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾: قرئ:

١ - (وأنِ اعبدوني) وهي قراءة أبي عمرو، وعاصم، وحمزة.

٢- (وأنْ اعبدوني) وهي قراءة الباقين.

﴿صِرَٰطٌ﴾، ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾:

وقرأ قنبل (سراط، السراط). ﴿جِبِلًّا﴾: قرئ:

١- (جِبِلّاً) وهي قراءة نافع، وعاصم.

٢- (جُبُلاً) وهي قراءة ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٣- (جُبْلاً) وهي قراءة أبي عمرو، وابن عامر. ﴿نُنَكِّسْهُ﴾: قرئ:

١- (نُنَكِّسْه) وهي قراءة عاصم، وحمزة.

٢- (نَنْكُسْه) وهي قراءة الباقين.

﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾:

وقرأ نافع، وابن ذكوان (أفلا تعقلون).

الإعراب:

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر، وتقديره: ألم أعهد إليكم بألا تعبدوا، فحذف حرف الجر، فاتصل الفعل به.

البلاغة:

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ، وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾ بينهما طباق السلب، أحدهما سلب والآخر إيجاب.

﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ استفهام إنكاري للتوبيخ.

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ بين المضي والرجوع طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَامْتَازُوا﴾ تميزوا وانفردوا عن المؤمنين عند اختلاطهم بهم، أي ويقال للمجرمين: اعتزلوا في الآخرة عن الصالحين. ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ أوصي وآمر على لسان رسلي، والعهد: الوصية، وهذا من جملة ما يقال لهم تقريعاً وإلزاماً للحجة. ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ ألا تطيعوه، والمراد: عبادة غير الله من الآلهة الباطلة، مما زين به الشيطان وأمر به. ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بيّن العداوة. ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ وحدوني وأطيعوني، أي ألم أعهد إليكم بترك عبادة الشيطان، وبعبادتي. ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي طريق معتدل قويم، وهو دين الإسلام.

﴿جِبِلًّا﴾ خلقاً وجمعاً عظيماً، جمع جبيل كقديم، وقرئ بضم الباء. ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ عداوة الشيطان وإضلاله لكم. ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣)﴾ بها في الدنيا على ألسنة الرسل. ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤)﴾ ادخلوها وقاسوا حرها بسبب كفركم بالله في الدنيا، وطاعتكم للشيطان، وعبادتكم للأوثان.

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي نمنعها من الكلام، والمراد أفواه الكفار. ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ وغيرها، بأن يخلق الله فيها القدرة على الكلام. ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي يقترفون، فكل عضو ينطق بما صدر منه، قال البيضاوي: أي بظهور آثار المعاصي عليها، ودلالتها على أفعالها، أو بإنطاق الله تعالى إياها. ﴿لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ أي أعميناهم، والطمس: إزالة الأثر بالمحو. ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ أي ابتدروا إلى الطريق المألوف لهم ليمضوا فيه. ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ أي فكيف يبصرون الطريق والحق حينئذ؟ أي لا يبصرون.

﴿لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ أي لو شئنا تغيير صورتهم إلى صورة أخرى قبيحة. ﴿عَلَى

﴿مَكَانَتِهِمْ﴾ أي مكانهم، بحيث يجمدون فيه، وقرئ: مكاناتهم جمع مكانة، بمعنى مكان، أي في منازلهم. ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا﴾ ذهاباً. ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي ولا رجوعاً، أي لم يقدروا على ذهاب ولا عودة.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ ومن نطل عمره. ﴿نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ نغير خلقه ونقلبه فيه، ونجعله على عكس ما كان عليه أولاً من القوة والطراوة، فيصبح بعد قوته وشبابه ضعيفاً هرماً. ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أن من قدر على ذلك قدر على الطمس والمسخ والبعث، فيؤمنوا.

المناسبة:

بعد بيان حال المحسنين في الآخرة، أعقبه تعالى ببيان حال المجرمين في الدنيا والآخرة، ففي الآخرة يميزون عن المؤمنين، ويصلون نار جهنم خالدين فيها أبداً بسبب كفرهم واتباع وساوس الشيطان، وفي الدنيا لم يعاجلهم بالعقوبة رحمة منه، فلم يشأ أن يذهب أبصارهم، أو يمسخ صورهم ويجعلهم كالقردة والخنازير، وأعطاهم الفرصة الكافية من العمر في الدنيا ليتمكنوا من النظر والاهتداء، قبل أن يضعفوا ويعجزوا عن البحث والإدراك، وذلك تحذير واضح لهم.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن حال الكفار يوم القيامة بتمييزهم عن المؤمنين في موقفهم، فيقول:

﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي يقال للمجرمين الكافرين في الآخرة: تميزوا في موقفكم عن المؤمنين، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨/١٠] وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾

[الروم: ٣٠/ ١٤] ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٤٣] أي يصيرون صدعين فرقتين.

أو المراد: يمتاز المجرمون بعضهم عن بعض، فاليهود فرقة، والنصارى فرقة، والمجوس فرقة، والصابئون فرقة، وعبدة الأوثان فرقة، والماديون والملحدون فرقة، وهكذا.

ثم أبان الله تعالى سبب تميزهم عن غيرهم، موبخاً ومقرعاً لهم على كفرهم، فقال:

﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ أي ألم أوصكم وآمركم وأتقدم إليكم على لسان الرسل يا بني آدم ألا تطيعوا الشيطان فيما يوسوس به إليكم من معصيتي ومخالفة أمري؛ فإن الشيطان ظاهر العداوة لكم، بدءاً من أبيكم آدم عليه السلام.

وبعد النهي عن عبادة غير الله أمر تعالى بعبادته، فقال:

﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ أي وأن وحّدوني وأطيعوني فيما أمرتكم به، ونهيتكم عنه، وهذا المأمور به والمنهي عنه هو الطريق المعتدل القويم، وهو دين الإسلام.

ثم أخبر الله تعالى عن مساعي الشيطان في إضلال السابقين، فقال:

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾؟ أي لقد أغوى الشيطان خلقاً كثيراً، وزين لهم فعل السيئات، وصدهم عن طاعة الله وتوحيده، أفلم تعقلوا عداوة الشيطان لكم، وتبتعدوا عن مثل ضلالات السابقين، حتى لا تعذبوا مثلهم.

ثم بيّن الله تعالى مآل أهل الضلال قائلاً لهم يوم القيامة تقريعاً وتوبيخاً:

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي هذه النار التي وعدتم بها في الدنيا وحذرتكم منها على ألسنة الرسل فكذبتموهم، وقد برزت لهم لإرهابهم.

﴿ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ ادخلوها وذوقوا حرّها اليوم، بسبب كفركم بالله في الدنيا، وتكذيبكم بها، وطاعتكم للشيطان، وعبادتكم للأوثان.

وفي هذا الكلام إشارة إلى شدة ندامتهم وحسرتهم من وجوه ثلاثة[1]:

أ - قوله تعالى: ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾ وهو أمر تنكيل وإهانة، كقوله تعالى لفرعون: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٤/٤٩].

٢ - قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ الذي يدل على أن العذاب حاضر، وأن لذاتهم قد مضت، وبقي العذاب اليوم.

٣ - قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ الذي ينبئ عن الكفر بنعمة عظيمة، وحياء الكفور من المنعم من أشد الآلام، كما قال بعضهم:

أليس بكاف لذي نعمة حياء المسيء من المحسن

ثم أبان الله تعالى مدى مواجهتهم بالجرم الذي ارتكبوه دون أن يستطيعوا إنكاره، فقال:

﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي في هذا اليوم الرهيب، يختم الله على أفواه الكافرين والمنافقين ختماً لا يقدرون معه على الكلام، ويستنطق جوارحهم بما عملت، فتنطق أيديهم وأرجلهم بما اقترفت، ليعلموا أن أعضاءهم التي كانت أعواناً لهم على المعاصي، صارت شهوداً عليهم.

---

(١) تفسير الرازي ٢٦/١٠١

وجعل الكلام للأيدي والشهادة للأرجل؛ لأن أكثر الأفعال تتم بمباشرة الأيدي، كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ [يس: ٣٦/ ٣٥] وقال سبحانه: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٥] أي ولا تلقوا بأنفسكم، والشاهد على العمل ينبغي أن يكون غيره، فجعل الأرجل والجلود من جملة الشهود، لتعذر إضافة الأفعال إليها.

روى مسلم والنسائي وابن أبي حاتم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يقول العبد يوم القيامة: لا أجيز علي إلا شاهداً من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي، فتنطق بعمله، ثم يُخَلَّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعْداً لكُنّ وسُحْقاً، فعنْكُنَّ كنتُ أناضل».

ثم أوضح الله تعالى بعض مظاهر قدرته عليهم من إذهاب البصر والمسخ وسلب الحركة، فقال:

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي ولو نريد لأذهبنا أعينهم وأعميناهم، فصاروا لا يبصرون طريق الهدى، فلو بادروا إلى الطريق المألوفة لهم ليسلكوها، لم يستطيعوا، وكيف يبصرون الطريق وقد ذهبت أبصارهم؟

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي لو شئنا لبدّلنا خلقهم، وحولنا صورهم إلى صور أخرى أقبح منها كالقردة والخنازير، وهم في أمكنتهم ومواضعهم التي هم فيها يرتكبون السيئات، فلا يتمكنون من الذهاب والمضي أمامهم، ولا الرجوع وراءهم، بل يلزمون حالاً واحداً، لا يتقدمون ولا يتأخرون.

ثم حذرهم من تفويت فرصة الشباب والعمر، فقال تعالى:

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي ومن نطل عمره، نرده إلى الضعف بعد القوة، والعجز بعد النشاط، أفلا يدركون ويتفكرون أنهم كلما تقدمت بهم السن، ضعفوا وعجزوا عن العمل؟ وأننا أعطيناهم الفرصة الكافية من العمر للبحث والنظر والتفكير الصحيح، فإذا طالت أعمارهم بعدئذ أكثر من ذلك، فلن يفيدهم طول العمر شيئاً. وفي هذا قطع لأعذارهم بأنه لم تتوافر لديهم الفرصة المواتية للبحث والنظر.

والآية مثل: ﴿۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٥٤].

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يلي:

١ً - إن سياسة العزل للمجرمين ستطبق في الآخرة بنحو تام وشامل، فيميز المجرمون عن المؤمنين، تحقيراً لهم، وإعداداً لسوقهم إلى نار جهنم، وذلك حين يؤمر بأهل الجنة إلى الجنة، فيقال لهم: اخرجوا من جملتهم.

وقال الضحاك: يمتاز المجرمون بعضهم من بعض، فيمتاز اليهود فرقة، والنصارى فرقة، والمجوس فرقة، والصابئون فرقة، وعبدة الأوثان فرقة.

٢ً - يعاتب الكفار سلفاً في الدنيا قبل أن يعاقبوا في الآخرة، فيقال لهم من جهة الحق: ألم أوصكم وأبلّغكم على ألسنة الرسل ألا تطيعوا الشيطان في معصيتي، وأن توحدوني وتعبدوني، فإن عبادتي دين قويم.

٣ً - يؤكد تعالى تحذيره من الشيطان قائلاً: لقد أغوى الشيطان بوساوسه خلقاً كثيراً، أفلا تعتبرون بالآخرين، وألا تعقلون عداوته، وتعلموا أن الواجب طاعة الله تعالى.

٤ - وتقول خزنة جهنم للكفار: هذه جهنم التي وعدتم، فكذبتم بها. روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة، جمع الله الإنس والجن والأوّلين والآخرين في صعيد واحد، ثم أشرف عُنق من النار على الخلائق، فأحاط بهم، ثم ينادي منادٍ: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ فحينئذ تجثو الأمم على ركبها، ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ٢٢/٢]».

٥ - إن أعضاء الإنسان التي كانت أعواناً في حق نفسه، صارت عليه شهوداً في حق ربّه. والسبب في التعبير بكلام الأيدي وشهادة الأرجل أن اليد مباشرة للعمل، فتحتاج إلى شهادة غيرها.

ومن وقائع الشهادة يوم القيامة أن المشركين قالوا كما حكى القرآن عنهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٦/٢٣] فيختم الله على أفواههم، حتى تنطق جوارحهم.

٦ - لو شاء الله لأعمى الكفار عن الهدى، فلا يبصرون طريقاً إلى منازلهم ولا غيرها، ولكنه لم يفعل رحمة بهم، وليتمكنوا من النظر الصحيح المؤدي إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له.

٧ - ولو شاء الله لبدل خلقة الكفار إلى ما هو أقبح منها جزاء على كفرهم، ولجعلهم حجراً أو جماداً أو بهيمة، كالقردة والخنازير، وحينئذ لا يستطيعون أن يمضوا أمامهم، ولا يرجعوا وراءهم، كما أن الجماد لا يتقدم ولا يتأخر، ولكنه تعالى أيضاً لم يفعل، لرحمته الواسعة.

٨ - لا حاجة لإطالة أعمار الناس أكثر مما قدر تعالى لهم؛ لأنه كلما طال العمر ازداد الإنسان ضعفاً. والمقصود بالآية ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ﴾

الإخبار عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال، لا دار دوام واستقرار، ولهذا قال تعالى في ختام الآية: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أي يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم، ثم صيرورتهم إلى سن الشيبة، ثم إلى الشيخوخة، ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى لا زوال لها، ولا انتقال عنها، ولا محيد عنها، وهي الدار الآخرة. ثم أفلا يعقلون أن من فعل هذا بهم قادر على بعثهم مرة أخرى؟!

إثبات وجود الله ووحدانيته وبيان خواص الرسالة

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٧٠) أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦)﴾

القراءات:

﴿وَقُرْءَانٌ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (وقران).

﴿لِّيُنذِرَ﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر (لتنذر).

﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾:

وقرأ نافع (فلا يُحْزِنك).

الإعراب: ﴿فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ﴾ مبتدأ مؤخر وخبر مقدم، وقرئ: ركوبهم وركوبتهم، وهما ما يركب، كالحلوب والحلوبة. حذف التاء من الأول، كقولهم: امرأة صبور وشكور، وكلاهما بمعنى مفعول.

البلاغة:

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ بين الجملتين ما يسمى بالمقابلة، قابل بين الإنذار والإعذار، وبين المؤمنين والكفار.

﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمًا﴾ استعارة تمثيلية، شبه قيامه بالخلق والتكوين بمن يعمل أمراً بيديه، ويتقنه بذاته، واستعار لفظ العمل للخلق.

﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ﴾ بعد قوله: ﴿فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ﴾ عام بعد خاص، لتعظيم النعمة.

﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾ استفهام إنكاري للتقريع والتوبيخ.

﴿يُسِرُّونَ﴾ و ﴿يُعۡلِنُونَ﴾ بينهما طباق.

﴿وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ﴾ تشبيه بليغ، أي كالجند في الخدمة والدفاع.

المفردات اللغوية:

﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ﴾ ردّ لقول المشركين في مكة: إن محمداً شاعر، وما أتى به من القرآن شعر، أي ما علمناه الشعر، بتعليم القرآن، فإنه لا يماثله لفظاً ولا معنى؛ لأنه غير موزون ولا مقفّى، والشعر: كلام موزون مقفّى. فالضمير في ﴿عَلَّمۡنَٰهُ﴾ للنبي ﷺ. ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾ أي ما يصح له الشعر، ولا يتأتى منه، ولا يسهل عليه لو طلبه. ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ﴾ أي ما القرآن إلا عظة أو موعظة وإرشاد من الله. ﴿وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ أي وكتاب سماوي مظهر للأحكام والشرائع وغيرها، يتلى في أثناء العبادة.

﴿لِّيُنذِرَ﴾ القرآن أو الرسول ﷺ ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ عاقلاً ما يخاطب به فَهِماً، أو حيّ القلب، مستنير البصيرة. ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ يجب العذاب ويثبت. ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين يصيرون إلى الكفر، وهم كالميتين لا يعقلون ما يخاطبون به. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ يعلموا، والاستفهام للتقرير، والواو الداخلة على (لم) للعطف. ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ للناس. ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ مما تولينا إحداثه وعملناه وأبدعناه بلا شريك ولا معين ﴿أَنْعَٰمًا﴾ هي الإبل والبقر والغنم، وخصها بالذكر لما فيها من بدائع الفطرة وكثرة المنافع. ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ متملكون ضابطون قاهرون، يتصرفون بها كيف شاؤوا، ولو خلقناها وحشية لنفرت منهم، ولم يقدروا على ضبطها. ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ سخرناها لهم، وجعلناها منقادة لهم. ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ مركوبهم. ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ ما يأكلون لحمه.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ كأصوافها وأوبارها وأشعارها. ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من لبنها، جمع مشرب بمعنى الموضع، أو المصدر. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ المنعم بها عليهم فيؤمنوا، إذ لولا خلقه لها وتذليله إياها لما حصَّلوا هذه المنافع المهمة.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ من الأصنام ونحوها يعبدونها، ولا قدرة لها على شيء، ولا فائدة منها. ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ رجاء أن ينصروهم في وقت الأزمات والشدائد. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أي لا تستطيع آلهتهم مناصرتهم في شيء ما، وقد نزلوا منزلة العقلاء. ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي وهم لآلهتهم من الأصنام جنود يذودون عنهم، ثم هم محضرون في النار معهم. ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ فلا يهمّك قولهم في الله بالإلحاد والشرك، وفيك بالتكذيب، قائلين لك: لست مرسلاً. ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ نعلم السر والجهر، فنجازيهم عليه، وهو تعليل النهي على الاستئناف.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى أصلين من أصول الدين الثلاثة، وهما الوحدانية في قوله: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ والبعث أو الحشر في قوله: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ﴾ ذكر الأصل الثالث وهو الرسالة في الآيتين الأوليين: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ الآية.

ثم إنه تعالى أعاد الكلام على الوحدانية وأقام الأدلة الدالة عليها في بقية هذه الآيات.

التفسير والبيان:

ينفي الحق تبارك وتعالى صفة الشعر عن القرآن، وخاصية الشاعرية عن الرسول ﷺ، فيقول:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ أي ليس النبي شاعراً، وما يصح له الشعر، ولا يتأتى منه ولا يسهل عليه لو طلبه، فليس هو في طبعه، ولا يحبه، وقد جعله الله أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وإنما علمه الله قرآناً هو أسمى من الشعر، ونوع آخر غير الشعر.

والشعر: كلام عربي له وزن خاص، ينتهي كل بيت منه بحرف خاص يسمى قافية، ولا بدّ في القصيدة من وحدة القافية، أي الحرف الأخير من كل بيت. ويعتمد الشعر على الخيال الخصب، والتصوير الرائع، والعاطفة المشبوبة، ولا يتبع الشاعر فيه ما يمليه العقل والمنطق، ولا يتحرى الصدق والدقة في إرسال أوصاف المديح والهجاء والرثاء والغزل وغير ذلك، ويبالغ الشاعر في التصوير والوصف، وما همُّه إلا انتزاع الإعجاب من السامعين بقوله، لذا وصف تعالى الشعراء بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/٢٢٥-٢٢٦] وقال

العرب: أعذب الشعر أكذبه. قال أبو حيان: والشعر: إنما هو كلام موزون مُقَفًّى، يدل على معنى تنتخبه الشعراء من كثرة التخييل وتزويق الكلام وغير ذلك، مما يتورع المتدين عن إنشاده، فضلاً عن إنشائه(١).

أما القرآن الكريم فخبره صدق، وكلامه عظة واقعية، ومنهجه التشريع الذي يسعد البشر، وقصده الترغيب في فضائل الأعمال وغرر الخصال والأخلاق، والترهيب من الانحراف والرذيلة، وتقرير أحكام العبادة الصحيحة والمعاملة الرشيدة.

فالآية دلت على نفي كون القرآن شعراً في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾، ونفي كون النبي شاعراً في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ وإنما علّمه الله القرآن الذي يمتاز بخاصيّة معينة تختلف عن الشعر المعروف وعن النثر المألوف.

وهي ردّ قاطع على قول العرب أهل مكة: إن القرآن شعر أو سحر أو من عمل الكهان، وإن محمداً شاعر، قاصدين بذلك إبطال صفة الوحي به من عند الله، وتكذيب خاصيّة الرسالة.

وأما ما ورد على لسان الرسول ﷺ من أقوال موزونة، فهو مجرد سليقة اتفاقية من غير تكلف ولا صنعة ولا قصد، مثل قوله يوم حنين وهو راكب البغلة البيضاء يقدم بها في نحور العدو:

أنا النبي لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب

وقوله ﷺ حينما نكبت أصبعه في غار:

إن أنتِ إلا أُصبعٌ دَمِيتِ ... وفي سبيل الله ما لَقيتِ

بل إن الخليل بن أحمد الفراهيدي ما عدَّ المشطور من الرجز شعراً.

---

(١) البحر المحيط: ٣٤٥/٧

ولكنه ﷺ كان يتمثل أحياناً ببعض الأشعار لشعراء العرب، مثل تمثله ببيت طرفة بن العبد في معلَّقته المشهورة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وقد صحَّ فيما رواه ابن أبي حاتم وابن جرير عن عائشة رضي الله عنها أنه كان يقول:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك من لم تزود بالأخبار

فقال أبو بكر رضي الله عنه: ليس هذا هكذا، فقال ﷺ: «إني لست بشاعر ولا ينبغي لي».

وروى ابن سعد وابن أبي حاتم عن الحسن: «أنه ﷺ كان يتمثل بهذا البيت هكذا:

كفى بالإسلام والشيب ناهياً للمرء، والرواية: كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً، فقال أبو بكر: أشهد إنك رسول الله، ما علمك الشعر، وما ينبغي لك».

وثبت في الصحيح أنه ﷺ تمثَّل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رَواحة رضي الله عنه، ولكن تبعاً لقول أصحابه الذين كانوا يرتجزون، وهم يحفرون ويقولون:

لا همَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبِّت الأقدام إن لاقينا
إن الأولى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

ويرفع ﷺ صوته بقوله: أبينا، ويمدّها.

وعدم تعليمه الشعر؛ لأن الله إنما علّمه القرآن العظيم: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١/٤٢] .

والقرآن ليس بشعر ولا تخيلات، ولا كهانة، ولا مفتعل، ولا سحر يؤثر، وإنما هو دستور للحياة الإسلامية، ومواعظ وإرشادات، كما قال تعالى:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما القرآن إلا ذكر من الأذكار، وموعظة من المواعظ، وكتاب سماوي واضح ظاهر جلي لمن تأمله وتدبره، يتلى في المعابد، ويسترشد في كل شؤون الحياة.

لذا قال تعالى محدِّداً مهمة القرآن ومهمة رسول الله ﷺ:

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ أي لينذر هذا القرآن المبين كل حي على وجه الأرض، كقوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩/٦] ولكن إنما ينتفع بنذارته من هو حيّ القلب، مستنير البصيرة، ولكي تثبت به وتجب كلمة العذاب على الكافرين، المتنعين من الإيمان به، وهذا في مقابلة صفة المؤمنين وهم أحياء القلوب، أما الكافرون فهم لكفرهم وسقوط حجتهم وعدم تأملهم أشبه بالأموات في الحقيقة، لعدم تأثرهم بعظات القرآن، وانعدام يقظتهم لاتباع الحق والهدى.

والخلاصة: إن الآية دالة على أن القرآن رحمة للمؤمنين، وحجة على الكافرين.

ثم أعاد الله تعالى الكلام في الوحدانية وأتى ببعض أدلتها، فقال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾ أي أو لم يشاهد هؤلاء المشركون بالله عبدة الأصنام وغيرهم أن الله خلق لهم هذه الأنعام (وهي الإبل والبقر والغنم) التي سخرها لهم، وأوجدها من أجلهم من غير وساطة ولا شريك، وجعلهم مالكين لها، يقهرونها ويضبطونها ويتصرفون بها كيف شاؤوا، وهي ذليلة لهم، لا تمتنع منهم، ولو شاء لجعلها مستعصية عليهم، مستوحشة نافرة منهم، فلا يستفيدون منها، فترى الولد الصغير يقود البعير الكبير، بل ولو كان القطار مئة بعير أو أكثر.

ثم أبان الله تعالى منافعها الملموسة، فقال:

﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أي وجعلناها لهم مسخّرة مذلَّلة منقادة لهم، لا تمتنع مما يريدون منها، حتى الذبح، فمنها مركوبهم الذي يركبونه في الأسفار، ويحملون عليه الأثقال، ومنها ما يأكلون من لحمها.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَـٰرِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أي ولهم فيها منافع أخرى غير الركوب والأكل منها، كالاستفادة من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين، وهي لهم مشارب أي يشربون من ألبانها، أفلا يشكرون خالق ذلك ومسخره وموجد هذه النعم لهم، بعبادته وطاعته، وترك الإشراك به غيره.

وهذا حثّ صريح على شكر الخالق المنعم بعبادته وطاعته، وهو أبسط ما يوجبه الوفاء، وتقدير المعروف والإحسان.

ولكن الكفار تنكروا لهذا الواجب، وكفروا بأنعم الله، واستمروا في ضلالهم وتركوا عبادة الله، وأقبلوا على عبادة من لا يضر ولا ينفع، وتوقعوا منه النصرة، فقال تعالى:

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾ أي واتخذ هؤلاء المشركون الأصنام ونحوها آلهة يعبدونها من دون الله، يبتغون بذلك أن تنصرهم وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى.

ولكنها في الواقع لا تقدر على شيء، ولا تحقق فائدة لعبادها، لذا قال تعالى مبيناً خيبة أملهم:

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي لا تقدر هذه الآلهة على نصر عابديها، بل هي أضعف من ذلك وأذل وأحقر، بل لا تقدر

على نصرة أنفسها، ولا على الانتقام ممن أساء إليها؛ لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل، لذا كان الثابت بطلان ما رجوه منها، وأمّلوه من نفعها.

والكفار المشركون جند طائعون للأصنام، يغضبون لها في الدنيا، وهي لا تستطيع نصرهم، ولا تقدم لهم خيراً، ولا تدفع عنهم شراً، إنما هي أصنام. وقوله: ﴿مُحْضَرُونَ﴾ أي يخدمونهم، ويدفعون عنهم، ويغضبون لهم، وليس للآلهة استطاعة على شيء، ولا قدرة على النصر. أو إنهم يوم القيامة محضرون لعذابهم؛ لأنهم يجعلونهم وقوداً للنار.

ثم آنس الله رسوله عما يلقاه من أذى المشركين، فقال:

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ أي فلا يهمنك تكذيبهم لك وكفرهم بالله، وأذاهم، وجفاؤهم، وقولهم: هؤلاء آلهتنا، وإنها شركاء لله في المعبودية، أو قولهم لرسول الله ﷺ: أنت شاعر، أو ساحر، أو كاهن ونحو ذلك.

فإنا نحن نعلم جميع ما هم فيه، نعلم سرهم وجهرهم، ونعلم ما يسرون لك من العداوة، وإنا مجازوهم بذلك، ومعاقبوهم عليه.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يلي:

١ - ليس القرآن شعراً، ولا محمّد ﷺ شاعراً، فلا يقول الشعر ولا يزنه، وكان إذا حاول إنشاد بيت قديم متمثلاً به، كسر وزنه، وإنما كان همّه فقط الإفادة من المعاني.

٢ - إن إصابة النبي ﷺ الوزن أحياناً لا يوجب أنه يعلم الشعر، فقد يأتي مثل ذلك في آيات القرآن، وليس ذلك شعراً ولا في معناه، كقوله تعالى: ﴿لَن

تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٢] وقوله: ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾ [الصف: ٦١/ ١٣] وقوله: ﴿وجفان كالجواب وقدور راسيات﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٣] وقوله: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٩] إلى غير ذلك من الآيات.

٣ - روى ابن القاسم عن مالك أنه سئل عن إنشاد الشعر، فقال: لا تكثرن منه، فمن عيبه أن الله يقول: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾

٤ - ما ينبغي ولا يصح للنبي ﷺ أن يقول الشعر، وذلك من أعلام النبوة، ولا اعتراض لملحد على هذا بما يتفق الوزن فيه من القرآن وكلام الرسول ﷺ؛ لأن ما وافق وزنه وزن الشعر، ولم يقصد به إلى الشعر، ليس بشعر، ولو كان شعراً لكان كل من نطق بموزون من العامة الذين لا يعرفون الوزن شاعراً.

٥ - إن الذي يتلوه النبي ﷺ على الناس هو ذكر من الأذكار، وعظة من المواعظ، وقرآن بيِّن واضح مشتمل على الآداب والأخلاق، والحِكَم والأحكام، والتشريع المحقق لسعادة البشر.

٦ - إن الغرض من إنزال القرآن إنذار من كان حيّ القلب، مستنير البصيرة، وإيجاب الحجة بالقرآن على الكفرة.

٧ - من أدلة وجود الله ووحدانيته: خلق الإنسان والحيوان والنبات، فإنه سبحانه خلق كل ذلك، وأبدعه، وعمله من غير واسطة ولا وكالة ولا شركة.

ومن فضله ونعمته على الناس تذليل الأنعام لهم، وتسخيرها لمنافعهم في الركوب، وأكل اللحوم وشرب الحليب والألبان، وصنع الأسمان، حتى إن الصبي يقود الجمل العظيم ويضربه ويوجهه كيف شاء، وهو له طائع. وهذا كله وغيره يوجب شكر الخالق المنعم وهو الله على نعمه، بعبادته وطاعته وإخلاص ذلك له.

٨ً - بالرغم من وجود الآيات الدالة على قدرة الله، اتخذ الكفار المشركون من دون الله آلهة، لا قدرة لها على فعل، طمعاً في نصرتها وأملاً في مساعدتها لهم إن نزل بهم عذاب.

والحقيقة أن تلك الآلهة المزعومة لا تستطيع نصر عابديها، ولا جلب الخير لهم، ولا دفع الشر والضر عنهم، ومع ذلك فإن الكفار جند طائعون لهذه الآلهة، يمنعون عنهم ويدفعون عنهم، ويغضبون لهم في الدنيا، فهم لها بمنزلة الجند والحرس، وهي لا تستطيع أن تنصرهم. وقيل: إن الآلهة جند للعابدين يوم القيامة، محضرون معهم في النار، فلا يدفع بعضهم عن بعض. وفي الخبر: إنه يمثَّل لكل قوم ما كانوا يعبدونه في الدنيا من دون الله، فيتبعونه إلى النار، فهم لهم جند محضرون. وهذا المعنى ثبت في صحيح مسلم وكذا في جامع الترمذي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد، ثم يَطّلع عليهم رب العالمين، فيقول: ألا لِيَتْبعْ كل إنسان ما كان يعبد، فيمثَّل لصاحب الصليب صليبُه، ولصاحب التصاوير تصاويرُه، ولصاحب النار نارُه، فيتبعون ما كانوا يعبدون، ويبقى المسلمون».

٩ً - سلى الله عز وجل نبيه ﷺ، فقال له: لا يحزنك قولهم: شاعر، ساحر، روي أن القائل عُقْبة بن أبي مُعَيْط، فنفى الله ذلك عن رسوله.

١٠ً- إن الله تعالى عليم مطلع على ما يسرّ الكافرون ويظهرون من القول والعمل، فيجازيهم بذلك يوم القيامة.

إثبات البعث

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

القراءات:

﴿فَيَكُونُ﴾:

وقرأ ابن عامر، والكسائي، (فيكونَ).

الإعراب:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الهمزة للإنكار مع إفادة التعجب، والواو للعطف على مقدر، أي ألم يتفكر الإنسان ويعلم.

البلاغة:

﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ من صيغ المبالغة.

﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ استعارة تمثيلية، شبه سرعة إنجازه الأشياء بأمر المطاع من غير امتناع ولا تأخير.

﴿مَلَكُوتُ﴾ صيغة مبالغة من الملك، أي الملك الواسع التام كالجبروت والرحموت للمبالغة.

المفردات اللغوية:

﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ أو لم يعلم. ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ أي إنسان، ويشمل من كان سبب النزول، وهو العاص بن وائل السهمي وأبي بن خلَف. ﴿أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أنا خلقناه من أضعف الأشياء، والنطفة: الذرة من مادة الحياة وهي المني. ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ الخصيم: الشديد الخصومة لنا، المبالغ في الجدل إلى أقصى الغاية، والمبين: البيِّن في نفي البعث.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ أي أورد في شأننا قصة غريبة هي في غرابتها كالمثل، إذ أنكر إحياءنا للعظام النخرة، ونفى القدرة على إحياء الموتى، مقارناً ذلك بما عجز عنه، وقائساً قدرة الله على قدرة العبد. ﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ نسي خلقنا إياه، من المني، وهو أغرب من مثله. ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ الرميم: البالية أي ما بلي من العظام، ولم يقل: رميمة لأنه اسم لا صفة، روي أن العاصي بن وائل أو أمية بن خلف أو أبي بن خلف[1] أخذ عظماً رميماً، ففتته، وقال للنبي ﷺ: أترى يحيي الله هذا بعدما بلي ورَمَّ؟ فقال ﷺ: «نعم، ويدخلك النار» وفيه دليل على أن العظم ذو حياة، فيؤثر فيه الموت كسائر الأعضاء.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي فإن قدرته كما كانت، لامتناع التغير فيه، والمادة على حالها في القابلية اللازمة لذاتها. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي وهو بكل مخلوق عليم جملةً وتفصيلاً، قبل خلقه وبعد خلقه، يعلم تفاصيل المخلوقات وأجزاء الأشخاص المتفتتة، ومواقعها وطريق تمييزها، وضمّ بعضها إلى بعض على النمط السابق.

---

(١) قال أبو حيان: أقوال أصحها أنه أبي بن خلف، رواه ابن وهب عن مالك (البحر المحيط ٣٤٨/٧٠) ثم أضاف قائلاً: ووهم من نسب إلى ابن عباس أن الجائي بالعظم هو عبد الله بن أبي بن سلول؛ لأن السورة والآية مكية بإجماع، ولأن عبد الله بن أبي لم يهاجر قط هذه المهاجرة.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ أي إن الله يسّر لكم الانتفاع بالحطب، تحرقونه للطبخ والدفء، وقد كان أخضر رطباً، أو إن هناك شجراً يسمى المَرْخ، وشجراً آخر يسمى العَفار، إذا قطع منهما عودان، وضرب أحدهما على الآخر، انقدحت منهما النار، وهما أخضران، وفي أمثال العرب: «في كل شيء نار، واستمجد المرخ والعَفار»، ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ تقدحون منه النار، وتوقدونها من ذلك الشجر، بعد أن كان أخضر. وهذا دالّ على القدرة على البعث، فإنه تعالى جمع فيه بين الماء والنار والخشب، فلا الماء يطفئ النار، ولا النار تحرق الخشب. وإبراز الشيء من ضدّه: وهو اقتداح النار من الشيء الأخضر أبدع شيء، وهو دالّ على قدرة الله تعالى.

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ أي إن من قدر على خلق السماوات والأرض، وهما في غاية العظم، يقدر على إعادة خلق البشر الذي هو صغير ضعيف ﴿بَلَىٰ﴾ أي هو قادر على ذلك، و﴿بَلَىٰ﴾ كلمة جواب كنعم، تأتي بعد كلام منفي، وكان الجواب من الله للدلالة على أنه لا جواب سواه. ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ الكثير الخلق ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الواسع العلم بكل شيء، فهو كثير المخلوقات والمعلومات.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ﴾ شأنه في الإيجاد. ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ خلق شيء. ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي فهو يكون، أي يحدث، وهو تمثيل لتأثير قدرته في مراده من غير تأخر وافتقار إلى مزاولة عمل واستعمال آلة، قطعاً للشبهة في قياس قدرة الله تعالى على قدرة الخلق، ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ﴾ أي تنزيه عما ضربوا له من المثل، وتعجيب مما قالوا فيه، ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ الملك التام والقدرة، كالرحموت والرهبوت والجبروت، زيدت الواو والتاء للمبالغة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تردون في الآخرة.

سبب النزول:

أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال: جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل، ففتّه، فقال: يا محمد: أيُبعث هذا بعدما أرَمَّ؟ قال: نعم، يبعث الله هذا، ثم يميتك، ثم يحييك، ثم يدخلك نار جهنم، فنزلت الآيات: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ إلى آخر السورة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير وقتادة والسُّدِّي نحوه، وسمّوا الإنسان أُبي بن خلَف. وهذا هو الأصح كما قال أبو حيان، لما رواه ابن وهب عن مالك.

وبناء عليه، قال المفسّرون: إن أُبي بن خلَف الْجُمَحي جاء إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل، ففتته بين يديه، وقال: يا محمد، يبعث الله هذا بعدما أرمَّ؟ فقال: نعم، يبعث الله هذا، ويميتك، ثم يحييك، ثم يدخلك نار جهنم، فنزلت هذه الآيات.

وعلى أي حال، يقول علماء أصول الفقه: إن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١/٥٨] نزلت في امرأة واحدة، وأراد الكل في الحكم، فكذلك كل إنسان ينكر الله أو الحشر، فهذه الآية ردّ عليه، فتكون الآية عامة.

المناسبة:

بعد بيان الأدلة الدّالة على قدرة الله عزّ وجلّ، ووجوب طاعته وعبادته، وبطلان الشرك به، ذكر تعالى شبهة منكري البعث، وأجاب عنها بأجوبة ثلاثة: هي أن الإعادة مثل البدء بل أهون، وقدرة الله على إيجاد النار من الشجر الأخضر، وخلق ما هو أعظم من الإنسان، وهو خلق السماوات والأرض، وفي النهاية: فورية تكوين الأشياء بقول: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

التفسير والبيان:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ ألم يعلم كل إنسان أننا بدأنا خلقه من نطفة (مني) من ماء مهين، هي أضعف الأشياء، ثم جعلناه بشراً سويّاً، ثم تراه يفاجئنا بأنه ناطق مجادل بيِّن جريء في جدله، فقوله ﴿خَصِيمٌ﴾ ناطق، و﴿مُّبِينٌ﴾ إشارة إلى قوة عقله.

والمراد: أو لم يستدلّ من أنكر البعث بالبدء على الإعادة، فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين، فخلقه من شيء ضعيف حقير، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾ [المرسلات: ٧٧/ ٢٠-٢٢] ، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢/٧٦] أي من نطفة من أخلاط متفرقة.

فشأن هذا المخلوق أن يشكر النعمة، لا أن يطغى ويتجبر، وينكر البعث والإعادة.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ أي وذكر أمراً عجيباً كالمثل في الغرابة على استبعاد إعادة الله ذي القدرة العظيمة للأجساد والعظام الرميمة، ونسي نفسه، وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود، فأنكر أن الله يحيي العظام البالية، قائساً قدرة الله على قدرة العبد، حيث لم يكن ذلك في مقدور البشر.

فأجابه الله تعالى بقوله:

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ أي قل أيها الرسول لهذا المشرك المنكر البعث: يحيي الله تلك العظام البالية الذي أبدع خلقها وأوجدها في المرة الأولى من غير شيء من العدم ولم يكن شيئاً مذكوراً، وهو لا تخفى عليه خافية من الأشياء، سواء أكانت مجموعة أم مجزأة مشتتة في

أنحاء الأرض، ولا يخرج عن علمه أي شيء كائناً ما كان، ولو في أعماق الأرض أو البحر أو أجواف الإنسان أو الحيوان أو اختلط بالتراب والنبات. وقد قال العلماء: إن الذرَّة لا تفنى، وتقرر نظرية (لافوازيه) المعروفة: أنه لا يوجد شيء من العدم، والموجود لا ينعدم.

ودليل ثانٍ هو:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أي وهو الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء، حتى صار خضراً نضراً ذا ثمر يانع، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً توقد به النار، ومن قدر على ذلك، فهو قادر على ما يريد، لا يمنعه شيء، فهذا التحوّل والتقلّب من عنصر الرطوبة إلى عنصر الحرارة، يدل على إمكان إعادة الرطوبة إلى ما كان يابساً بالياً. والمشاهد أن شجر السّنط يوقد به النار وهو أخضر.

وقيل: المراد بذلك شجر المَرْخ والعَفار ينبت في أرض الحجاز، فيأتي من أراد قدح نار، وليس معه زناد، فيأخذ عودين أخضرين منهما، ويقدح أحدهما بالآخر، فتتولد النار من بينهما، كالزناد تماماً. ومثل ذلك احتكاك السّحب المولّد لشرارة البرق.

ودليل ثالث أعجب مما سبق:

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ أي إن من خلق السماوات السَّبع بما فيها من الكواكب السّيارة والثّوابت، والأرضين السَّبع بما فيها من جبال ورمال وبحار وقفار، وهي أعظم من خلق الإنسان، إن من خلق ذلك قادر على خلق مثل البشر وإعادة الأجسام، وهي أصغر وأضعف من السماوات والأرض، بلى هو قادر على ذلك، وهو الكثير الخلق، الواسع العلم، فقوله ﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾ إشارة إلى كمال القدرة، وقوله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ إشارة إلى شمول العلم.

والخلاصة: إن خلق الأشياء العظيمة برهان قاطع على خلق ما دونها، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٤٠/٥٧]، وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٤٦/٣٣].

وتأكيداً للبيان ونتيجة لما سبق، قال تعالى:

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ أي إنما شأنه سبحانه في إيجاد الأشياء وإرادتها أن يقول للشيء: ﴿كُن﴾ فإذا هو كائن فوراً، من غير توقُّف على شيء آخر أصلاً.

ومقتضى ثبوت القدرة التامة لله تعالى: تنزيهه عما وصفوه به، فقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ أي تنزّه الله عما لا يليق به من السوء أو النقص، فهو الذي له ملكية الأشياء كلها، وله القدرة الكاملة على التّصرف فيها كما يريد، وبيده مفاتح كلّ شيء، وإليه لا إلى غيره مرجع العباد بعد البعث في الدار الآخرة، فيجازي كل إنسان بما عمل، فليعبده الناس جميعاً وليوحِّدوه ويطيعوه، تحقيقاً لمصلحتهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

أ - عجباً لأمر الإنسان، سواء العاص بن وائل السَّهْمي، أو أُبيّ بن خلَف الجُمَحي (وهو الأصح) أو أمية بن خلف أو غيرهم، كيف خلقه الله من يسير الماء، وأضعف الأشياء، ثم يصبح مخاصماً ربّه، مجادلاً في الخصومة، مبيّناً للحجة، أي إنه صار بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً خصيماً مبيناً. قال أبو حيان: قبّح تعالى إنكار الكفرة البعث حيث قرر أن عنصره الذي خلق منه هو

نطفة ماء مهين خارج من مخرج النجاسة، أفضى به مهانة أصله أن يخاصم الباري تعالى، ويقول: من يحيي الميت بعد ما رمَّ مع علمه أنه منشأ من موات.

٢ً - لقد نسي هذا الإنسان الضعيف المخلوق أن الله أنشأه من نطفة، ثم جعله إنساناً حيّاً سوياً، فهذا دليل حاضر من نفسه على إمكان البعث، وقد احتج الله عزّ وجلّ على منكري البعث بالنشأة الأولى، فكيف يقول الإنسان: من يحيي هذه العظام البالية؟!

والجواب: أنّ النّشأة الثانية مثل النّشأة الأولى، فمن قدر على النّشأة الأولى قدر على النّشأة الثانية، وأن الله عالم بكلِّ الأشياء، سواء الأجسام العظام أو الذّرات الصغار.

٣ً - في قوله تعالى: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ دليل على أن في العظام حياة، وأنها تنجس بالموت، وهو قول أبي حنيفة، وقال الشافعي: لا حياة فيها.

٤ً - من أدلة وحدانيته تعالى وكمال قدرته على إحياء الموتى: ما يشاهده الناس من إخراج المحروق اليابس من العود الندي الطري، فإن الشجر الأخضر من الماء، والماء بارد رطب ضدّ النار، وهما لا يجتمعان، فأخرج الله منه النار، فيدلّ ذلك على أنه تعالى هو القادر على إخراج الضدّ من الضدّ، وهو على كلِّ شيء قدير.

٥ً - إنّ الذي خلق السماوات والأرض التي هي أعظم من خلق الناس قادر على أن يبعثهم مرة أخرى.

٦ً - إذا أراد الله خلق شيء لا يحتاج إلى تعب ومعالجة، وإنما أمره نافذٌ فوراً، ولا يتوقف على شيء آخر.

٧ً - إن الله تعالى نزّه نفسه عن العجز والشرك، لتعليم الناس، وإبراز الحقيقة، فبيده مفاتح كلّ شيء، ومردّ الناس ومصيرهم بعد مماتهم إليه تعالى، ليحاسب كلّ امرئ على ما قدم في دنياه من خير أو شرّ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الصَّافَّات

مكية، وهي مئة واثنتان وثمانون آية

تسميتها:

سميت سورة (الصّافات) لافتتاحها بالقَسَم الإلهي بالصّافات وهم الملائكة الأطهار الذين يصطفُّون في السماء كصفوف الناس في الصلاة في الدنيا.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من نواحٍ ثلاث:

١ - وجود الشبه بين أول هذه السورة وآخر ﴿يسٓ ۝١﴾ السورة المتقدمة في بيان قدرته تعالى الشاملة لكل شيء في السماوات والأرض، ومنه المعاد وإحياء الموتى؛ لأن الله تعالى كما في ﴿يسٓ ۝١﴾ هو المنشئ السريع الإنجاز للأشياء، ولأنه كما في مطلع هذه السورة واحد لا شريك له؛ لأن سرعة الإنجاز لا تتهيأ إلا إذا كان الخالق الموجد واحداً.

٢ - هذه السورة بعد ﴿يسٓ ۝١﴾ كالأعراف بعد الأنعام، وكالشعراء بعد الفرقان في تفصيل أحوال القرون الماضية، المشار إليهم وإلى إهلاكهم في سورة ﴿يسٓ ۝١﴾ المتقدمة في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٣١﴾ [٣١].

٣ - توضح هذه السورة ما أجمل في السورة السابقة من أحوال المؤمنين وأحوال الكافرين في الدنيا والآخرة.

مشتملاتها:

موضوع هذه السورة كسائر السُّور المكية في بيان أصول الاعتقاد: وهي التوحيد، والوحي والنبوة، وإثبات البعث والجزاء.

وقد تحدثت عن مغيبات ثلاثة: هي الملائكة، والجنّ، والبعث والجزاء في الآخرة، فابتدأت بالكلام عن الملائكة الصّافات قوائمها أو أجنحتها في السماء استعداداً لتنفيذ أمر الله، والزّاجرات السَّحاب لتصريفه كيفما يشاء الله، والذين أقسم الله بهم للدلالة على التوحيد وخلق السماوات والأرض، وتزيينها بالكواكب.

ثم أشارت إلى الجنّ ومطاردتهم بالشّهب الثاقبة المرصودة لهذا الغرض، للرّدّ على المشركين الجاهليين الذين زعموا وجود نسب وقرابة بين الله تعالى وبين الجنّ، وأبانت موقف المشركين من البعث وإنكاره وأحوالهم في الدنيا والآخرة، وردت عليهم ردّاً قاطعاً حاسماً بأنهم محشورون في زجرة ﴿صَيْحَةً﴾ واحدة وهم داخرون ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ وأنهم لا يفتنون إلا ذوي العقول الضعيفة، وتوبيخهم على قولهم: الملائكة بنات الله، وتنزيه الله عن ذلك.

وأبانت هذه السورة أيضاً سوء أحوال الكافرين في القيامة، وذكرتهم بالحوار الذي دار بينهم وبين المؤمنين في الدنيا، ثم حسمت الأمر ببيان مآل كل من الفريقين، حيث يخلد المؤمنون في الجنة التي وصف نعيمها، ويخلد الكافرون في النار التي وصف جحيمها، للعبرة والعظة وبيان العاقبة.

وناسب هذا الاستعراض التذكير الموجز بقصص بعض الأنبياء السابقين، وهم نوح، وإبراهيم، وإسماعيل، وموسى، وهارون، وإلياس، ولوط،

ويونس عليهم السلام. ولكنها فصَّلت قصة إبراهيم في موقفين حاسمين: أولهما - تحطيمه الأوثان. وثانيهما - إقدامه على ذبح ابنه، ليتجلى للناس جميعاً مدى (الإيمان والابتلاء والتضحية) فإنه بادر لتنفيذ أمر ربِّه، ممتحناً صبره، مجتازاً بالإيمان والصدق محنة الابتلاء، مضحّياً في سبيل رضوان الله بابنه الذي رزقه، فأكرمه الله بالفداء الذي جعل سنّة في الأضحية.

كذلك فصلت السورة قصة يونس عليه السلام العجيبة، وإنقاذه من بطن الحوت، لتوبته وكونه من الذاكرين الله، المصلِّين له.

وختمت السورة بالإشارة إلى ما بدئت به من وصف الملائكة بأنهم الصَّافون المسبِّحون، وبيان نصرة الله لأنبيائه وأوليائه في الدنيا والآخرة، ومدح المرسلين وسلام الله عليهم، وتنزيه الله عن أوصاف المشركين، وثناؤه على نفسه وحمده لذاته بأنه ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ و﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

فضل هذه السُّورة:

أخرج النّسائي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتّخفيف، ويؤمّنا بالصّافات».

إعلان وحدانية الله

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾

البلاغة:

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤﴾ التأكيد بإن واللام بسبب إنكار المخاطبين للوحدانية.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١﴾ أقسم الله بالملائكة التي تصف في السماء للعبادة كصفوف الناس في الصلاة في الدنيا، انتظاراً لتنفيذ أمر الله، ويكون ترتيبهم في الصفوف بحسب مراتبهم في التقدّم والفضيلة. ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢﴾ الملائكة التي تزجر السحاب أي تسوقه. وأصل الزّجر: الدّفع بقوة الصوت، يقال: زجرت الإبل والغنم: أي أفزعتها بالصوت والصياح، ثم استعمل في السوق والحثّ على الشيء.

﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣﴾ الملائكة التي تتلو القرآن وتقرؤه. ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝٤﴾ هذا جواب القسم بالملائكة على أن الله واحد لا شريك له، وهو خطاب للمشركين الذين أنكروا التوحيد. ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ۝٥﴾ ربّ ذلك كله: أي خالقه ومالكه، و﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾: مشارق الشمس، أي وربّ المغارب أيضاً، فللشمس كلّ يوم مشرق ومغرب. والمعنى: أن وجود هذه المخلوقات على هذا النحو البديع من أوضح الأدلّة على وجود الله وقدرته.

التفسير والبيان:

أقسم الله تعالى بالملائكة الصّافّات صفوفاً للعبادة أو الصّافّات أجنحتها في السماء، انتظاراً لأمر الله تعالى، والذين هم يقومون بوظائف متعددة، منها: أنهم يسوقون السُّحب إلى مكان معين بالتدبير المأمور به فيها، أو أنهم يزجرون الناس ويردعونهم عن المعاصي بإلهام الخير، ويزجرون الشياطين عن الوسوسة والإغواء.

ومنها: أنهم يتلون آيات الله على أنبيائه، أو على أوليائه. لقد أقسم الله بأن معبودكم أيها المخاطبون الذي يجب إخلاص العبادة له، هو واحد لا شريك له، وهو خالق السماوات والأرض وما بينهما من العوالم والمخلوقات،

ومالك ذلك كله، وهو ربّ مشارق الشمس ومغاربها، فأعلنوا في نفوسكم توحيد الله، وأخلصوا له العبادة، وأفردوه بالطاعة، فوجود هذه المخلوقات من أوضح الدلائل على وجود الصانع وقدرته ووحدانيته.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت الآيات على ما يأتي:

١ - أقسم الله تعالى بالملائكة، ولله أن يقسم بما يشاء، في أي وقت يشاء.

٢ - ذكرت الآيات صفات ثلاثاً للملائكة، وهي: أولاً - وقوف الملائكة صفوفاً إما لأداء العبادات كما أخبر تعالى عنهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ (١٦٥)﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٦٥] ، وإما أنها تصف أجنحتها في الهواء منتظرين وصول أمر الله إليهم، وثانياً - زجر السحاب، أي سوقه وتحريكه والإتيان به من موضع إلى موضع، أو زجر الناس عن المعاصي بالإلهام والتأثير في القلوب، أو زجر الشياطين عن التّعرض لبني آدم بالشّر والإيذاء. وثالثاً - قراءة كتاب الله تعالى في الصلاة، وعلى الأنبياء، والأولياء للتذكير بها وغرس الشرائع في النفوس، والصفة الثالثة مذكورة في آية أخرى هي: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦)﴾ [المرسلات: ٧٧/ ٥-٦] .

هذا.. وقد ورد في السنّة النّبوية حديثان صحيحان عن كيفية صفوف الملائكة:

الأول - ما أخرجه مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعلت صفوفُنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعل لنا ترابها طهوراً إذا لم نجد الماء».

والثاني - ما أخرجه مسلم أيضاً والنسائي وابن ماجه عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا تصفّون كما تصِفّ الملائكة عند

ربِّهم؟ قلنا: وكيف تصفّ الملائكة عند ربِّهم؟ قال ﷺ: يتمّون الصُّفوف المتقدّمة، ويتراصّون في الصَّف».

٣ً - كان جواب هذا القسم العظيم أن الله واحد لا شريك له، ولا ثاني له، فهو قَسَم مشفوع بالبرهان الذي يثبت وحدانية الله تعالى.

وفي كـــلّ شيء لـــه آيـــة تـــدلُّ عـــلى أنـــه واحـــد

٤ً - الدّليل على وجود الله الصانع ووحدانيته وقدرته كونه الخالق المالك للسماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات، ولمشارق الشمس ومغاربها، فللشمس كل يوم مشرق ومغرب بعدد أيام السّنة، تطلع كل يوم من واحد منها، وتغرب في واحد، ولها في كل عام مشرقان: أقصى مشرق في الشمال، وأقصى مشرق في الجنوب. واكتفى بذكر المشارق عن المغارب، لدلالتها عليه، وقد صرح بها في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [المعارج: ٧٠/ ٤٠] ، وفي آية أخرى: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴿١٧﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ١٧] ، يعني في الشتاء والصيف للشمس والقمر، فالآية الأولى لبيان مشرق الشمس الخاص كل يوم، والآية الثانية تبين أن لها في كل عام مشرقين.

تزيين السماء بالكواكب

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ﴿٨﴾ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ﴿١٠﴾﴾

القراءات: ﴿بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾: قرئ:

١- (بزينةٍ الكواكبِ) وهي قراءة حفص، وحمزة.

٢- (بزينةِ الكواكبِ) وهي قراءة الباقين. ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾: قرئ:

١- (لا يَسَّمَّعُون) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (لا يَسْمَعون) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾: بدل من (زينة)، وقرئ بنصب (الكواكب): إما بأن أعمل الزينة في الكواكب، أي زيّنّا الكواكب، مثل ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا﴾ أي أن أطعم يتيماً، وإما بنصبه على البدل من موضع ﴿بِزِينَةٍ﴾ وهو النصب، وإما بنصبه بـ (أعني). وقرئ بترك تنوين (بزينة) وجرّ ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾ على وجهين: الجر على الإضافة، أو بدل من (زينة) وحذف تنوين (بزينة) لالتقاء الساكنين. والإضافة للبيان، أي المبينة بـ ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾.

﴿وَحِفْظًا﴾ منصوب بفعل مقدر، أي حفظناها بالشّهب.

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أتى بـ ﴿إِلَى﴾ وإن كان ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾ لا يفتقر إلى حرف جرّ، إما بحمل ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾ على (يصغون)، وإما بحذف المفعول، وتقديره: لا يسّمّعون القول، مائلين إلى الملأ الأعلى.

﴿دُحُورًا﴾ منصوب على المصدر، تقديره: يدحرون دحوراً.

البلاغة:

﴿كُلِّ جَانِبٍ﴾ ﴿عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ وكذلك في الآية بعدها ﴿طِينٍ لَّازِبٍ﴾ فيها ما يسمى بمراعاة الفواصل أحد المحسنات البديعية.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ هي أقرب السماوات لأهل الأرض، أي القربى منكم،

وهي مؤنث الأدنى. ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾ هي النجوم والأجرام السماوية، وتزيين السماء إما بها أو بضوئها. ﴿مَّارِدٍ﴾ عاتٍ خارج عن الطاعة، وحفظ السماء من الشياطين برميها بالشهب. ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ كلام مستأنف مبتدأ لبيان حالهم بعدما حفظ الله السماء منهم، ولا يجوز جعله صفة لكل شيطان، فإنه يقتضي أن يكون الحفظ من شياطين لا يسمعون. و﴿يَسَّمَّعُونَ﴾ أي يتسمّعون. و﴿ٱلْمَلَإِ﴾ الجماعة المجتمعون على رأي، والمراد بهم هنا الملائكة في السماء. و﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أهل السماء الدنيا فما فوقها. ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ يرجمون بالشهب، وهم الشياطين. ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ من آفاق السماء.

﴿دُحُورًا﴾ طرداً وإبعاداً. ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة. ﴿عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ دائم أو شديد. ﴿ٱلْخَطْفَةَ﴾ مصدر للمرة الواحدة، وهي الاختلاس والأخذ بسرعة على غرّة. والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ من ضمير ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾ أي لا يسمع إلا الشيطان الذي سمع الكلمة من الملائكة، فأخذها بسرعة. ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ﴾ شعلة ساطعة من النار، وهي ما يرى كأن كوكباً انقض. ﴿ثَاقِبٌ﴾ مضيء فيحرقه، أو يثقب ما ينزل عليه.

المناسبة:

هذه الآيات تتضمن دليلاً آخر على وجود الله تعالى وقدرته، ذكر بعد الدليل الأول وهو خلق السماوات والأرض، وتبين أنه تعالى زيّن السماء الدنيا القريبة من البشر لمنفعتين، هما: تحصيل الزينة، والحفظ من الشيطان المارد.

وبالرغم من أن هذه الثوابت مركوزة - كما قال الرازي - في الكرة الثامنة، ما عدا القمر في السادسة، فإن التعبير جاء على وفق الرؤية والنظر حسب الظاهر، فأهل الأرض إذا نظروا إلى السماء، يرونها ويشاهدونها مزينة بهذه الكواكب، كجواهر مشرقة متلألئة على سطحها الأزرق بأشكال مختلفة.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ جمَّل الله سبحانه السماء الدنيا التي هي أقرب السماوات إلى الأرض بزينة جميلة فائقة الجمال هي الكواكب، فإنها في أعين الناظرين لها كالجواهر المتلألئة.

﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾ أي وحفظناها حفظاً من كلِّ شيطان عاتٍ متمرد عن الطاعة، إذا أراد أن يسترق السمع أتاه شهاب ثاقب فأحرقه، لذا قال تعالى:

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي لا تقدر الشياطين أن يتسمّعوا لحديث الملأ الأعلى وهم الملائكة أهل السماء الدنيا فما فوقها؛ لأنهم يرمون بالشهب، وذلك إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى من شرعه وقدره.

وهاتان الخاصتان أو المنفعتان للشهب والكواكب، جاءت آيات كثيرة تقررهما مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾ [الملك: ٦٧/ ٥] ، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾ [الحجر: ١٥/ ١٦-١٨] .

﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي يرمون بالشُّهب من كلِّ جهة يقصدون السماء منها، إذا أرادوا الصعود لاستراق السمع.

﴿دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾ أي يدحرون دحوراً، ويطردون ويمنعون من الوصول إلى ذلك، ولهم في الآخرة عذاب دائم مستمر موجع، كما قال تعالى في الآية المتقدمة: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ أي إلا من اختطف من الشياطين الخطفة، وهي الكلمة، يسمعها من السماء، فيلقيها إلى الذي تحته،

ويلقيها الآخر إلى من تحته، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها بقدر الله تعالى قبل أن يأتيه الشهاب، فيحرقه، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن، كما جاء في الحديث.

فخاطف الكلمة العارضة يتبعه الله بنجم مضيء، أو بشعلة مستنيرة، فتحرقه، وربما لا تحرقه، فيلقي إلى إخوانه الكهان ما خطفه. والخطف: أخذ الشيء بسرعة. والثاقب: المضيء.

والملحوظ الثابت أن الشياطين قبل بعثة نبينا محمد ﷺ كانت تُرمى أحياناً، وأحياناً لا تُرمى، وبعد البعثة تعرضوا للرمي من كل جانب، وزيد في حفظ السماء، فلم يتمكنوا من استراق السمع، إلا بأن يختطف أحدهم كلمة، فيتبعه شهاب ثاقب قبل أن ينزل إلى الأرض، فيلقيها إلى إخوانه، وبهذا بطلت الكهانة، وثبتت النبوة والرسالة[1]، وأصبح المقرر شرعاً منعهم من التنصُّت، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/٢١٢]، وقال سبحانه واصفاً المرحلتين: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ [الجن: ٧٢/٨-٩].

قال الرازي: دلت التواريخ المتواترة على أن حدوث الشهب كان حاصلاً قبل مجيء النبي ﷺ، فإن الحكماء الذين كانوا موجودين قبل مجيء النبي ﷺ بزمان طويل، ذكروا ذلك، وتكلموا في سبب حدوثه، وإذا ثبت أن ذلك كان موجوداً قبل مجيء النبي ﷺ، امتنع حمله على مجيء النبي ﷺ، والأقرب أن هذه الحالة كانت موجودة قبل النبي ﷺ، لكنها كثرت في زمان النبي ﷺ، فصارت بسبب الكثرة معجزة[2].

(١) تفسير القرطبي ١٥/٦٦

(٢) تفسير الرازي ٢٦/١٢١

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - إن تزيين السماء الدنيا بالكواكب لمنفعتين، هما: تحصيل الزينة، والحفظ من الشيطان المارد.

٢ - وصف تعالى أولئك الشياطين بصفات ثلاث: هي أنهم لا يسّمعون إلى الملأ الأعلى وهم الملائكة، وأنهم يقذفون من كل جانب دحوراً، أي طرداً وإبعاداً، ولهم عذاب واصب، أي دائم مستمر موجع.

وسميت الملائكة بالملأ الأعلى؛ لأنهم يسكنون السماوات، وأما الإنس والجنّ فهم الملأ الأسفل؛ لأنهم سكان الأرض.

واختلف العلماء على قولين: هل كان هذا القذف قبل المبعث، أو بعده لأجل المبعث؟ وقد جاءت الأحاديث عن ابن عباس بذلك، وستذكر في سورة «الجن». ويجمع بينها كما تقدم بأنها كانت تُرمى وقتاً، ولا ترمى وقتاً، وتُرمى من جانب ولا تُرمى من جانب، فصاروا يُرمون دائماً واصباً من كل جانب.

٣ - قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ استثناء من قوله: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي لا يسمع الشياطين شيئاً مما يوحيه الله تعالى مما يقوله من شرعه وقدره إلا الشيطان الذي خطِف الخطفة، أي اختلس الكلمة على وجه المسارقة.

ومضمون الأحاديث الصحاح في هذا: أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء، لاستراق السمع، فيقضي الله أمراً من أمور الأرض، فيتحدث به أهل السماء، فيسمعه منهم الشيطان الأدنى، فيلقيه إلى الذي تحته، فربما أحرقه شهاب، وقد ألقى الكلام، وربما لم يحرقه، كما بيَّنا، فتنزل تلك

الكلمة إلى الكهان، فيكذبون معها مئة كذبة، وتصدق تلك الكلمة، فيصدّق الجاهلون جميع الكلام، فلما جاء الله بالإسلام، حرست السماء بشدة، فلا يفلت شيطان سمع شيئاً. والكواكب الراجمة: هي التي يراها الناس تنقضّ. وليست بالكواكب الجارية في السماء؛ لأن هذه لا ترى حركتها، والراجمة ترى حركتها؛ لأنها قريبة منا.

الحشر والنشر والقيامة - إثبات المعاد

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾

القراءات: ﴿عَجِبْتَ﴾: قرئ:

١- (عجبتُ) وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (عجبتَ) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿أَءِذَا﴾ ...﴿أَءِنَّا﴾: قرئ:

١- (إذا.. أئّنا) وهي قراءة ابن عامر.

١- (أئذا... إنّا) وهي قراءة نافع، والكسائي.

٣- (أئذا.. أئّنا) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿مِتْنَا﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (مُتْنا).

﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا﴾ :

وقرأ قالون، وابن عامر (أَوْ آباؤنا).

﴿نَعَمْ﴾ :

وقرأ الكسائي (نَعِم).

الإعراب:

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ تاء ﴿عَجِبْتَ﴾ بالفتح: تاء المخاطب. وقرئ بالضم: إما إخباراً عن الله من إنكار الكفار البعث، مع بيان القدرة على الابتداء، حتى بلغ هذا الإنكار منزلة يقال فيه: عجبت، وإما بتقدير: قل عجبت، وحذف القول في كلام العرب كثير.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ قال الزمخشري: ﴿فَإِنَّمَا﴾ جواب شرط مقدر، وتقديره: إذا كان ذلك، فما هي إلا زجرة واحدة.

البلاغة:

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ طباق بين التعجب والسخرية.

المفردات اللغوية:

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ فاستخبر مشركي مكة المنكرين للبعث أو بني آدم، إما على سبيل التقرير أو التوبيخ. ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾ أهم أقوى أجساماً وأعظم أعضاء وأشق إيجاداً، أم من خلقنا من الملائكة والسماوات والأرض وما بينهما، والمشارق، والكواكب، والشهب الثواقب؟ والإتيان بمن هنا: لتغليب العقلاء. ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم﴾ أي خلقنا أصلهم آدم. ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ أي لزج يلصق باليد. والمعنى: كيف يستبعدون المعاد، وهم مخلوقون من هذا

الخلق الضعيف؟ وإن خلقهم ضعيف، فلا يتكبروا بإنكار النبي والقرآن المؤدي إلى هلاكهم اليسير.

﴿بَلْ﴾ للانتقال من غرض إلى آخر، وهو الإخبار بحال النبي ﷺ وبحالهم ﴿عَجِبْتَ﴾ يا محمد من تكذيبهم إياك، ومن إنكارهم قدرة الله تعالى وإنكار البعث. ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ أي وهم يستهزئون من تعجبك ومما تقوله من إثبات البعث.

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي وإذا وعظوا بالقرآن لا يتعظون.

﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ معجزة دالة على الصدق من معجزات الرسول ﷺ، كانشقاق القمر. ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يبالغون في السخرية والاستهزاء. ﴿وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ أي وقالوا: ما هذا الذي تأتينا به وهو القرآن إلا سحر ظاهر واضح.

﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي أنبعث إذا متنا، وكرروا الهمزة مبالغة في الإنكار، وإشعاراً بأن البعث في رأيهم مستنكر في نفسه، وفي هذه الحالة أشد استنكاراً. ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ الهمزة للاستفهام، وهو عطف بالواو على محل إن واسمها: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أو عطف على ضمير: ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ والفاصل همزة الاستفهام، أي أو آباؤنا الأولون مبعوثون؟

﴿قُلْ نَعَمْ﴾ تبعثون. ﴿وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ صاغرون ذليلون. ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي صيحة واحدة، وهو جواب شرط مقدر، أي إذا كان ذلك، فإنما البعث زجرة، أي صيحة واحدة هي النفخة الثانية، يقال: زجر الراعي غنمه، أي صاح عليها وأمرها بالإعادة. ﴿فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي فإذا الخلائق قيام من مراقدهم أحياء، ينظرون ما يفعل بهم. ﴿وَقَالُوا﴾ الكفار. ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ هلاكنا، وهو مصدر لا فعل له من لفظه، ويقال وقت الهلاك. ﴿الدِّينِ﴾

الحساب والجزاء. ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ الحكم والقضاء بين الخلائق وتمييز المحسن من المسيء. وهو من قول الملائكة.

المناسبة:

افتتح الله تعالى هذه السورة بإثبات وجود الخالق وقدرته ووحدانيته بدليل واضح وهو خلق السماوات والأرض وما بينهما، وخلق المشارق والمغارب، وأعقب ذلك بإثبات المعاد وهو الحشر والنشر والقيامة.

ومن المعلوم أن المقصد الأصلي للقرآن الكريم هو إثبات الأصول الأربعة: وهي الإلهيات، والمعاد، والنبوة، وإثبات القضاء والقدر.

التفسير والبيان:

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ أي سل أيها الرسول هؤلاء المنكرين للبعث: أيهم أشد خلقاً، أي أصعب إيجاداً، هم أم السماوات والأرض وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ والآية نزلت في الأشد ابن كَلَدة وأمثاله، سمي بالأشد لشدة بطشه وقوته.

والسؤال للتوبيخ والتقريع، فإنهم يقرون أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم، وإذا كان الأمر كذلك، فلم ينكرون البعث؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا، كما قال الله عز وجل: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٤٠/٥٧] وقال سبحانه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٣٦/٨١].

ثم أوضح الله تعالى مدى هذا التفاوت، فقال:

﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ أي إنا خلقناهم أصلهم وهو آدم من طين لزج

يلتصق باليد. فإذا كانوا مخلوقين من هذا الشيء الضعيف، فكيف يستبعدون المعاد؟ وهو إعادة الخلق من التراب أيضاً، أو من الماء الذي خالط التراب إذا مات الإنسان في الماء، ولم ينكر ذلك من هو أقوى منهم خلقاً وأعظم وأكمل. والمعنى: أن هذه الأجسام قابلة للحياة، إذ لو لم تكن قابلة للحياة، لما صارت حية في المرة الأولى، والإله قادر على خلق هذه الحياة في هذه الأجسام.

ثم انتقل البيان القرآني من أسلوب لأسلوب، فقال تعالى:

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي لا حاجة لاستفتائهم، فهم قوم معاندون، وأنت يا محمد تتعجب من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث؛ لأنك موقن إيقاناً تاماً بصنع الله وقدرته، وبما أخبر الله تعالى به من إعادة الأجسام بعد فنائها، وهم على النقيض من ذلك يسخرون ويستهزئون مما تقول لهم من إثبات البعث، ومما تريهم من الأدلة والآيات. أو عجبتَ من قدرة الله على هذه الخلائق العظيمة، وهم يسخرون منك ومن تعجبك ومما تريهم من آثار قدرة الله، أو عجبت من إنكارهم البعث وهم يسخرون من أمر البعث.

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي وإذا وعظوا بموعظة من مواعظ الله ورسوله، لا يتعظون ولا ينتفعون بها، لاستكبارهم وعنادهم وقسوة قلوبهم.

﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي وإذا شاهدوا دليلاً واضحاً، أو معجزة من معجزات الرسول ﷺ التي ترشدهم إلى التصديق والإيمان، يبالغون في السخرية والاستهزاء، ويتنادون للتهكم والتضاحك، ومشاركة الآخرين في السخرية.

﴿وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ أي وقالوا: ما هذا الذي تأتينا به من الدلائل إلا سحر واضح ظاهر، فلا يؤبه له، ولا ننخدع به، وهو من تراث الأقدمين المشعوذين.

ثم خصصوا إنكارهم بالبعث، فقالوا:

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾﴾؟ أي إن من أعجب ما تقول: أنبعث أحياء بعد أن متنا، وصرنا تراباً وعظاماً نخرة؟

﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾؟ وهل يبعث أيضاً آباؤنا وأجدادنا الأقدمون الغابرون الذين مضى على موتهم أحقاب طويلة الأمد؟ فإن بعثهم أشد غرابة.

فأجابهم الله تعالى بقوله:

﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي قل أيها الرسول لهم: نعم، تبعثون أحياء مرة أخرى، بعد صيرورتكم تراباً، وأنتم في هذا الحشر والنشر صاغرون ذليلون حقيرون تحت القدرة العظيمة، كما قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٢٧/٨٧] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٤٠/٦٠].

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي إن الأمر سهل جداً في قدرة الله، وليس البعث صعباً ولا عسيراً، فإنما البعث صيحة واحدة من إسرافيل بالنفخ في الصور بأمر واحد من الله عز وجل يدعوهم للخروج من الأرض، فإذا الناس قاطبة قيام من مراقدهم في الأرض، أحياء بين يدي الله تعالى، ينظرون إلى أهوال يوم القيامة.

ثم حكى الله تعالى ملامتهم لأنفسهم إذا عاينوا أهوال القيامة بقوله:

﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾ أي وقال منكرو البعث الذين كذبوا به في الدنيا: لنا الويل والهلاك، فقد حلّ موعد الجزاء والعقاب على ما قدمنا من أعمال من الكفر بالله والتكذيب للرسل. دعوا على أنفسهم بالويل والثبور والهلاك؛ لأنهم يومئذ يعلمون ما حلّ بهم.

فأجابتهم الملائكة بقولهم:

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي هذا يوم الحكم والقضاء المبرم بين الناس، الذي يفصل فيه بين المحسن والمسيء، ويبين المحق من المبطل، ففريق في الجنة وفريق في السعير.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - استدل الله تعالى على إثبات المعاد من وجهين:

أحدهما - أنه تعالى قدر على ما هو أصعب وأشد وأشق من خلق الإنسان وهو خلق السماوات والأرض والجبال والبحار، فوجب أيضاً أن يقدر على إعادة خلق الإنسان.

الثاني - أنه تعالى قدر على خلق الإنسان في المرة الأولى، والفاعل وهو الله والقابل للخلق وهو الإنسان باقيان كما كانا، فوجب أن تبقى القدرة عليه في الحال الثانية، وهي البعث أو الحشر والنشر.

فدلّ ذلك على أن البعث والقيامة أمر جائز ممكن.

٢ً - كان خلق آدم عليه السلام من الطين، وكذا خلق كل إنسان من الطين؛ لأن تكوينه من الدم، والدم يتولد من الغذاء، والغذاء إما حيواني وإما نباتي، وحياة الحيوان والنبات من تراب الأرض، فمنه تنتج الثمار والحبوب والأعشاب وغيرها بعد سقيها بالماء.

٣ً - لقد تعجب الرسول ﷺ من إنكار مشركي مكة وغيرهم للبعث، لما استقر في قلبه من مشاهدة قدرة الله العظمى، وعجيب صنعه، ومبلغ إرادته ومشيئته.

٤ً - بعد تقرير الله تعالى الدليل القاطع في إثبات إمكان البعث والقيامة حكى الله تعالى أشياء عن المنكرين:

أولها - تعجب النبي ﷺ من إصرارهم على الإنكار، وهم يسخرون منه في إصراره على الإثبات، كما تقدم، مما يدل على أن أولئك الأقوام كانوا في غاية التباعد، وفي طرفي النقيض.

ثانيها- أنهم إذا وُعظوا بالقرآن وغيره من المسلَّمات العقلية لا يتعظون ولا ينتفعون به.

ثالثها - أنهم إذا رأوا معجزة يبالغون في السخرية ويدعون غيرهم إلى مشاركتهم في السخرية والاستهزاء.

رابعها - أن سبب سخريتهم من الآية والمعجزة اعتقادهم أنها من باب السحر.

٥ً - بعد إثبات إمكان البعث والقيامة بالدليل العقلي، أقام الله تعالى الدليل السمعي القاطع على وقوع القيامة بقوله: ﴿نَعَمْ﴾ جواباً على إنكارهم البعث، بعد الموت وصيرورتهم وأسلافهم تراباً وعظاماً بالية.

٦ً - وبعد الإثبات بالدليلين العقلي والسمعي لجواز حدوث القيامة ووقوعها ذكر تعالى بعض أحوال القيامة وهي ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن القيامة ما هي إلا صيحة واحدة من إسرافيل بالنفخ في الصور، بأمر الله لدعوة الناس للخروج من الأرض، فيمتثلون فوراً، وإذا هم قيام من قبورهم أحياء، ينظرون إلى أهوال القيامة، وإلى بعضهم بعضاً.

الحالة الثانية: من وقائع القيامة أن المكذبين بعد القيام من القبور

يقولون: يا هلاكنا، هذا هو الجزاء الذي نُجازى فيه على أعمالنا من الكفر وتكذيب الرسل.

الحالة الثالثة - تجيبهم الملائكة: هذا يوم الفصل الحاسم، يوم الحكم والقضاء، الذي يفصل فيه بين المحسن والمسيء.

مسؤولية المشركين في الآخرة وأسبابها

﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

القراءات:

﴿صِرَٰطِ﴾:

وقرأ قنبل (سراط).

﴿قِيلَ﴾:

بإشمام كسرة القاف الضم، قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

الإعراب:

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ ﴿مَا﴾: استفهامية، مبتدأ، و﴿لَكُمْ﴾: خبره، و﴿لَا تَنَاصَرُونَ﴾: جملة في موضع نصب على الحال من الضمير المجرور في ﴿لَكُمْ﴾ مثل: ما لك قائماً.

﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ موضع الجملة إما منصوب على أنه خبر «كان» وجملتها في موضع رفع خبر إن، وإما مرفوع على أنه خبر «إن» و«كان» ملغاة.

البلاغة:

﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أسلوب تهكمي في الهداية؛ لأنها تكون إلى طريق النعيم، لا إلى صراط الجحيم.

﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ استعارة لجهة الخير أو للقوة والشدة أو لجهة الدين.

﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ إيجاز بالحذف، أي قولوا: لا إله إلا الله، وحذف لدلالة السياق عليه.

المفردات اللغوية:

﴿احْشُرُوا﴾ يقال للملائكة: اجمعوا، من الحشر: وهو الجمع .﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالشرك فهم المشركون، وهو أمر من الله للملائكة بحشر الظلمة من مقامهم إلى الموقف .﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أمثالهم وأشباههم، فيحشر عابد الصنم مع عبدة الصنم، وعابد الكواكب مع عبدتها، وأصحاب الخمر معاً، وأصحاب الزنى معاً. وقيل: أزواجهم: قرناؤهم من الشياطين .﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، مِن دُونِ اللَّهِ﴾ يحشر المعبودون من غير الله من الأصنام والأوثان وغيرها، زيادة في تحسيرهم وتخجيلهم، وهو عام مخصوص بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠١] .

﴿فَٱهۡدُوهُمۡ﴾ دلوهم وعرفوهم طريقها ليسلكوه .﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ طريق النار .﴿وَقِفُوهُمۡۖ﴾ احبسوهم في الموقف أو عند الصراط[١] ﴿إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ عن عقائدهم وأعمالهم .﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ لا ينصر بعضكم بعضاً بالتخليص من العذاب كحالكم في الدنيا، وهذا يقال لهم توبيخاً وتقريعاً. ﴿بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ منقادون خاضعون لعجزهم، وأصل الاستسلام: طلب السلامة، ويلزمه الانقياد عرفاً. وهذا أيضاً يقال لهم.

﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يتلاومون ويتخاصمون، فيسأل بعضهم بعضاً للتوبيخ. ﴿قَالُوٓاْ﴾ قال الأتباع للمتبوعين .﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ عن أقوى الوجوه، وعن جهة الخير التي نأمنكم منها، لحلفكم أنكم على الحق، فصدقناكم واتبعناكم. والمعنى: أنكم أضللتمونا .﴿قَالُواْ﴾ قال المتبوعون لهم .﴿بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ أي إنكم كنتم في الأصل غير مؤمنين، فلم يحدث منا الإضلال الذي يؤدي إلى الرجوع عن الإيمان إلينا .﴿مِّن سُلۡطَٰنِۭ﴾ تسلط عليكم، وقوة وقهر، نقهركم على متابعتنا .﴿طَٰغِينَ﴾ مختارين الطغيان والضلال مثلنا، ومتجاوزين الحد في العصيان.

﴿فَحَقَّ عَلَيۡنَا﴾ وجب علينا جميعاً .﴿قَوۡلُ رَبِّنَآۖ﴾ بالعذاب، وهو: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ .﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ إنا جميعاً لذائقون العذاب بذلك القول .﴿فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ﴾ دعوناكم إلى الغيّ والضلال .﴿غَٰوِينَ﴾ ضالين .﴿فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ هذا قول الله تعالى، فإنهم يوم القيامة جميعاً الأتباع والمتبوعون مشتركون في العذاب؛ لاشتراكهم في الغواية. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾ أي مثل ذلك الفعل نفعل بالمشركين غير هؤلاء، أي نعذبهم، سواء التابع منهم والمتبوع.

(١) الواو لا توجب الترتيب، فيصح أن يكون الحبس والإيقاف في الموقف، ويجوز أن يكون عند الصراط.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ﴾ أي إن هؤلاء. ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن كلمة التوحيد أو على من يدعوهم إليها. ﴿لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ يعنون محمداً ﷺ. ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ ردّ من الله تعالى عليهم، فإن هذا النبي ﷺ جاء بالقرآن المشتمل على الوعد والوعيد، وإثبات الآخرة. والمعنى: إن ما جاء به من التوحيد حق ثبت بالبرهان، وتوافق عليه المرسلون.

المناسبة:

بعد إثبات وجود الله وعلمه وقدرته ووحدانيته، وإثبات القيامة، ذكر تعالى أحوال الكفار في الآخرة حيث يساقون إلى نار جهنم، دون أن يجدوا لهم نصيراً وعوناً يخلصهم من العذاب، ثم يتلاومون فيما بينهم، ويتخاصم الأتباع والمتبوعون، ولكنهم جميعاً متساوون في العذاب، بسبب إعراضهم استكباراً عن كلمة التوحيد في الدنيا، وافترائهم على الرسول ﷺ بأنه ﴿لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ مع أنه جاء بالحق الثابت الذي لا محيد عنه وهو التوحيد الذي دعا إليه المرسلون جميعاً.

التفسير والبيان:

﴿۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يأمر الله الملائكة بجمع أصناف ثلاثة في موقف الحساب: وهم الظالمون المشركون، وأزواجهم أمثالهم وأشباههم، ومعبودوهم الذين كانوا يعبدونهم من غير الله، من الأوثان والأصنام معاً، زيادة لهم في الحسرة والتخجيل على شركهم ومعصيتهم. والظلم هنا: الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ٣١/١٣].

فهذا خطاب من الله للملائكة، أو خطاب الملائكة بعضهم لبعض، أي اجمعوا الظالمين ونساءهم الكافرات وأنواعهم وضرباءهم.

يحشر المشركون وأشباههم في الشرك ومتابعوهم في الكفر ومشايعوهم في تكذيب الرسل وقرناؤهم من الشياطين، يحشر كل كافر مع شيطانه. كذلك يحشر أصحاب المعاصي بعضهم مع بعض، فيجمع أهل الزنى معاً، وأهل الربا معاً، وأصحاب الخمر معاً.. وهكذا.

﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي أرشدوا وعرّفوا هؤلاء المحشورين طريق جهنم، زيادة في ازدرائهم والتهكم بهم.

﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي احبسوهم في الموقف للحساب والسؤال عن عقائدهم وأقوالهم وأعمالهم التي صدرت منهم في الدنيا. وفي الحديث الذي أخرجه الترمذي عن ابن مسعود: «لا تزول قَدَما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيمَ أفناه، وعن شبابه فيمَ أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم».

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: ما بالكم لا ينصر بعضكم بعضاً؛ كما كنتم في الدنيا؟ وذلك أن أبا جهل قال يوم بدر: نحن جميع منتصر، فقيل لهم يوم القيامة: ما لكم غير متناصرين؟

﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي بل إنهم اليوم منقادون لأمر الله، لا يخالفونه، ولا يحيدون عنه، لعجزهم عن الحيلة، فلا ينازعون في شيء أبداً.

وفي هذا الموقف في ساحات القيامة، يتلاومون فيما بينهم، ويتخاصم الأتباع والرؤساء، فقال تعالى:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي أقدم الأتباع والرؤساء من هؤلاء الكفار، يسأل بعضهم بعضاً سؤال توبيخ وتقريع ومخاصمة، في موقف القيامة، كما يتخاصمون في دركات النار، كما في آية: ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ

ٱلنَّارِ ، قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر: ٤٠/٤٧-٤٨] .

﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾ أي قال الأتباع للرؤساء: إنكم كنتم تأتوننا من جهة الخير، فتصدوننا عنه. وقيل: إن اليمين مجاز مستعار من القوة والقهر، أي كنتم تأتوننا من ناحية القهر والقوة وبحكم السيطرة والرياسة لكم علينا في الدنيا، حتى تحملونا على الضلال، وتقسرونا عليه. وقيل: تأتوننا من جهة الدِّين، فتهونون علينا أمره وتنفروننا عنه، كما هو الشأن اليوم في كثير من الرؤساء والرفاق.

وكلمة ﴿قَالُوٓاْ﴾ جواب عن سؤال مقدر، فهو استئناف بياني.

فأجاب الرؤساء بجوابين:

١ - ﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي بل إنكم أنتم أبيتم الإيمان، وأعرضتم عنه، مع تمكنكم منه، مختارين الكفر، فقلوبكم هي القابلة للكفر والعصيان، وكنتم من الأصل على الكفر. وكلمة ﴿قَالُواْ﴾ أي المخاطبون وهم قادة الكفر أو الجن.

٢ - ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾ أي لم يكن لنا عليكم من حجة وتسلط نسلبكم به اختياركم وتمكنكم، بل كان فيكم طغيان وتجاوز الحد في الكفر، ومجاوزة للحق الذي جاءتكم به الأنبياء، وكنتم مختارين الطغيان، فلهذا استجبتم لنا وتركتم الدين الحق، وما كان منا إلا الدعوة، وكانت منكم الإجابة اختياراً لا جبراً.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ أي وجب علينا وعليكم حكم ربنا، ولزمنا قول ربنا، وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٨٥] . فلنذوقن ما وعدنا به، ونحن ذائقو العذاب لا محالة يوم

القيامة. قال أبو حيان: والظاهر أن قوله: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ إخبار منهم أنهم ذائقون العذاب جميعهم الرؤساء والأتباع.

﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي إنا أضللناكم، ودعوناكم إلى الضلالة، وإلى ما نحن فيه من الغَواية، فاستجبتم لنا.

ثم بعد هذا النقاش والجدل بين الأتباع والرؤساء، وصف الله تعالى العذاب الذي يحل بالفريقين، فقال:

﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي إن التابعين والمتبوعين أو الأتباع والقادة مشتركون حينئذ جميعاً في العذاب لا محالة، كما اشتركوا في الضلال والكفر، والجميع في النار، كل بحسبه.

واشتراكهم في العذاب عدل ككل المجرمين الكافرين، لذا قال تعالى:

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾ أي مثل ذلك الجزاء نفعل بالمشركين، ويجازى كل عامل بما قدم.

وسبب العذاب هو ما قاله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي إنهم كانوا إذا دعوا إلى كلمة التوحيد وهي لا إله إلا الله، استكبروا عن القبول، وأعرضوا عن قولها كما يقولها المؤمنون.

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ أي أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا لقول شاعر مجنون، يسرح في الخيال، ويخلط في الأقوال، يعنون رسول الله ﷺ. وبهذا أنكروا في الكلام الأول الوحدانية، وفي الثاني أنكروا الرسالة.

فردَّ الله عليهم تكذيباً لهم بقوله:

﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ أي إن النبي ﷺ جاء بالحق في جميع ما شرعه الله له، وأوله التوحيد، وصدَّق في ذلك الأنبياء المرسلين فيما جاؤوا به من التوحيد والوعد والوعيد وإثبات المعاد، ولم يخالفهم في تلك الأصول، ولا جاء بشيء يغاير ما أتوا به من قبله، فكيف يصح وصفه بالشاعر أو المجنون؟ قال تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤١/ ٤٣] وقال سبحانه: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٣١] .

فقه الحياة أو الأحكام:

يستفاد من الآيات ما يلي:

أ - يحشر الملائكة ويسوقون بأمر الله تعالى الكفار إلى موقف السؤال، وهم ثلاثة أنواع: الظالمون، وأزواجهم (أمثالهم) والأشياء التي كانوا يعبدونها. والمراد بالظالمين: الكافرون؛ لكونهم عابدين لغير الله تعالى.

وهذا يدل على أن الظالم المطلق هو الكافر، ويفهم منه أن كل وعيد ورد في حق الظالم، فالمراد منه الكفار، ويؤكده قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٤] .

وقوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ فسر بأقوال ثلاثة الظاهر منها أولها، ويجوز إرادتها كلها:

الأول - أشباههم من الكفرة، فاليهودي مع اليهودي، والنصراني مع النصراني، وهكذا؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٧] .

الثاني - قرناؤهم من الشياطين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٠٢] .

الثالث - المراد: نساؤهم اللواتي على دينهم.

٢ً - يوقف الكفار للحساب ثم يساقون إلى النار، فيكون الإيقاف أو الحبس قبل السوق إلى الجحيم، ويكون بين الآيتين ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾ و﴿وَقِفُوهُمْ﴾ تقديم وتأخير. وقيل: يساقون إلى النار أولاً، ثم يحشرون للسؤال إذا قربوا من النار، ويكون سؤالهم عن عقائدهم وأقوالهم وأفعالهم.

وهذا كله دليل على أن الكافر يحاسب.

٣ً - يقال لهم على جهة التقريع والتوبيخ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي لا ينصر بعضكم بعضاً، فيمنعه من عذاب الله.

٤ً - في ذلك الموقف الرهيب لا حيلة لهم، وهم منقادون خاضعون لأمر الله، مستسلمون لعذاب الله عز وجل.

٥ً - تظهر هناك صورة من النقاش والجدل والتخاصم والتلاوم بين الرؤساء والأتباع؛ لقوله سبحانه: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً، والمراد بالتساؤل: التخاصم، فليس المقصود منه تساؤل المستفهمين، بل هو تساؤل التوبيخ واللوم.

يقول الأتباع لمن دعوهم إلى الضلالة: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي تأتوننا عن طريق الخير وتصدوننا عنها، أو تأتوننا عن اليمين التي نحبها ونتفاءل بها لتغرونا بذلك من جهة النصح، والعرب تتفاءل بما جاء عن اليمين وتسميه السانح، أو تأتوننا من قبل الدِّين، فتهونون علينا أمر الشريعة وتنفروننا عنها. قال القرطبي عن الأخير: وهذا القول حسن جداً؛ لأن من جهة الدين يكون الخير والشر، واليمين بمعنى الدِّين، أي كنتم تزينون لنا الضلالة.

وقيل: اليمين بمعنى القوة، أي تمنعوننا بقوة وغلبة وقهر، قال الله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٩٣] أي بالقوة، وقوة الرجل في يمينه.

فيجيبهم الرؤساء: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي لم تؤمنوا قط حتى ننقلكم من الإيمان إلى الكفر، بل كنتم على الكفر وألفتموه. ولم يكن لنا عليكم سلطان وقهر وحجة في ترك الحق، بل كنتم قوماً ضالين متجاوزين الحد، فوجب علينا وعليكم قول ربِّنا، فكلنا ذائقو العذاب، كما أخبر الله على ألسنة الرسل: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ٣٢/١٣] .

وقالوا أيضاً: لقد أغويناكم وأضللناكم، أي زينا لكم ما كنتم عليه من الكفر، إنا كنا غاوين بالوسوسة والاستدعاء.

٦ - ثم أخبر الله تعالى عنهم: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي يكون القادة والأتباع جميعاً في نار جهنم، سواء الضال والمضل، كل بحسبه.

٧ - إن مقتضى العدل الإلهي والسنن الرباني أن يعاقب المجرمون المشركون على جرمهم العظيم، وهو إنكار الوحدانية والاستكبار عن كلمة التوحيد، وتكذيب الرسل، أو التكذيب بالتوحيد، والتكذيب بالنبوة.

وقد صدر منهم الأمران جميعاً، أما إنكار التوحيد ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ وأما تكذيب الرسل فهو في قوله سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ أي لقول شاعر مجنون، فجمعوا بين إنكار الوحدانية وإنكار الرسالة.

فردّ الله عز وجل عليهم بقوله: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ أي إن الرسول ﷺ جاء بالقرآن والتوحيد، وصدَّق الأنبياء المرسلين قبله فيما جاؤوا به من التوحيد ونفي الشريك.

جزاء الكافرين وجزاء المؤمنين المخلصين

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (المخلِصين).

﴿بِكَأْسٍ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (بكاس).

﴿يُنزَفُونَ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (يُنْزِفُون).

﴿أَءِذَا﴾ ... ﴿أَءِنَّا﴾: قرئ:

١- (إذا.. أَئِنّا) وهي قراءة ابن عامر.

١- (أئذا... إنّا) وهي قراءة نافع، والكسائي.

٣- (أئذا.. أئِنّا) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿مِتْنَا﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (مُتْنا).

الإعراب:

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ ﴿ٱلْعَذَابِ﴾: مجرور بالإضافة، من إضافة الفاعل لمفعوله. وقرئ بنصب العذاب على تقدير النون في ﴿لَذَآئِقُواْ﴾ كما يقال: ولا ذاكر الله إلا قليلاً.

﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ ﴿فَوَٰكِهُ﴾: بدل من ﴿رِزْقٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾.

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾﴾ ظرف أو حال من ضمير ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ أو خبر ثان لأولئك. وكذلك ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ إما حال أو خبر.

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ ﴿غَوْلٌ﴾: مبتدأ، و﴿فِيهَا﴾: خبره، ولا يجوز أن يبنى ﴿غَوْلٌ﴾ مع ﴿لَا﴾ للفصل بينهما بـ ﴿فِيهَا﴾.

﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ بفتح نون ﴿مُّطَّلِعُونَ﴾ وقرئ بالكسر، وهو ضعيف جداً؛ لأنه جمع بين نون الجمع والإضافة، وكان ينبغي أن يكون «مطلعيّ» بياء مشددة؛ لأن النون تسقط للإضافة.

﴿فَٱطَّلَعَ﴾ بالتشديد، وقرئ بالتخفيف «اطْلَع» وهما فعلان ماضيان.

﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ ﴿مَوْتَتَنَا﴾: منصوب على المصدر، كأنه قال: ما نحن نموت إلا موتتنا الأولى، كما تقول: ما ضربت إلا ضربة واحدة.

البلاغة:

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب من إنهم إلى إنكم، لزيادة التقبيح والتشنيع عليهم.

﴿قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ كناية، كنّى بذلك عن الحور العين؛ لأنهن عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن.

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ تشبيه مرسل مجمل، حذف منه وجه الشبه، فصار مجملاً.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ بالإشراك وتكذيب الرسل ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إلا مثل ما عملتم، أو جزاء ما عملتم ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أي المؤمنين الذين أخلصوا لله في العبادة، أو أخلصهم الله لعبادته واصطفاهم لدينه، وهو استثناء منقطع ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ﴾ في الجنة ﴿رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي معروف الخصائص من الدوام والانتظام وتمحض اللذة ﴿فَوَٰكِهُ﴾ ما يؤكل تلذذاً لا لحفظ الصحة والتغذي؛ لأن أهل الجنة مستغنون عن حفظها، بخلق أجسامهم للأبد ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ أي ولهم من الله إكرام عظيم برفع درجاتهم عنده، وسماع كلامه تعالى ولقائه في الجنة. وهم أيضاً مكرمون في نيل الرزق، فإنه يصل إليهم من غير تعب ولا سؤال، كما عليه رزق الدنيا ﴿فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾﴾ أي في جنات ليس فيها إلا النعيم.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾ أي على أسرّة يتكئون عليها، ينظر بعضهم إلى وجوه بعض، كل منهم مسرور بلقاء أخيه، لا ينظر بعضهم قفا بعض. ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ على كل منهم ﴿بِكَأْسٍ﴾ بإناء فيه الشراب ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ أي من خمر يجري على وجه الأرض، كالعيون والأنهار ﴿بَيْضَآءَ﴾ أشد بياضاً من اللبن

﴿لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ أي لذيذة لمن شربها، بخلاف خمر الدنيا، فإنها كريهة عند الشرب، قال الحسن البصري: خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن، له لذة لذيذة ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي لا تغتال عقولهم فتذهب بها، ولا يصيبهم منها مرض ولا صداع ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ يسكرون، بخلاف خمر الدنيا. قرئ بفتح الزاي وكسرها، من نزف الشارب وأنزف: سكر، فهو نزيف ومنزوف.

﴿قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قصرن أبصارهن على أزواجهن، فلا يردن غيرهم ﴿عِينٌ﴾ أي ضخام الأعين حسانها، جمع عيناء: وهي المرأة الواسعة العين مع حسنها ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ شبههن في الصفاء والبياض المخلوط بشيء من الصفرة ببيض النعام المستور بريشه من الريح والغبار. والمكنون: المصون من الغبار ونحوه. وهذا اللون وهو البياض المشوب بصفرة أحسن ألوان النساء.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي أقبل بعض أهل الجنة على بعض، حال شربهم، يسألون عن أحوالهم التي كانت في الدنيا، وذلك من تمام نعيم الجنة ﴿قَرِينٌ﴾ خليل وصاحب في الدنيا، كافر بالبعث، منكر له. ﴿لَمَدِينُونَ﴾ مجزيون بأعمالنا، ومحاسبون بها، بعد أن صرنا تراباً وعظاماً؟ ﴿قَالَ﴾ المؤمن ذلك القائل لإخوانه ﴿مُّطَّلِعُونَ﴾ معي إلى النار، لننظر حال ذلك القرين الذي قال لي تلك المقالة، كيف منزلته في النار؟

﴿فَٱطَّلَعَ﴾ ذلك المؤمن إلى النار ﴿فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ رأى قرينه في وسط النار ﴿قَالَ﴾ له شماتة ﴿إِن كِدتَّ﴾ قاربت، و﴿إِن﴾: مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن واللام هي الفارقة ﴿لَتُرْدِينِ﴾ لتهلكني بإغوائك وتوقعني في النار ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى﴾ ورحمته علي بالإيمان والهداية ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ معك في النار، المسوقين للعذاب ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾﴾ أي أنحن مخلدون غير ميتين؟ وهو قول أهل الجنة ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ غير موتتنا

التي في الدنيا، وهذا قول صادر من دواعي الابتهاج والسرور بما أنعم الله عليهم من نعيم الجنة الذي لا ينقطع، فهو استفهام تلذذ وتحدث بنعمة الله تعالى، من تأبيد الحياة وعدم التعذيب ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي لسنا بمعذبين.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ أي إن ما فيه أهل الجنة من النعمة والخلود والأمن من العذاب، لهو الفوز الساحق الذي لا يقدر قدره. ويحتمل أن يكون هذا من كلام أهل الجنة، وأن يكون كلام الله تقريراً لما يقولون. ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي هذه هي التجارة الرابحة، وهو الهدف الأمثل الذي يسعى إليه العاملون، لا العمل للدنيا الزائفة، فلنيل مثل هذا يجب أن يعمل العاملون، لا لحظوظ الدنيا المشوبة بالآلام، السريعة الزوال. ويحتمل أن يكون هذا أيضاً من كلام أهل الجنة أو كلام الله.

المناسبة:

بعد أن حكى الله تعالى تكذيب الكفار بالتوحيد وبالنبوة، نقل الكلام من الغيبة إلى الحضور، مبيناً أن حوار الأتباع والرؤساء من أهل الضلال لا فائدة فيه، فإن العذاب شامل الفريقين، وإن الجزاء العدل في الآخرة على وفق العمل في الدنيا، ثم استثنى الله تعالى العباد الذين اصطفاهم لطاعته، وأخلصوا العبادة لربهم، فهم في ألوان متنوعة من النعيم المادي في الجنة من مآكل ومشارب وملابس وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وكذا من النعيم المعنوي حيث لا يشغلهم همّ ولا نَصَب، ويستذكرون أحوالهم في الدنيا، وأحاديثهم مع بعض القرناء الأخلاء.

التفسير والبيان:

يبين الله تعالى حال المكذبين الضالين، وهو أيضاً خطاب للناس، فيقول:

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ أي إنكم أيها الكفار لتذوقن العذاب المؤلم في نار جهنم الذي يدوم ولا ينقطع.

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي إن جزاءكم لحق وعدل لا ظلم فيه، وهو عقابكم على أعمالكم من الكفر والمعاصي، فهي سبب الجزاء: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤١/٤٦] ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٨/٤٩].

بعد بيان حال المجرمين المتكبرين عن قبول التوحيد المصرّين على إنكار النبوة، ذكر تعالى حال المخلصين في كيفية الثواب، فقال:

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي ولكن عباد الله الذين أخلصهم الله لطاعته وتوحيده، وأخلصوا العمل لله، ناجون لا يذوقون العذاب ولا يناقشون الحساب، بل يتجاوز عن سيئاتهم، كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ١٠٣/١-٣] ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ [المدثر: ٧٤/٣٨-٣٩]. و﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ صفة مدح؛ لأن كونهم عباد الله يلزم منه أن يكونوا مخلصين.

ولهؤلاء المخلصين رزق من الله، معلوم حسنه وطيبه ودوامه دون انقطاع في الجنة، يعطونه بكرة وعشياً، وإن لم يكن ثمة بكرة وعشية، فيتمتعون بلذيذ الفواكه المتنوعة أي الثمار كلها، فهي أطيب ما يأكلونه، وذلك الأكل حاصل مع الإكرام والتعظيم، فهم يخدمون ويرفهون، ولهم أيضاً إكرام عظيم برفع درجاتهم في الجنة عند ربهم، ويسمعون كلامه ويلقونه في رحاب الجنان.

وفي هذا دلالة على أن تناولهم الفاكهة إنما هو تلذذ لا للتغذي والقوت؛ لأنهم مستغنون عنه؛ لأنهم أجسام محكمة مخلوقة للأبد. ووصف ﴿رِزْقٌ﴾ بمعلوم، أي عندهم.

وبعد بيان مأكولهم، وصف الله تعالى مساكنهم، فقال:

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾ أي إن هذا الرزق يأتيهم في جنات ذات نعيم مقيم ومتاع دائم، وهم على أسرة يتكئون عليها، ينظر بعضهم إلى وجوه بعض، بسرور وابتهاج، لا ينظر بعضهم في قفا بعض، فصاروا يجمعون بين المتعة المادية الجسدية، والمتعة الروحية الإنسانية.

وبعد بيان صفة المأكل والمسكن ذكر تعالى صفة الشراب، فقال:

﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ﴿٤٥﴾﴾ أي يدار عليهم بآنية من خمر تجري في أنهر، والمعين: الماء الجاري، فهي تخرج من العيون كما يخرج الماء دون انقطاع، وسمي معيناً لظهوره.

ثم وصف الله تعالى خمر الجنة البعيدة عن آفات خمر الدنيا، فقال:

﴿بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾[1] أي ذات لون أبيض شديد البياض، لذيذة الطعم، طيبة الرائحة، لا كخمر الدنيا المرَّة ذات النكهة المزعجة، وهي لا تذهب بالعقول، ولا تؤدي إلى صداع الرأس، ووجع البطن، وأنواع الأمراض، كما هو شأن خمر الدنيا، فهي بخلاف خمر الدنيا في جميع تلك الأوصاف، لا تضر النفس والعقل والمال والشخصية، بسبب نزع مادة الغول أي الكحول منها. وفي هذا إيماء إلى مفاسد خمر الدنيا من صداع وفساد وسكر، وعربدة وهذيان، وإفساد للدم، وجهاز الهضم كله.

وبعد بيان صفة مشروبهم ذكر تعالى صفة زوجاتهم، فقال:

﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ ﴿٤٨﴾﴾ أي لديهم زوجات عفيفات، لا

(١) لذة: صفة بالمصدر على سبيل المبالغة، أو على حذف، أي ذات لذة، أو على تأنيث لذ بمعنى لذيذ.

ينظرن إلى غير أزواجهن، ولا يردن غيرهم، ذوات عيون واسعة حسان. والعين جمع عيناء: وهي النجلاء الواسعة في جمال، الحسناء المنظر، وبه يتبين أنه تعالى وصف عيونهن بالحسن والعفة، كما قال تعالى في الحور العين: ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٥٥/٧٠].

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ أي كأن ألوانهن من البياض المشوب بأدنى الصفرة، كالبيض المحصون المصون المستور الذي لم تمسه الأيدي، ولم يتلوث بالريح والغبار. وهذا اللون أحسن ألوان النساء.

وبعد بيان ألوان المتعة المادية لأهل الجنة في المآكل والمشارب والمساكن والأزواج، ذكر الله تعالى بعض أنواع المتع النفسية، فقال:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي أقدم بعضهم حال شربهم واجتماعهم ومعاشرتهم في مجالسهم، يسأل بعضاً آخر عن أحوالهم التي كانوا عليها في الدنيا، وماذا كانوا يعانون فيها، وذلك من تمام نعيم الجنة.

ومن موضوعات التساؤل قوله تعالى:

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أي قال مؤمن من أهل الجنة: كان لي صاحب في الدنيا كافر بالبعث منكر له، يقول: أنحن إذا متنا وصرنا تراباً متفتتاً وعظاماً بالية، أنكون محاسبين بعدئذ على أعمالنا، ومبعوثين نجازى على ما قدمنا في الدنيا؟ فذلك أمر مستحيل غير معقول ولا مقدور لأحد، فهل أنت مصدق مثل هذه الخرافات؟

﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾؟ قال المؤمن لجلسائه: انظروا معي إلى أهل النار لأريكم ذلك القرين الذي قال لي تلك المقالة، كيف يعذب، وكيف يجازى الجزاء الأوفى؟

﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ أي فنظر ذلك المؤمن إلى أهل النار، فرأى قرينه في وسط جهنم، يتلظى بحرّها.

﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ أي قال المؤمن لقرينه الكافر على جهة التوبيخ: لقد قاربت أن توقعني في الردى والهلاك بالإغواء، وتهلكني بدعوتك إياي إلى إنكار البعث والقيامة، ولولا رحمة ربي وعصمته من الضلال، وتوفيقه وإرشاده لي إلى الحق، وهدايته لي إلى الإسلام، لكنت من المحضرين معك في النار للعذاب.

ثم عاد ذلك المؤمن إلى مخاطبة جلسائه من أهل الجنة، فقال:

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾ أي قال المؤمن لجلسائه ابتهاجاً وسروراً بما أنعم عليهم من نعيم الجنة الدائم: أنحن مخلّدون منعّمون أبداً، فلا نموت إلا الموتة الأولى الحادثة في الدنيا، ولسنا مُعَذَّبين كما يُعَذَّب الكفار أصحاب النار؟

هذه حال المؤمنين وصفتهم وما قضى الله لهم ألا يذوقوا إلا الموتة الأولى، بخلاف الكفار، فإنهم فيما هم فيه من العذاب يتمنون الموت كل ساعة. والمؤمن يقول هذا القول تحدثاً بنعمة الله واغتباطاً بحاله وبمسمع من قرينه توبيخاً له، يزداد به عذاباً، وأما المؤمن فيسعد ويغبط نفسه بالخلود في الجنة، والإقامة في النعيم، بلا موت ولا عناء.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي إن هذا النعيم الدائم المقيم وهذا الفضل العميم الذي نحن فيه لهو النجاح الباهر، والفوز الأكبر الذي لا يوصف، ولمثل هذا النعيم والفوز، ليعمل العاملون في الدنيا، ليحظوا به، لا أن يعملوا فحسب لحظوظ الدنيا الفانية، المقترنة بالمخاطر والآلام والمتاعب الكثيرة.

والخلاصة: إن المطلوب هو العمل للآخرة وللجنة الخالدة، لا أن يقصر العمل على المكاسب الدنيوية فقط.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١ - إن عذاب الكفار والمجرمين أمر حق وعدل ومؤكد الوقوع.

٢ - هذا الجزاء يكون بسبب العمل المنكر وهو الشرك والمعاصي، وهذا ردّ على من قد يقول: كيف يليق بالرحيم الكريم المتعالي عن النفع والضر أن يعذب عباده؟

٣ - إن تنفيذ الأمر الإلهي واجتناب القبيح والمعصية يتطلبان الترغيب في الثواب، والترهيب من العقاب، لذا استثنى الله من الإخبار بالعذاب عباده الذين أخلصوا العمل لله تعالى، فهم ناجون غير معذبين.

٤ - إن ثواب المؤمنين المخلصين هو الجنة، وفيها الرزق المعلوم الصفات وهو الدائم الذي لا ينقطع، المشتمل على أطيب المآكل من الثمار المختلفة الرطبة واليابسة، في بساتين يتنعمون فيها، ولهم إكرام من الله جلّ وعزّ برفع الدرجات وسماع كلامه ولقائه.

ولا ينظر بعضهم في قفا بعض، وإنما يجلسون على أسرّة يتكئون عليها متقابلين وجهاً لوجه، غير متدابرين.

وذلك الرزق مشتمل أيضاً على أطيب المشارب من خمور تقدم لهم بكؤوس مترعة، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها، وإنما تجري كما تجري العيون على وجه الأرض، وخمر الجنة أشد بياضاً من اللبن، طيبة الطعم، وطيبة الريح، لا تغتال عقولهم، ولا تذهب بها بشربها، ولا يصيبهم منها مرض ولا صداع، ولا يسكرون منها.

ولهم أزواج من النساء العفيفات اللاتي قصرن طرفهن على أزواجهن، فلا ينظرن إلى غيرهم، وهن حسان العيون، ذوات جمال ولون بديع كبيض النعام المصون، يخالط لونها صفرة قليلة، وهو أحسن ألوان النساء.

٥ - يتجاذب أهل الجنة أطراف الأحاديث المسلّية التي يتذكرونها في الدنيا، إتماماً للأنس في الجنة، فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم في الدنيا.

ومن موضوعات أحاديثهم: قصة المؤمن والكافر، يقول المؤمن من أهل الجنة: كان لي في الدنيا قرين أي صديق ملازم، فسألني متعجباً: هل أنت من المصدقين بالبعث والجزاء؟ وهل نحن مجزيون محاسبون بعد الموت، وهل يعقل أن نعود أحياء بعد أن متنا وصرنا تراباً وعظاماً نخرة؟

وتتمة الموضوع أن يقول المؤمن لأهل الجنة: هل أنتم مطلعون إلى النار لننظر كيف حال ذلك القرين ومآله؟ فلم يفعلوا، وإنما اطلع هو، فوجد قرينه معذباً في وسط النار. فيقول له موبخاً: والله، لقد قاربت أن توقعني في النار، وتهلكني، ولولا فضل ربي ورحمته وعصمته من الضلال والباطل، وإنعامه بالإرشاد والتوفيق إلى الحق، لكنت محضراً معك في النار مثلك.

٦ - ثم يعود ذلك المؤمن إلى خطاب جلسائه الذين هم من أهل الجنة، بعد أن يعلموا أنهم لا يموتون حين يمثل الموت بصورة كبش أملح فيذبح، بعد أن كانوا لا يعلمون بذلك في أول دخولهم في الجنة، فيقول مغتبطاً مبتهجاً: أنحن مخلَّدون منعّمون، فما نحن بميتين ولا مُعذَّبين؟

٧ - النتيجة من القصة والحديث المتبادل: هي أن الظفر بنعيم الجنان هو الفوز الأعظم، ولمثل هذا العطاء والفضل ينبغي أن يعمل العاملون العمل الصالح المؤدي إلى تلك النعمة الكبرى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ۝٦١﴾ يحتمل أن يكون من كلام المؤمن لما رأى ما أعدَّ الله له في الجنة وما أعطاه، ويحتمل أن يكون من قول الملائكة، ويحتمل أن يكون هو من قول الله عز وجل لأهل الدنيا، أي قد سمعتم ما في الجنة من الخيرات والجزاء، فليعمل العاملون لمثل هذا، كما تقدم إيجازه.

جزاء الظالمين وأنواع العذاب في جهنم

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ۝٦٨ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ۝٧٠ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٧١ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝٧٢ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٧٣ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٧٤﴾

القراءات:

﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (المخلِصين).

الإعراب:

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤﴾ ﴿فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾: إما وصف لشجرة، وإما خبر بعد خبر، وإما في موضع نصب على الحال من ضمير ﴿تَخْرُجُ﴾. و﴿فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾: أي منبتها في قعر جهنم، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها.

البلاغة:

﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢﴾ في قوله: ﴿خَيۡرٌ﴾ أسلوب تهكمي للتهكم به.

﴿مُّنذِرِينَ﴾ ﴿ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ بينهما جناس ناقص، يراد بالأول الرسل، وبالثاني الأمم.

﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥﴾ تشبيه مرسل مجمل حذف منه وجه الشبه، أي في الهول والشناعة وتناهي القبح.

المفردات اللغوية:

﴿أَذَٰلِكَ﴾ المذكور لهم. ﴿خَيۡرٌ نُّزُلًا﴾ ضيافة، والنزل: ما يعد للنازل ضيفاً وغيره من طعام وشراب. ﴿أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ شجرة معدة لأهل النار، وهي شجرة صغيرة الورق تنبت بتهامة، لها ثمر مرّ كريه الرائحة، يكره أهل النار على تناوله، فهم يتزقمونه. والتزقم: البلع مع الجهد والألم. ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣﴾ أي أنبتناها في قعر جهنم، لتكون محنة للكافرين من أهل مكة، إذ قالوا: كيف ذلك، والنار تحرق الشجر، فكيف تنبته؟ ولم يعلموا أن من قدر على خلق ما يعيش في النار، فهو أقدر على خلق الشجر في النار وحفظه من الإحراق، وهناك أشياء نشاهدها اليوم غير قابلة للاحتراق.

﴿فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي تنبت في قعر جهنم، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها. ﴿طَلۡعُهَا﴾ ثمرها أو حملها المشبّه بطلع النخل، وأصل الطلع: ثمر النخلة أول ظهوره، أطلق على ثمر هذه الشجرة مجازاً. ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ شبه المحسوس بالمتخيل، وإن كان غير مرئي، للدلالة على أن ثمرها في غاية القبح، ونهاية البشاعة، كتشبيه الفائق في الحسن بالملَك، وقيل: الشياطين: حيات هائلة قبيحة المنظر، لها أعراف. ﴿فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا﴾ فإن الكفار لآكلون من

تلك الشجرة مع قبحها لشدة جوعهم. ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ الملء: حشو الوعاء بما لا زيادة عليه. ﴿لَشَوْبًا﴾ الشوب: الخلط، يقال: شاب الطعام أو الشراب: خلطه بشيء آخر. ﴿حَمِيمٍ﴾ ماء شديد الحرارة، يشربونه، فيختلط بالمأكول من شجرة الزقوم، فيصير شوباً له.

﴿مَرْجِعَهُمْ﴾ مصيرهم. ﴿لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ إلى دركاتها أو إلى نفسها، وهذا دليل على أنهم يخرجون من النار لشراب الحميم، وأنه خارجها؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/٤٣-٤٤] يوردون إليه، كما تورد الإبلُ إلى الماء، ثم يردّون إلى الجحيم.

﴿أَلْفَوْا﴾ وجدوا، ﴿يُهْرَعُونَ﴾ يزعجون إلى اتباعهم، ويسرعون إسراعاً شديداً، وهو تعليل لاستحقاقهم تلك الشدائد بتقليد الآباء في الضلال. والإهراع: الإسراع الشديد. ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ قبل قومك. ﴿أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من الأمم الماضية.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ أنبياء أنذروهم من العواقب. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ أي مصير الكافرين من الأمم وهو العذاب. ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ إلا الذين تنبهوا بإنذارهم، فأخلصوا دينهم لله، فنجوا من العذاب، والمخلصين: بفتح اللام: هم الذين أخلصهم الله للعبادة والطاعة، وبكسر اللام: هم الذين أخلصوا في العبادة.

المناسبة:

بعد بيان ما أعده الله تعالى للأبرار في جنات النعيم من مآكل ومشارب وغيرها، ذكر تعالى ما أعده للأشرار في نار جهنم، من أنواع المآكل والمشارب بسبب تقليدهم الآباء في الكفر بالله وعبادة الأصنام والأوثان.

التفسير والبيان:

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾ أهذا المذكور من نعيم الجنة وما فيها من مآكل ومشارب وملاذ وغيرها خير ضيافةً وعطاء، أم شجرة الزقوم ذات الطعم المرّ الشنيع، التي في جهنم؟ وهذا نوع من التهكم والسخرية بهم، فهو طعام أهل النار يتزقمونه، وهو نزلهم وضيافتهم.

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾ أي إنا جعلنا تلك الشجرة اختباراً للكافرين، حين افتتنوا بها وكذبوا بوجودها، فقالوا: كيف تكون الشجرة في النار، والنار تحرق ما فيها؟

وهذا الاستبعاد لجهلهم بأن بعض الأشياء غير قابل للاحتراق، ولأنهم لم يعلموا ولم يلاحظوا أن من قدر على خلق إنسان يعيش في النار، فهو أقدر على خلق شجر فيها لا يحترق.

وصفات تلك الشجرة ما قاله تعالى:

أ - ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ أي إنها شجرة تنبت في قعر النار وقرار جهنم، وترتفع أغصانها إلى دركاتها.

٢ - ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ أي إن ثمرها وما تحملها كأنه في تناهي قبحه وشناعة منظره كأنه رؤوس الشياطين، تبشيعاً لها وتكريهاً لذكرها، فشبّه المحسوس بالمتخيل غير المرئي، والعرب تشبّه قبيح الوجه بالشيطان، وتشبه جميل الصورة بالمَلَك، كما جاء في القرآن حكاية على لسان صواحبات يوسف عليه السلام: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ١٢/٣١].

وقيل: إن الشياطين هي حيّات لها رؤوس وأعراف، وهي من أقبح الحيات.

ثم ذكر الله تعالى أن هذه الشجرة مأكل الكفار أهل النار، فقال:

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي إنهم يأكلون من ثمر هذه الشجرة السيئ الريح والطعم والطبع، فيملؤون بطونهم منه، بالإكراه والاضطرار؛ لأنهم لا يجدون غير هذه الشجرة ونحوها، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ [الغاشية: ٨٨/٦-٧] فهذا طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة.

روى ابن أبي حاتم والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية، وقال: «اتقوا الله حق تقاته، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟»[1].

وبعد وصف طعامهم، وصف تعالى شرابهم بما هو أبشع منه، قائلاً:

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ أي ثم إن لهم بعد الأكل منها لشراباً من ماء شديد الحرارة يخالط طعامهم. والمقصود من كلمة ﴿ثُمَّ﴾ بيان أن حال المشروب في البشاعة أعظم من حال المأكول. ومكان هذا الماء خارج جهنم؛ لقوله تعالى:

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ أي مرجعهم بعد شرب الحميم وأكل الزقوم إلى دار الجحيم. وهذا يدل على أنهم عند شرب الحميم لم يكونوا في الجحيم، مما يدل على أن الحميم في موضع خارج عن الجحيم، فهم يوردون الحميم لشربه، كما تورد الإبل إلى الماء، ثم يردّون إلى الجحيم، كما قال تعالى: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/٤٣-٤٤].

(١) قال الترمذي: حسن صحيح.

وبعد وصف عذابهم في أكلهم وشربهم ذكر الله تعالى علة العذاب قائلاً:

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أي إنهم وجدوا وصادفوا آباءهم على الضلال، فاقتدوا بهم وقلدوهم، من غير تعقل ولا تدبر، ولا حجة وبرهان، فهم يتبعون آباءهم في سرعة، كأنهم حُرّضوا على ذلك، وأزعجوا إلى اتباع آبائهم.

ثم بيّن الله تعالى أن الكفر ظاهرة قديمة، وأتباعه كُثُر، إيناساً للرسول ﷺ في كفر قومه وتكذيبهم، فقال:

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ أي إن أكثر الأمم الماضية كانوا ضالين، يجعلون مع الله آلهة أخرى.

ولكن رحمته تعالى لم تتركهم دون إنذار، فقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ أي أرسل الله في الأمم الماضية أنبياء ورسلاً ينذرونهم بأس الله، ويحذرونهم سطوته ونقمته ممن كفر به، وعبد غيره، لكنهم تمادوا في مخالفة رسلهم وتكذيبهم فأهلكهم الله، كما قال:

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ فانظر أيها الرسول والمخاطب كيف كان مصير الكافرين المكذبين، أهلكهم الله ودمَّرهم وصاروا إلى النار، مثل قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، ثم استثنى تعالى منهم المؤمنين قائلاً:

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ أي لكن نجّى الله عباده الذين اصطفاهم وأخلصهم لطاعته، بتوفيقهم إلى الإيمان والتوحيد، والعمل بأوامر الله، ففازوا بجنان الخلد، ونصرهم في الدنيا.

ويفهم من هذا الإيناس للرسول ﷺ أنه يجب عليه أن يكون له أسوة بمن

تقدمه من الرسل، فيصبر كما صبروا، ويستمر على دعوته، وإن تمرد المرسل إليهم، فليس عليه إلا البلاغ.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ً - لا مجال للمقارنة بين ما أعده الله لعباده الأبرار من نعيم في الجنان، وما أعده للأشرار من عذاب في النيران.

٢ً - إن طعام أهل النار هو الزقّوم الثمر المرّ الكريه الطعم والرائحة، العسير البلع، المؤلم الأكل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدخان: ٤٤/ ٤٣-٤٦].

٣ً - إن الإخبار عن وجود شجرة الزقوم في قعر جهنم فتنة وابتلاء واختبار للكفار الذين قالوا: كيف تكون الشجرة في النار وهي تحرق بالنار؟ لكن كان هذا القول جهلاً منهم؛ إذ إن هناك أشياء نشاهدها اليوم غير قابلة للاحتراق، ولا يستحيل في العقل أن يخلق الله في النار شجراً من جنسها لا تأكله النار، كما يخلق الله فيها الأغلال والقيود والحيّات والعقارب وخَزَنة النار.

٤ً - وصف الله تعالى هذه الشجرة بصفتين: الأولى - إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم أي منبتها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها. والصفة الثانية - ثمرها وحملها في قبحه وشناعته كأنه رؤوس الشياطين، وهذا الشبه متصور في نفوس العرب، وإن كان غير مرئي. ومن ذلك قولهم لكل قبيح: هو كصورة الشيطان، ولكل صورة حسنة كصورة الملَك.

ومنه قوله تعالى مخبراً عن صواحبات يوسف: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ١٢/ ٣١] وهذا تشبيه تخييلي.

وقال الزجاج والفرّاء: الشياطين حيات لها رؤوس وأعراف، وهي من أقبح الحيَّات وأخبثها وأخفها جسماً.

٥ً - لا يكتفي أهل النار بتناول شيء قليل من الزقوم، وإنما يأكلون منه بالإكراه حتى تمتلئ منه بطونهم، فهذا طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة.

وبعد الأكل من الشجرة يشربون الماء المغلي الشديد الحرارة الذي يخالط طعام الزقوم، قال الله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ٤٧/ ١٥] . قيل: يمزج لهم الزقوم بالحميم ليجمع لهم بين مرارة الزقوم وحرارة الحميم، تغليظاً لعذابهم، وتجديداً لبلائهم.

٦ً - يشرب أهل النار من ماء الحميم ويأكلون الزقوم من مكان خارج جهنم؛ للآية: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ فهذا يدل على أنهم كانوا حين أكلوا الزقوم في عذاب غير النار، ثم يردون إليها. والحميم كما قال مقاتل خارج الجحيم، فهم يوردون الحميم لشربه، ثم يردون إلى الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٤٣-٤٤] .

٧ً - إن سبب عذابهم الذي استحقوه هو تقليدهم آباءهم في الكفر بالله وتكذيب الرسل وعبادة الأصنام والأوثان، فكأنهم يُسْتَحثون من خلفهم، ويسرعون إلى تقليدهم، ويُزْعَجون من شدة الإسراع.

٨ً - لقد كفر بالله وكذب الرسل وضلَّ كثير من الأمم الماضية، ولكن الله أرسل إليهم رسلاً أنذروهم العذاب فكفروا، فكان مصيرهم الدمار والهلاك وولوج النار.

٩ً - ينجي الله دائماً عباده المؤمنين الذين استخلصهم من الكفر، وأخلصوا لله النية والعمل، ففازوا بنعيم الجنان، ونصرهم الله في الدنيا.

قصة نوح عليه السلام

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾

الإعراب:

﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ المخصوص بالمدح محذوف، تقديره: فلنعم المجيبون نحن، كقوله تعالى: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٨/ ٤٤] أي أيوب.

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ ﴿سَلَٰمٌ﴾: مبتدأ، و﴿عَلَىٰ نُوحٍ﴾: خبره، وجاز الابتداء بالنكرة؛ لأنه في معنى الدعاء، كقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ [المطففين: ٨٣/ ١] وقرئ (سلاماً) بالنصب على أنه مفعول ﴿وَتَرَكْنَا﴾ تقديره: تركنا عليه في الآخرين سلاماً، أي ثناء حسناً.

البلاغة:

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ كناية، كنى بذلك عن الذكر الجميل والثناء الحسن.

المفردات اللغوية:

﴿نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ دعانا حين أيس من قومه، فالمراد من النداء الاستغاثة، بقوله: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ٥٤/ ١٠] . ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ له نحن، أي فأجبناه أحسن الإجابة، والتقدير: فوالله لنعم المجيبون نحن، فحذف ما حذف لقيام ما يدل عليه. ونوع الجواب: أنا أهلكناهم بالغرق.

﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي الغرق أو أذى قومه، والكرب: الغم الشديد ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ أي أبقينا ذريته متناسلين إلى يوم القيامة، فالناس كلهم من نسله عليه السلام، وكان له ثلاثة أولاد: سام وهو أبو العرب وفارس والروم، وحام: وهو أبو السودان، ويافث: أبو الترك والخزر ويأجوج ومأجوج من الصين واليابان ونحوهم. روي أنه مات كل من معه في السفينة غير بنيه وأزواجهم.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ أبقينا عليه ثناء حسناً بين الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة، فمفعول ﴿وَتَرَكْنَا﴾ محذوف، كما في الثناء السابق بقوله: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾. ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ هذا الكلام جيء به على الحكاية، والمعنى: يسلمون عليه تسليماً، أي يثنون عليه ثناء حسناً ويدعون له ويترحمون عليه. وقيل: هو سلام من الله عليه ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ أي مثل ذلك الجزاء الذي جازيناه نجزي المحسنين ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ تعليل لإحسانه بالإيمان، إظهاراً لجلالة قدره وأصالة أمره ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ أي كفار قومه.

المناسبة:

هذه الآيات شروع في تفصيل القصص بعد إجمالها، فبعد ذكر ضلال كثير من الأمم السابقة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ وقوله: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ أتبعه بتفصيل قصص الأنبياء عليهم السلام، وهذه هي القصة الأولى - قصة نوح عليه السلام مع قومه، في بيان بليغ موجز.

التفسير والبيان:

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي تالله لقد دعانا نوح عليه

السلام، واستغاث بنا، ودعا على قومه بالهلاك حيث قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٧١/٢٦] بعد أن طال دعاؤهم إلى الإيمان، فكذبوه وآذوه وهموا بقتله ولم يؤمن معه إلا القليل، مع طول المدة التي لبثها فيهم وهي ألف سنة إلا خمسين عاماً، ولم يزدهم دعاؤه إلا فراراً.

فأجاب الله دعاءه أحسن الإجابة، وأهلك قومه بالطوفان.

أخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ إذا صلَّى في بيتي، فمرَّ بهذه الآية: ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ۝٧٥﴾ قال: صدقتَ ربنا، أنت أقرب من دُعي، وأقرب من بُغي، فنعم المدعو، ونعم المعطي، ونعم المسؤول، ونعم المولى، أنت ربنا، ونعم النصير».

وبعد بيان أنه سبحانه نعم المجيب على سبيل الإجمال، بين أن الإنعام حصل في الإجابة من وجوه:

١ - ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٧٦﴾ أي ونجينا نوحاً وأهل دينه، وهم من آمن معه وهم ثمانون، من الغم الشديد وهو الغرق.

٢ - ﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ۝٧٧﴾ أي وجعلنا ذريته وحدهم دون غيرهم هم الباقين على قيد الحياة، وأهلكنا من كفر بدعائه، ولم نبق منهم باقية، ومن كان معه في السفينة من المؤمنين ماتوا كما قيل، ولم يبق إلا أولاده وذريته.

والآية تفيد الحصر، وهو يدل على أن كل من سواه وسوى ذريته قد فنوا. قال ابن عباس: ذريته بنوه الثلاثة: سام وحام ويافث، فسام أبو العرب وفارس والروم، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك.

٣ - ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝٧٨﴾ أي أبقينا له ثناء حسناً فيمن يأتي بعده من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة.

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ أي وقلنا: عليك يا نوح سلام منا في الملائكة وعالمي الإنس والجن. أو معناه أن الذي أبقي عليه من الذكر الجميل والثناء الحسن: أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم. ويؤيد التفسير الأول آية: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ١١/٤٨].

وعلة أنواع الإنعام السابقة ما قاله تعالى:

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ أي هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله عز وجل، أو خصصنا نوحاً عليه السلام بتلك النعم التي منها إبقاء ذكره الحسن في ألسنة جميع العالمين لأجل أنه كان محسناً.

وعلة إحسانه ما قاله سبحانه:

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ أي إن السبب في كون نوح محسناً هو كونه عبداً لله مؤمناً. وهذا دليل على أن الإيمان بالله تعالى وإطاعته أعظم الدرجات وأشرف المقامات.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ أي أغرقنا كفار قومه بالطوفان وأهلكناهم، ولم نبق منهم أحداً، وتلك عظة وعبرة: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٥٠/٣٧].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت قصة نوح عليه السلام على الآتي:

١ - أجاب الله تعالى دعاء نوح عليه السلام بإهلاك قومه، فالداعي مضطر، والمدعو وهو الله عز وجل نعم المقصود المجيب.

٢ - كانت النعمة العظمى هي إجابة الدعاء، وكانت مظاهر الإنعام على

نوح ثلاثة: هي نجاة نوح ومن آمن معه، وجعل ذريته أصول البشر والأعراق والأجناس، وإبقاء الذِكر الجميل والثناء الحسن. وقال قوم: كان لغير ولد نوح أيضاً نسل، بدليل قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧/٣] .

ومما أبقي عليه: السلام الدائم في الأنبياء والأمم، أو أن الله كافأه أيضاً بالسلام منه عليه سلاماً يذكر بين الأمم إلى يوم القيامة.

٣ - أهلك الله بالغرق قوم نوح عليه السلام، ولم يبق أثراً لذريتهم.

٤ - وتلك النعم على نوح لأجل أنه كان محسناً، وعلة إحسانه أنه كان عبد الله المؤمن المصدِّق الموحد الموقن.

قصة إبراهيم عليه السلام

- ١ -

تحطيم الأصنام

﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ (٨٣) إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ (١٠١)﴾

القراءات:

﴿يَزِفُّونَ﴾ :

وقرأ حمزة (يُزِفُّون).

الإعراب:

﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً﴾ إفكاً: منصوب بـ ﴿تُرِيدُونَ﴾ تقديره: أتريدون إفكاً، و﴿ءَالِهَةً﴾ بدل منصوب من «إفكاً».

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ (ما): مصدرية في موضع نصب بالعطف على الكاف والميم في الفعل المتقدم، وهي مع الفعل مصدر، تقديره: خلقكم وعملكم. ويجوز أن تكون (ما) استفهامية في موضع نصب بـ﴿تَعْمَلُونَ﴾ على التحقير لعملهم والتصغير له، والوجه الأول أظهر.

البلاغة:

﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ ﴿سَقِيمٌ﴾ ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾ ﴿حَلِيمٍ﴾ بينها ما يسمى بمراعاة الفواصل من المحسنات البديعية، زيادة في الروعة والجمال.

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ في ﴿جَآءَ﴾ استعارة تبعية، شبه إقباله على ربه مخلصاً بمن قدم على الملك بهدية ثمينة، ففاز بالرضى والقبول.

﴿ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا﴾ بينهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿شِيعَتِهِۦ﴾ ممن سار على دينه ومنهاجه في الإيمان وأصول الشريعة، قال البيضاوي: «ولا يبعد اتفاق شرعهما في الفروع أو غالباً، وكان بينهما ألفان وست مئة وأربعون سنة (٢٦٤٠) وكان بينهما نبيّان: هود وصالح صلوات الله عليهم». وأصل كلمة الشيعة: أتباع الرجل وأنصاره، وكل قوم اجتمعوا على أمر، فهم متشيعون له، ثم صارت بعد موت سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه تطلق على جماعة خاصة في مواجهة أهل السنة.

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ أي اذكر، فهو متعلق بمحذوف، وحقيقة المجيء بالشيء: نقله من مكانه، والمراد هنا الإقبال على الله سليم القلب مخلصاً ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الشك وغيره، الناصح لله في خلقه، السالم من جميع العلل والآفات النفسية كالرياء وغيره من النيات السيئة ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ موبخاً، وهو في هذه الحالة السليمة و﴿إِذْ﴾ بدل من إذ الأولى أو ظرف لجاء. ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ ما الذي تعبدون؟

﴿أَئِفْكًا﴾ الإفك: أسوأ الكذب ﴿ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أي أتريدون آلهة من دون الله للإفك، أي أتعبدون غير الله؟ ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ إذا لقيتموه، وقد عبدتم غيره، وما ترون يصنع بكم؟ والمعنى: إنكار ما يوجب ظناً، فضلاً عن قطع (أي يقين) يصدّ عن عبادته، وهو كالحجة على ما قبله.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾أوهمهم أنه يعتمد على النجوم، حين سألوه أن يعبد معهم ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ مريض عليل، أراد أن يتخلف عنهم في خروجهم من الغد يوم عيد لهم، فاعتل بالسقم ﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ أي تركوه وذهبوا إلى عيدهم ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ ذهب أو مال خفية إلى أصنامهم وعندها الطعام، ومنه يقال: روغان الثعلب أي الميل ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ قال استهزاء وسخرية: ألا تأكلون من الطعام الذي صنعوه لكم؟ فلم ينطقوا.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ لا تجيبوني، وقد علم أنها جمادات لا تنطق ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ مال عليهم يضربهم بقوة وشدة، فكسرهم ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ أي أقبل إليه عبدة تلك الأصنام يسرعون المشي، لما علموا بما صنعه بها، فقالوا: نحن نعبدها وأنت تكسرها؟ ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ أي قال لهم موبخاً: أتعبدون أصناماً أنتم تنحتونها؟ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي خلقكم وخلق الذي تصنعونه، فاعبدوه وحده.

﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ أي تشاوروا فيما بينهم أن

يبنوا له بنياناً من حجارة، ويملؤوه حطباً، ويضرموه، ثم يلقوه فيه. والجحيم: النار الشديدة ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾ بإلقائه في النار لتهلكه ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ المقهورين، فصارت النار بعد إلقائه عليها برداً وسلاماً، ولم تؤثر فيه.

﴿ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ مهاجر من بلد قومي دار الكفر إلى حيث أمرني بالمهاجرة إليه وهو الشام، أو إلى حيث أتمكن من عبادته ﴿هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي ولداً صالحاً يعينني على طاعتك، ويؤنسني في الغربة ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ أي بصبي ذكر يكبر ويصير حليماً، أي ذا حلم كثير.

المناسبة:

هذه قصة ثانية تبين مدى الصلة الوثيقة والارتباط العميق بين الأنبياء في رسالاتهم، افتتحت بأن إبراهيم عليه السلام من شيعة نوح، أي من أهل بيته وعلى دينه ومنهاجه، فهما مصدر الخير والسعادة للناس، فكانت قصة إبراهيم أبي الأنبياء بعد قصة نوح أبي البشر الثاني عليهما السلام، والأول نجاه الله من الغرق، والثاني نجاه الله من النار.

التفسير والبيان:

﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾ أي وإن إبراهيم عليه السلام ممن سار على دين نوح عليه السلام ومنهجه وسلك طريقه في الدعوة إلى توحيد الله والإيمان به وبالبعث، وغير ذلك من أصول الشريعة، وإن اختلفا في الفروع، وقد يكونان متفقين فيها.

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ أي اذكر حين أقبل على ربه بقلب مخلص صادق الإيمان، خال من شوائب الشرك والشك والرياء، ناصح لله في خلقه، كأنه جاءه بتحفة من عنده لربه، فاستحق الفوز والرضوان.

ومن خصاله وأعماله المجيدة:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾؟ أي من مظاهر إخلاصه لربه حين قال لجماعته: ما الذي تعبدونه من هذه الأصنام من دون الله؟ وهذا إنكار على عبادتهم وتوبيخ على منهجهم وخطتهم، ولوم صريح على عبادة الأصنام والأنداد، لذا قال:

﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أي أتريدون آلهة من دون الله تعبدونها إفكاً وكذباً، دون حجة ولا دليل، وما ظنكم إذا لقيتم ربكم أنه فاعل بكم، وقد عبدتم معه غيره، وما ترونه يصنع بكم؟ فهو استفهام توبيخ وتحذير وتوعد، أي أيّ شيء ظنكم بمن هو يستحق لأن تعبدوه إذ هو رب العالمين، حتى تركتم عبادته وعدلتم به الأصنام؟!!

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾ أي نظر إبراهيم في علوم النجوم وفي معانيها لا أنه نظر إليها تعظيماً وتقديساً كما كان يفعل قومه، مريداً بذلك أن يوهمهم أنه يعلم ما يعلمون.

أو إن المراد تأمل في الكون والسماء وأطال الفكر، قال قتادة: إن العرب تقول للشخص إذا تفكر وأطال الفكرة: نظر في النجوم، أي أطال الفكرة فيما هو فيه.

﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ أي مريض عليل، قاصداً بذلك أنه مريض القلب من إقبال قومه على الكفر والشرك وعبادة الأوثان.

والخلاصة: إن نظر إبراهيم في النجوم، وقوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ من قبيل التورية، فإنه أراد شيئاً، وفهموا منه شيئاً آخر، تمهيداً لخطته التي بيَّتها في أن يكايد أصنامهم، حينما سيخرجون من الغد في يوم عيد لهم، وذلك بالتخلف عن الخروج معهم، دون أن يطلعوا على ما بيَّت عليه النية.

وبه يتبين أن إبراهيم عليه السلام لم يقدم على النظر إلى النجوم كما يفعل عبدتها، فذلك غير جائز، ولم يكن كاذباً في قوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾.

﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ أي تركوه وذهبوا إلى عيدهم ومعبدهم.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾؟ أي فمال خفية وذهب في سرعة إلى تلك الأصنام التي كانوا يعبدونها، وقد وضعوا لها الطعام في عيدهم لتباركه، وقال لها تهكماً واستهزاء: ألا تأكلون من هذا الطعام المقدم إليكم؟

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾؟ أي ما الذي يمنعكم من النطق والجواب عن سؤالي؟ ومراده التهكم والاحتقار؛ لأنه يعلم أنها جمادات لا تنطق.

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ فمال عليهم يضربهم بقوة وشدة حتى حطمهم إلا كبيراً لهم، كما في سورة الأنبياء.

﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ أي فأقبل إليه قومه بعد عودتهم من عيدهم مسرعين، يسألون عمن كسرها، وقد قيل: إنه إبراهيم، وعرفوا أنه هو، فقالوا له: نحن نعبدها وأنت تكسرها؟!!

ولما جاؤوا يعاتبونه، أخذ يؤنبهم ويعيبهم، فقال: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾؟ أي أتعبدون من دون الله أصناماً أنتم تصنعونها وتنحتونها بأيديكم؟

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي والله هو الجدير بالعبادة، لأنه الخالق، خلقكم وخلق تلك الأصنام التي تعملونها بأيديكم. وفيه دلالة على أن الله خلق الإنسان وخلق أعماله. روى البخاري عن حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً قال: «إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعتَه».

فلما قامت عليهم الحجة لجؤوا إلى الانتقام بالقوة والإيذاء، فقالوا:

﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ أي ابنوا له بنياناً واسعاً واملؤوه حطباً كثيراً، وأضرموا فيه النار، ثم ألقوه في تلك النار المسعرة.

﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ أي أرادوا به سوءاً بحيلة

ومكر، وإحراقه في النار، فأنجيناه منها، وجعلناها برداً وسلاماً عليه، ولم تؤثر فيه أدنى تأثير، وجعلنا له النصر والغلبة، وجعلناهم المهزومين المغلوبين الأذلّين حيث أبطلنا كيدهم.

ولما نجا إبراهيم عليه السلام ونصره الله على قومه، وأيس من إيمانهم قرر الهجرة ومفارقتهم، كما قال تعالى:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ أي إني مهاجر من بلد قومي الذين آذوني، تعصباً للأصنام، وكفراً بالله، وتكذيباً لرسله، إلى حيث أمرني بالمهاجرة إليه، حيث أتمكن من عبادته، وإنه سيهديني إلى ما فيه صلاح ديني ودنياي، وهو الأرض المقدسة بالشام.

وهذا دليل على وجوب الهجرة من المكان إلى مكان آخر، إذا لم يتمكن المؤمن من إقامة شعائر دينه.

وفي أثناء الهجرة دعا ربه بأن يرزقه الولد، فقال:

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ أي رب هب لي ولداً صالحاً يعينني على طاعتك، ويؤنسني في الغربة.

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ أي فبشرناه بصبي ذكر يكبر ويصير ذا حلم كثير. وهذا الغلام كما قال ابن كثير: هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أول ولد بُشِّر به إبراهيم عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم أن إسماعيل عليه السلام ولد، ولإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة (٨٦) وولد إسحاق، وعمر إبراهيم عليه السلام تسع وتسعون سنة (٩٩).

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - الأنبياء والرسل وإن طال الزمان بينهم مهمتهم واحدة وهي الدعوة إلى توحيد الله والإيمان بالرسل وبالبعث، وإلى أصول الأخلاق والفضائل.

٢ً - كان إبراهيم الخليل عليه السلام ذا قلب مخلص من الشرك والشك، ناصح لله عز وجل في خلقه، عالم بأن الله حق، وأن الساعة قائمة، وأن الله يبعث من في القبور.

٣ً - من جملة آثار سلامة قلب إبراهيم عليه السلام أن دعا أباه وقومه إلى التوحيد، فقال: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾؟ قاصداً بذلك الكلام تقبيح طريقتهم ولومهم على فعلهم.

٤ً - ندّد بعبادتهم الأصنام، مبيناً أنها إفك وأسوأ الكذب، وحذر من سخط الله حين لقائه، وقد عبدوا غيره.

٥ً - لجأ إلى الإيهام وأخذ بالتورية في أمرين أظهر فيهما شيئاً، وأراد شيئاً آخر، وهما النظر في النجوم، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، قاصداً بالأول أنه يعلم بعلوم النجوم، وأنه تفكر فيما يعمل لما كلّفوه الخروج معهم، وبالثاني أنه سيمرض مرض الموت؛ لأن من كتب عليه الموت يسقم في الغالب، ثم يموت، فتوهموا هم أنه سقيم الآن، وهذا تورية وتعريض؛ كما قال للملِك لما سأله عن سارّة: هي أختي، يعني أخوة الدين.

وفي الصحيح الذي أخرجه أحمد والشيخان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام إلا ثلاث كَذَبات» والكذب تعريضاً وتورية أمر جائز مباح. وقيل: أراد أنه سقيم النفس لكفرهم ووثنيتهم.

٦ً - دبر إبراهيم عليه السلام خطة ناجحة لتحطيم الأصنام، فقد مكث في البلدة حينما خرج القوم لعيدهم ومعبدهم، بعد أن قدموا طعاماً لأصنامهم لتباركه بزعمهم، أو للسدنة، فجاء إليهم، وخاطبهم كما يخاطب العقلاء

قائلاً على جهة التهكم والاستهزاء: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾؟ فلم يجيبوا، وهو يعلم ذلك، فانهال عليهم ضرباً بقوة وشدة، حتى دمرهم إلا كبيراً لهم، كما في سورة الأنبياء، لإلزام القوم بالحجة، وتعريفهم خطأهم وأن هذه الأصنام لا تقدر حماية أنفسها.

٧ً - أقبل إليه القوم مسرعين، بعد أن عرفوا أن الفاعل هو إبراهيم، فقالوا: من فعل هذا بآلهتنا؟ فقال محتجاً: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾؟ أي أتعبدون أصناماً أنتم تنحتونها بأيديكم، والنحت: النجر والبري.

ثم قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي خلقكم وخلق ما تعملونه من الأصنام بالخشب والحجارة وغيرهما، وبإيجاز: خلقكم وعملكم.

وقد استدل أهل السنة بهذه الآية على أن الأفعال خلق لله عز وجل، واكتسابٌ للعباد، وفي هذا إبطال مذاهب القدَرية والجبرية. أخرج البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً كما تقدم عن النبي ﷺ قال: «إن الله خالق كل صانع وصنعته» وأخرجه البيهقي من حديث حُذَيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل صنع كل صانع وصنعتَه، فهو الخالق، وهو الصانع سبحانه».

٨ً - تشاور القوم في أمر إبراهيم عليه السلام لما غلبهم بالحجة فقالوا: ابنوا له بنياناً، تملؤونه حطباً، فتضرمونه، ثم ألقوه فيه وهو الجحيم. قال عبد الله بن عمرو بن العاص: فلما صار في البنيان قال: حسبي الله ونعم الوكيل.

وأرادوا بإبراهيم الكيد، أي المكر والاحتيال لإهلاكه، فجعلهم الله المقهورين المغلوبين الأذلين، إذ نفذت حجته من حيث لم يمكنهم دفعها، ولم ينفذ فيه مكرهم ولا كيدهم.

٩ً - الهجرة والعزلة واجبة إذا لم يتمكن المسلم من إقامة شعائر دينه، وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام، وذلك حين خلصه الله من النار ﴿وَقَالَ إِنِّي

ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي مهاجر من بلد قومي ومولدي، إلى حيث أتمكن من عبادة ربي، فإنه ﴿سَيَهْدِينِ﴾ فيما نويت إلى الصواب. قال مقاتل: هو أول من هاجر من الخلق مع لوط وسارّة، إلى الأرض المقدسة وهي أرض الشام.

١٠ - مشروعية الدعاء بالولد، فلما عرف إبراهيم عليه السلام أن الله مخلصه، دعا الله ليعضُده بولد يأنس به في غربته، فقال: رب هب لي ولداً صالحاً من الصالحين، فبشره الله تعالى على لسان الملائكة - كما تقدم في هود - بغلام يكون حليماً في كبره، فكأنه بُشِّر ببقاء ذلك الولد؛ لأن الصغير لا يوصف بذلك.

- ٢ -

قصة الذبيح

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾

القراءات:

﴿يَٰبُنَىَّ﴾:

وهي قراءة حفص، وقرأ الباقون (يا بُنَيِّ).

﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إنيَ أرى في المنام أنيَ أذبحك).

﴿مَاذَا تَرَىٰ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (ماذا تُرِي).

﴿يَٰٓأَبَتِ﴾:

وقرأ ابن عامر (يا أبتَ).

﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن﴾:

وقرأ نافع (ستجدنيَ إن).

﴿ٱلرُّءْيَآ﴾:

وقرأ السوسي (الرُّويا).

﴿نَبِيًّا﴾:

وقرأ نافع (نبيئاً).

الإعراب:

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ﴾ ﴿مَعَهُ﴾ متعلق بمحذوف لا ببلغ، فإن بلوغهما لم يكن معاً، كأنه قال: فلما بلغ السعي، فقيل: مع من؟ فقيل: معه.

﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ من الرأي، وليس من رؤية العين، و﴿مَاذَا﴾ في موضع نصب بـ ﴿تَرَىٰ﴾. ويجوز جعل (ما) استفهامية في موضع رفع مبتدأ، و(ذا) بمعنى الذي في موضع خبر المبتدأ.

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ في جواب «لَمَّا» ثلاثة أوجه: إما محذوف تقديره: فلما أسلما رُحما أو سعدا، وإما ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ والواو زائدة، وإما ﴿وَتَلَّهُۥ﴾ والواو زائدة، والوجه الأول أوجه.

البلاغة:

﴿مُحۡسِنٌ وَظَالِمٌ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ أي وصل إلى السن التي تمكنه من أن يسعى معه في أعماله ويعينه، قيل: بلغ سبع سنين، وقيل: ثلاث عشرة سنة ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾ أي رأيت، ورؤيا الأنبياء حق، وأفعالهم بأمر الله تعالى. قيل: إنه رأى ليلة التروية أن قائلاً يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك، فلما أصبح رَوّى أنه من الله أو من الشيطان، فلما أمسى رأى مثل ذلك، فعرف أنه من الله، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة، فهمّ بنحره، ولهذا سميت الأيام الثلاثة بالتروية وعرفة والنحر.

من الذبيح؟

قال البيضاوي: والأظهر أن المخاطب به إسماعيل؛ لأنه الذي وهب له إثر الهجرة، ولأن البشارة بإسحاق معطوفة على البشارة بهذا الغلام، ولقوله ﷺ فيما رواه الحاكم في المناقب: «أنا ابن الذبيحين» فأحدهما جدّه إسماعيل، والآخر أبوه عبد الله، فإن عبد المطلب نذر أن يذبح ولداً، إن سهل الله له حفر بئر زمزم، أو بلغ بنوه عشرة، فلما سهل الله له ذلك، أقرع، فخرج السهم على عبد الله، ففداه بمئة من الإبل، ولذلك ثبتت الدية مئة، ولأن ذلك كان بمكة، وكان قرنا الكبش معلقين بالكعبة، حتى احترقا معها في أيام ابن الزبير، ولم يكن إسحاق ثمة، ولأن البشارة بإسحاق كانت مقرونة بولادة يعقوب منه، فلا يناسبها الأمر بذبحه مراهقاً.

وما روي أنه ﷺ سئل: أي النسب أشرف؟ فقال: «يوسف صدّيق الله، ابن يعقوب إسرائيل الله، ابن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله»

فالصحيح أنه قال: «يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» والزوائد من الراوي. وما روي أن يعقوب كتب إلى يوسف مثل ذلك، لم يثبت[١].

وقال ابن كثير: وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكي ذلك عن طائف من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أيضاً، وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تلقياً إلا عن أحبار أهل الكتاب، وأُخذ ذلك مسلَّماً من غير حجة، وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه - الذبيح - إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بغلام حليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾[٢].

﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ من الرأي، شاوره ليتهيأ للذبح، وينقاد للأمر به، وليعلم ما عنده فيما نزل من بلاء الله، فيثبت، ويسلّم الأمر لله ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ التاء عوض عن ياء الإضافة ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي ما تؤمر به، وإنما ذكر بلفظ المضارع لتكرر الرؤيا ﴿مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الذبح أو على قضاء الله.

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ استسلما لأمر الله، وخضعا وانقادا له ﴿وَتَلَّهُۥ﴾ كبّه على وجهه، لئلا يرى فيه تغيراً يرق له، فلا يذبحه، أو أضجعه على شقه، فوقع جبينه على الأرض. وكان ذلك عند الصخرة بمنى. والجبين: أحد جانبي الجبهة، والجبهة: بين جبينين، واللام في قوله ﴿لِلْجَبِينِ﴾ لبيان ما صرع عليه، كقوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ [الإسراء: ١٧/١٠٩]. ﴿صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ حققت ما طلب منك بالعزم والإتيان بالمقدمات ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي كما جزيناك نجزي المحسنين لأنفسهم بامتثال الأمر، وهذا تعليل لتفريج تلك الشدة عنهما، وهو إحسانهما ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذبح المأمور به ﴿لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ الاختبار الظاهر الذي يتميز فيه المخلص من غيره.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٥٩٥

(٢) تفسير ابن كثير: ٤/١٤

﴿وَفَدَيْنَٰهُ﴾ أي المأمور بذبحه، وهو إسماعيل عليه السلام على الأرجح، وقيل: إسحاق ﴿بِذِبْحٍ﴾ بكبش يذبح بدله ﴿عَظِيمٍ﴾ عظيم الجثة، سمين. واستدل به الحنفية على أن من نذر ذبح ولده، لزمه ذبح شاة.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ أبقينا عليه ثناء حسناً في الأجيال اللاحقة ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ أي سلام منا عليه ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾ أي مثل ذلك الجزاء نجزي المحسنين لأنفسهم بطاعة الله تعالى ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ علة الإحسان.

﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾ بشارة بولد آخر بأن يوجد إسحاق، وهو دليل على أن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق ﴿نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مقضياً نبوته، مقدراً كونه من الصالحين ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ على إبراهيم في أولاده ﴿وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ ولد إبراهيم، بأن جعلنا من صلبه أنبياء بني إسرائيل وغيرهم، أي أكثر الأنبياء من نسله، مثل أيوب وشعيب عليهما السلام. ﴿مُحْسِنٌ﴾ مؤمن ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ كافر عاص ﴿مُبِينٌ﴾ بيِّن الكفر، ظاهر الظلم. قال البيضاوي: وفي ذلك تنبيه على أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال، وأنّ الظلم في أعقاب إبراهيم وإسحاق لا يعود عليهما بنقيصة وعيب.

المناسبة:

هذه تتمة القصة الثانية - قصة إبراهيم عليه السلام، فبعد أن قال سبحانه وتعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ أتبعه بما يدل على حصول ما بشر به وبلوغه سن الطاقة على العمل. ثم أتبعه بقصة الذبيح إسماعيل والفداء، ثم بشره تعالى بإسحاق نبياً من الصالحين، مباركاً عليه وعلى إسحاق، وجعل أكثر الأنبياء من نسلهما، وأن من ذريتهما محسن فاعل للخير، وظالم لنفسه بالمعاصي.

التفسير والبيان:

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ أي فلما كبر إسماعيل وشبّ وبلغ الحد الذي يقدر فيه على السعي والعمل، قال الفرّاء: «كان يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة» قال إبراهيم لابنه المأمور بذبحه وهو ابنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم، وذكر أنه الذبيح، وقال بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ قال له: يا بني إني رأيت في المنام أني أذبحك، فما رأيك؟ وقد أخبره بذلك ليستعد لتنفيذ أمر الله، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله، وليعلم صبره لأمر الله، وإلا فرؤيا الأنبياء وحي لازم الامتثال.

وأما ما ذكر في التوراة: «اذبح بِكْرك وحيدك إسحاق» فكلمة إسحاق من زياداتهم وتحريفهم لكتاب الله، وإلا فإن «إسحاق» لم يكن بكر إبراهيم، ولم يكن وحيده، بل الذي كان كذلك هو إسماعيل. ثم لما بذل إبراهيم ابنه للذبح وأطاع، أعطاه الله ولداً آخر هو إسحاق.

فأجابه إسماعيل معلناً الطاعة قائلاً:

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي قال إسماعيل: امض لما أمرك الله من ذبحي، وافعل ما أوحي إليك، سأصبر على القضاء الإلهي، وأحتسب ذلك عند الله عز وجل. وهذا مصداق وصفه السابق بالحلم، ومصداق ما أخبر الله عنه بقوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٥٤-٥٥].

وبدأ تنفيذ أمر الله، فقال تعالى:

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ أي فلما استسلما وانقادا لأمر الله

وأطاعاه، وفوّضا أمرهما إلى الله، وأكب إبراهيم ابنه على وجهه حتى لا تأخذه العاطفة فيتردد في الذبح، أو ألقاه على جنبه، فوقع جبينه (جانب الجبهة) على الأرض والموضع الذي أراد ذبحه فيه: هو المنحر بمنى عند الجمار.

قال مجاهد: قال إسماعيل لأبيه: لا تذبحني وأنت تنظر إلى وجهي، عسى أن ترحمني، فلا تُجْهِزْ علي، اربط يدي إلى رقبتي، ثم ضع وجهي للأرض، ففعل.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما أمر إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام بالمناسك، عرض له الشيطان عند السعي، فسابقه فسبقه إبراهيم عليه السلام، ثم ذهب به جبريل عليه السلام إلى جمرة العقبة، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات، حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى، فرماه بسبع حصيات، وثم تلَّه للجبين، وعلى إسماعيل على نبينا وعليه الصلاة والسلام قميص أبيض، فقال له: يا أبت، إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره، فاخلعه حتى تكفنني فيه، فعالجه ليخلعه، فنودي من خلفه: ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ، قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ فالتفت إبراهيم، فإذا بكبش أبيض أقرن أعين، قال ابن عباس: لقد رأيتنا أن نتتبع ذلك الضرب من الكباش.

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ (١٠٤) قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ لما أضجعه للذبح ناداه من خلفه من الجبل ملَك: قد حصل المقصود من رؤياك، وتحقق المطلوب وصرت مصدِّقاً بمجرد العزم، وإن لم تذبح، وأتيت بما أمكنك.

ثم عدد الله تعالى نعمه على إبراهيم وهي:

أ - ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي مثلما جازيناك بالعفو عن الذبح، والتخلص من الشدة والمحنة، نجزي كل محسن على طاعته، ونثيبه على فعله. وهو تعليل لما أنعم الله على إبراهيم وابنه من الفرج بعد الشدة والسلامة من المحنة.

ثم عظم الله تعالى شأن هذه المحنة في العادة، فقال:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ أي إن هذا الاختبار لهو الاختبار الصعب الواضح والمحنة التي لا محنة أصعب منها، حيث اختبره الله في مدى طاعته بذبح ولده، فصبر محتسباً الأجر عند ربه. وقيل: إن هذا لهو النعمة الظاهرة، يقال: أبلاه الله إبلاء وبلاء: إذا أنعم عليه.

٢ً - ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ أي جعلنا له فداء ولده بتقديم كبش عظيم الجثة سمين، أو عظيم القدر. قال الحسن البصري: ما فُدِي إسماعيل إلا بتيس من الأروى (وَعْل) هبط عليه من ثَبِير، فذبحه إبراهيم فداء عن ابنه. وهذا قول علي رضي الله عنه.

وفي هذا دليل على أن الأضحية بالغنم أفضل من الإبل والبقر. وهو مذهب المالكية، لطيب اللحم.

٣ً - ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ أي أبقينا له في الأمم القادمة ثناء حسناً وذكراً جميلاً، فأحبَّه أتباع الملل كلها، اليهودية والنصرانية والإسلام، وكذا أهل الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٨٤-٨٥].

سلام منا على إبراهيم ومن الملائكة والإنس والجن. وقيل: السلام: هو الثناء الجميل.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾ أي مثل هذا الجزاء نجزي جميع المحسنين بالفرج بعد الشدة. ولم يذكر هنا «إنا» كأمثاله اكتفاء بذكره السابق عن ذكره هنا مرة ثانية.

٤ً - ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ أي ووهبناه ولداً آخر وهو إسحاق، وجعلناه نبياً صالحاً من زمرة الصالحين. وهذه هي النعمة الرابعة.

٥ - ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ﴾ أي تابعنا إمدادهما بالنعم والبركات الدنيوية والأخروية، ومنها كثرة الولد والذرية، وجعل أكثر الأنبياء من نسلهما ونسل إسماعيل.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ﴾ أي إن بعض ذريتهما محسن فاعل للخيرات، وبعضها ظالم لنفسه بالكفر والمعاصي.

وهذا دليل على أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال، وأن النفع ليس بالوراثة والنسب أو الانتماء، وإنما الانتفاع بالأعمال، وأنه لا يعيب الأصول ولا ينتقصهم سوء بعض ذريتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٤] .

فقه الحياة أو الأحكام:

يستدل بالآيات على ما يأتي:

١ - أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام في المنام ثلاث ليال متتابعات، لا في اليقظة بذبح ابنه؛ لأنه تعالى جعل رؤيا الأنبياء عليهم السلام حقاً؛ لتقوية الدلالة على كونهم صادقين. قال تعالى في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾. وقال سبحانه في حق يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ١٢/ ٤] . وقال تعالى في حق محمد ﷺ خاتم النبيين: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [الفتح: ٤٨/ ٢٧] .

٢ - احتج أهل السنة بهذه الآية على أن الله تعالى قد يأمر بما لا يريد وقوعه، فإنه سبحانه أمر بالذبح، وما أراد وقوعه.

٣ - احتجوا أيضاً بالآية على جواز نسخ الحكم قبل وجود زمن الامتثال.

٤ - إن الذبيح بحسب دلالة هذه الآيات وترتيبها هو إسماعيل عليه السلام؛ لأنه هو المبشر به أولاً، وأما إسحاق فبشّر به بعد إسماعيل، مما يدل على أن إسماعيل هو الابن الأكبر، وهو الذي كان ذبيحاً بالاتفاق عند الأكثرين. ولو كان الذبيح إسحاق، لكان الذبح يقع ببيت المقدس، لا بالمنحر من منى، وهذا موضع الذبح اتفاقاً.

ويؤيده أدلة أخرى منها:

قول النبي ﷺ فيما رواه الحاكم في المناقب: «أنا ابن الذبيحين» أي إسماعيل، وأبيه عبد الله الذي نذر أبوه عبد المطلب أن يذبح ولداً إذا رزق عشرة من الولد، أو إذا سهل الله عليه حفر بئر زمزم، فتم له الأمران، فأقرع، فخرج السهم على عبد الله، فمنعه أخواله وقالوا له: افد ابنك بمئة من الإبل، ففداه بمئة من الإبل.

ومنها: ما نقل عن الأصمعي أنه قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح، فقال: يا أصمعي، أين عقلك؟ ومتى كان إسحاق بمكة؟ وإنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه، والمنحر بمكة.

ومنها: أن الله تعالى وصف إسماعيل بالصبر، دون إسحاق، في قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٥] وهو صبره على الذبح، ووصَفَه أيضاً بصدق الوعد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مريم: ١٩/ ٥٤] لأنه وعد أباه الصبر على الذبح، فوفى به.

ومنها: الآثار الصحيحة المقطوع بها بأن الذبيح إسماعيل عليه السلام، وهو منقول عن ابن عباس، وابن عمر، وعلي، وأبي هريرة، وأبي الطّفَيْل عامر بن واثلة من الصحابة، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، والحسن البصري، ومجاهد، والشعبي، ويوسف بن مِهْران، والربيع بن أنس، ومحمد ابن كعب القُرَظي، والكلبي، وعلقمة، وأبي جعفر محمد بن علي، وأبي صالح

من التابعين رضي الله عنهم، قالوا: الذبيح إسماعيل[١]. قال القرطبي: وهذا القول أقوى في النقل عن النبي ﷺ وعن الصحابة والتابعين.

ولكن اليهود حسدوا العرب على هذا الفضل بأن يكون أبوهم إسماعيل هو الذبيح، فزادوا في التوراة وحرفوها، ودسّوا في روايات الآثار وبعض الأحاديث أن الذبيح إسحاق، وسرى ذلك بين بعض الصحابة وبعض المسلمين محتجين بدليلين:

الأول - إنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام قبل هذه الآية أنه قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ والمراد منه بالإجماع مهاجرته إلى الشام، ثم قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ فوجب أن يكون هذا الغلام ليس إلا إسحاق. ثم قال بعده: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ والغلام الذي بلغ معه السعي هو ذلك الغلام الذي حصل في الشام، فثبت أن مقدمة هذه الآية تدل على أن الذبيح هو إسحاق. وكذلك آخر الآية يدل أيضاً على ذلك؛ لأنه تعالى لما تم قصة الذبيح قال بعده: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ وإنما بشره بهذه النبوة لتحمّله هذه الشدائد في قصة الذبيح، فأول الآية وآخرها يدل على أن الذبيح هو إسحاق عليه السلام.

الثاني - ما اشتهر من كتاب يعقوب عليه السلام ونصه: «من يعقوب إسرائيل نبي الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله».

وهذا هو المروي الصحيح عن عبد الله بن مسعود: أن رجلاً قال له: يا ابن الأشياخ الكرام، فقال عبد الله: ذلك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله عليه السلام.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/١٧-١٩، تفسير الرازي: ٢٦/١٥٣ وبعدها، تفسير القرطبي: ١٥/ ١٠٠، تفسير الخازن ٦/٢٢

وروي ذلك أيضاً عن عمر، وجابر، والعباس، وكعب الأحبار من الصحابة، وعن بعض التابعين مثل قتادة، ومسروق، وعكرمة، وعطاء، ومقاتل، والزهري، والسدّي، وعن مالك بن أنس، كلهم قالوا: الذبيح إسحاق. لكن يلاحظ أن لكعب الأحبار في هذه الأخبار ضلعاً واضحاً، وهي أخبار من الكتب القديمة غير موثوقة، وتلقاها بعض المسلمين عنه، وسرت فيما بينهم. وقد نقلنا عن ابن كثير والبيضاوي تفنيد هذه الروايات.

وكان الزجاج يقول: الله أعلم أيهما الذبيح؟ وهذا مذهب ثالث.

٥ً - الحكمة في مشاورة إبراهيم ابنه بقوله: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾: أن يُطْلع ابنه على هذه الواقعة، ليظهر له صبره في طاعة الله، فتكون فيه قرة عين لإبراهيم، والصبر درجة عالية، وليحصل للابن الثواب العظيم في الآخرة، والثناء الحسن في الدنيا، فقال إسماعيل: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

وإنما علّق ذلك بمشيئة الله تعالى على سبيل التبرك والتيمن، وأنه تحول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله. قال بعض أهل الإشارة: لما استثنى، وفقه الله للصبر.

٦ً - قوله ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ أي انقادا لأمر الله: دليل على أن الأب والابن كانا في درجة واحدة من التسليم والتفويض لأمر الله تعالى.

٧ً - عدد الله تعالى بمناسبة هذه القصة على إبراهيم عليه السلام - كما تقدم - نعماً خمساً: هي جزاؤه الحسن ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي نجزيهم بالخلاص من الشدائد في الدنيا والآخرة، والفداء العظيم بالكبش، والثناء الحسن بين الأمم والسلام من الله، وبشارته بولد آخر، وجعل أكثر الأنبياء من بني إسرائيل وغيرهم من ذريته وذرية إسحاق وإسماعيل.

٨ً - الفداء بالكبش دليل - كما تقدم - على أن الأضحية بالغنم أفضل من الإبل والبقر.

واختلف العلماء: هل الأضحية أفضل أو الصدقة بثمنها؟ قال مالك وأصحابه: الضحية أفضل إلا بمنى؛ لأنه ليس موضع الأضحية. وقال أصحاب الرأي: إن الضحية أفضل، كذلك قال أحمد بن حنبل: الضحية أفضل من الصدقة؛ لأن الضحية سنة مؤكدة كصلاة العيد. ومعلوم أن صلاة العيد أفضل من سائر النوافل، وكذلك صلوات السنن أفضل من التطوع كله.

وقد روي في فضل الضحايا آثار حسان، منها ما خرّجه الترمذي عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «ما عَمِل آدمي من عمل يوم النحر أحبَّ إلى الله من إهراق الدم، إنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض، فطيبوا بها نفساً».

والأضحية عند الجمهور ليست بواجبة، ولكنها سنة ومعروف.

وقال أبو حنيفة: الأضحية واجبة على المقيمين الواجدين من أهل الأمصار، ولا تجب على المسافر. وخالفه أبو يوسف ومحمد، فقالا: ليست بواجبة ولكنها سنة، غير مرخص لمن وجد السبيل إليها في تركها.

والذي يُضَحى به بإجماع المسلمين: الأزواج الثمانية: وهي الضأن والمعز والإبل والبقر. والأخيران يجزئ الواحد منهما عن سبعة.

ويُتَّقى من الضحايا - كما روى الخمسة (أحمد وأصحاب السنن الأربعة) عن البراء بن عازب - أربع: «العرجاء البين ضَلَعُها (عرجها)، والعوراء البيِّن عَوَرُها، والمريضة البيِّن مرضُها، والعجفاء التي لا تُنْقي»[(١)]. وفي الخبر الذي رواه أحمد والأربعة عن علي: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن..».

---

(١) النِّقي: مخُّ العظام وشحمها، يريد أنه لا يوجد فيها شحم لهزالها وضعفها.

٩ً - دلت الآية على أن من نذر نحر ابنه أو ذبحه: أنه يفديه بكبش، كما فَدى به إبراهيم ابنه، قال ذلك ابن عباس. وعنه رواية أخرى: ينحر مئة من الإبل كما فدى بها عبد المطلب ابنه. روى الشعبي عنه الروايتين. والأولى أصح.

وقال الشافعي: هو معصية يستغفر الله منها.

وقال أبو حنيفة: هي كلمة يلزمه بها في ولده ذبح شاة، ولا يلزمه في غير ولده شيء. وهذا قول ابن العربي أيضاً؛ لأن الله تعالى جعل ذبح الولد عبارة عن ذبح الشاة شرعاً، فألزم الله إبراهيم ذبح الولد، وأخرجه عنه بذبح شاة، والله تعالى يقول: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨/٢٢] والإيمان: التزام أصلي، والنذر التزام فرعي، فيجب أن يكون محمولاً عليه.

١٠ً- بشر الله بنبوة إسحاق من الأنبياء الصالحين، وكان هذا بعد إيراد قصة الذبيح، مما يدل على أنه إسماعيل. قال المفضل: الصحيح الذي يدل عليه القرآن أنه إسماعيل، وذلك أنه قصَّ قصة الذبيح، فلما قال في آخر القصة: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾

ثم قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾ قال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي على إسماعيل وعلى إسحاق، كنى به، لأنه قد تقدم ذكره، ثم قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ فدلَّ على أنها ذرية إسماعيل وإسحاق، وليس تختلف الرواة في أن إسماعيل كان أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة. والأدق أن يقال: باركنا على إبراهيم في أولاده.

١١ً - لما ذكر تعالى البركة في الذرية والكثرة، قال: منهم محسن ومنهم مسيء، وأن المسيء لا تنفعه بنوة النبوة، فاليهود والنصارى، وإن كانوا من ولد إسحاق، والعرب وإن كانوا من ولد إسماعيل، فلا بدَّ من الفرق بين المحسن والمسيء، والمؤمن والكافر. وفي التنزيل ردّ عليهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ

﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة: ١٨/٥] أي أبناء رسل الله، فرأوا لأنفسهم فضلاً.

قصة موسى وهارون عليهما السلام

﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾:

وقرأ قنبل (السراط).

المفردات اللغوية:

﴿مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من المنافع الدينية والدنيوية ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾ نجيناهما من تغلب فرعون واستعباده بني إسرائيل قومهما، ومن الغرق ﴿وَنَصَرۡنَٰهُمۡ﴾ الضمير يعود عليهما مع القوم، والنصر على القبط ﴿فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ على فرعون وقومه.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾ البليغ في بيانه وفيما أتى به من الحدود والأحكام وغيره، وهو التوراة ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ الطريق الموصل إلى الحق والصواب ﴿وَتَرَكۡنَا﴾ أبقينا عليهما ثناء حسناً ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ

﴿١٢٠﴾ سلام منا عليهما ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾ مثل ذلك الجزاء نجزي المحسنين المطيعين لله .﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ شهادة لهما بالإيمان، وهي علة الإحسان إليهما.

المناسبة:

هذه هي القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة، فبعد أن ذكر الله تعالى إنجاء إسماعيل من الذبح، ونجاة إبراهيم من النار، ذكر هنا ما منّ به على موسى وهارون من وجوه الإنعام المحصورة في نوعين: إيصال المنافع إليهما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾﴾ ودفع المضار عنهما في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾.

التفسير والبيان:

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾﴾ أي تالله لقد أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من المنافع الدينية والدنيوية. أما منافع الدنيا كما ذكر الرازي: فالوجود والحياة والعقل والتربية والصحة وتحصيل صفات الكمال في ذات كل واحد منهما. وأما منافع الدين: فالعلم والطاعة، وأعلى هذه الدرجات: النبوة الرفيعة، المقرونة بالمعجزات الباهرة القاهرة. وتفصيل هذه النعم في قوله تعالى:

أ - ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾ أي ونجيناهما وقومهما بني إسرائيل من استعباد فرعون إياهم، بقتل الآباء واستحياء النساء وتشغيلهم في أخسّ الأشياء والصناعات والمهن، كما نجيناهما مع القوم من الغرق الذي أهلك فرعون وقومه قبط مصر.

٢ - ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾ أي نصرناهم على أعدائهم، فغلبوهم، وأخذوا أرضهم وأموالهم التي جمعوها طوال حياتهم، فكانوا أصحاب الدولة بعد أن كانوا رعية أذلاء.

٣ - ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾ أي وأنزلنا عليهما الكتاب العظيم الواضح الجلي الشامل لأمور الدنيا والآخرة، وهو التوراة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ [المائدة: ٥/٤٤] وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٤٨].

٤ - ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ أرشدناهما إلى طريق الحق والصواب في الأقوال والأفعال، والإسلام وشرع الله.

٥ - ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ أبقينا لهما من بعدهما ذكراً حسناً جميلاً وثناء حسناً في الأمم المتأخرة. قال ابن كثير والشوكاني وغيرهما: ثم فسره بقوله: ﴿سَلَٰمٌ﴾ إلخ. وقال آخرون: الآتي كلام مستقل، وهو ما أرجحه، لكثرة الفوائد.

٦ - ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ أي سلام منا على موسى وهارون، ومن الملائكة والإنس والجن أبد الدهر.

والسبب ما قاله تعالى:

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ أي مثل هذا الجزاء نجزي بالخلاص من الشدائد والمحن كل من أحسن عمله فأطاع الله وانقاد له، وعلة الإحسان: أنهما من زمرة عباد الله المؤمنين إيماناً صحيحاً كاملاً.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١ - أنعم الله على موسى وهارون بنعم كثيرة دينية ودنيوية، أرفعها درجة النبوة، ثم ذكر تعالى هذه النعم وهي:

أ - نجاهما وقومهما بني إسرائيل من الرق الذي لحق بني إسرائيل واستعباد فرعون لهم، وقيل: من الغرق الذي لحق فرعون.

ب - نصرهما وقومهما على أعدائهم قبط مصر.

ج - أنزل عليهما التوراة الكتاب المنير الواضح البليغ في بيانه الشامل لمصالح الدنيا والآخرة.

د - هداهما إلى الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه، وهو دين الإسلام بالمعنى العام القائم على التوحيد، وأرشدهما إلى طريق الحق والصواب، وأمدهما بالتوفيق والعصمة.

هـ - أبقى عليهما الثناء الحسن بين الأمم، وتلك نعمة عظمى.

و - حظيا بالسلام من الله تعالى ومن الملائكة والإنس والجن أبد الدهر.

٢ً - إن سنة الله تعالى الدائمة الجزاء الحسن للمحسنين أعمالهم بالخلاص من الشدائد، والسلامة من المحن، وذلك يشمل موسى وهارون عليهما السلام وأمثالهما.

٣ً - إن سبب هذه الفضائل: الإيمان الذي هو أشرف وأعلى وأكمل من كل الفضائل.

قصة إلياس عليه السلام

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

القراءات: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ﴾: قرئ:

١- (الله ربَّكم وربَّ) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي.

٢- (الله ربُّكم وربُّ) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (المخلِصين).

﴿إِلْ يَاسِينَ﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر (آل ياسين).

الإعراب:

﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على أنه بدل من قوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ ويقرأ بالرفع على الابتداء، و(ربُّكم): الخبر.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾﴾ مفعول ﴿وَتَرَكْنَا﴾ محذوف، تقديره: وتركنا عليه في الآخرين الثناء الحسن، ثم ابتدأ فقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ١٣٠﴾ ﴿سَلَٰمٌ﴾: مبتدأ، وخبره الجار والمجرور بعده، والجملة في موضع نصب بـ﴿وَتَرَكۡنَا﴾. و﴿إِلۡ يَاسِينَ﴾: إما لغة في إلياس كميكال وميكائيل، وإما جمع (إلياسي) فحذف ياء النسب، كالأعجميين والأشعريين، وإنما حذفت لثقلها وثقل الجمع، وقد تحذف هذه في جمع التكسير، وفي جمع التصحيح مثل المهالبة جمع المهالبيّ.

البلاغة:

﴿أَتَدۡعُونَ﴾ ﴿وَتَذَرُونَ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿إِلۡيَاسَ﴾ أحد أنبياء بني إسرائيل، وهو إلياس بن ياسين سبط هارون أخي موسى، بعث بعده، أرسل إلى قوم في بعلبك ونحوها. ﴿إِذۡ﴾ منصوب بفعل مقدر هو: اذكر. ﴿قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي تتقون الله، فتعبدونه، وتتركون ما ينهاكم الله عنه من الشرك والمعاصي، فتأمنون عذاب الله. ﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا﴾ أي أتعبدون بعلاً وهو اسم لصنم من ذهب، كان لأهل بعلبك، وبه سمي البلد أيضاً مضافاً إلى (بك) في لبنان. ﴿وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ تتركون عبادة الله تعالى الذي هو أحسن المصورين الخالقين.

﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ﴾ الذي يربيكم بنعمه بعد أن أوجدكم من العدم، أنتم وأجدادكم، فهو الذي تحقّ له العبادة. ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٢٨﴾ الذين اصطفاهم الله للطاعة، وأخلصوا لله العبادة، فهم ناجون من العذاب. ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١٢٩﴾ أبقينا عليه ثناء حسناً.

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ١٣٠﴾ أي سلام منا على إلياس، أو عليه وعلى قومه الذين آمنوا معه، فجمعوا تغليباً، كقولهم للمهلب وقومه: المهلبون. وقرئ: آل ياسين بالمد، والمراد به أهل إلياس. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣١﴾ أي

مثل ذلك الجزاء نجزي كل من أحسن عمله لله. ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ علة الإحسان المتقدم

المناسبة:

هذه هي القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة، والمقصود بها بيان جهود النبي إلياس عليه السلام أحد أنبياء بني إسرائيل في الدعوة إلى توحيد الله، ومقاومة الشرك وعبادة الأصنام، كمن تقدمه من الأنبياء مثل نوح وإبراهيم عليهما السلام.

التفسير والبيان:

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ هو إلياس بن ياسين بن فِنْحاص بن العيزار بن هارون بن عمران أخي موسى عليهما السلام، بعثه الله في بني إسرائيل بعد حِزْقيل عليه السلام، وكانوا قد عبدوا صنماً يقال له (بعل) فدعاهم إلى توحيد الله تعالى، ونهاهم عن عبادة ما سواه.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ أي اذكر حين قال لقومه: هلا تخافون الله عز وجل في عبادتكم غيره، وتتركون ما ينهاكم عنه من الشرك والمعاصي.

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ أي أتعبدون صنماً أنتم صنعتموه، وتتركون عبادة المستحق للعبادة وحده لا شريك له؟ فهو الذي صوَّركم وأنشأكم، وهو أحسن المصورين الخالقين، ولا خالق سواه، وهو الذي يربيكم بنعمه بعد أن أوجدكم من العدم، أنتم وأجدادكم. ويلاحظ الترتيب أنه لما عابهم على عبادة غير الله، صرح بالتوحيد ونفي الشركاء.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ أي فكذبوا دعوته ونبوته، فصاروا بسبب تكذيبه لمحضرون في العذاب يوم القيامة، ويجازون على ما قدموا من سوء الأعمال.

ثم استثنى الله تعالى من كان مؤمناً من قومه، الذين وحدوا الله توحيداً خالصاً وعبدوه، وأخلصوا العمل لله، فهؤلاء ناجون من العذاب، مثابون ثواباً حسناً على صالح أعمالهم، لا يحضرون العقاب المقرر للمشركين.

ثم ذكر الله تعالى ما أنعم به على النبي إلياس، فقال:

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩)﴾ أي أبقينا عليه ثناء جميلاً في الأمم المتتالية.

﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠)﴾ أي سلام من الله وملائكته وإنسه وجِنّه على إلياس الذي آمن بكتاب الله، وقاوم الشرك والوثنية. وفي قراءة ﴿آل يَاسِينَ﴾ أي عليه وعلى أهل دينه الذين آمنوا برسالته، واتبعوا الحق.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢)﴾ أي كما جازيناه بالتخلص من الشدة والمحنة، نجازي كل محسن عمله لله تعالى، وعلة الجزاء الحسن: أنه مؤمن من جملة عباد الله المصدقين بوجود الله وتوحيده واتصافه بالصفات الحسنى.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - إن إلياس عليه السلام أحد الأنبياء المرسلين إلى قومه الذين عبدوا الأصنام، وتركوا عبادة الله تعالى.

٢ - لقد حذَّرهم إلياس من عذاب الله، وعابهم على عبادة الأصنام، وأمرهم بما فيه ترغيب وتعقل أمراً بعبادة الله الخالق الرازق المنعم، الذي يربيهم بنعمه، هم وأجدادهم المتقدمون، وكذا الأجيال اللاحقة إلى يوم القيامة.

٣ - أخبر الله تعالى عن قوم إلياس أنهم كذبوه فاستحقوا الإحضار إلى عذاب جهنم في الآخرة.

٤ - نجّى الله من العذاب الذين آمنوا بالله من قومه.

٥ - أبقى الله على إلياس الثناء الجميل في الأمم المتعاقبة والأجيال المتلاحقة.

٦ - سلام من الله وملائكته وإنسه وجِنّه على إلياس على مدى الحياة.

٧ - يجزي الله الجزاء الأوفى كل من أحسن عمله لله تعالى، وسبب الجزاء لإلياس ومن آمن معه: أنه مؤمن بالله إيماناً صادقاً خالصاً من أي شائبة.

قصة لوط عليه السلام

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْأَخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

المفردات اللغوية:

﴿وَإِنَّ لُوطًا﴾ هو لوط بن هاران أخي إبراهيم عليه السلام ابن تارح، آمن بإبراهيم، وأرسله الله إلى أهل سَدُوم أهل المنكرات والمعاصي والفواحش. ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الباقين في العذاب. ﴿دَمَّرْنَا﴾ أهلكنا. ﴿ٱلْأَخَرِينَ﴾ كفار قومه. ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ وإنكم يا أهل مكة لتمرون على منازلهم وآثارهم في أسفاركم ومتاجركم إلى الشام، فإن (سدوم) في طريقه. ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ وقت الدخول في الصباح، أي أول النهار. ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾ أي وفي المساء. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفليس فيكم عقل تعتبرون به يا أهل مكة؟

المناسبة:

هذه هي القصة الخامسة من قِصص هذه السورة، ذكرها تعالى ليعتبر بها

مشركو العرب، فإن الذين كفروا وعصوا من قوم لوط عليه السلام هلكوا، والذين آمنوا نجوا.

التفسير والبيان:

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ أي وإن لوطاً من الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى قومه (أهل سَدُوم) لارتكابهم الفواحش، فنصحهم فأبوا نصحه، فأهلكهم الله بالزلزال أو بالصيحة والحجارة المحرقة، فجعل بلادهم عاليها سافلها، ونجاه وأهله الذين آمنوا به إلا امرأته، كما قال تعالى:

﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ أي نجينا لوطاً وأهله المؤمنين به جميعاً، إلا امرأته، فإنها هلكت وبقيت في العذاب؛ لرضاها بفعل القوم، وتواطئها معهم على القوم الذين يأتون إلى لوط عليه السلام.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ أي ثم أهلكنا قومه الذين كذّبوا برسالته وهم أهل الفاحشة (فعل قوم لوط) عدا من نجيناهم.

وهنا نبّه الله تعالى مشركي مكة إلى الاعتبار بمصير هؤلاء المكذبين العصاة، فقال:

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ أي وإنكم يا أهل مكة تمرون على منازلهم التي فيها آثار العذاب في وقت الصباح، أي بالنهار ذهاباً إلى الشام، وفي الليل أثناء رجوعكم من الشام أفلا تتدبرون بعقل واع، وتتعظون بما تشاهدونه في ديارهم من آثار التدمير وعقوبة الله النازلة بهم، فتخافوا من أن يحلّ بكم العذاب نفسه، وتصيروا إلى مثل المصير، لمخالفتهم رسولهم.

وأشار الله تعالى إلى الصباح والليل؛ لأن المسافر في أكثر الأمر إنما يمشي في الليل وفي أول النهار.

فقه الحياة أو الأحكام:

يقص الله تعالى قِصص الأنبياء السابقين للعظة والعبرة، ومن هذه القِصص: قصة لوط عليه السلام مع قومه أهل سَدُوم، فأرشدهم إلى عبادة الله تعالى، وترك عبادة الأصنام، واجتناب الفواحش والمنكرات، ومنها إتيان الرجال، فكذبوه وعصوا أمر ربهم، فعاقبهم الله بالزلزال، فدمر ديارهم وأهلكهم، ونجَّى الله لوطاً وأهله الذين آمنوا برسالته إلا زوجته التي كانت راضية بأفعال القوم، وتدلهم على ضيوف لوط عليه السلام.

هذه عبرة وأي عبرة، لذا حذّر تعالى مشركي مكة الذين يرون في أسفارهم ومتاجرهم إلى الشام آثار ذلك الدمار، ونبههم إلى ضرورة العظة والاعتبار بمصير هؤلاء الذين كذبوا رسولهم، حتى لا يحل بهم ما حلَّ بغيرهم.

قصة يونس عليه السلام

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨)﴾

الإعراب:

﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ﴿أَوْ﴾: إما للتخيير، أي يتخير الرائي في أن يعدهم مئة ألف أو يزيدون، وإما للشك من الرائي، إذا رآهم شك في عدتهم لكثرتهم، وإما بمعنى (بل) وإما بمعنى الواو، والوجهان الأولان مذهب البصريين، والوجهان الآخران مذهب الكوفيين.

البلاغة:

﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ في ﴿أَبَقَ﴾ استعارة تصريحية، شبه خروج يونس عليه السلام بغير إذن ربه بإباق العبد، أي هربه من سيده.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ﴾ هو نبي الله يونس بن متى، من أنبياء اليهود بني إسرائيل في الظاهر أرسله الله عقيب نبوته إلى مدينة كبرى ليدعو أهلها (هم أهل نينوى) إلى توحيد الله، وترك الوثنية. ﴿أَبَقَ﴾ أصل الإباق: الهرب من السيد، والمراد هنا أنه ترك البلد بغير إذن ربه. ﴿ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ السفينة المملوءة في صورة المغاضب لربه، وهو في الحقيقة غاضب من قومه، لمَّا لم يُنزل بهم العذاب الذي وعدهم به، فركب السفينة، فوقفت في لُجَّة البحر، فقال الملاحون: هنا عبد أبَقَ (هرب) من سيده، تظهره القرعة.

﴿فَسَاهَمَ﴾ فقارع من في الفلك، أي اقترع أهل السفينة. ﴿ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ المغلوبين بالقرعة، فقال: أنا الآبق، فألقوه في البحر. ﴿فَٱلْتَقَمَهُ﴾ ابتلعه. ﴿مُلِيمٌ﴾ آتٍ بما يلام عليه من ذهابه إلى البحر، وركوبه السفينة بلا إذن من ربه. ﴿ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح مدة عمره، وفي بطن الحوت بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٧]. ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ أحياء، أي لصار بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة.

﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾ ألقيناه من بطن الحوت، بأن حملنا الحوت على لفظه. ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ بالمكان الخالي عما يغطيه من شجر أو نبت، في الساحل، في يومه أو بعد أيام، والله أعلم، روي أن الحوت سار مع السفينة رافعاً رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح، حتى انتهوا إلى البر، فلفظه. ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ عليل مما ناله، قيل: صار بدنه كبدن الطفل حين يولد. ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ﴾ أي فوقه. ﴿شَجَرَةً مِّن

﴿يَقْطِينٍ﴾ وهو الدُّبّاء أو القَرْع المعروف، غطّته بأوراقها عن الذباب، وظلّلته بساق على خلاف العادة في امتداد القرع على الأرض، معجزة له، وقيل: هو المَوْز يتغطى بورقه، ويستظل بأغصانه، ويفطر على ثماره، وقيل: التين. قيل لرسول الله ﷺ: إنك لتحب القرع؟ قال: «أجل، هي شجرة أخي يونس». ويقال: وكانت تأتيه وعلة صباحاً ومساء يشرب من لبنها حتى قوي.

﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ﴾ بعد ذلك إلى قوم هم أهل نينوى من أرض الموصل. ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ في مرأى الناظر، إذا نظر إليهم قال: هم مئة ألف أو أكثر، والمراد: الوصف بالكثرة. ﴿فَـَٔامَنُواْ﴾ عند معاينة أمارات العذاب الموعودين به. ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ أبقيناهم ممتعين بما لهم في الدنيا. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى أجلهم المسمى ومنتهى أعمارهم.

المناسبة:

هذه هي القصة السادسة والأخيرة في هذه السورة، وإنما جعلت خاتمة للقصص؛ لأن يونس عليه السلام لما لم يصبر على أذى قومه، وأبق إلى الفلك، وقع في تلك الشدائد، وفي هذا عبرة ودرس وتعليم للنبي ﷺ ليصبر على أذى قومه. جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى» ونسبه إلى أمه، وفي رواية: إلى أبيه.

التفسير والبيان:

ذكر الله يونس في القرآن باسمه أربع مرات[1]، وذكره بوصفه مرتين، في سورة الأنبياء: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [٨٧] وفي سورة القلم: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [٤٨].

---

(١) في سورة النساء (١٦٣) والأنعام (٨٦) ويونس (٩٨) والصافات (١٣٩).

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ إن يونس بن متى وهو ذو النون أحد الأنبياء المرسلين إلى قومه أهل نينوى بالموصل. قال المفسرون: كان يونس قد وعد قومه العذاب، فلما تأخر عنهم العذاب، خرج عنهم وقصد البحر، وركب السفينة، فكان كالفارّ من مولاه، فوصف بالإباق.

﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ أي اذكر حين هرب من قومه مغاضباً قومه إلى السفينة المملوءة بغير إذن ربه، فقارع أهل السفينة، فكان من المغلوبين في القرعة التي اقترعوها ليلقوا بعضهم في البحر، خوفاً من غرق السفينة الثقيلة الحمولة، فألقوه في البحر بعد أن وقعت القرعة عليه ثلاث مرات.

وأصل الإباق: هرب العبد من السيد، لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه، وصف به.

﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ فابتلعه الحوت، وهو مليم نفسه على ما فرط منها أو هو آت ما يلام عليه، من ترك قومه بغير إذن ربه، وكان عليه أن يصبر على أذى قومه. والخروج بغير إذن الله كبيرة على الأنبياء؛ لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ أي لولا أنه كان في حياته من الذاكرين الله كثيراً، المسبحين بحمده، المصلين له، للبث ميتاً في بطن الحوت، وصار له قبراً إلى يوم القيامة؛ لأن العادة أن يُهضم كسائر أنواع الغذاء.

جاء في الحديث الصحيح الذي ذكره النووي في الأربعين النووية عن ابن عباس في رواية غير الترمذي: «تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة» وكما كان مسبِّحاً ربه في حياته، سبح الله في بطن الحوت، كما قال عز وجل: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ

، ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٧-٨٨] .

﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥)﴾ ألقيناه، بأن جعلنا الحوت يلقيه، في مكان خال ليس فيه شجر ولا نبت ولا بناء، على جانب دجلة، وهو عليل الجسم ضعيف البدن، كهيئة الصبي حين يولد.

﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦)﴾ أي أنبتنا عليه شجرة فوقه تظلل عليه هي شجرة الدُّبَّاء وهو القرع، وهذا سريع النمو، وقدرة الله تجعل الشيء كن فيكون. ذكر بعضهم في القرع فوائد: منها سرعة نباته، وتظليل ورقه لكبره ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة تغذية ثمرته، وأنه يؤكل نيئاً ومطبوخاً بلُبّه وقشره أيضاً. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يحب الدباء، ويتتبعه من حواشي الصَّحْفة. وقد مكث يونس في هذه الحالة حتى اشتد لحمه ونبت شعره، ثم جاءه الأمر الإلهي:

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (١٤٨)﴾ أي أرسله الله عائداً إلى القوم الذين هرب منهم إلى البحر، وهم أهل نِينَوى من أرض الموصل، وعددهم مئة ألف، بل أكثر من ذلك، فهم يزيدون عن هذا العدد، فدعاهم إلى ربه مرة أخرى، فصدقوه كلهم وآمنوا به، بعدما شاهدوا أعلام نبوته، وأمارات العذاب، فمتعهم الله في الدنيا إلى حين انقضاء آجالهم ومنتهى أعمارهم، كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨)﴾ [يونس: ١٠/ ٩٨] .

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت قصة يونس إلى ما يأتي:

١ً - وقعت حادثة التقام الحوت يونس عليه السلام بعد أن صار رسولاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ أي إنه كان من المرسلين حينما أبق إلى الفلك.

٢ً - لا يصح لنبي المهاجرة عن بلد القوم الذين أرسل إليهم إلا بإذن ربه، فلما ذهب يونس عليه السلام بغير إذن ربه، وصف فعله بالإباق. قال العلماء: إنما قيل ليونس: أبق عن العبودية؛ لأنه خرج بغير أمر الله عز وجل، مستتراً من الناس. وإنما العبودية: ترك الهوى، وبذل النفس عند أمور الله عز وجل، فلما آثر هواه لزمه اسم الآبق.

ولم يبين لنا القرآن الكريم سبب إباقه، وقد فهم ذلك بالأمارات.

٣ً - القرعة جائزة شرعاً، وملزمة الأثر كالقسمة؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾. لكن المستقر في تشريعنا أنه لا يجوز الاقتراع على إلقاء الآدمي في البحر، وإنما تطبق عليه الحدود والتعزيرات على مقدار جنايته. وإنما كان ذلك في يونس وزمانه مقدمة لتحقيق برهانه، وزيادة في إيمانه.

٤ً - أتى يونس عليه السلام بما يلام عليه، فأصابته القرعة ثلاث مرات، فألقوه في البحر، تخفيفاً لحمولة السفينة، فالتقمه الحوت، وهو آتٍ بما يلام عليه.

٥ً - لم يبين القرآن الكريم مدة لُبْثه في بطن الحوت، لذا اختلف العلماء في تعيين المدة، فقيل: بعض يوم، أو ساعة واحدة، وقيل: ثلاثة أيام، وقيل: سبعة أيام، وقيل: عشرين يوماً، وقيل: أربعين يوماً[١]. والمعول عليه أن الله أبقاه حياً في بطن الحوت، فجعله عسير الهضم عليه، في مدة قليلة أو كثيرة، معجزة له.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٥/ ١٢٣

٦ً - لقد نجى الله تعالى يونس عليه السلام؛ لأمرين: أنه كان من المسبحين الذاكرين الله كثيراً طوال عمره، ومن تعرف على الله وقت الرخاء عرفه وقت الشدة، وأنه أعلن توبته في بطن الحوت الذي حماه الله من هضمه، فقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. لذلك قيل: إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر. وقال الحسن البصري: ما كان له صلاة في بطن الحوت، ولكنه قدم عملاً صالحاً في حال الرخاء، فذكَّره الله به في حال البلاء، وإن العمل الصالح ليرفع صاحبه، وإذا عثر وجد متكأ.

ومن هذا المعنى قوله ﷺ فيما رواه الضياء عن الزبير: «من استطاع منكم أن تكون له خب (أي خبيئة) من عمل صالح فليفعل» أي فليجتهد العبد، ويحرص على خصلة من صالح عمله، يخلص فيها بينه وبين ربه، ويدخرها ليوم فاقته وفقره، ويسترها عن خلقه، يصل إليه نفعها أحوج ما كان إليه.

أما تسبيحه فقال القرطبي: الأظهر أنه تسبيح اللسان الموافق للجنان. جاء في كتاب أبي داود عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: «دعاء ذي النون في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، لم يدع به رجل مسلم في شيء قط إلا استجيب له».

٧ً - كان من تتمة نعمة الله على يونس عليه السلام أنه بعد أن ألقاه الحوت، وهو في حال من الضعف، بساحل قرية من الموصل، أنبت عليه لحمايته وتظليله شجرة من يقطين. روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: طرح يونس بالعراء، وأنبت الله عليه يقطينة؛ قلنا: يا أبا هريرة، وما اليقطينة؟ قال: شجرة الدُّبّاء؛ هيأ الله له أُرْوية[١] وحشية تأكل من خَشاش الأرض - أو هشاش الأرض - فتَفْشِج[٢] عليه، فترويه من لبنها، كل عشية وبكرة حتى نبت.

---

(١) الأروية: الأنثى من الوعول.

(٢) تفشج: تفرج ما بين رجليها.

٨ - بعد أن اشتد لحمه ونبت شعره، أعاده الله إلى قومه الذين يزيد عددهم عن مئة ألف، فدعاهم إلى ربه، فآمنوا لما رأوا أعلام نبوته، ليظهر الله إرادته وقدرته له في الإيمان، ولما آمنوا أزال الله الخوف عنهم، وآمنهم من العذاب، ومتعهم الله بمتاع الدنيا إلى منتهى أعمارهم.

تفنيد عقائد المشركين

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

القراءات:

﴿تَذَكَّرُونَ﴾: قرئ:

١- (تَذَكَّرون) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (تَذَّكَّرون) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿الْمُخْلَصِينَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (المخلِصين).

الإعراب:

﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾﴾ ﴿إِنَّهُم﴾ مكسورة بعد ﴿أَلَآ﴾ لأنها مبتدأة، ولولا اللام في ﴿لَيَقُولُونَ﴾ لجاز فتحها على أن تكون ﴿أَلَآ﴾ بمعنى: حقاً، تقول: أحقاً أنك منطلق.

﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ﴾ قرئ بهمزة من غير مد، أصله «اصطفى» بهمزة وصل، فأدخلت عليه همزة الاستفهام، فاستغني بها عن همزة الوصل، فحذفت، مثل «أستغفرت». ومن قرأه بالمد أبدل من همزة الوصل مدة كإبدال همزة لام التعريف، نحو: آلرجل عندك، ونحو ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ [يونس: ١٠/٥٩] .

﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ ﴿مَنْ﴾: في موضع نصب بـ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾ وقرئ ﴿صَالُ ٱلْجَحِيمِ﴾ وفيه ثلاثة أوجه: إما حذف لام ﴿صَالِ﴾ وهي الياء، وإما قلب اللام التي هي الياء من «صالي» إلى موضع العين، فصار «صايل» ثم حذف الياء، فبقيت اللام مضمومة، وفيه بُعْد، وإما أصله «صالون» جمع صال، حملاً على معنى «من» فحذفت النون منه للإضافة، وحذف الواو لالتقاء الساكنين.

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ تقديره: وما منا أحد إلا له مقام معلوم.

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ إن: مخففة من الثقيلة، وتقديره: وإنهم كانوا ليقولون، ودخلت اللام فرقاً بين المخففة والثقيلة.

البلاغة:

﴿ٱلْبَنَاتُ﴾ ﴿ٱلْبَنُونَ﴾ بينهما طباق.

﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ﴾ ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا﴾ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾: تتابع الاستفهام للتوبيخ.

﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة، والأصل: وتجعلون، للإهمال والإبعاد من رحمة الله.

المفردات اللغوية:

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ استخبرهم واطلب منهم الفتيا توبيخاً لهم، وهو معطوف على مثله في أول السورة، فإنه تعالى أمر رسوله أولاً باستفتاء قريش عن وجه إنكارهم البعث، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة، حيث جعلوا لله البنات، ولأنفسهم البنين، في قولهم: الملائكة بنات الله. ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ﴾ بزعمهم أن الملائكة بنات الله. ﴿وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ فيختصون بالأعلى، ويجعلون لله الأدنى. ﴿وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ الخلق؛ لأن أمثال ذلك لا يعرف إلا بالشهود أو الحضور.

﴿أَمْ﴾ بمعنى «بل» الإضرابية، مع همزة الاستفهام. ﴿إِفْكِهِمْ﴾ الإفك: أشد الكذب. ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ بقولهم: الملائكة بنات الله. ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما ادعوه، وتدينوا به. ﴿أَصْطَفَى﴾ اختار، والاصطفاء: أخذ صفوة الشيء. وهو استفهام إنكار واستبعاد.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ هذا الحكم الفاسد الذي لا يرتضيه عقل. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ أنه منزه عن ذلك من الولد والشريك والند والنظير. ﴿سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ حجة واضحة، نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بناته، أو أن لله ولداً. ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ﴾ الذي أنزل عليكم. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في ادعائكم أو قولكم ذلك.

﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ أي جعل المشركون بينه تعالى وبين الملائكة نسباً أي صلة وارتباطاً بقولهم: إنها بنات الله، وسموا بالجِنَّة لاستتارهم عن الأبصار. ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾ إن الكفرة قائلي ذلك. ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ للنار للعذاب فيها. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ تنزيهاً لله. ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الولد (بأن لله ولداً)

والنسب ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ أي لكن عباد الله الذين اصطفاهم ربهم ينزهون الله تعالى عما يصفه هؤلاء، وهو استثناء منقطع.

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾﴾ من الأصنام، وهو عود لخطابهم. ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ على الله ﴿بِفَـٰتِنِينَ﴾ أحداً، مفسدين الناس بالإغواء، حاملين إياهم على الضلال والفتنة. وعليه: متعلق بفاتنين. ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ إلا من سبق في علم الله تعالى أنه من أهل النار يصلاها لا محالة، يقال: صَلِي النار: دخلها.

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ أي قال جبريل للنبي ﷺ: ما منا معشر الملائكة أحد إلا له مقام معلوم في السماوات، يعبد الله فيه لا يتجاوزه. وهذا اعتراف الملائكة بالعبودية للرد على عبدتهم. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ صفوفاً في أداء الطاعة ومنازل الخدمة. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ المنزهون الله عما لا يليق به. ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ أي وإن كان كفار مكة ليقولون. ﴿وَإِن﴾ مخففة من الثقيلة أي وإنهم.

﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ كتاباً من الكتب التي أنزلت على الأمم الماضية. ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ لأخلصنا العبادة له، ولم نخالف مثلهم. ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي لما جاءهم القرآن الذي هو أشرف الأذكار والمهيمن عليها كفروا به. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة كفرهم.

سبب النزول:

نزول الآية (١٥٨):

﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ﴾: أخرج جويبر عن ابن عباس قال: أنزلت هذه الآيات في ثلاثة أحياء من قريش: سُليم، وخُزاعة، وجُهَيْنة: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾. ونقل الواحدي عن المفسرين أنهم قالوا: إن قريشاً وأجناس العرب: جُهَيْنة وبني سلمة، وخُزاعة، وبني مُلَيح قالوا: الملائكة بنات الله.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد قال: قال كبار قريش: الملائكة بنات الله، فقال لهم أبو بكر الصديق: فمن أمهاتهم؟ قالوا: بنات سراة الجن، فأنزل الله ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾.

نزول الآية (١٦٥):

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن أبي مالك قال: كان الناس يصلون متبددين، فأنزل الله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ فأمرهم النبي ﷺ أن يصفّوا.

المناسبة:

بعد افتتاح هذه السورة بتوبيخ المشركين على إنكارهم البعث، وبعد بيان قصص الأنبياء التي هي في الأعم الأغلب درس بليغ للمشركين، بدأ الله تعالى ببيان عقائد المشركين وتفنيدها وتقبيحها، ومن تلك العقائد: إثبات الأولاد لله تعالى، ونسبة البنات لله بقولهم: «الملائكة بنات الله» وجعل البنين لأنفسهم، ثم افتراؤهم بجعل الملائكة إناثاً لا ذكوراً، ثم أعلن تعالى حملته الشديدة على المشركين، فأبان أنهم عاجزون عن إضلال أحد إلا إذا كان هو من أهل الضلال وأصحاب الجحيم، في علم الله السابق. وناسب بعدئذ إيراد تصريح الملائكة بعبوديتهم لله للرد على المشركين الذين زعموا أنهم بنات الله.

التفسير والبيان:

عطف الله تعالى هذه الآيات على قوله في أول السورة: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ فقال: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ أي استخبرهم يا محمد على سبيل التوبيخ، وسلهم مؤنباً ومقرعاً ومنكراً على هؤلاء المشركين في قسمتهم وسفه عقولهم، في جعلهم لأنفسهم البنين، وهو النوع الجيد، ولله تعالى البنات التي يكرهونها أشد الكره، كما قال تعالى﴿وَإِذَا

بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾﴾ [النحل: ١٦/٥٨] أي يسوؤه ذلك، ولا يختار لنفسه إلا البنين، فكيف يجعلون لله أدنى الجنسين وهو الإناث، ولهم أعلاها وهم الذكور؟

والمراد بالآية: بيان جور القسمة وإظهار شدة الغرابة، كيف نسبوا إلى الله تعالى النوع الذي لا يختارونه لأنفسهم؟ كما في قوله عز وجل: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٥٣/٢١-٢٢] .

﴿أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ بل كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث، وما شاهدوا خلقهم؟ وهذا انتقال عن الكلام الأول إلى ما هو أشد منه، فكيف جعلوهم إناثاً، وهم لم يحضروا عند خَلْقنا لهم، وذلك لا يعلم إلا بالمشاهدة، ولم يشهدوا، فلم يقم لهم دليل يدل على قولهم، لا من النقل الصحيح، ولا من العقل السليم.

ونظير الآية قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/١٩] أي ويسألون عن ذلك يوم القيامة.

﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ أي إن قولهم هذا هو من الكذب والافتراء، الذي لا دليل له ولا شبهة دليل. فكيف يقولون: صدر منه الولد، إنهم فيما يقولون أكذب الكاذبين.

وبه يتبين أنهم ذكروا في الملائكة ثلاثة أوصاف في غاية الكفر والكذب، وهي أنهم جعلوهم بنات الله، فنسبوا الولد لله، وجعلوا ذلك الولد أنثى، ثم عبدوهم من دون الله.

ثم أنكر الله تعالى عليهم حكمهم الجائر فقال:

﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ

﴿١٥٥﴾ المعنى: أي شيء يحمله على اختيار البنات دون البنين؟ كما قال تعالى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٤٠] أي كيف يعقل تفضيله البنات على البنين، مع أن البنين أفضل؟

أليس لكم عقول تتدبرون بها ما تقولون؟ أفلا تعتبرون وتتفكرون فتتذكروا بطلان قولكم؟

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ المعنى: بل ألكم حجة واضحة على هذا القول؟ فإن كان لكم برهان، فهاتوا برهاناً على ذلك، مستنداً إلى كتاب منزَّل من السماء عن الله تعالى أنه اتخذ ما تقولونه، إن صدقتم في ادعائكم.

ويلاحظ من تتابع هذه الاستفهامات وتكرارها مدى التوبيخ والتبكيت والإنكار الشديد لأقاويلهم، وتسفيه أحلامهم، فإن ما يقولونه لا يمكن استناده إلى عقل، بل لا يجوِّزه العقل أصلاً.

ثم أكد الله تعالى افتراء المشركين على الله بنسبة الملائكة إليه نسباً، فقال:

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ أي جعل المشركون بين الله وبين الجن وهم هنا الملائكة صلة نسب، فقالوا: الملائكة بنات الله، وسموا جناً لاجتنانهم واستتارهم عن الأبصار.

والقائل بهذه المقالة كنانة وخزاعة، قالوا: إن الله خطب إلى سادات الجن، فزوجوه من سروات بناتهم، فالملائكة بنات الله من سروات بنات الجن، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. وما هذا إلا وهم واختراع القصاصين منهم، وقيل: القائل هم اليهود، قالوا لعنهم الله: إن الله صاهر الجن، فكانت الملائكة من بينهم. وكل هذا بسبب تشبيه الخالق عز وجل بالبشر، ووصفه بالمادية الجسدية، وهو كفر.

ثم أخبر الله تعالى عن عذابهم قائلاً:

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي وتالله، لقد علمت الملائكة الذين ادعى المشركون أن بينهم وبينه تعالى نسباً، إن أولئك المشركين لمحضرون للحساب والعذاب في النار، لكذبهم وافترائهم بقولهم المتقدم.

ثم نزَّه الله تعالى نفسه عن كل ما لا يليق به من نقائص البشر، قائلاً:

﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ أي تنزه الله تعالى وتقدس عن أن يكون له ولد، وعما يصفه به الظالمون الملحدون، وتعالى علواً كبيراً.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ أي لكن عباد الله المخلصين وهم المتّبعون للحق المنزل على كل نبي مرسل ناجون، فلا يُحضرون إلى عذاب النار، وهذا استثناء منقطع.

ثم تحدى الله تعالى المشركين، وأثبت عجزهم عن إضلال أحد أو فتنته، فقال مخاطباً المشركين:

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾[1] أي فإنكم وآلهتكم التي تعبدون من دون الله لستم بقادرين على فتنة أحد عن دينه وإضلاله إلا من هو أضل منكم ممن هو من أهل الجحيم الذي سبق في علم الله تعالى أنهم لما علم من سوء استعدادهم ممن يدخلون النار ويصلونها، وهم المصرّون على الكفر، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾[الأعراف: ٧/ ١٧٩] فهذا النوع من الناس: هو الذي ينقاد

(١) هذا محمول على معنى ﴿مَنْ﴾ ومعناها جماعة، فالتقدير: صالون، ثم حذفت النون للإضافة، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين.

للشرك والضلالة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذاريات: ٥١/٨-٩] أي إنما يضل به من هو مأفوك مبطل.

ثم نزه الله تعالى الملائكة مما نسبوا إليه من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله.

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۝١٦٤﴾ هذا حكاية من الله تعالى عما تقوله الملائكة معناه: وما منا مَلَك إلا له مرتبة معلومة من المعرفة والعبادة والمكان، لا يتجاوزها. والمراد به الإشارة إلى درجاتهم في طاعة الله تعالى، مبالغة في العبودية لله عز وجل. قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه مَلَك ساجد، أو قائم»(١).

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ۝١٦٦﴾ أي قالت الملائكة أيضاً: وإنا لنحن الصافون صفوفاً في مواقف العبودية، وإنا لنحن المسبحون باللسان وبالصلاة، المنزهون الله تعالى عما لا يليق به، فنحن عبيد فقراء لله. والمقصود أن صفات الملائكة هي التذلل والعبادة لله. وليسوا كما وصفهم به الكفار من أنهم بنات الله، وهو إشارة إلى درجاتهم في المعارف، كما أن الأول إشارة إلى درجاتهم في الطاعة.

ثبت في صحيح مسلم عن جابر بن سَمُرة قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ، ونحن في المسجد، فقال: ألا تَصفُّون كما تصفُّ الملائكة عند ربها، فقلنا: يا رسول الله، كيف تصفُّ الملائكة عند ربها؟ قال: يُتمُّون الصفوف الأُوَل، ويتراصُّون في الصف».

وفي صحيح مسلم أيضاً عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله

(١) رواه ابن مردويه عن أنس بلفظ: «أطت السماء، ويحق لها أن تئط، والذي نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر، إلا وفيه جبهة ملك ساجد يسبّح الله بحمده».

ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجداً، وتربتها طهوراً».

وكان عمر رضي الله عنه إذا قام للصلاة يقول: أقيموا صفوفكم، واستووا، إنما يريد الله بكم هَدْي الملائكة عند ربها، ويقرأ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ تأخر يا فلان، تقدم يا فلان، ثم يتقدم فيكبّر.

ثم ذكّر تعالى بما كان يقول المشركون قبل البعثة النبوية: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ أي إن المشركين كانوا قبل بعثة النبي ﷺ، إذا عُيّروا بالجهل، قالوا: لو كان عندنا كتاب من كتب الأولين كالتوراة والإنجيل، لأخلصنا العبادة لله، ولم نكفر به، فجاءهم محمد ﷺ بالذِّكْر المبين فكفروا به، وسوف يعلمون عاقبة كفرهم ومغبته. وهذا وعيد أكيد وتهديد شديد على كفرهم بربهم وبالقرآن وبالرسول ﷺ.

وذلك كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ [فاطر: ٣٥/ ٤٢] وقوله سبحانه: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥٦-١٥٧] .

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما هو آت:

أ - من أكاذيب المشركين الوثنيين وافتراءاتهم أنهم قالوا: البنات لله.

والملائكة بنات الله، والملائكة إناث، وكل ذلك باطل؛ لأنهم نسبوا لله الولد وهو الذي لم يلد ولم يولد، وكانوا يستنكفون من البنت، والشيء الذي يستنكف المخلوق منه، كيف يمكن إثباته للخالق، ولم يشهدوا كيفية تخليق الله الملائكة، فكيف يزعمون أنهم إناث؟!!

٢ً - لكل هذا وبخهم الله تعالى بجمل متتابعة متكررة من الاستفهامات المذكورة في الآيات، والتي تناقض الحس والعقل والمنطق والنظر، ولا دليل عليها من نقل يوثق به، ولا تعتمد على حجة وبرهان.

٣ً - قال كفار قريش: الملائكة بنات الله، جاعلين نسباً بينه وبينهم، والملائكة مبرؤون من هذا الزعم، ويعلمون يقيناً أن أولئك الكفار محضرون للعذاب في نار جهنم.

٤ً - نزّه الله تعالى نفسه عما قالوا من الكذب، وعما وصفوا من المزاعم، وذلك تنزيه واجب واقع لا شك فيه، يستحق ربنا به تمام الحمد والشكر على تعريفنا بما يجب لذاته الكريمة من تقديس.

٥ً - إن عباد الله المخلصين لله العبادة، المتبعين أوامر ربهم، هم الناجون.

٦ً - لا يقر هؤلاء الكفار ولا آلهتهم التي يعبدون من دون الله على حمل أحد على الضلال إلا إذا كان سبق في علم الله أنه من أهل النار، لإصراره على الكفر، وعدم استعداده للإيمان.

قال الرازي: وهذا دليل لأهل السنة على أنه لا تأثير لإغواء الشيطان ووسوسته، وإنما المؤثر قضاء الله وتقديره؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ تصريح بأنه لا تأثير لقولهم، ولا تأثير لأحوال معبوديهم في وقوع الفتنة والضلال. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ

﴿١٦٣﴾ يعني إلا من كان كذلك في حكم الله وتقديره[١]. وهي ردّ على القدرية. فإن حكم الله وقدره لا جبر فيه ولا إكراه.

٧ً - وصف الملائكة أنفسهم بثلاث صفات، تعظيماً لله عز وجل، واعترافاً بالعبودية له، وإنكاراً منهم عبادة من عبدهم، وهي: أن لكل واحد منهم مرتبة لا يتجاوزها، ودرجة لا يتعدى عنها، وإنهم صافون صفوفاً في أداء الطاعات ومنازل الخدمة والعبودية، وأنهم دائماً يسبحون الله تعالى، والتسبيح: تنزيه الله عما لا يليق به.

وجاءت الصفتان الثانية والثالثة بصفة الحصر، ومعناه: أنهم في مواقف العبودية لا غيرهم، وأنهم هم المسبحون لا غيرهم، وذلك يدل على أن طاعات البشر ومعارفهم بالنسبة إلى طاعات الملائكة وإلى معارفهم كالعدم، حتى يصح هذا الحصر، كما ذكر الرازي. ثم عقب على ذلك قائلاً: فكيف يجوز مع هذا الحصر أن يقال: البشر تقرب درجته من الملَك، فضلاً عن أن يقال: هل هو أفضل منه أم لا؟!!

٨ً - إن أخبار قريش عجيبة وغريبة، سواء قبل البعثة النبوية أم بعدها. فقد كانوا يتمنون قبل بعثة النبي ﷺ لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولى، ويأتيهم بكتاب الله، ثم جاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار، والكتاب المهيمن على كل الكتب، وهو القرآن، فكفروا به، وكذبوا رسول الله ﷺ، وما وفوا بما قالوا: فاستحقوا الوعيد والتهديد، وهو أنهم سوف يعلمون مغبة كفرهم، وعاقبة تكذيبهم.

---

(١) تفسير الرازي: ٢٦/ ١٧٠

نصر جند الله تعالى

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾

الإعراب:

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ ﴿لَهُمُ﴾: ضمير فصل بين اسم «إن» وهو «هم» وخبرها ﴿ٱلْمَنصُورُونَ﴾ وأدخلت اللام على الضمير. ولا يجوز أن يكون ﴿لَهُمُ﴾(صفة لاسم «إن»؛ لأن اللام لا تدخل على الصفة. ويجوز جعل ﴿لَهُمُ﴾ مبتدأ، و ﴿ٱلْمَنصُورُونَ﴾ خبره، والجملة منهما في موضع رفع خبر «إن».

البلاغة:

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ استعارة تمثيلية، شبه العذاب النازل بهم بجيش هجم عليهم بغتة، فلم ينتصحوا بكلام ناصح، ولا استعدوا للدفاع، حتى هزمهم وأفناهم.

المفردات اللغوية:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ أي وعدناهم بالنصر والغلبة، وذلك بقوله تعالى: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١/٥٨] وقوله هنا: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾. وإنما سماها كلمة وهي كلمات لانتظامها في معنى واحد.

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ الغالبون في الحرب وغيرها، وهذا باعتبار الغالب، وبشرط نصرة دين الله. ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ أي إن جندنا المؤمنين أتباع الرسل غالبون الكفار في الدنيا بالحجة والنصرة عليهم، فإن لم ينتصروا في الدنيا انتصروا في الآخرة.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أعرض عنهم. ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي إلى أن يحين موعد نصرك عليهم وهو في عهد النبوة يوم بدر أو يوم الفتح - فتح مكة. ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ انظر إليهم وارتقب ما ينالهم من الأسر والقتل في الدنيا، والتعذيب في الآخرة حين نزول العذاب بهم. ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ عاقبة كفرهم، وما قضينا لك من التأييد والنصر في الدنيا، والثواب في الآخرة. وسوف للوعيد لا للتبعيد.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ هذا قول من الله يتضمن التهديد لهم، روي أنه لما نزل. ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ قالوا: متى هذا؟ فنزل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي إذا نزل العذاب بفِنائهم: وهو المكان الواسع، قال الفراء: العرب تكتفي بذكر الساحة عن القوم. ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي بئس صباحاً صباح المنذرين بالعذاب. وفيه إقامة الظاهر مقام المضمر لتسجيل صفة الإنذار عليهم.

﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ كرره تأكيداً لتهديدهم، وتسلية للنبي ﷺ. ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ الغلبة والقوة. ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ بأن له ولداً. ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ المبلغين عن الله التوحيد والشرائع. ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ على نصرهم وهلاك الكافرين.

سبب النزول:

نزول الآية (١٧٦):

﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾: أخرج جويبر عن ابن عباس قال: قالوا: يا محمد، أرنا

العذاب الذي تخوفنا به، عجّله لنا، فنزلت: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ وهو صحيح على شرط الشيخين.

التفسير والبيان:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ أي لقد سبق وعدنا بالنصر والظفر على الكفار في الدنيا والآخرة لعبادنا الرسل الذين أرسلناهم للإنذار والتبشير، ففي الدنيا: تكون الغلبة والقهر لهم بالأسر والقتل والتشريد أو الإجلاء أو بالحجة والبرهان، ونحو ذلك، وفي الآخرة: الظفر بالجنة، والنجاة من النار، وهذا في الأعم الأغلب. وجند الله: حزبه، وهم الرسل وأتباعهم.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٢١] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٥١].

وشرط النصر معروف، وهو الإيمان الصحيح بالله عز وجل، والعمل بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والتزام دين الله شرعاً ودستوراً ونظاماً ومنهج حياة؛ قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٤٧] وقال سبحانه: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٤٧/ ٧] وقال عز وجل: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٢٨].

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾﴾ أي أعرض عنهم، واصبر على أذاهم لك، إلى مدة معلومة عند الله سبحانه، فإنا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر.

﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾ أي أنظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال بمخالفتك وتكذيبك، كالأسر والقتل، وسوف يبصرون كل ما وعدتهم به من العقاب، وما وعدناك به من النصر وانتشار دينك في الآفاق، وذلك حين لا ينفعهم الإبصار. وكرر تعالى ذلك تأكيداً.

والمراد بالأمر بإبصارهم على الحال المنتظرة الموعودة: الدلالة على أنها كائنة واقعة لا محالة، وأن حدوثها قريب، وفي ذلك تسلية للرسول ﷺ وتنفيس عنه عما يناله من أذى كفار قومه قريش.

ثم وبخهم الله تعالى وهددهم على طلبهم تعجيل العذاب قائلاً:

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ أي كيف يجرؤون على استعجال عذابنا الشديد؟ والواقع أنهم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم بك، قائلين: متى هذا العذاب؟ والعذاب نازل بهم قطعاً لا محالة.

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ أي فإذا نزل العذاب بهم أو بمحَلَّتهم، فبئس ذلك اليوم يومهم، لإهلاكهم ودمارهم. ورد في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: صبّح رسول الله ﷺ خيبر، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم، ورأوا الجيش، رجعوا وهم يقولون: محمد والله، محمد والخميس - الجيش - فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، خَرِبت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذرين» ورواه أحمد أيضاً بلفظ آخر، وهو صحيح على شرط الشيخين.

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ أي وأعرض أيها الرسول عن هؤلاء المشركين إلى أجل آخر يحين فيه هلاكهم، وانظر إليهم وارتقبهم، فسوف يرون ما يحل بهم من عقاب.

وهذا تأكيد لما تقدم من الأمر بالكف عنهم، والصبر على أذاهم.

ثم ختمت السورة بخاتمة عظيمة فيه تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، ومدحه للرسل الكرام، فقال سبحانه:

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ أي تنزيهاً لربك أيها الرسول وتقديساً وتبرئة عما

يقول الظالمون المكذبون المفترون المعتدون، فهو رب القوة والغلبة والعزة التي لا ترام، وسلام الله على الرسل الكرام الذين أرسلهم إلى أقوامهم، في الدنيا والآخرة، لسلامة ما قالوه في ربهم وصحته وحقيقته، والحمد والشكر لله في الأولى والآخرة في كل حال، فهو رب الثقلين: الإنس والجن، دون سواه. وهذا تعليم من الله للمؤمنين أن يقولوا ذلك.

روى ابن أبي حاتم عن الشعبي، والبغوي عن علي كرم الله وجهه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من سرَّه أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر، يوم القيامة، فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾». ووردت أحاديث في كفارة المجلس: «سبحانَك اللهم وبحَمْدك، لا إلهَ إلا أنتَ أستغفرك وأتوبُ إليك».

وذكر الثعلبي عن أبي سعيد الخدري قال: «سمعت رسول الله ﷺ غير مرة ولا مرتين يقول في آخر صلاته أو حين ينصرف: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ ».

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - سبق الوعد الإلهي بنصر المرسلين بالحجة والغلبة، ونصر جند الله وهم الرسل وأتباعه على أعدائهم، وذلك على الغالب. والنصر إما بقوة الحجة، أو بالدولة والاستيلاء، أو بالدوام والثبات.

٢ - كان النبي ﷺ والمؤمنون في مكة قبل الهجرة مأمورين بالكف عن المشركين، والصفح عنهم، والصبر على أذاهم، وترك مقاتلتهم.

٣ - هدّد الله المشركين وأوعدهم بما سيناهم من عذاب الدنيا والآخرة، وحينئذ سوف يبصرون حين لا ينفعهم الإبصار.

٤ - من الحماقة الشديدة استعجال الكفار وقوع عذاب الله، فإنه لا داعي للاستعجال، والعذاب واقع بهم لا محالة، وهو عذاب شديد مدمر، فإذا حلَّ بهم أو بديارهم فبئس صباح الذين أنذروا بالعذاب.

٥ - يسن ختم الصلاة والمجلس بآية: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ وفي هذه الآية أنواع ثلاثة من صفات الله تعالى: وهي تنزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق بصفات الألوهية وهو كلمة ﴿سُبْحَٰنَ﴾، ووصفه بكل ما يليق بصفات الألوهية وهو قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ وكونه منزهاً عن الشريك والنظير.

وقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ يدل على أنه القادر على جميع الحوادث التي خلقها.

وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ كلمة محتوية على أقصى الدرجات وأكمل النهايات في معرفة إله العالم. والمهم أن يعرف العاقل كيف يعامل نفسه ويعامل الناس في الدنيا.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة ص

مكية، وهي ثمان وثمانون آية

تسميتها:

سميت سورة ﴿صٓ﴾ لافتتاحها بهذا الحرف العربي أحد أحرف الهجاء الثمانية والعشرين، للدلالة على أن هذا القرآن العظيم مكوّن ومنظوم من حروف الهجاء العربية، ومع ذلك لم يستطع العرب الفصحاء الإتيان بمثل أقصر سورة منه، فبدأ به بهذه السورة كغيرها من السور المبدوءة بحروف هجائية، بقصد تحدي العرب، وإثبات إعجاز القرآن.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر صلة هذه السورة بما قبلها من وجهين:

الأول - أن الله تعالى حكى في آخر سورة الصافات التي قبلها قول الكفار: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ ثم كفروا به، ثم افتتح هذه السورة بالقسم بالقرآن ذي الذكر، لتفصيل المجمل هناك.

الثاني - أن هذه السورة بعد الصافات، كـ ﴿طسٓ﴾ النمل بعد الشعراء، وكـ ﴿طه ﴿١﴾﴾ والأنبياء بعد مريم، وكـ ﴿يُوسُفُ﴾ بعد هود، في كونها متممة لها بذكر من بقي من الأنبياء ممن لم يذكر في تلك، مثل داود، وسليمان، وأيوب، وآدم، وأشار إلى بقية من ذكر.

مشتملاتها:

موضوع هذه السورة كسائر السور المكية في بيان أصول العقيدة الإسلامية «التوحيد، والنبوة، والبعث» من خلال مناقشة المشركين في عقائدهم المناقضة لتلك الأصول، وإيراد قصص الأنبياء للعظة والعبرة، وبيان حال الكفار والمشركين يوم القيامة، ووصف عذاب أهل النار، ونعيم أهل الجنة.

ابتدأت السورة بالوصف الناقد لصفات المشركين من الكبرياء وإباء الحق والإعراض عنه، مع تذكيرهم بعاقبة الماضين الذين حادوا عن الحق، فهلكوا، مثل قوم نوح وعاد وفرعون وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة.

ومن أهم تلك الصفات ثلاث: إنكار الوحدانية، وإنكار نبوة محمد ﷺ، وإنكار البعث والحساب.

ثم ذكرت قصة داود وسليمان وأيوب مفصلاً، وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع وذي الكفل مجملاً عليهم السلام.

وانتقل البيان إلى الغاية الكبرى وهي إثبات البعث والحساب ووصف نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار.

ثم توجت السورة بقصة بدء الخلق - قصة آدم عليه السلام وسجود الملائكة له إلا إبليس، وطرده من الجنة، وصبّ اللعنة عليه إلى يوم القيامة، وتوعده وأتباعه بملء جهنم منهم.

وختمت السورة ببيان إخلاص النبي ﷺ في تبليغ رسالته دون طلب أجر، مما يدل على نبوته، وأردفه بإعلان كون القرآن رسالة للثقلين: الإنس والجن، وأن المشركين بعد موتهم يعلمون حقيقة أمره.

مناقشة المشركين في عقائدهم

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝٨ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١﴾

القراءات:

﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (والقران).

الإعراب:

﴿صٓ﴾ قرئ «صاد» بسكون الدال وفتحها وكسرها بلا تنوين وبتنوين. فمن قرأ بالسكون فعلى الأصل؛ لأن الأصل في حروف الهجاء البناء، والأصل في البناء أن يكون على السكون. ومن قرأ بالفتح جعله اسماً للسورة، كأنه قال: اقرأ صادَ. ومن قرأ بالكسر بغير تنوين فهو إما أمر من المصاداة وهي المقابلة، أي قابل القرآن بعملك، وإما بإعمال حرف القسم مع حذفه، مثل: اللهِ لأفعلن، وفيه ضعف. ومن قرأ بالكسر مع التنوين شبهه بالأصوات التي تنون للفرق بين التعريف والتنكير، مثل صهْ وصهٍ.

﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ مجرور على القسم، وجوابه إما ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ وإما ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وإما ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ﴾ وإما ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾ وتقديره: لكم أهلكنا، فحذفت اللام، كما حذفت في قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩﴾ [الشمس: ٩١/٩] أي لقد أفلح.

﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ (لات): حرف بمعنى ليس، وله اسم وخبر، أي ولات الحين حين مناص. والجملة حال من فاعل نادوا. ومن قرأ (وَلَاتَ حِينُ مَنَاص) بالرفع، أضمر الخبر، وهو شاذ لا يقاس عليه. وتاء (لات) لتأنيث الكلمة، وهي عند البصريين بمنزلة تاء الفعل، مثل: ضربتْ وذهبتْ، والوقف عليها بالتاء، وعليه خط المصحف، وهي عند الكوفيين بمنزلة تاء الاسم، نحو: ضاربة وذاهبة، والوقف عليها بالهاء، والأقيس مذهب البصريين؛ لأن الحرف إلى الفعل أقرب منه إلى الاسم.

﴿أَنِ ٱمۡشُواْ﴾ أن مفسرة، تقديره: أي امشوا، وهو من المشاية: كثيرة النتاج، دعا لهم بكثرة الماشية.

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٌ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ١١﴾ ﴿جُندٌ﴾ مبتدأ، و﴿مَّا﴾ زائدة، و﴿هُنَالِكَ﴾ صفة جند، تقديره: جند كائن هنالك، و﴿مَهۡزُومٌ﴾ خبر المبتدأ. وقيل: هنالك متعلق بمهزوم، والأول أوجه.

البلاغة:

﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٍ﴾ أي أهل قرن، فهو مجاز مرسل، والقرن: مئة عام.

﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير، والأصل: وقالوا، لرصد كفرهم.

﴿كَذَّابٌ﴾ ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ ﴿ٱلۡوَهَّابِ﴾ ﴿أَوَّابٌ﴾ من صيغ المبالغة.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ تأكيد الجملة الخبرية بإنّ واللام لزيادة التعجب والإنكار منهم.

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ التنوين في ﴿جُندٌ﴾ للتقليل والتحقير، وزيادة ﴿مَّا﴾ لتأكيد القلة.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ ﴿مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾: توافق الفواصل الذي يزيد الكلام روعة وبهاء وجمالاً.

المفردات اللغوية:

﴿ص﴾ معناه: أن القرآن مركب من هذه الحروف العربية، وأنتم أيها العرب قادرون على تكوين الجمل والكلام منها، ولستم قادرين على معارضة القرآن والإتيان بمثله، فهو للدلالة على التحدي والتنبيه على الإعجاز. وقيل: إن هذه الفواتح وأمثالها لها معان أخرى[1].

﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ يقسم الله تعالى بالقرآن، والإقسام بالقرآن: فيه تنبيه على شرف قدره وعلوّ محله. ومعنى ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾: البيان، أو الشرف والشهرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٤٤]. وجواب القسم في رأي جماعة محذوف تقديره: إنه لكلام معجز، أو ما الأمر كما قال كفار مكة من تعدد الآلهة.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾ أي لا ريب فيه قطعاً، بل المشركون من أهل مكة وأمثالهم في تكبر وتجبر عن الإيمان، واعتزاز بالباطل، والعزة أيضاً: الغلبة والقهر و﴿وَشِقَاقٍ﴾ أي خلاف وعداوة لله ولرسوله ﴿كَمْ﴾ كثير ﴿أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي قد أهلكنا قبلهم كثيراً من الأمم الماضية الذين

(١) انظر تفسير الرازي: ٢٦/ ١٧٤

كانوا أشد قوة وأكثر أموالاً ﴿فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي نادوا حين نزول العذاب بهم أي استغاثوا، وليس ذلك الوقت وقت خلاص وفرار ومنجى. وهذا وعيد على كفرهم بالقرآن استكباراً وشقاقاً.

﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ تعجبوا من مجيء رسول من أنفسهم ينذرهم ويخوفهم بالعذاب بالنار إن استمروا على الكفر، وهو النبي ﷺ ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ قالوا ذلك لما شاهدوا المعجزات الخارجة عن قدرة البشر ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أصيّرها إلهاً واحداً؟ حين قال لهم: قولوا: لا إله إلا الله، أي كيف يكون للخلق كلهم إله واحد؟ ﴿عُجَابٌ﴾ عجيب، بالغ في العجب إلى الغاية، وإنما تعجبوا؛ لأنه كان لكل قبيلة إله.

﴿الْمَلَأُ﴾ الأشراف، انطلقوا من مجلس اجتماعهم عند أبي طالب بعد سماعهم قول النبي ﷺ كلمة يقولونها تدين لهم بها العرب والعجم، قالوا: فما هي؟ قال: لا إله إلا الله ﴿أَنِ امْشُوا﴾ يقول بعضهم لبعض: امضوا على ما كنتم عليه ولا تدخلوا في دينه ﴿وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ اثبتوا على عبادتها ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي إن هذا الذي يريده محمد ﷺ بنا وبآلهتنا، من دعوته إلى التوحيد لشيء من ريب الزمان يراد بنا، ليعلو علينا، ونكون له أتباعاً.

﴿الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ هي ملة النصرانية ﴿اخْتِلَاقٌ﴾ كذب اختلقه محمد ﷺ وافتراه ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ أأنزل عليه القرآن، ونحن الرؤساء والأشراف، أكبر منه سناً، وأعظم منه شرفاً ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ أي من القرآن أو الوحي ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ أي بل لم يذوقوا عذابي بعدُ، فإذا ذاقوه زال شكهم. والمعنى: إنهم لا يصدّقون به حتى يمسهم العذاب، فيلجئهم إلى تصديقه.

﴿خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ مفاتيح نعم ربك ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب ﴿الْوَهَّابِ﴾ من النبوة وغيرها، حتى يعطوها لمن شاؤوا ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ أي فليصعدوا

في المعارج والوسائل التي توصلهم إلى السماء والاستيلاء على العرش، حتى يحكموا بما يريدون ﴿جُندٌ مَّا﴾ جند حقير من الكفار ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل هذا القول، وتكذيب النبي ﴿مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ صفتان لـ ﴿جُندٌ﴾ فهم مغلوبون، متحزبون على الأنبياء قبلك، فقُهروا وهلكوا، فكذلك نهلك هؤلاء.

سبب النزول:

نزول الآية (٥):

﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ﴾: أخرج أحمد والترمذي والنسائي والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: مرض أبو طالب، فجاءته قريش، وجاءه النبي ﷺ، فشكوه إلى أبي طالب، فقال: يا بن أخي، ما تريد من قومك؟ قال: أريد منهم كلمة، تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم العجم الجزية كلمة واحدة، قال: وما هي؟ قال: لا إله إلا الله، فقالوا: إلهاً واحداً؟ إن هذا لشيء عجاب، فنزل فيهم ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ إلى قوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾.

التفسير والبيان:

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ ﴿صٓ﴾ أحد حروف الهجاء العربية، افتتح بها هذه السورة كغيرها من السور للتحدي والتنبيه على إعجاز القرآن، وتنبيه المخاطب للإصغاء إلى الكلام الآتي بعده. وأقسم بالقرآن ذي البيان الشامل لكل ما يحتاج إليه العباد في المعاش والمعاد من الدين الجامع للعقائد الثابتة الصحيحة، والشرائع الناظمة للحياة الإنسانية، والوعد والوعيد، وهو أيضاً ذو الشرف والشهرة والرفعة، أقسم به إنه لكلام معجز منزل من الله، وإن محمداً لصادق فيما يدعيه من النبوة، والرسالة من رب العالمين إلى البشرية جمعاء، وهو أيضاً تذكير كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠] أي تذكيركم.

وسبب كفر المشركين هو:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢﴾ أي إن هذا القرآن ذكرى لمن يتذكر، وعبرة لمن يعتبر، وإنما لم ينتفع به الكافرون؛ لأنهم في استكبار عنه، وترفع عن اتباع الحق، ومخالفة لله ولرسوله ﷺ ومعاندة ومكابرة وحرص على المخالفة.

ثم خوَّفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم، فقال:

﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ۝٣﴾ أي قد أهلكنا قبلهم كثيراً من الأمم الخالية بسبب مخالفتهم للرسل وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء، فاستغاثوا وجأروا إلى الله تعالى حين جاءهم العذاب، فلم يُجْدهم شيئاً؛ لأن الوقت ليس وقت خلاص وفرار من العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ۝١٣﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٢-١٣] و﴿يَرۡكُضُونَ﴾ يهربون. وقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ۝٦٤﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٦٤].

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤﴾ أي تعجب المشركون من بعثة محمد ﷺ بشيراً ونذيراً، وبشراً رسولاً من أنفسهم، وقال الكافرون لما رأوا معجزاته الباهرة: هذا ساحر خدّاع كذاب فيما يدعيه من النبوة، وينسبه إلى الله من الوحي.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [يونس: ١٠/ ٢].

وفي الآية دلالة على أن المشركين ذوي العزة والشقاق كذبوا الرسول ﷺ من غير حجة وبرهان، وحسداً من عند أنفسهم، وطمعاً في أن يكون الرسول

ﷺ أحد الزعماء والرؤساء، ولم يجدوا تهمة أرخص من اتهامه بالسحر والكذب، وذلك دليل الإفلاس.

ثم أورد الله تعالى لهم شبهات ثلاثاً في وصف النبي بالكذب: الأولى تتعلق بالألوهية أو التوحيد، والثانية بالنبوة، والثالثة بالمعاد، وهنا ذكر شبهتين، والثالثة ستأتي في آية ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾.

أ - توحيد الإله: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ أصيَّر الآلهة إلهاً واحداً، وقصر الألوهية على الله سبحانه، إن هذا لشيء بالغ النهاية في العجب. وإنما تعجبوا لأنه كان لكل قبيلة إله، وكانوا يقولون: إنما نعبدهم ليقربونا زلفى إلى الله، والله يملكهم، فأي ضير في هذا؟ وادعوا العجب ممن رفض الآلهة المتعددة، وقالوا: إن آباءهم على كثرتهم ورجاحة عقولهم لا يعقل أن يكونوا جاهلين مبطلين، ويكون «محمد ﷺ» وحده محقّاً صادقاً. وهذا مجرد تقليد أعمى وإرث منقول دون دليل عقلي ولا نقلي.

وسبب نزول هذه الآيات الكريمات كما تقدم: ما رواه الترمذي وغيره بلفظ آخر عن ابن عباس، قال: «مرض أبو طالب، فجاءت قريش إليه، وجاء النبي ﷺ، وعند رأس أبي طالب مجلس رجل، فقام أبو جهل كي يمنعه، قال: وشكوه إلى أبي طالب، فقال: يا بن أخي، ما تريد من قومك؟ فقال: يا عم، إنما أريد منهم كلمة تذلّ لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها الجزية العجم، فقال: وما هي؟ قال: لا إله إلا الله، قال: فقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾؟ فنزل فيهم القرآن ﴿ص ۚ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾ حتى بلغ ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾[1]».

ورواه بلفظ آخر ابن أبي حاتم وابن جرير عن السدّي.

---

(١) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وفي رواية: لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه شقّ على قريش إسلامه، فاجتمعوا إلى أبي طالب وقالوا: اقضِ بيننا وبين ابن أخيك. فأرسل أبو طالب إلى النبي ﷺ فقال: يابن أخي، هؤلاء قومك يسألونك السواء[١]، فلا تمل كل الميل على قومك. قال: «وماذا يسألونني؟» قالوا: ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك، فقال النبي ﷺ: «أتعطونني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم» فقال أبو جهل: لله أبوك! لنعطينكها وعشر أمثالها. فقال النبي ﷺ: «قولوا: لا إله إلا الله» فنفروا من ذلك وقاموا؛ فقالوا ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾؟ فكيف يسع الخَلْق كلَّهم إلهٌ واحد؟ فأنزل الله فيهم هذه الآيات، إلى قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾.

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾ أي وانطلق أشراف قريش من مجلس أبي طالب قائلين: امضوا على ما كنتم فيه، واثبتوا على عبادة آلهتكم، واصبروا على ذلك، إن هذا التحول عن الآلهة لأمر عظيم يريده محمد ﷺ، ليعلو علينا، ونكون له أتباعاً، فيتحكم فينا بما يريد.

٢ً - عدم وجود التوحيد في النصرانية: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ﴿٧﴾﴾ ما سمعنا بهذه الدعوة إلى توحيد الإله في الملة الآخرة وهي النصرانية، وما هذا إلا افتراء وكذب لا حقيقة له، وليس له مستند من وحي ودين سماوي، ولا من عقل صحيح فيما يزعمون، فوجب أن يكون باطلاً.

٣ً - تخصيص النبوة في محمد: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ﴾ استفهام إنكار، أي كيف ينزل القرآن على محمد دوننا، ونحن الرؤساء والأشراف؟ فهذا أمر مستبعد، كما حكي عنهم في آية أخرى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ

---

(١) أي العدل.

ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٣١] فردَّ الله عليهم قائلاً: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٣٢] .

وسبب استبعادهم هذا، الناشئ عن جهلهم وقلة عقلهم: الشك في أمر القرآن وحسد النبوة:

﴿بَل هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ أي بل الحقيقة أنهم في شك من القرآن أو الوحي، بل إنما شكوا وتركوا النظر والاستدلال؛ لأنهم لم يذوقوا عذابي، فإذا ذاقوه صدقوا بالقرآن، وزال عنهم الشك والحسد. و﴿لَّمَّا﴾ بمعنى «لم» وما: زائدة، مثل: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٤٠] و﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ [المائدة: ٥/ ١٣] .

ثم ردَّ الله تعالى عليهم استبعادهم نبوة محمد ﷺ وجعلها في صناديدهم قائلاً:

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾ أي بل أهم يملكون مفاتيح نعم ربك القوي الغالب، المانح الواهب الكثير المواهب، حتى يعطوا نعمة النبوة لمن يشاؤون؟ كما في آية أخرى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٠٠] .

ثم أنكر الله تعالى ما هو أشد، فقال:

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾ أي بل أهم يملكون السماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات والعوالم، فإن فرض أنهم يملكون، فليصعدوا في المعارج التي توصلهم إلى السماء، حتى يحكموا بما يريدون من عطاء ومنع، ويدبروا أمر العالم بما يشتهون.

ثم أجمل الله تعالى وصفهم بالقلة والحقارة فقال:

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ أي ما هم إلا جند مغلوبون هنالك، أي في ذلك الموضع الذي كانوا يذكرون فيه هذه الكلمات الطاعنة في نبوة محمد ﷺ، والذي يتحزبون فيه على المؤمنين. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ٤٤-٤٦] . وهذا وعد من الله بنصر نبيه ﷺ وأن الغلبة ستكون له.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستدل بالآيات على ما يأتي:

١ً - أقسم الله عز وجل بالقرآن العظيم ذي الشرف والشهرة والمجد على صدق نبوة محمد ﷺ وأنه رسول من الله إلى الناس كافة.

٢ً - إن سبب إعراض كفار قريش عن الإيمان برسالة النبي ﷺ هو التكبر والتجبر والاستعلاء عن اتباع الحق، ومخالفة الله تعالى ورسوله ﷺ ومعاداتهما وإظهار مباينتهما.

٣ً - أنذرهم الله وحذرهم من الإهلاك كما أهلك الأمم الماضية الذين كانوا أمنع منهم وأشد قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، فاستغاثوا وتابوا، ولكن في وقت لا ينفع فيه التوبة، ولا ينفع العمل.

٤ً - لقد تعجب كفار قريش بسبب جهلهم أن جاءهم رسول بشر من أنفسهم، يبشرهم وينذرهم، فلم يجدوا حجة للإعراض عنه إلا أن قالوا: ساحر كذاب، أي يجيء بالكلام المموّه الذي يخدع به الناس، ويكذب في دعوى النبوة.

٥ً - وبالغوا في التعجب من دعوته إلى التوحيد وتصييره الآلهة إلهاً واحداً.

٦ً - لم يجد هؤلاء الكفار سبيلاً إلا أن أعلنوا إصرارهم على وثنيتهم، وقال الرؤساء للأتباع: امضوا على ما كنتم فيه، ولا تدخلوا في دين محمد ﷺ، واثبتوا على عبادة آلهتكم المخصصة لكل قبيلة، فإنما يريد محمد بما يقول الانقياد له ليعلو علينا، ونكون له أتباعاً، فيتحكم فينا بما يريد، فاحذروا أن تطيعوه.

٧ً - أيدوا وثنيتهم بآخر الملل وهي النصرانية، فإن النصارى يجعلون مع الله إلهاً، وإن الدعوى إلى توحيد الإله ما هو في زعمهم إلا كذب وافتراء وتخرّص وابتداع على غير مثال.

٨ً - إن شعورهم بالعزة والاستكبار دفعهم أيضاً إلى إنكار اختصاص محمد ﷺ بإنزال القرآن عليه ونزول الوحي على قلبه، دونهم، وهم في رأيهم أحق بذلك؛ لأنهم السادة والرؤساء والأشراف.

٩ً - إن حقيقة أمرهم أنهم شكوا فيما أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ، هل هو من عنده أم لا؟ وكذلك اغتروا بطول الإمهال، ولو ذاقوا عذاب الله على الشرك لزال عنهم الشك، ولكن لا ينفع الإيمان حينئذ.

١٠ً - عجيب أمر هؤلاء المشركين، هل يملكون مفاتيح نعم الله، فيمنعون محمداً ﷺ مما أنعم الله عز وجل به عليه من النبوة؟ فالله المالك للنعم يرسل من يشاء؛ لأن خزائن السماوات والأرض له.

وهل يملكون عالم السماء والأرض وما بينهما من المخلوقات، فإن ادّعوا ذلك، فليصعدوا إلى السماوات، وليمنعوا الملائكة من إنزال الوحي على محمد ﷺ.

١١ً - ما هؤلاء الكفار إلا مجرد جند من الأحزاب مهزومين، متحزبين في

موضع تحزّبهم لقتال محمد ﷺ، وذلك الموضع مكة، وهم في النهاية أذلّة لا حجة لهم، ولا قدرة لأن يصلوا إلى الاستيلاء على سلطان الله وملكه، فيتصرفوا في الناس كيف يريدون.

وهذا تأنيس للنبي ﷺ، ووعد له بالنصر والغلبة، ولهم بالهزيمة، وقد تحقق هذا يوم بدر. قال الرازي: والأصوب عندي حمله على يوم فتح مكة.

إنذار الكفار بحال الأمم المكذبة قبلهم

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾

القراءات:

﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر، وابن كثير (أصحابُ لَيْكَةَ).

﴿فَوَاقٍ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (فُوَاق).

الإعراب:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إنما دخلت التاء في ﴿كَذَّبَتْ﴾ لتأنيث الجماعة، أي كان تأنيث ﴿قَوْمُ﴾ باعتبار المعنى.

البلاغة:

﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ استعارة مكنية، شبه المُلْك بخيمة كبيرة شُدَّت حبالها بالأوتاد لترسخ في الأرض، ولا تقتلعها الرياح، وذكر الأوتاد تخييل.

المفردات اللغوية:

﴿ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ الوتد: هو الذي يدق في الأرض أو الحائط لربط الأشياء به من حبال وغيرها، والمراد هنا ذو المُلْك الثابت، والبناء المحكم، والحكم الراسخ ﴿لْـَٔيْكَةِ﴾ الغيضة من الشجر الكثير الملتف، وأصحاب الأيكة: هم قوم شعيب عليه السلام ﴿إِن كُلٌّ﴾ أي ما كل أحد من الأحزاب ﴿كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي إلا وقع منه تكذيب الرسل، وجمع الرسل؛ لأنهم إذا كذبوا واحداً منهم فقد كذبوا جميعهم؛ لأن دعوتهم واحدة، وهي دعوة التوحيد ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ وجب عقابي عليهم بتكذيبهم، وإن تأخر.

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي ينتظر كفار مكة ﴿صَيْحَةً﴾ هي نفخة القيامة، تحل بهم العذاب ﴿فَوَاقٍ﴾ بضم الفاء وفتحها: أي توقف مقدار من الزمن وهو ما بين حلبتي الناقة أو الرضعتين، حتى يجتمع الحليب في الضرع، أو الفواق: الرجوع والترداد، فإن في الفواق يرجع اللبن بعد سويعة إلى الضرع، أي إذا جاءت الصيحة لا تتوقف مقدار فواق ناقة، وفي الحديث الذي رواه البيهقي عن أنس، وهو ضعيف: «العيادة فُواق ناقة» ﴿وَقَالُوا۟﴾ كفار مكة استهزاء ﴿قِطَّنَا﴾ قسطنا من العذاب الذي توعدنا به، أو كتاب أعمالنا، استعجلوا ذلك استهزاء.

المناسبة:

بعد بيان أن المشركين توانَوْا وتكاسلوا عن النظر والاستدلال؛ لأنه لم ينزل بهم العذاب، بيَّن الله تعالى في هذه الآيات أن أقوام سائر الأنبياء كانوا هكذا، حتى نزل بهم العقاب. والمقصود منه تخويف أولئك الكفار الذين كانوا يكذبون الرسول ﷺ في إخباره عن نزول العقاب بهم.

التفسير والبيان:

ذكر الله ستة أصناف من الكفار الذين كذبوا الرسل في الأمم الغابرة وهم:

١-٣: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾﴾ أي كذبت الرسل قبل قريش قوم نوح، وقبيلة عاد، وفرعون ذو الحكم الراسخ وقومه.

أما قوم نوح عليه السلام فكذبوه وآذوه وهزئوا به، وقالوا عنه: إنه مجنون، فأهلكهم الله بالغرق والطوفان، ونجّى الله نوحاً ومن آمن به، كما قال تعالى: ﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر: ٥٤/٩-١٤].

وأما عاد قوم هود عليه السلام فكذبوه أيضاً، فأهلكهم الله بالريح، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/٦-٧].

وأما فرعون الطاغية الجبار ذو الحكم الثابت الراسخ القوي، فأرسل الله تعالى إليه موسى عليه السلام بآيات أو معجزات تسع ومعه أخوه هارون، فكذب وعصى، فأهلكه الله بالغرق، ونجّى موسى وقومه المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات: ٧٩/١٥-٢٦]. وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة: ٢/٥٠].

٤-٦: ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾ أي كذبت

قبيلة ثمود قوم صالح، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، أي الغيضة، أولئك الأحزاب، أي هم الموصوفون بالقوة والكثرة، كمن تحزّب عليك أيها النبي.

أما ثمود قوم صالح عليه السلام فكذبوه، وعقروا الناقة المعجزة، فأهلكهم الله بالصيحة، أو بالطاغية، فصاروا كهشيم المحتظر، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٥] وقال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ٣١].

وأما قوم لوط عليه السلام فكذبوه أيضاً فأهلكوا بالخسف أو الزلزلة، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ٣٣-٣٤].

وأما أصحاب الأيكة (أي الشجر الكثير الملتف بعضه على بعض) فهم قوم شعيب عليه السلام، كذبوه، فأهلكوا بعذاب يوم الظُّلَّة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٧٨-٧٩]. وقال سبحانه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٨٩].

وسبب إهلاكهم تكذيبهم الرسل، كما قال تعالى:

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ أي ما كل أحد من هؤلاء الأقوام الغابرة إلا كذب الرسل، فوجب عقاب الله لهم، جزاء وفاقاً. وهذا يعني أن علة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسل، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر، وهذا مفاد الآية التالية:

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾ أي ما ينتظر

كفار قريش إلا عقاباً بنفخة الساعة التي هي النفخة الثانية وهي نفخة الفزع التي يأمر الله إسرافيل أن يطولها، فلا يبقى أحد من أهل السماوات والأرض إلا فزع إلا من استثنى الله عز وجل. وما لها من فواق: أي ما لها من انتظار وراحة وإفاقة.

وتحدث تلك النفخة بلا توقف مقدار فواق الناقة: وهو الزمن الذي بين الحلبتين.

والمعنى: ليس بينهم وبين حلول ما أعدَّ الله لهم من عذاب النار إلا أن ينفخ في الصور النفخة الثانية، وإذا حلَّ هذا الموعد فلا تأخر عنه أبداً، كما قال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يس: ٣٦/٤٩-٥٠] وهذا إخبار عن قرب القيامة والموت.

ثم ذكر تعالى الشبهة الثالثة للكفار في تكذيب النبي ﷺ وهي المتعلقة بالمعاد[1]، فقال:

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ أي وقال المشركون تهكماً واستهزاء حين سمعوا بالمعاد والحساب والعقاب: ربنا عجّل لنا نصيبنا من العذاب الذي توعدنا به، ولا تؤخره إلى يوم القيامة. وهذا إنكار من الله تعالى على المشركين في دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب، كما قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٨/٣٢].

وقائل ذلك: النضر بن الحارث الذي قال الله فيه. ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾ [المعارج: ٧٠/١] أو أبو جهل، ورضي الآخرون بقوله.

(١) والشبهتان الأولى والثانية في الآيات المتقدمة: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ﴾ (٥-٨).

ثم أمر الله رسوله بالصبر على أذى المشركين وعلى سفاهتهم قائلاً: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي اصبر على أذى قومك المشركين، فإنهم في النهاية مقهورون أذلاء، ونبشرك على صبرك بالظفر والنصر والعاقبة الحميدة.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه الآيات عظة بليغة وعبرة مؤثرة يتأثر بها ذوو الإحساس الإنساني السليم الذي يتخلى صاحبه عن الكِبْر والاستعلاء. وما أعظمها عبرة وشاهداً محسوساً لكفار مكة.

إن أمامهم آثار الدمار والخراب والهلاك، أو إنهم يسمعون ما حدث للأمم التي كذّبت رسلها، وما جرى على المثيل يجري على مثيله. فإن الله القوي القاهر أغرق قوم نوح بالطوفان، وأهلك فرعون وجنوده بالإغراق في البحر، وقوم هود بالريح الصرصر العاتية، وقوم صالح بالصيحة أو بالطاغية (وهي الصيحة المجاوزة للحدّ في الشدة) وقوم لوط بالخسف أو الزلزلة، وأصحاب الأيكة بعذاب الظلة.

وما ينتظر كفار مكة إلا صيحة القيامة ليزجّ بهم في عذاب النار التي إذا جاءت لا تؤخر أبداً، أو لا تستأخر لحظة واحدة: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٦١].

ولكن اغتر الكفار بطول المهلة، ولما سمعوا أن الله منع عذاب الاستئصال عنهم في الدنيا، إكراماً للنبي ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٣] وجعل عذابهم في الآخرة، قالوا سخرية واستهزاء: ربنا عجل لنا نصيبنا من العذاب قبل يوم القيامة والحساب إن كان الأمر كما يقول محمد ﷺ. وهذا غاية الجهل والسفاهة والحمق.

ثم أمر الله نبيه ﷺ بالصبر على أذاهم وسفاهتهم لما استهزؤوا به، فما بعد الصبر إلا الفرج، وسيكون النصر والظفر قريباً.

قصة داود عليه السلام

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلصِّرَٰطِ﴾:

وقرأ قنبل (السراط).

﴿وَلِىَ نَعْجَةٌ﴾:

وهي قراءة حفص، وقرأ الباقون: (وليْ نعجة).

الإعراب:

﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ، إِذْ دَخَلُوا۟﴾ ﴿إِذْ﴾ الأولى تتعلق بـ ﴿نَبَؤُا۟﴾ و﴿تَسَوَّرُوا۟﴾

بلفظ الجمع؛ لأن الخصم مصدر يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث، فجمع حملاً على المعنى. و﴿إِذْ﴾ الثانية: بدل من الأولى. و﴿خَصْمَانِ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: نحن خصمان، فحذف المبتدأ.

﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ عزّني بالتشديد على الأصل من عزّه: إذا غلبه، وقرئ بالتخفيف على أنه مخفف من المشدد، كما يقال في «رُبَّ: رُبْ». والخطاب: مصدر خاطب أو مصدر خطب، نحو الأول: ضارب ضراباً، ونحو الثاني: كتب كتاباً.

﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ تقديره: بسؤاله إياك نعجتك، فحذف الهاء التي هي فاعل في المعنى، والمفعول الأول، وأضاف المصدر إلى المفعول الثاني ﴿ٱلْخُلَطَآءِ﴾ جمع خليط بوزن فعيل صفة فيجمع على فعلاء إلا إن كان فيه واو فيجمع على فعال، نحو طويل وطوال.

﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، و﴿وَقَلِيلٌ﴾: خبره، و﴿مَّا﴾ زائدة، ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أي تيقن، وقرئ (فتناه) بالتخفيف، أراد به فتنة الملكين. ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ منصوب بـ غفرنا، ويصح جعله خبر مبتدأ محذوف أي الأمر ذلك.

البلاغة:

﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ بينهما طباق؛ لأن المراد بهما المساء والصباح.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ ورد بأسلوب التشويق.

﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ورد بأسلوب الإطناب.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ واذكر لهم قصته تعظيماً للمعصية في أعينهم، فإنه

مع علوّ شأنه، واختصاصه بعظائم النعم والمكرمات، لما توهم أو ظن أنه أتى صغيرة استغفر ربه وأناب، فما الظن بالكفرة وأهل الطغيان؟ ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾ القوة والجلد في العبادة، كان يصومُ يوماً، ويفطرُ يوماً، ويقوم ثلث الليل، (أي من أول النصف الثاني وينام نصفه (أي نصفه الأول)، وينام سدسه (أي الأخير ليريح نفسه ويستقبل الصبح) ﴿أَوَّابٌ﴾ رجاع إلى الله وإلى طاعته ومرضاته.

﴿يُسَبِّحۡنَ﴾ بتسبيحه ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ بالمساء والصباح، وأصل العشي: وقت العشاء، و ﴿وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ وقت شروق الشمس ووضوح ضوئها ﴿مَحۡشُورَةٗ﴾ مجموعة إليه من كل جانب، تسبح معه ﴿كُلّٞ لَّهُۥٓ﴾ من الجبال والطير لأجل تسبيحه ﴿أَوَّابٞ﴾ رجاع إلى التسبيح منقاد يسبح تبعاً له ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ﴾ قويناه حتى ثبت، وآزرناه بالهيبة والنصر، وبالحرس والجنود ﴿ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ النبوة وكمال العلم وإصابة الصواب في القول والعمل ﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ البيان الشافي، والكلام الفاصل بين الحق والباطل.

﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ﴾ أيها الرسول أي خبرهم وقصتهم، ويراد بالاستفهام هنا التعجب والتشويق إلى استماع ما بعده ﴿ٱلۡخَصۡمِ﴾ جماعة الخصوم، ويطلق الخصم على المفرد والجمع، مذكراً ومؤنثاً ﴿تَسَوَّرُواْ﴾ أتوه من أعلى السور، ودخلوا إلى المنزل والمسجد الذي يصلي فيه، حيث منعوا الدخول عليه من الباب، لشغله بالعبادة ﴿فَفَزِعَ﴾ خاف ﴿خَصۡمَانِ﴾ نحن فوجان متخاصمان، والمشهور أنهما مَلَكان، والأقرب أنهما بشران عاديان صاحبا نعاج أي مواشي، والخصومة حقيقية ﴿بَغَىٰ﴾ جار وظلم ﴿وَلَا تُشۡطِطۡ﴾ لا تجُر في الحكم ولا تبعد عن الحق ﴿وَٱهۡدِنَآ﴾ أرشدنا ﴿سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ وسط الطريق الصواب.

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي﴾ أي على ديني ﴿نَعۡجَةٞ﴾ أنثى الضأن ﴿أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ اجعلني كافلها وملكنيها ﴿وَعَزَّنِي﴾ غلبني ﴿فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ في الجدال والمخاطبة والمحاجة

﴿ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ سؤاله نعجتك ليضمها إليه ﴿ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ الشركاء، والمعارف أو الأعوان الذين بينهم خلطة وامتزاج، جمع خليط ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ ﴿مَّا﴾ زائدة لتأكيد القلة ﴿وَظَنَّ﴾ من الظن وهو رجحان تصور الشيء، أو بمعنى تيقن وعلم ﴿فَتَنَّٰهُ﴾ ابتليناه أو امتحناه بتلك الحكومة، واختبرناه بهذه الحادثة ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ للظن السيئ بالرجلين أنهما أتياه لقتله وهو منفرد في محرابه ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ ساجداً ﴿وَأَنَابَ﴾ تاب ورجع إلى الله وطاعته.

﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي عفونا عنه ذلك الظن السيئ بالرجلين، وهذا من قبيل «حسنات الأبرار سيئات المقرّبين» .﴿ لَزُلْفَىٰ﴾ قرب من الله ﴿مَـَٔابٍ﴾ مرجع في الآخرة.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استخلفناك على الملك فيها لتدبير أمور الناس ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ هوى النفس ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن الدلائل الدالة على الحق ﴿ بِمَا نَسُوا۟﴾ بنسيانهم ﴿يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ المرتب لهم، لضلالهم عن السبيل الحق، فإن تذكر يوم الحساب يقتضي ملازمة الحق ومخالفة الهوى.

المناسبة:

بعد إنذار قريش بحال الكفار الغابرين، وبعد أمر النبي ﷺ بالصبر على أذى قريش وسفاهتهم، أمره الله تعالى بتذكر حال تسعة من الأنبياء، حال ثلاثة منهم تفصيلاً، وحال ستة آخرين منهم إجمالاً، ليتأسى بما لاقوا من أذى قومهم، محتسبين أجرهم عند الله تعالى.

وبدأ بذكر قصة داود عليه السلام، ليتذكر حال ذلك النبي الشاكر الصابر، ذي القوة في الدين والبدن معاً.

ويجب أن تفهم هذه القصة - قصة المحاكمة - على النحو الظاهري المبين في القرآن الكريم، وأن تستبعد الإسرائيليات منها؛ لمناقضتها مبدأ عصمة

الأنبياء، فقد روي في الإسرائيليات أن داود عليه السلام وقع بصره على امرأة تستحم، فأعجبته وعشقها، وكانت زوجة أحد قواده واسمه «أوريا الحثي» فأراد أن يتخلص منه ليتزوج بها، فأرسله في إحدى المعارك وحمّله الراية، وأمره بالتقدم فانتصر، فأرسله مراراً ليتخلص منه حتى قتل، فتزوجها.

قال البيضاوي: هذا هزء وافتراء، ولذلك قال علي رضي الله عنه: «من حدَّث بحديث داود على ما يرويه القصاص، جلدته مئة وستين». وهو حدّ الفِرْية على الأنبياء، أي مضاعفاً[١].

وأبطل الإمام الرازي هذه الحكاية المفتراة بوجوه ثلاثة ملخصها:

الأول- إن هذه الحكاية لو نسبت إلى أفسق الناس وأشدهم فجوراً لاستنكف منها.

الثاني - إن حاصل القصة يرجع إلى أمرين: السعي في قتل رجل مسلم بغير حق، وإلى الطمع في زوجته، وكلاهما منكر.

الثالث - إن الله تعالى وصف داود عليه السلام قبل ذكر هذه القصة بصفات عشر، ثم وصفه أيضاً بصفات كثيرة بعد هذه القصة، وكل هذه الصفات تنافي كونه عليه السلام موصوفاً بهذا الفعل المنكر والعمل القبيح[٢].

والرواية الصحيحة لهذه القصة: إن داود عليه السلام كان يقسم وقته الأسبوعي أثلاثاً: ثلث لشؤون الملك، وثلث للقضاء بين الناس، وثلث آخر للخلوة والعبادة وترتيل الزبور في المحراب[٣]، فتجاوز خصمان هذا النظام،

(١) تفسير البيضاوي: ٦٠٢

(٢) تفسير الرازي: ٢٦/ ١٨٩

(٣) وقال ابن عباس: جزّأ أزمانه أربعة أجزاء: يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً للاشتغال بخواص أموره، ويوماً لجميع بني إسرائيل، فيعظهم ويبكّيهم، فجاؤوه في غير القضاء، ففزع منهم؛ لأنهم نزلوا عليه من فوق، وفي يوم الاحتجاب والحرس حوله، لا يتركون من يدخل عليه، فخاف أن يؤذوه. (البحر المحيط: ٧/ ٣٩١).

وتسورا عليه المحراب من فوق الجدار طلباً للمحاكمة في غير موعدها، ففزع منهما، وظن أنهما جاءا لاغتياله، وهو منفرد في محرابه لعبادة ربه، والخصمان بشران لا ملكان، والنعاج: المواشي، لا النساء. إلا أنه بادر إلى الحكم والقضاء قبل سماع بينة الخصم الآخر، فعاتبه الله على ذلك، ونبهه إلى وجوب تثبت القاضي وسماع الخصم الآخر، قبل إصدار الحكم. وسأبين أن هذا أيضاً محل نظر، فإنه لا يعقل أن يحكم داود عليه السلام قبل سماع قول الخصم الآخر، فهذا من مبادئ الحكم الأولية التي لا تترك.

التفسير والبيان:

تضمنت قصة داود عليه السلام في هذه السورة ثلاثة موضوعات:

الأول - تعداد الصفات التي أنعم الله بها على داود والتي أهَّلته لسعادة الدنيا والآخرة.

الثاني - إصدار الحكم في واقعة بين خصمين.

الثالث - استخلاف الله تعالى إياه بعد تلك الواقعة.

الموضوع الأول - صفات داود عليه السلام

ذكر الله تعالى عشر صفات لداود عليه السلام آتاه الله إياها، وهي تحقق كمال السعادة الدنيوية والأخروية:

أ-٤: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ هذا معطوف على مطلع الآية المذكور في نهاية المقطع السابق وهو ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ والمعنى: اذكر أيها الرسول لقومك قصة عبدنا داود ذي القوة في العلم والعمل وطاعة الله، قال قتادة: أعطي داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام قوة في العبادة، وفقهاً في الإسلام، وكان يقوم ثلث الليل، ويصوم نصف النهار، ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «أحبُّ الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود،

وأحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه أي الأخير، وكان يصوم يوماً، ويفطر يوماً، ولا يفرّ إذا لاقى، وإنه كان أوّاباً» أي رجّاعاً إلى الله عز وجل في جميع أموره وشؤونه. وفي تاريخ البخاري عن أبي داود قال: «كان النبي ﷺ إذا ذكر داود وحدث عنه قال: كان أعبد البشر».

والصفات الأربع المذكورة هنا هي:

١ - الصبر: فقد أمر الله تعالى محمداً ﷺ على جلالة قدره بأن يقتدي به في الصبر على طاعة الله.

٢- والعبودية: فقد وصفه ربه بقوله: ﴿عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ وعبر عن نفسه بصيغة الجمع للتعظيم، والوصف بالعبودية لله غاية التشريف، كوصف محمد ﷺ بها ليلة المعراج ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١/١٧] . فإن وصف الله تعالى الأنبياء بعبوديته مشعر بأنهم قد حققوا معنى العبودية بسبب الاجتهاد في الطاعة.

٣ - والقوة على أداء الطاعة والاحتراز عن المعاصي، في قوله تعالى: ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾.

٤ - والرجاع إلى طاعة الله في أموره كلها، في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾

٥-٦: تسبيح الجبال والطير معه: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨)﴾ أي إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، كما قال عز وجل: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠/٣٤] قال ابن كثير: وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه وترجّع بترجيعه، إذا مرَّ به الطير، وهو سابح في الهواء، فسمعه، وهو يترنم بقراءة الزبور، لا يستطيع

الذهاب، بل يقف في الهواء، ويسبح معه، وتجيبه الجبال الشامخات، ترجّع معه، وتسبّح تَبَعاً له[١]. وهذا ما قاله تعالى:

٧ - ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ أي وسخرنا له الطير، حال كونها محبوسة في الهواء، تسبح بتسبيحه، وكل من الجبال والطير مطيع، يسبح تبعاً له، فكلما سبح داود جاوبته. وهذا يومئ أن داود عليه السلام كان حسن الترتيل، جميل الصوت.

٨ - قوة الملك: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي قوينا ملكه بالجند أو الحرس، وجعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك.

٩ - إيتاء الحكمة: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أعطيناه الفهم والعقل والفطنة، والعلم، والعدل، وإتقان العمل، والحكم بالصواب. ولما كمّل الله تعالى نفس نبيه داود بالحكمة، أردفه ببيان كمال خلقه في النطق والعبادة، فقال: ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾.

١٠- حسن الفصل في الخصومات: ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ أي وألهمناه حسن الفصل في القضاء بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإيجاز البيان، بجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل.

الموضوع الثاني - القضاء في خصومة

﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾ هذا نبأ عجيب يشوق السامع سماعه ومعرفته، لذا ذكره الله لرسوله، ومعناه: هل علمت ذلك الخبر المهم العجيب؟ وبدأه بهذا الاستفهام، ليكون مدعاة إلى الإصغاء له والاعتبار به.

(١) تفسير ابن كثير: ٢٩/٤

إنه نبأ جماعة من الخصوم تسلقوا سور غرفة داود المخصصة للصلاة، فدخلوا عليه وهو منهمك بالصلاة وعبادة الله وترانيم الزبور، في غير موعد المحاكمة المخصص للناس، فخاف منهم ظناً منه أنهم جاؤوا لاغتياله، وهو منفرد في محرابه للعبادة، في أشرف مكان في داره - وقد كان اغتيال الأنبياء معروفاً في بني إسرائيل، فقد قتلوا أشعيا وزكريا، كما قال تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ٣/ ٢١] - فقالوا له: لا تخف، نحن متخاصمان جار بعضنا على بعض، فاحكم بيننا حكماً عادلاً لا تجر في الحكم، واهدنا إلى الطريق الحق العدل.

وموضوع الخصومة هو:

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ أي إن هذا أخ لي في الدين والإنسانية، يملك تسعاً وتسعين شاة، وأملك شاة واحدة، فقال: ملكنيها وغلبني في المخاصمة والجدال والحجة، فأتى بحجج لم أستطع ردّها. والنعجة: هي الأنثى من الضأن، وقد يقال لبقر الوحش: نعجة.

فحكم داود عليه السلام بقوله:

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ أي قال داود الحاكم بعد إقرار المدعى عليه بالدعوى: لقد ظلمك بهذا الطلب، وطمع عليك.

ويقال: إن خطيئة داود هي قوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ لأنه قال ذلك قبل أن يتثبت، فربما كان صاحب النعجة الواحدة هو الظالم.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي وإن كثيراً من الشركاء في المال أو المعارف والأعوان المتعاملين ليظلم بعضهم بعضاً، إلا من آمن بالله وخاف ربه وعمل صالح

الأعمال، فإنه لا يظلم، وهؤلاء الصالحون قلة، كما قال تعالى﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٠٢] .

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ أي وعلم داود وأيقن أنما اختبرناه بهذه الواقعة، وهي تعرضه للاغتيال ثم نجاته منه، فاستغفر ربه لذنبه وهو سوء ظنه بالخصمين، وأنهما أتيا لاغتياله، وهو الأصح، أو أنه حكم بين الخصمين في النعاج قبل أن يسمع بيِّنة الخصم الآخر، وكان الحق له، وخرَّ ساجداً - وعبر بالركوع عن السجود - ورجع إلى الله بالتوبة من ذنبه.

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ أي فغفرنا له سوء ظنه أو ما كان منه مما يقال فيه: إن حسنات الأبرار سيئات المقرّبين، وإن له عند ربه لقرباً وحسن مرجع، وهو الجنة.

والظاهر أن الذنب: هو همّ داود الانتقام من هذين الشخصين اللذين كانا يقصدان اغتياله، فاصطنعا هذه الخصومة؛ لأنهما رأيا أن الحرس سيقتلونهما ولن يفلتا من العقاب، ثم رأى داود أن العفو والصفح أقرب لمقام النبوة، فاستغفر ربه مما كان قد عزم عليه من الانتقام.

الموضوع الثالث - الاستخلاف في الأرض

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يخاطب الله تعالى داود عليه السلام بأنه استخلفه حاكماً بين الناس في الأرض، فله السلطة والحكم، وعليهم السمع والطاعة. ثم بيَّن الله تعالى له قواعد الحكم تعليماً لغيره من الناس:

أ - ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي فاقض بين الناس بالعدل الذي قامت به السماوات والأرض. وهذه أُولى وأهم قواعد الحكم.

٢ - ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي لا تمل في الحكم مع أهواء نفسك أو بسبب مطامع الدنيا، فإن اتباع الهوى مزلقة ومدعاة إلى النار، لذا قال:

﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي إن اتباع الهوى سبب في الوقوع في الضلال والانحراف عن جادة الحق، وما عاقبته إلا الخذلان، فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي إن الذين يتنكبون طريق الحق والعدل، لهم عقاب شديد يوم القيامة والحساب الأخروي، بسبب نسيانهم أهوال ذلك اليوم، وما فيه من حساب دقيق لكل إنسان، وبسبب تركهم العمل لذلك اليوم، ومنه القضاء بالعدل.

والعبرة من هذا الموضوع: الوصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق، ولا يحيدوا عنه، فيضلوا عن سبيل الله، وقد توعد الله تعالى من ضلَّ عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والحساب الشديد.

روى ابن أبي حاتم أن أبا زُرْعة دخل على الوليد بن عبد الملك فقال له الوليد: أخبرني، أيُحاسَبُ الخليفة؟ فإنك قد قرأت القرآن وفقهت! فقال: يا أمير المؤمنين أقول؟ قال: قل في أمان الله، قال: يا أمير المؤمنين: أنت أكرم على الله أو داود عليه السلام؟ إن الله تعالى جمع له بين الخلافة والنبوة، ثم توعده في كتابه، فقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية[1].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - وصف الله تعالى داود عليه السلام بعشر صفات: هي كما تقدم الصبر، والعبودية لله، والقوة في الدين، وكونه أواباً كثير الرجوع إلى الله

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣٢/٤

تعالى، وتسبيح الجبال، والطير مع تسبيحه وترنيمه، وإتيان الطير طائعة له، وتشديد ملكه في الدين والدنيا، وإيتاؤه الحكمة (الفهم والعقل والفطنة والحكم بالصواب) وحسن الفصل في الخصومات.

٢ً - بمناسبة تسبيح الجبال معه بالعشي والإشراق، أي في المساء والصباح، ذكر القرطبي أن صلاة الضحى نافلة مستحبة، جاء في صحيح مسلم عن أبي ذرّ عن النبي ﷺ أنه قال: «يصبح على كل سُلامى[1] من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزي من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى». وأخرج الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حافظ على شَفْعة الضحى، غفر له ذنوبه، وإن كانت مثل زَبَد البحر». وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: «أوصاني خليلي بثلاث لا أدعهن حتى أموت: صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، ونوم على وتر».

وأقل الضحى كما في هذه الأحاديث وغيرها ركعتان، وأكثره ثنتا عشرة ركعة.

٣ً - ذكر الله تعالى لداود بعد قصة المحاكمة عشر صفات منها سؤال المغفرة من ربه فغفر له، ومنها السجود شكراً لله والإنابة، ومنها: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ ومنها ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾. قال مجاهد عن عبد الله بن عمر: الزلفى: الدنو من الله عز وجل يوم القيامة.

٤ً - ليس الحاكم ملزماً كل يوم بالاستعداد لفصل القضاء في الخصومات بين الناس، وإنما له تخصيص أيام في الأسبوع لتلك المهمة الخطيرة.

---

(١) أصل السلامى: عظام الأصابع والأكف والأرجل، ثم استعمل هنا في سائر عظام الجسد ومفاصله، وهي كما في حديث آخر ثلاث مئة وستون مفصلاً.

٥ً - الفزع ظاهرة إنسانية في المفاجآت، وقد فزع النبي داود عليه السلام من الرجلين اللذين أتياه ليلاً في غير وقت دخول الخصوم، أو لدخولهم عليه بغير إذنه، أو لأنهم تسوروا عليه المحراب ولم يأتوه من الباب. وقد شاع بين بني إسرائيل قتل الأنبياء وإيذاؤهم.

٦ً - إن القصة التي يرويها بعض المفسرين بما يتعارض مع مبدأ «عصمة الأنبياء» لا أصل لها، ولا مستند عليها، وإنما هي من الإسرائيليات الدخيلة.

٧ً - لم يكن خطأ داود عليه السلام في أنه قضى لأحد الخصمين قبل سماع كلام الآخر، فهذا من أصول الحكم التي لا يمكن تجاوزها، قال ابن العربي: وهذا مما لا يجوز عند أحد، ولا في ملة من الملل، ولا يمكن ذلك للبشر، وإنما تقدير الكلام أن أحد الخصمين ادّعى، والآخر سلم في الدعوى، فوقعت بعد ذلك الفتوى[1]. وقد قال النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه فيما أخرجه أبو داود والترمذي وغيرهما: «إذا جلس إليك الخصمان، فلا تقضِ لأحدهما حتى تسمع من الآخر».

٨ً - أجمع العلماء على أن الأنبياء معصومون عن الكبائر، وفي الصغائر اختلاف، الأصح كما قرر ابن العربي وغيره أنهم معصومون عن الصغائر والكبائر.

٩ً - استدل العلماء على مشروعية الشركة بأدلة، منها: ما ورد على لسان داود عليه السلام: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي الشركاء في المال كما تقدم.

١٠ً- الصلحاء في كل زمان قليلون، لقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ يعني الصالحين. سمع عمر رضي الله عنه رجلاً يقول في دعائه: اللهم اجعلني من

(١) أحكام القرآن لابن العربي: ٤/ ١٦٢٥

عبادك القليل، فقال له عمر: ما هذا الدعاء؟ فقال: أردت قول الله عز وجل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ فقال عمر: كل الناس أفقه منك يا عمر.

١١ً - اختلف العلماء في سجدة داود، هل هي من عزائم السجود المأمور به في القرآن أو لا؟ أي هل هي سجدة تلاوة؟

فقال المالكية والحنفية: ليست موضع سجود، لما في البخاري وغيره عن ابن عباس أنه قال: «صٓ ليست من عزائم القرآن، وقد رأيت النبي ﷺ يسجد فيها». وأنكر المالكية أيضاً سجدة الشكر.

وقال الشافعية والحنابلة: إنها ليست من عزائم السجود، بل هي سجدة شكر؛ استدلالاً بفعل النبي ﷺ، كما نص الحديث المتقدم، وروى النسائي أن النبي ﷺ قال: «سجدها داود توبة، ونحن نسجدها شكراً».

١٢ً - ليس في استغفار داود ما يشعر بارتكاب ذنب أو أمر يستغفر منه، وما زال الاستغفار شعار الأنبياء المشهود لهم بالعصمة.

١٣ً - الأصل في مشروعية الأقضية أو التقاضي قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ وقوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩/٥] وقوله تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥/٤] وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨/٥] .

١٤ً - إن قاعدة الحكم الأساسية الحكم بالعدل والحق: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ ومن قواعده: أن القاضي لا يحكم في الوقائع إلا بالدعوى ورفع الأمر إليه، فيجب الحكم بالحق، وألا يميل القاضي إلى أحد الخصمين لقرابة أو رجاء نفع، أو سبب يقتضي الميل من صحبة أو صداقة أو غيرهما.

١٥ - هذه الآية: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تمنع الحاكم من القضاء بعلمه الشخصي في الحوادث؛ لأن الحكام لو مكِّنوا أن يحكموا بعلمهم، لم يشأ أحدهم إذا أراد أن يحفظ وليّه (صديقه) ويهلك عدوه إلا ادعى علمه فيما حكم به. وبذلك يمنع من هذا القضاء للتهمة، قال أبو بكر رضي الله عنه: لو رأيت رجلاً على حدّ من حدود الله، ما أخذته حتى يشهد على ذلك غيري.

وروي أن امرأة جاءت إلى عمر، فقالت له: احكم لي على فلان بكذا، فإنك تعلم ما لي عنده، فقال لها: إن أردتِ أن أشهد لك فنعم، وأما الحكم فلا.

وأخرج أبو داود وغيره عن النبي ﷺ أنه اشترى فرساً فجحده البائع، فلم يحكم بعلمه، وقال: «من يشهد لي؟» فقام خزيمة فشهد فحكم. وفي صحيح مسلم عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قضى بيمين وشاهد.

إثبات البعث والثواب والعقاب وبيان فضل القرآن

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾

الإعراب:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي هذا كتاب.

البلاغة:

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية: مقابلة بين المؤمنين والمفسدين، وبين المتقين والفجار، وهذا من المحسنات البديعية.

المفردات اللغوية:

﴿بَاطِلًا﴾ عبثاً ولعباً ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي خلق السماء والأرض باطلاً ﴿ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مظنون كفار مكة ﴿فَوَيْلٌ﴾ هلاك وعذاب شديد، أو هو واد في جهنم ﴿أَمْ﴾ بمعنى همزة الإنكار، أي إنكار التسوية بين الفريقين ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ نزل لما قال كفار مكة للمؤمنين: إنا نعطى في الآخرة مثلما تعطون. والآية تدل على صحة القول بالحشر والمعاد، والفجار: الأشقياء ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير الخير والبركات والمنافع الدنيوية والأخروية ﴿لِيَدَّبَّرُوا﴾ ليتدبروا أي ليتفكروا وينظروا في معاني الآيات، فيؤمنوا ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ يتعظ ﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أصحاب العقول، جمع لب: وهو العقل.

المناسبة:

بعد تهديد الضالين عن سبيل الله بالعذاب الشديد يوم الحساب في القيامة، أخبر تعالى بأن هذا اليوم آت لا ريب فيه؛ لأنه خلق الخلق لهدف معين، ثم يحاسبهم في نهاية الأمر، ثم بيّن عدم المساواة في الحساب بين المؤمنين والكفار وبين المتقين والفجار، ثم أخبر عن فضل القرآن العظيم، وأنه كثير المنافع الدينية والدنيوية.

التفسير والبيان:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ أي ما أوجدنا السماء والأرض وما بينهما من المخلوقات عبثاً لا حكمة فيه، أو لهواً ولعباً، بل خلقناهما للدلالة على قدرتنا العظيمة، وليُعمل فيهما بطاعتنا وعبادتنا وتوحيدنا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥١/٥٦] .

﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ أي إن الذين كفروا يظنون أن هذه الأشياء خلقت عبثاً لغير غرض، فلا قيامة ولا حساب، فيا

هلاك هؤلاء الكافرين في النار يوم المعاد والنشور، جزاء ما قدموا من الشرك والمعصية، وكفران نعم الله، وإنكار البعث، وظنهم الباطل. ونظير القسم الأول من الآية قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١١٥] .

ونظير القسم الثاني قوله سبحانه: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٢] وقوله عز وجل: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ١٩/ ٣٧] .

ثم أبان الله تعالى منهج الحساب أو عدم التسوية بين المؤمنين والكافرين، فقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾[١] أي بل أنجعل الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله، وعملوا بفرائضه، وأصلحوا أعمالهم، فأدّوا ما يجب للخالق والمخلوق، كالمفسدين في الأرض بالمعاصي، أم نجعل أتقياء المؤمنين كأشقياء الكافرين والمنافقين والمنهمكين في معاصي الله من المسلمين؟!! فليس ذلك إن فعلناه عدلاً، ولا يتفق مع الحكمة، ومقتضى أي نظام.

أي ليس من عدل الله وحكمته التسوية بين المؤمنين والكافرين، فلا يستوي الفريقان عند الله، وإذا كان الأمر كذلك، فلا بدّ من دار أخرى يثاب فيها المطيع، ويعاقب فيها الفاجر؛ إذ لولا البعث والحساب والجزاء لكان الفريقان سواء.

ويؤيد هذا المبدأ العقول السليمة والفطر المستقيمة أنه لا بدّ من معاد وجزاء، فلا يعقل أن يكون جزاء المحسن كجزاء المسيء، ولا تتقبل النفس

(١) هذه ﴿أَمْ﴾ المنقطعة التي هي بمعنى «بل» للإضراب الانتقالي، ويراد بالهمزة الاستفهامية: الإنكار.

الإنسانية أن يترك الظالم دون عقاب، وألا ينصف المظلوم أو المحزون أو المعدم من الظالم الباغي المترف، وألا يعوض عن كمده وحرمانه في الدنيا.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم: ٦٨/ ٣٤-٣٦] .

وإذا ثبت قرآناً وديناً وعقلاً وفطرة أن هنالك فرقاً واضحاً بين المؤمن وغيره، وأن للمؤمن حياة سعيدة دائمة في الجنان، وأن للكافر عذاباً أليماً في النيران، فما الطريق إلى السعادة؟ الطريق قوله تعالى:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ أي إن طريق السعادة الأبدية هو اتباع القرآن الذي أنزله الله هدى ورحمة للمؤمنين، وهو كثير الخير والبركة، فيه الشفاء لمن تمسك به، والنجاة لمن تبعه، وقد أنزله تعالى للناس للتدبر والتفكر في معانيه، لا لمجرد التلاوة بدون تدبر، وليتعظ أهل العقول الراجحة به وببيانه. قال الحسن البصري: والله ما تَدَبُّره بحفظ حروفه، وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يُرى للقرآن عليه أثر في خُلُق ولا عمل.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - ليس خلق السماوات والأرض عبثاً وهزلاً ولعباً، وإنما له غاية عظمى وهدف صحيح وهو الدلالة على قدرة الله. والذين يظنون أن الله خلقهما باطلاً عبثاً هم الكفار، فيا ويلهم من عذاب النار.

٢ - تدل هذه الآية: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ﴾ على إثبات الحشر والنشر والمعاد (أو القيامة) لأنه إذا لم يكن خلقهما باطلاً، كان القول بالحشر والنشر لازماً، وكان كل من أنكر القول بالحشر والنشر شاكّاً في حكمة الله في خلق السماء والأرض.

٣ً - إذا لم يكن حشر ونشر ومعاد فحينئذ يكون حال المطيع أدنى من حال العاصي، لذا وبّخ تعالى الشاكين في الحشر والنشر، وأنكر عدم التسوية بين المؤمن والكافر، وبين الصالح والمفسد.

٤ً - الآية هذه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ ردّ واضح على منكري البعث الذين جعلوا مصير المطيع والعاصي إلى شيء واحد.

٥ً - قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟﴾ دليل على وجوب معرفة معاني القرآن، ودليل على أن الترتيل أفضل من الهَذّ (سرعة القراءة)؛ إذ لا يصح التدبر مع الهَذّ. وقال الحسن البصري: تدبر آيات الله اتباعها.

٦ً - القرآن الكريم ذكرى وعظة لأولي الألباب، أي أصحاب العقول الراجحة، فالعاقل هو المستفيد من آي القرآن، والقرآن هو الذي يذكره بضرورة التوبة والإنابة إلى الله إذا زاغ أو انحرف.

قصة سليمان عليه السلام

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾

القراءات:

﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إنيَ أحببت).

﴿ بِٱلسُّوقِ﴾:

وقرأ قنبل (بالسُّؤْق، بالسُّؤوق).

﴿بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو (بعديَ إنك).

الإعراب:

﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ المقصود بالمدح محذوف، وهو سليمان أو داود، وهو إلى سليمان أقرب.

﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾ الأول نائب فاعل ﴿عُرِضَ﴾ والثاني صفته، و﴿ٱلۡجِيَادُ﴾: جمع جواد، أو جمع جائد.

﴿حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ منصوب على أنه مفعول به، والمعنى: أنه آثر حب الخير، لا أنه أحبّ حبّاً، أو منصوب على المصدر، بوضع ﴿حُبَّ﴾ الاسم موضع الإحباب الذي هو المصدر، والوجه الأول أوجه.

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ أي الشمس، وإنما أضمر لدلالة الحال، مثل ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾﴾ [الرحمن: ٢٦/٥٥] أي الأرض، لدلالة الحال، وإن لم يجر لها ذكر.

البلاغة:

﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ المسح هنا حقيقة أي مسحها بيده استحساناً لها وإعجاباً بها، وقيل: المسح كناية عن العقر والذبح.

﴿فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ بينهما طباق، لأنهما بمعنى أعط من شئت، وامنع من شئت.

المفردات اللغوية:

﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ سليمان؛ إذ ما بعده تعليل للمدح وهو أواب ﴿أَوَّابٌ﴾ رجّاع إلى الله بالتسبيح والذكر في جميع الأوقات، أو بالتوبة ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾ ما بعد الزوال ﴿عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ على سليمان ﴿ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ﴾ القائمات، أو القائمة على ثلاث وطرف الحافر الرابع، أي يرفع إحدى يديه أو رجليه، ويقف على مقدم حافرها، مع القوائم الأخرى، وهو من الصفات المحمودة في الخيل، لا يكاد يكون إلا في العرب الخلّص، مأخوذ من صفن يصفن صفوناً. ﴿ٱلْجِيَادُ﴾ جمع جواد، وهو الذي يسرع في عَدْوه أو جريه، والجواد من الناس: السريع البذل. والمعنى: إن الخيول إذا استوقفت سكنت، وإن ركضت سبقت، وكانت ألف فرس عرضت عليه، كالعرض العسكري اليوم.

﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي آثرت أو أردت حب الخير وهو هنا الخيل، وأصل الخير: المال الكثير، ويحتمل أنه سماها خيراً لتعلق الخير بها، قال ﷺ فيما أخرجه أحمد عن جابر: «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة».

﴿عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ أي أحببت الخيل وحصل حبها عن ذكر ربي وأمره، لا عن الشهوة والهوى. وليس المراد كما يذكر القصاصون: أنه آثر رؤية الخيل عن صلاة العصر حتى غابت الشمس ﴿تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ اختفت وغابت الشمس، واستترت بما يحجبها عن الأبصار. والحجاب: بالحاجز أو بالليل.

﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ﴾ ردوا الخيل الصافنات علي استمتاعاً بالنعمة، أي كفاها ركضاً وعَدْواً ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ شرع يمسحها بيده استحساناً لها وإعجاباً بها، وليس المعنى: جعل يذبحها ويعقرها بالسيف لتفويت صلاة العصر عليه، فهذا لا يليق بالنبوة. ﴿بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي بسيقانها وأعناقها، فيربّت عليها ويدللها ويمسح نواصيها بيده، لا أنه ذبحها وعرقب أرجلها تقرباً إلى الله تعالى، حيث اشتغل بها عن الصلاة، وتصدق بلحمها، فعوضه الله خيراً منها وأسرع، وهي الريح تجري بأمره كيف شاء، فهذا من الإسرائيليات الدخيلة.

﴿فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ ابتليناه واختبرناه بمرض، وقال البيضاوي: وأظهر ما قيل فيه: ما روي مرفوعاً أنه قال: «لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن، فلم تحمل إلا امرأة جاءت بشق رجل، فوالذي نفس محمد بيده، لو قال: إن شاء الله لجاهدوا فرساناً»(١).

ومن الإسرائيليات في تفسير الابتلاء: أن الله ابتلاه بسلب ملكه، وذلك لتزوجه بامرأة عشقها، وكانت تعبد الصنم في داره من غير علمه، وكان ملكه في خاتمه، فنزعه مرة عند إرادة الخلاء ووضعه عند امرأته المسماة بالأمينة، على عادته، فجاءها جِنّي في صورة سليمان، فأخذه منها.

﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ أي جسماً ضعيفاً كأنه جسد بلا روح، وقيل: الجسد: هو نصف الإنسان الذي ولدته امرأته، وقيل: هو ذلك الجني، وهو صخر أو غيره، جلس على كرسي سليمان، وعكفت عليه الطير وغيرها، فخرج سليمان في غير هيئته، فرآه على كرسيه، وقال للناس: أنا سليمان، فأنكروه. وهذان التفسيران المقولان غير صحيحين في الظاهر والثاني منهما من تتمة القصة الدخيلة من الإسرائيليات.

﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ رجع تائباً إلى الله من ترك الأفضل وهو عدم تعليق الأمر بمشيئة الله، وهذا عظيم على نبي؛ لأن حسنات الأبرار سيئات المقرّبين ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ ما صدر عني من الذنب ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ أي امنحني ملكاً لا يكون لأحد من بعدي أن يملك مثله.

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ جعلناها منقادة لأمره ﴿رُخَآءً﴾ لينة مع قوتها وشدتها، فلا تُزعزع ولا تعصف ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ قصد وأراد ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ أي وسخرنا

(١) أخرجه البخاري، دون أن يذكر أنه تفسير للآية.

له الشياطين ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أي يبنون له ما يشاء من المباني، ويغوصون في البحر لاستخراج الدر واللؤلؤ منه ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ أي وآخرين منهم مشدودين في القيود والسلاسل، وهم مردة الشياطين.

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ أي هذا ما أعطيناك من الملك العظيم الذي طلبته، من السيطرة على الريح والشياطين وتسخيرهم ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ فأعط من شئت، وامنع من شئت ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لا حساب عليك في ذلك الإعطاء أو الإمساك، فلا يقال لك: كم أعطيت ولم منعت؟ ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ قربة في الآخرة ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ وحسن مرجع، وهو الجنة.

المناسبة:

هذه هي القصة الثانية - قصة سليمان بن داود عليهما السلام، فيها تعداد النعم التي أنعم الله بها على سليمان، كما أنعم على أبيه داود من قبل، ليشكر المحسن، ويتعظ المسيء الذي يرى في قصتي داود وسليمان عظة وعبرة، فإنهما ملكا ملكاً عظيماً، لم يحجبهما عن شكر الله، وعبادته وطاعته، وتقدير نعمه الكثيرة، فأين ملكهما من زعامة قريش وأمثالهم؟!

التفسير والبيان:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ أي وآتينا داود ابناً نبياً، كما قال عز وجل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦/٢٧] وإلا فقد كان له بنون غيره، وهذا الابن ما أحقَّه بالمدح والثناء، فهو نعم العبد؛ لأنه توّاب رجّاع إلى الله، كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عز وجل في أكثر الأوقات.

روى ابن أبي حاتم عن مكحول قال: لما وهب الله تعالى لداود سليمان قال له: يا بني ما أحسن؟ قال: سكينة الله والإيمان، قال: فما أقبح؟ قال: كفر

بعد إيمان، قال: فما أحلى؟ قال: رَوْح الله بين عباده - أي رحمته - قال: فما أبرد؟ قال: عفو الله عن الناس، وعفو الناس بعضهم عن بعض، قال داود عليه السلام: فأنت نبي.

ثم ذكر الله واقعتين لسليمان من وقائع توبته فقال:

الواقعة الأولى:

قصة عرض الخيل: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾ أي اذكر أيها الرسول مادحاً حين عرض على سليمان عليه السلام في مملكته وسلطانه بعد العصر آخر النهار الخيول الصافنات (أي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة) والجياد: السراع في العدو، لينظر إليها ويتعرف أحوالها ومدى صلاحيتها لمهامها، وليستمتع بما أنعم الله عليه منها.

﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾ أي قال سليمان: إنني أحببت هذه الخيل وآثرتها عن غيرها حباً حصل عن ذكر ربي وأمره، لا بهواي وشغفي، وكانت ذات أعداد كثيرة، تعدو حتى غابت عني بسبب الغبار وبعد المسافة. وبه يتبين أن حبه لها لم يكن إلا امتثالاً لأمر الله بربط الخيل للجهاد في سبيل الله، وتقوية دينه، وتثبيت دعائمه، وقد كان ذلك مندوباً إليه في دينهم.

هذا هو التفسير المتعين الذي يتفق مع مركز النبوة وشرف الرسالة ودلالة الحال في تعداد النعم لا النقم على سليمان، فلا يصح التفسير بشيء يتنافى مع هذا، ولا سيما وقد أمر الله تعالى نبينا ﷺ أن يتأسى بداود وسليمان، كما في مطلع الآيات. ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾.

ثم أعاد سليمان عرض الصافنات أمامه قائلاً:

﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ أي أعيدوا هذه الخيل

إلي، فلما عادت جعل يمسح بيده سيقانها وأعناقها ونواصيها، تشريفاً لها وتكريماً وتدليلاً وسروراً بها، وتفحصاً لأحوالها وإصلاح ما قد يطلع عليه من عيوبها؛ لأنها عدة الجهاد، ووسيلة الحرب؛ لرد العدوان، ودفع غارات المعتدين. وقال أكثر المفسرين: معناه أنه مسح السيف بسوقها وأعناقها؛ أي قطعها؛ لأنها شغلته عن صلاة العصر. وهذا بعيد على نبي شاكر نعم ربه، يعاقب ما ليس أهلاً للعقاب.

الواقعة الثانية:

إلقاؤه جسداً على كرسيه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ أي تالله لقد اختبرنا سليمان عليه السلام باختبار آخر، وهو الفتنة في جسده، كما اختار الرازي، حيث ابتلاه الله بمرض شديد في جسمه، حتى نحل جسمه، وأصبح هزيلاً، ثم أناب، أي رجع إلى حال الصحة[١].

وبعض المفسرين كما ذكرت عن البيضاوي وكذا أبو حيان[٢] يفسر هذه الفتنة بما عزم عليه من الطواف على سبعين من نسائه، تأتي كل واحدة بفارس مجاهد في سبيل الله، دون أن يقول: إن شاء الله، فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، هو الذي ألقي على جسده، فالجسد الملقى هو المولود شق رجل.

وقيل: إن الملقى شيطان، وهذا قول باطل من الزنادقة. قال ابن كثير: وهذا وغيره من الإسرائيليات، وهي من المنكرات، من أشدها ذكر النساء[٣].

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ قال سليمان: ربِّ اغفر لي ما صدر عني من الذنب

(١) تفسير الرازي: ٢٦/٢٠٩

(٢) البحر المحيط: ٧/٣٩٧

(٣) تفسير ابن كثير: ٤/٣٥ وما بعدها.

الذي ابتليتني لأجله، وهذا من سمو الإحساس بالخطيئة، فقد تكون شيئاً لا يخلو عن ترك الأفضل والأولى، وحينئذ يحتاج إلى طلب المغفرة؛ لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين، ولأن الأنبياء أبداً في مقام هضم النفس، وإظهار الذلة والخضوع، كما قال ﷺ فيما رواه البخاري عن أبي هريرة: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».

﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ وامنحني ملكاً عظيماً لا يتأتى لأحد غيري مثله، إنك يا ربّ أنت الكثير الهبات والعطايا، فأجب دعائي.

قال الزمخشري: كان سليمان عليه السلام ناشئاً في بيت الملك والنبوة، ووارثاً لهما، فأراد أن يطلب من ربّه معجزة، فطلب بحسب إلفه ملكاً زائداً على الممالك، زيادة خارقة للعادة، بالغة حدّ الإعجاز، ليكون ذلك دليلاً على نبوته، قاهراً للمبعوث إليهم، وأن يكون معجزة حتى يخرق العادات، فذلك معنى قوله: ﴿لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِيٓ﴾.

وقيل: كان مَلِكاً عظيماً، فخاف أن يعطى مثلَه أحدٌ، فلا يحافظ على حدود الله فيه[1].

فأجاب الله تعالى دعاءه وأعطاه نعماً خمساً، فقال:

أ - ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ أي فذلّلنا له الرِّيح، وجعلناها منقادة لأمره، تجري ليّنة طائعة في قوّة وسرعة، دون عواصف مضطربة ولا أعاصير، تحمله إلى أي جهة قصد وأراد. ووصف الرِّيح هنا بكونها رخاء لا يتعارض مع آية أخرى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأنبياء: ٢١/٨١] لأن المراد بالعاصفة هنا القوية الشديدة، لا

(١) الكشاف: ٣/١٥

الهائجة المضطربة، فهي في قوة الرياح العاصفة، لكنها كانت طيِّبة غير خطرة، أو أنها كانت بحسب الحاجة، ليِّنة مرة، وعاصفة أخرى.

٢ - ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ۝٣٧﴾ أي وذلَّلنا له أيضاً الشياطين تعمل بأمره، إما في بناء المباني الشاهقة، وإما في الغوص في البحار لاستخراج الدرر واللآلئ والمرجان، وإما في أعمال أخرى.

٣ - ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۝٣٨﴾ أي وسخرنا له شياطين آخرين هم مردة الشياطين، سُخِّروا له حتى قرنهم في القيود والسلاسل، قمعاً لشرِّهم، وعقاباً لهم.

٤ - ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٣٩﴾ هذه نعمة رابعة هي حرية التصرف فيما أعطاه الله إياه من الملك العظيم، والثراء والغنى، والسيطرة على الريح والشياطين وتسخيرهم، فقد أذن له ربّه بأن يمنح من يشاء، ويمنع من يشاء، ولا حساب عليه في ذلك الإعطاء أو الإمساك، فلا يقال له: كم أعطيت، ولِمَ منعت؟

٥ - ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ۝٤٠﴾ أي وإن له في الآخرة لقربة وكرامة عند الله، وحسن مرجع، وهو الجنة، وفيض ثواب، فهو ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ - من مزيد فضل الله على عبده داود عليه السلام أن وهبه ولداً ورث عنه الملك والنبوة.

٢ - ومن نعم الله على عبده سليمان عليه السلام أنه أنعم عليه بالخيل الصَّافنات الجياد، التي تعدّ عدّة الحرب، وآلة القتال المهمة في مواجهة الأعداء، وكان عددها ألف فرس يجاهد عليها في سبيل الله تعالى.

٣ً - لقد أحبها سليمان عليه السلام؛ لأنها حققت له تنفيذ أوامر ربِّه في ربطها للجهاد، فكان يعرضها أمامه في عرض عسكري مهيب، يرهب العدو، وكانت تمتاز بسرعة الجري أو العدو، حتى إنها غابت عنه بسبب شدة الغبار وبُعْد المسافة.

٤ً - لم يقتصر سليمان عليه السلام على عرضها أمامه للمرة الأولى، وإنما طلب إعادتها إليه، فشرع في مسح سيقانها ونواصيها بيده، تكريماً لها، وتفحُّصاً لأحوالها حتى يعالج ما قد يكون بها من عيوب.

٥ً - امتحن الله تعالى سليمان عليه السلام بالمرض، كما يمتحن عباده المؤمنين، قيل: كان ذلك بعد عشرين سنة من ملكه، ثم ملك بعد الاختبار عشرين سنة أخرى، كما ذكر الزمخشري.

واشتدّ به المرض حتى أصبح لشدّة ضعفه - كما تقول العرب: لحماً على وَضَم، وجسماً بلا روح، ثم عاد إلى صحته وحالته الأولى.

وطلب المغفرة من ربِّه على ما قد يكون من ذنب في تقديره كان سبباً لمرضه، وهذا من قبيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين، فقد يكون ترك الأفضل والأولى عند أصحاب السمو والدرجة العالية، وعلى رأسهم الأنبياء، بمثابة ذنب عندهم، وهو عند غيرهم ليس بذنب.

٦ً - أجاب الله دعاء سليمان عليه السلام، فأمده بنعم عظمى، هي: تسخير الرِّيح له، تحمله إلى أي مكان أراد، وتسخير الشياطين للخدمة في مجالات الحياة المختلفة من بناء وغوص في البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان، والتسلُّط على مردة الشياطين، حتى يقيِّدهم بالأغلال والسلاسل، كفّاً لشرِّهم ومنع أذاهم.

ومنحه حرية التّصرُّف في الملك والمال، فيعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، دون حساب ولا رقيب، دون مراجعة أو نقص.

وكذلك جعله مقرّباً عند الله، مكرّماً عند ربِّه في الجنة، مغموراً بالثواب الجزيل، فائزاً برضا ربِّه.

والخلاصة: لقد منح الله سليمان خيري الدنيا والآخرة، وجمع له بين الملك والنبوة كأبيه داود عليهما السلام، وسخّر الله له ملكاً عظيماً وسلطة شاملة على الإنس والجن والشياطين. وهذا لم يتأت لأحد قبله ولا بعده.

قصة أيوب عليه السلام

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾

القراءات:

﴿مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾:

وقرأ حمزة (مسنيْ الشيطان).

﴿وَعَذَابٍ ٱرْكُضْ﴾:

بكسر التنوين وصلاً قرأ: أبو عمرو، وابن ذكوان، وعاصم، وحمزة، وقرأ الباقون بضمه.

الإعراب:

﴿أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ﴾ ﴿أَيُّوبَ﴾: عطف بيان، و﴿إِذْ﴾: بدل اشتمال منه.

﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ منصوب إما لأنه مصدر، أو لأنه مفعول لأجله.

البلاغة:

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ في هذا الإسناد مراعاة الأدب مع الله تعالى، فإنه أسند المرض والضرر الذي أصابه إلى الشيطان أدباً، وإن كان الخير والشر بيد الله تعالى لحكمة يعلمها.

المفردات اللغوية:

﴿أَيُّوبَ﴾ هو أيوب بن أموص بن أروم بن عيص بن إسحاق عليه السلام، وامرأته ليا بنت يعقوب، الراجح أنه قبل إبراهيم بأكثر من مئة سنة، وكان موطنه أرض عوص: جزء من جبل سعير، أو بلاد أدوم. ﴿أَنِّي﴾ بأني. ﴿بِنُصْبٍ﴾ بضرّ، والنُّصب (بالضّم) والنَّصَب (بفتحتين) كالرُّشد والرَّشَد: المشقة والتعب. ﴿وَعَذَابٍ﴾ ألم مضرّ، وكما في آية ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٢١/٨٣]. ونسب ذلك إلى الشيطان - وإن كانت الأشياء كلها من الله - تأدُّباً مع الله تعالى.

﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ اضرب بها الأرض، فضرب فنبعت عين ماء. ﴿مُغْتَسَلٌ﴾ ماء تغتسل به وتشرب منه. ﴿بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ تغتسل وتشرب منه، فاغتسل وشرب، فذهب عنه كل داء كان بباطنه وظاهره.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ بأن جمعناهم عليه بعد تفرُّقهم، أو أحييناهم بعد موتهم. ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أي ورزقه مثلهم. ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي لرحمتنا عليه. ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ عظةً وتذكيراً لهم لينتظروا الفرج بالصبر واللجوء إلى الله فيما يحيق بهم. ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لأصحاب العقول.

﴿ضِغْثًا﴾ حزمة صغيرة من الحشيش والريحان ونحوهما، أو قضبان. ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ﴾ زوجتك. ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ بترك ضربها، والحنث في اليمين: إذا لم يفعل ما حلف عليه. روي أن زوجته ليا بنت يعقوب عليه السلام ذهبت

لحاجة، وأبطأت، فحلف إن برئ ليضربنّها مئة ضربة، فحلّل الله يمينه بذلك، وهي رخصة باقية في الحدود للضرورة كمرض ونحوه. ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أيوب. ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رجّاع إلى الله تعالى بالتوبة والإنابة.

المناسبة:

هذه هي القصة الثالثة من قصص الأنبياء في هذه السورة، والمقصود بها كغيرها الاعتبار، فقد كان داود وسليمان عليهما السلام ممن أفاض الله عليهما أصناف النعم، فكانت قصتهما لتعليم الشكر على النعمة، وأيوب كان ممن خصّه الله تعالى بأنواع البلاء، فكانت قصته لتعليم الناس الصبر على الشدائد، كأن الله تعالى قال: يا محمد اصبر على سفاهة قومك، فإنه ما كان في الدنيا أكثر نعمةً ومالاً وجاهاً من داود وسليمان عليهما السلام، وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب عليه السلام، فتأمل في أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد، وأن العاقل لا بدّ له من الصبر على المكاره.

التفسير والبيان:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ أي واذكر أيها الرسول لقومك صبر أيوب على مرضه مدة طويلة هي نحو من ثماني عشرة سنة، حين نادى ربّه بأني قد مسني الضّر ومسّني الشيطان بمشقة وألم مضر، وإنما نسب ذلك الضر إلى الشيطان أدباً مع الله تعالى كما تقدم. والذي يجب اعتقاده أن هذا المرض لم يكن منفّراً الناس منه، وإنما هو مجرد مرض جلدي يشفى بالمياه المعدنية أو الكبريتية؛ لأن شرط الأنبياء: السلامة عن الأمراض المنفّرة طبعاً.

روى ابن جرير وابن أبي حاتم جميعاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن نبي الله أيوب عليه السلام لبث به بلاؤه ثماني

عشرة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين[١]، كانا من أخصّ إخوانه، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم، والله لقد أذنب أيوب ذنباً، ما أذنبه أحد من العالمين، قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة، لم يرحمه الله تعالى، فيكشف ما به، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له.

فقال أيوب عليه السلام: لا أدري ما تقول، غير أن الله عزّ وجلّ يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان، فيذكران الله تعالى، فأرجع إلى بيتي، فأكفِّر عنهما كراهية أن يذكر الله تعالى إلا في حق.

قال: وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضاها، أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم، أبطأ عليها، فأوحى الله تبارك وتعالى إلى أيوب عليه السلام أن ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ فاستبطأته، فالتفتت تنظر، فأقبل عليها، قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان، فلما رأته، قالت: أي، بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى، فوالله القدير على ذلك، ما رأيت رجلاً أشبه به منك، إذ كان صحيحاً، قال: فإني أنا هو، وكان له أندران: أندر للقمح، وأندر للشعير، فبعث الله تعالى سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير حتى فاض».

﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ أي قلنا له: اضرب برجلك الأرض، فركض (ضرب) فنبعت عين جارية، فاغتسل فيها، وشرب منها، فخرج صحيحاً معافى، بريئاً من المرض.

وهذا دليل على أن مرضه كان من الأمراض الجلدية غير المعدية ولا

---

(١) يمكن تأويل هذا الرفض بالبعد المعتاد عن كل مريض، شفقة ورحمة، لا نفوراً من المرض.

المنفِّرة، وإنما كانت مؤذية متعبة تحت الجلد، كالإكزيما والحِكة ونحوهما، مما يمكن شفاؤه بالمياه المعدنية أو الكبريتية المفيدة في تلك الأمراض.

وكما تمّ الشفاء من المرض أعاد الله له أهله وولده وماله، فقد كان ذا مال جزيل وأولاد كثيرين وسعة من الدنيا، فقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ أي منحناه أهله وضاعفناهم، إما أن الله تعالى أحياهم بعد أن أماتهم، والله قادر على كل شيء، وإما أنه تعالى جمعهم له بعد تفرقهم، وأكثر نسلهم، وزادهم، فكانوا مثلي ما كانوا قبل ابتلائه، رحمة من الله به، وتذكرة لأصحاب العقول السليمة، والإيمان أن عاقبة الصبر الفرج، وأن رحمة الله قريب من المحسنين، وأن مع العسر يسراً.

ثم ذكر الله تعالى له رخصة في التّحلل من يمينه، فقال:

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ أي وخذ بيدك حزمة كبيرة من القضبان، فاضرب بها زوجتك التي حلفت أن تجلدها مئة جلدة إن برئت من مرضك، ولا تحنث في يمينك، أي لا تترك العمل بمقتضى اليمين، بسبب إبطائها في الرجوع، وهي ليا بنت يعقوب، أو رحمة بنت أفرائيم بن يوسف.

ثم أثنى الله سبحانه على أيوب عليه السلام قائلاً:

﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي لقد وجدناه صابراً على البلاء الذي ابتليناه به في جسده، وذهاب ماله وأهله وولده، نعم العبد أيوب، إنه رجّاع إلى الله بالتوبة والاستغفار، زيادة في حسناته ورفع درجته، لا بسبب ذنب جناه، فجازيناه بتفريج كربته، مع أنه ليس في الشكوى إلى الله إخلال بالصبر، ولكن إيمان الأنبياء المطلق التام الذي يعرِّفهم أن الله عليم بهم، قد لا يطلبون من الله شيئاً لإذهاب همهم وغمهم.

روي عن أيوب عليه السلام أنه كان يقول كلما أصابته مصيبة: «اللهم

أنت أخذت، وأنت أعطيت»، وكان يقول في مناجاته: «إلهي قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي، ولم يتبع قلبي بصري، ولم يلهني ما ملكت يميني، ولم آكل إلا ومعي يتيم، ولم أبتْ شبعان ولا كاسياً، ومعي جائع أو عُريان».

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى الأحكام التالية:

١ - لا مانع من دعاء الله تعالى والشكوى إليه عند المصاب، وإن كان أيوب عليه السلام صبر مدة طويلة على المرض، ثم دعا ربَّه لتفريج نوعين من المكروه: الألم الشديد في الجسم، والغمّ الشديد بسبب زوال الخيرات وحصول المكروهات، لذا ذكر الله تعالى لفظين وهما النّصب والعذاب.

٢ - على المؤمن أن يتدرّع بالصَّبر عند الشدائد، فقد أمر الله النّبي ﷺ بالاقتداء بأيوب عليه السلام في الصبر على المكاره، وكذلك بغيره من الأنبياء مثل داود وسليمان عليهما السلام.

٣ - لم يكن مرض أيوب عليه السلام منفِّراً؛ لأن شرط النّبوة: السلامة عن الأمراض المنفِّرة طبعاً، وإنما كان مرضه تحت الجلد، كأمراض الحِكة، مما ليس بمعدٍ، وإن كان مؤلماً ومزعجاً. وهو مرض حسي، تناول البدن بدليل قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٣] ، و﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾، و﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٤] ، و﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ و﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.

٤ - في هذه الآية دلالة على أن للزوج أن يضرب امرأته تأديباً، بدليل حلف أيوب على ضرب امرأته. والذي أباحه القرآن هو ضرب النساء حال النشوز؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ إلى أن قال: ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: ٤/ ٣٤] . كذلك دلّ قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٤/ ٣٤] ، على أن للزوج ضرب امرأته تأديباً لغير نشوز.

٥ً - إن الضرب بالضغث رخصة من الله تعالى لأيوب عليه السلام تحلّة اليمين، جزاء على تلك الخدمة الطويلة التي قدمتها له زوجته أثناء مرضه.

واختلف العلماء بعدئذٍ، هل هذا الحكم عام أو خاص بأيوب وحده؟ للعلماء في ذلك رأيان:

الرأي الأول:

قالت الحنفية - الذين يقولون: شرع من قبلنا شرع لنا -: إن الحكم عام، فمن حلف ليضرب مئة ضربة، فأخذ حزمة من حطب عدد عيدانها مئة، فضرب بها، برّ في يمينه، ولا كفّارة عليه؛ لأن الله قد رخّص لأيوب عليه السلام هذا، وجعله غير حانث به، وما دام غير حانث فهو بارّ. وهذا في المريض العليل غير الصحيح السليم[١].

وكذلك قالت الشافعية والحنابلة: يجوز إقامة الحدّ في المرض الذي لا يرجى برؤه، بأن يضرب بمئة شمراخ دفعة واحدة، لما روى أحمد وأبو داود وابن ماجه عن سهل بن حُنَيْف: «أنّ النّبي ﷺ أمر في رجل أضنى أن يأخذوا له مئة شمراخ، فيضربوه بها ضربة واحدة». قال الشافعي: إذا حلف ليضربنّ فلاناً مئة جلدة، أو ضرباً، ولم يقل: ضرباً شديداً، ولم ينوِ ذلك بقلبه: يكفيه مثل هذا الضرب المذكور في الآية، ولا يحنث.

والشافعي الذي لا يقول بأن شرع من قبلنا شرع لنا اعتمد في ذلك على ما ثبت في السّنّة النّبوية. وأما الإمام أحمد فيقول بأن شرع من قبلنا شرع لنا.

الرأي الثاني:

قالت المالكية الذين يرون أن شرع من قبلنا شرع لنا: إن هذه رخصة

---

(١) أحكام القرآن للجصاص الرازي: ٤/ ٣٨٢ وما بعدها.

خاصة بأيوب عليه السلام، بدليل توجيه الخطاب وبما ذكر للترخيص من العلة. قال ابن العربي: وإنما انفرد مالك في هذه المسألة عن القاعدة لتأويل بديع: هو أن جريان الأيمان عند مالك في سبيل النّيّة والقصد أولى؛ لقول رسول الله ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم عن عمر رضي الله عنه: «إنما الأعمال بالنيّات» والنِّيَّة أصل الشريعة وعماد الأعمال ومعيار التكليف. وقصة أيوب هذه لم يصح كيفية يمين أيوب فيها، حتى نلتزم شريعته فيها[1]. وهذا قول الليث أيضاً.

ونهج ابن القيم في (أعلام الموقعين) الذي حارب فيه الحيل منهج المالكية، وقرر أن هذه الفتيا خاصة الحكم، فإنها لو كانت عامة الحكم في حقّ كل أحد، لم يَخْفَ على نبي كريم موجب يمينه، ولم يكن في قصها علينا كبير عبرة، فإنما يقصّ علينا ما خرج عن نظائره لنعتبر به، ونستدل به على حكمة الله فيما قصّه علينا. ويدلّ عليه اختصاص قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ وهذه الجملة خرجت مخرج التعليل، كما في نظائرها، فعلم أن الله سبحانه إنما أفتاه بذلك جزاء له على صبره، وتخفيفاً عن امرأته، ورحمة بها. وأيضاً فإنه تعالى إنما أفتاه بهذا لئلا يحنث كما قال: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾.

٦ً - فضيلة الصبر عظيمة، لذا وصف الله نبيه أيوب بأنه صبر على ما أصابه من أذى في بدنه وأهله وماله، وبأنه أوّاب، أي كثير التأويب والرجوع إلى الله في كل أموره.

---

(١) أحكام القرآن: ٤/ ١٦٤٠

قصة إبراهيم وذريته عليهم السلام
-إبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع وذي الكفل-

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾

القراءات:

﴿عِبَٰدَنَآ﴾:

وقرأ ابن كثير (عبدنا).

﴿بِخَالِصَةٍ﴾:

وقرأ نافع (بخالصةِ).

﴿وَٱلْيَسَعَ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (وَاللَّيْسَع).

﴿تُوعَدُونَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (يوعدون).

الإعراب:

﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ بدل من ﴿عِبَٰدَنَآ﴾ أو (عبدنا) أو عطف بيان.

﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ على قراءة التنوين هذه تكون ﴿ذِكْرَى﴾ بدلاً من (خالصة) وتقديره: إنا أخلصناهم بذكرى الدار، ويجوز نصبه بـ (خالصة) لأنه مصدر كالعافية والعاقبة. وقرئ بترك التنوين بجعل ﴿ذِكْرَى﴾ مجروراً بالإضافة وهي إضافة بيان.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ۝٥٠﴾ ﴿جَنَّٰتِ﴾: بدل منصوب من ﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾. و﴿مُّفَتَّحَةً﴾ صفة لجنات، وفيه ضمير عائد إلى ﴿جَنَّٰتِ﴾ وتقديره: جنات عدن مفتحة هي، أو حال وعامله ما في المتقين من معنى الفعل. و﴿ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ إما مرفوع بـ ﴿مُّفَتَّحَةً﴾ وإما مرفوع بدلاً من ضمير ﴿مُّفَتَّحَةً﴾. تقول: فتحت الجنان: إذا فتحت أبوابها، قال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩﴾ [النبأ: ١٩/٧٨].

﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال من الهاء والميم في ﴿لَّهُمُ﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤﴾ ﴿مَا لَهُۥ﴾: حال من: (رزقنا)، أو خبر ثانٍ لـ ﴿إِنَّ﴾.

البلاغة:

﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ استعارة تصريحية، استعار ﴿ٱلْأَيْدِى﴾ للقوة في العبادة، و﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ للتبصر في الدين.

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٩ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ۝٥٠﴾ بينها وبين ما يأتي في المقطع الآتي مقابلة وهي: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝٥٦﴾.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب للعناية بهم.

المفردات اللغوية:

﴿عِبَٰدَنَآ﴾ وقرئ: عبدنا.

﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي﴾ أصحاب القوة في العبادة. ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أصحاب البصائر في الدين والفقه فيه ومعرفة أسراره. ﴿أَخْلَصْنَٰهُم﴾ جعلناهم خالصين لنا. ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ بخصلة خالصة لا شوب فيها هي ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ أي تذكر الدار الآخرة والعمل لها.

﴿ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ المختارين من أبناء جنسهم، جمع مصطفى. ﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ المفضلين عليهم في الخير، جمع خيِّر: وهو المطبوع على فعل الخير. ﴿إِسْمَٰعِيلَ﴾ هو ابن إبراهيم الخليل. ﴿وَٱلْيَسَعَ﴾ اللام زائدة، وهو نبي، ابن أخطوب استخلفه إلياس على بني إسرائيل، ثم صار نبياً. ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ ابن عم يسع، أو بشر بن أيوب، واختلف في نبوته ولقبه، والأصح أنه نبي، قيل: فرَّ إليه مئة نبي من القتل فآواهم وكفلهم، وقيل: تكفّل بعمل رجل صالح كان يصلي كل يوم مئة صلاة. ﴿وَكُلٌّ﴾ كلهم. ﴿مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ جمع خيِّر، كما تقدّم.

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ هذا ذكر وشرف وتنويه لهم بالثناء الجميل، أو هذا المذكور من الآيات نوع من الذكر وهو القرآن. ﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ مرجع في الآخرة. ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ جنات استقرار وثبات، يقال: عدَن بالمكان: أقام به ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ أي على الأرائك، كما في آية أخرى. ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ لا ينظرن إلى غير أزواجهن. ﴿أَتْرَابٌ﴾ جمع ترب، أي لدات متساويات في السّنّ، بنات ثلاث وثلاثين سنة، حتى لا تحصل الغَيْرة بينهنّ، ولأن التّحاب بين الأقران أثبت.

﴿هَٰذَا﴾ المذكور. ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ به. ﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ لأجل الحساب، فإن الحساب علة الوصول إلى الجزاء. ﴿نَّفَادٍ﴾ انقطاع، أي دائم له صفة الدوام.

المناسبة:

هذه مجموعة قصص من الأنبياء في هذه السورة، ذكر الله فيها قصص إبراهيم وذريته الأنبياء، يراد بها العظة والعبرة، والتعليم لنا، والتّخلق بأخلاقهم، والعمل بأعمالهم التي من أجلها استحقوا ما أعدّ الله لهم

ولأمثالهم في هذه الآيات من الثواب الجزيل والنعيم المقيم. وهي معطوفة على بداية القصص في هذه السورة، كأنه تعالى قال: «فاصبر على ما يقولون، واذكر عبدنا داود» [الآية ١٧] إلى أن قال: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أي واذكر يا محمد صبر إبراهيم حين أُلقي في النار، وصبر إسحاق في دعوة بني إسرائيل إلى الرشاد، وصبر يعقوب حين فقد ولده وذهب بصره، وصبر إسماعيل للذبح، وصبر اليسع وذي الكفل على أذى بني إسرائيل.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين، فيقول:

﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ أي واذكر العمل الصالح وصبر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي القوة في العبادة والبصيرة النافذة، فإنهم دأبوا على الطاعة، وقويناهم على العمل المرضي، وأحسنوا وقدموا خيراً، وآتيناهم البصيرة في العلم والفقه في الدين، والعمل النافع فيه.

وعلة ذلك:

﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾ أي خصصناهم بخصلة خالصة هي العمل للآخرة، والتزام أوامرنا ونواهينا، لتذكرهم الدار الآخرة والإيمان بها، وذلك شأن الأنبياء.

﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ أي وإنهم لمن المختارين من أبناء جنسهم، المطبوعين على فعل الخير، فلا يميلون للأذى، ولا تنطوي قلوبهم على الضغينة والحقد والحسد والبغض لأحد، ولا يرتكبون شرّاً ومعصية، فهم أخيار مختارون.

﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ أي واذكر أيضاً

صبر إسماعيل واليسع وذي الكفل وأعمالهم الصالحة، فكل منهم من الأخيار المختارين للنبوة.

وبعد أن أمر الله تعالى رسوله بالصبر على سفاهة قومه وذكر جملة من الأنبياء، ذكر ما يؤول إليه حال المؤمنين وحال الكافرين من الجزاء، ومقرّ كل واحد من الفريقين، فقال تعالى:

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾﴾ هذه الآيات القرآنية التي تعدد محاسنهم تذكُّر لهم وتنويه، وذكر جميل في الدنيا، وشرف يذكرون به أبداً، وإن لهم وللمتقين أمثالهم لحسن مرجع يرجعون فيه في الآخرة إلى مغفرة الله ورضوانه ونعيم جنّته. وهذا شروع فيما أعدّ لهم ولأمثالهم من النعيم والسعادة في الدار الآخرة.

ثم فسّر الله تعالى المقصود بالمرجع والمآب الحسن قائلاً:

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾﴾ أي إن ذلك المآب هو في جنات إقامة دائمة، مفتحة لهم أبوابها، فإذا جاؤوها فتحت لهم أبوابها إكراماً لهم، تفتحها لهم الملائكة ليدخلوها مكرمين. وفي هذا إيماء بتخصيصها لهم وبسعتها وروعتها وبهائها الذي تسرّ به النفوس.

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾ أي تراهم متكئين في الجنات على الأرائك والأسرّة، يطلبون ما لذّ وطاب مما شاؤوا من أنواع الفاكهة الكثيرة المتنوعة، وأنواع الشراب الكثير العذب الطيب، وغيرهما، فمهما طلبوا وجدوا، وأحضر كما أرادوا ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة: ١٨/٥٦] .

والسبب في تخصيص الفاكهة والشراب بالذكر: ترغيب العرب فيها؛ لأن ديارهم حارة قليلة الفواكه والأشربة، وفيه إيماء بأن طعامهم لمجرد التَّفكُّه

والتّلذّذ لا للتّغذي؛ لعدم حاجتهم إليه بسبب خلق أجسامهم للدوام، فلا تحتاج لبدائل المتلفات والتّحللات.

وبعد وصف المسكن والمأكول والمشروب، ذكر تعالى الأزواج، فقال:

﴿۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢)﴾ أي ولهم زوجات قاصرات طرفهنّ على أزواجهنّ، لا ينظرن إلى غيرهم، وهم لدات متساويات في السّن، متساويات في الحسن والجمال، يحب بعضهنّ بعضاً، فلا تباغض ولا غيرة عندهنّ.

ثم ذكر الله تعالى ما وعد به المتقين من الثواب قائلاً:

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ (٥٣)﴾ أي هذا المذكور من صفات الجنة هو الذي وعد به تعالى عباده المتقين، وهو الجزاء الأوفى الذي وعدوا به، وأجّل ليوم الحساب في الآخرة بعد البعث والنشور من القبور.

وصفة هذا النعيم الدوام، فقال تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ (٥٤)﴾ أي إن هذا الذي أنعمنا به عليكم لرزق دائم لا انقطاع له، ولا فناء أبداً، كقوله عزّ وجلّ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦/١٦] ، وقوله جلَّ وعلا: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨/١١] ، وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق: ٢٥/٨٤] ، أي غير منقطع، وقوله سبحانه: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥/١٣] .

فقه الحياة أو الأحكام:

جعل الله تعالى هؤلاء الصّفوة المختارة من الأنبياء مع من تقدّمهم قدوة طيبة وأسوة حسنة للنبي ﷺ وللمؤمنين من بعده، في الصّبر والعمل الصالح، والعلم النافع، والقوة في العبادة، والفقه في الدين.

وسبب اصطفائهم إيمانهم بالدار الآخرة وتذكرهم لها، وعملهم المحقق لرضوان الله ومغفرته ودخول جنانه فيها، فهم يذكرون الآخرة، ويرغبون فيها، ويزهدون في الدنيا.

وذكرهم في القرآن المتلو إلى يوم القيامة إشادة بهم، وذكر جميل في الدنيا، وشرف يذكرون به فيها أبداً.

ولهم ولكلّ المتقين مع هذا الذكر الجميل في الدنيا حسن المرجع في القيامة، إذ لهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار، مفتحة الأبواب، تفتحها الملائكة تكريماً لهم.

يتمتعون بنعيم الجنان في مسكن مريح يتكئون فيه على الأرائك، ولهم ما يطلبون من أنواع الفاكهة الكثيرة والشراب الكثير.

ولهم أيضاً أزواج قاصرات الطَّرف لا ينظرن إلى غيرهم، وهنّ لدات أتراب على سنّ واحدة، متساويات في الحسن والجمال والشباب، بنات ثلاث وثلاثين سنة.

ثم ذكر الله تعالى أن هذا الموصوف بهذه الصفات هو الجزاء والثواب الذي وعد به المتقين، ثم أخبر تعالى عن دوام هذا الثواب. وهذا دليل على أن نعيم الجنة لا ينقطع.

عقاب الطاغين الأشقياء

﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾

القراءات:

﴿فَبِئْسَ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (فبيس).

﴿وَغَسَّاقٌ﴾: قرئ:

١- (وغَسَّاق) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (وغَسَاق) وهي قراءة الباقين.

﴿وَءَاخَرُ﴾:

وقرأ أبو عمرو (وأُخَر).

﴿سِخْرِيًّا﴾:

وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي، وخلف (سُخْرِيّاً).

الإعراب:

﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ ﴿هَٰذَا﴾: خبر مبتدأ محذوف، تقديره: الأمر هذا.

﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ﴾ ﴿هَٰذَا﴾ يجوز فيه النصب والرفع، أما النصب فبتقدير فعل يفسره ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ أي فليذوقوه هذا فليذوقوه، والفاء زائدة في مذهب أبي الحسن الأخفش، مثل: هذا زيد فاضرب. وأما الرفع: فهو على أنه مبتدأ، وخبره: ﴿حَمِيمٌ﴾، و﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ اعتراض، والفاء للتنبيه، أو هو المخصوص بالذم، أي بئس المهاد هذا المذكور، أو مبتدأ وخبره ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ ويرفع ﴿حَمِيمٌ﴾ على تقدير (هو حميم)، أو خبر مبتدأ، تقديره: الأمر هذا، ويرفع ﴿حَمِيمٌ﴾ على تقدير: هو حميم.

﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾: ﴿وَءَاخَرُ﴾ مبتدأ، و﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ صفة له، ولهذا حسن أن يكون مبتدأ، مع كونه نكرة، و﴿أَزْوَٰجٌ﴾ خبر المبتدأ. ويجوز جعل ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ مبتدأ ثانياً، و﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ خبر لـ ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ والجملة منهما خبر المبتدأ الأول الذي هو ﴿وَءَاخَرُ﴾.

﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾: ﴿مَا﴾ في موضع رفع بالابتداء، و﴿لَنَا﴾ خبره، و﴿لَا نَرَىٰ﴾ حال من ضمير ﴿لَنَا﴾. و﴿كُنَّا نَعُدُّهُم﴾ صفة لـ ﴿رِجَالًا﴾. و﴿مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ في موضع نصب؛ لتعلقه بـ ﴿نَعُدُّهُم﴾. وتجوز إمالة ﴿مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ لوجود الراء المكسورة.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾: ﴿تَخَاصُمُ﴾ إما بدل من ﴿لَحَقٌّ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف تقديره (هو تخاصم) أو خبر بعد خبر لـ ﴿إِنَّ﴾ أو بدل من ﴿ذَٰلِكَ﴾ على الموضع.

البلاغة:

﴿ٱلْأَشْرَارِ﴾ ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ ﴿أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ فيها مراعاة الفواصل من المحسنات البديعية.

﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ شبه ما تحتهم من النار بالمهاد الذي يفترشه النائم.

المفردات اللغوية:

﴿لِلطَّٰغِينَ﴾ الكفار الذين كذبوا بالله ورسله، وتجاوزوا حدود الله. ﴿مَـَٔابٍ﴾ مرجع ومصير. ﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾ يدخلونها ﴿ٱلۡمِهَادُ﴾ الفراش. ﴿هَٰذَا﴾ العذاب، المفهوم مما بعده. ﴿حَمِيمٞ﴾ ماء شديد الحرارة. ﴿وَغَسَّاقٞ﴾ شديد البرودة، وهو ما يسيل من صديد أهل النار. ﴿وَءَاخَرُ﴾ أي وعذاب آخر، وقرئ: «وأخر» بالجمع، أي وأنواع عذاب آخر. ﴿مِن شَكۡلِهِۦٓ﴾ مثل المذوق في الشدة والكراهية، أو مثل المذكور من الحميم والغساق. ﴿أَزۡوَٰجٌ﴾ أصناف أو أجناس عذابهم.

﴿هَٰذَا فَوۡجٞ﴾ أي يقال لهم ذلك عند دخولهم النار، والفوج: الجمع الكثير من أتباع الضلال. ﴿مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ﴾ داخل معكم النار بشدة ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ﴾ أي لا سعة عليهم ولا ترحيب بهم، وهذا ما يقوله الرؤساء لأتباعهم. ﴿صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾ داخلون النار بأعمالهم مثلنا. ﴿قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ﴾ قال الأتباع للرؤساء: بل أنتم أحق بما قلتم. ﴿أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ﴾ أي الكفر. ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾ المقر وهو جهنم، فلنا ولكم النار.

﴿قَالُواْ﴾ أي الأتباع أيضاً. ﴿عَذَابٗا ضِعۡفٗا﴾ مضاعفاً أي ذا ضعف، بأن يزيد على العذاب مثله، فيصير ضعفين، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [الأحزاب: ٦٨/٣٣]. ﴿وَقَالُواْ﴾ أي الرؤساء الطاغون، وهم في النار. ﴿مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾ الأراذل الذين لا خير فيهم، يريدون بهم فقراء المسلمين الذين يحتقرونهم ويسترذلونهم ويسخرون بهم. ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ استفهام إنكاري، إنكار على أنفسهم وتأنيب لها في تسخيرهم في الدنيا، أي ألأجل أنا قد اتخذناهم مسخرين في أعمالنا، ولم يكونوا كذلك، لم يدخلوا النار؟ وقرئ بضم السين، أي كنا نسخر بهم. ﴿أَمۡ زَاغَتۡ﴾ مالت. ﴿عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أي أم هم معنا، ولكن لم ترهم أعيننا، وهم فقراء المسلمين كعمار وبلال وصهيب وسلمان.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ﴾ ذلك الذي حكينا عنهم واجب وقوعه، لا بدّ أن يتكلموا به، ثم بيَّن ما هو، فقال: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ أي تنازعهم ومخاصمة بعضهم بعضاً.

المناسبة:

بعد أن وصف الله تعالى ثواب المتقين ومآل السعداء، وصف بعده عقاب الطاغين وحال الأشقياء المحرومين، ليتم التقابل والمقارنة بين الفريقين، ويقترن الوعد بالوعيد، فيقبل على الطاعة، ويجتنب المعصية، ويتحقق الهدف المنشود وهو الإصلاح والتهذيب.

التفسير والبيان:

﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾﴾ أي هذا المذكور هو جزاء المؤمنين، أو الأمر هذا كما ذكر، وإن للكافرين الخارجين عن طاعة الله عز وجل، المكذبين لرسله، لسوء منقلب ومرجع. ثم فسره بقوله عز وجل:

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾ أي إنهم يدخلون جهنم ويلفحهم حرّها من كل جانب، فبئس ما مهدوا لأنفسهم، وهو الفراش، أي بئس ما تحتهم من نار جهنم، مشبهاً النار بالمهاد، كقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ﴾ [الأعراف: ٧/ ٤١] .

﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾ أي هذا حميم فليذوقوه، أو العذاب هذا فليذوقوه، وهو أمر تهكم وسخرية بذوق العذاب، وهو ماء حار شديد الحرارة يشوي الجلود، وماء بارد مؤلم لا يستطاع شربه لشدة برودته، أو هو ما سال من جلود أهل النار من القيح والصديد.

﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ أي ولهم أنواع أخرى من العذاب مثل الحميم والغساق، أشد كراهية وإيلاماً كالزقوم، والصعود والسَّموم،

والزمهرير، يعاقبون بها، من الشيء وضده. فقوله: ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ أي ألوان من العذاب المختلفة المتضادة.

ثم وصف الله تعالى كلام أهل النار مع بعضهم بعضاً، فقال:

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩)﴾ أي تقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى إذا أقبلت التي بعدها مع الخزنة والزبانية: هذا جمع كبير داخل معكم، فلا مرحباً بهم، أي لا كرامة لهم، وهم يدخلون النار كما دخلناها، ويستحقونها كما استحققناها. والمراد من قولهم: ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ الدعاء عليهم. وهذا قول صادر من السادة أو الرؤساء والقادة عن الأتباع المنبوذين في الدنيا، والمراد به الإخبار من الله تعالى عن انقطاع المودة بين الكفار، بل إن المودة التي كانت بينهم تصير عداوة.

فيجيبهم الأتباع قائلين:

١ - ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ أي قال الأتباع للرؤساء: بل أنتم لا كرامة لكم، وأنتم أحق بهذا منا، فإنكم أضللتمونا ودعوتمونا إلى هذا المصيروأوقعتمونا فيه، فبئس المقر جهنم لنا ولكم. والمراد من هذا الكلام التشفي منهم، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٧/٣٨].

٢ - ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١)﴾ أي قال الأتباع أيضاً عن الرؤساء داعين عليهم: ربنا عاقب الذين أوردونا هذا المورد في النار وقدموا لنا هذا العذاب عقاباً مضاعفاً في النار، عقاباً على الكفر، وعقاباً على الإضلال، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٧/٣٨] أي لكل منكم عذاب بحسبه وقال سبحانه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا، رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨)﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٦٧-

٦٨] . ويؤيده الحديث الصحيح عند مسلم عن جرير بن عبد الله: «من سنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها».

ثم تحدث الكفار عن أناس كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة، فقال تعالى:

﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾﴾ أي قال المشركون بعضهم لبعض تعجباً وتحسراً: إننا نفتقد في النار رجالاً كنا نعدهم في الدنيا أشراراً لا خير فيهم، فما لنا لا نراهم معنا في النار؟ يعنون في زعمهم فقراء المؤمنين، كعمّار وخبّاب وصُهيب وبِلال وسالم وسَلْمان.

قال مجاهد: هذا قول أبي جهل يقول: ما لي لا أرى بلالاً وعماراً وصهيباً وفلاناً وفلاناً؟ وهذا ضرب مثل، وإلا فكل الكفار، هذا حالهم، يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار. فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم، فقالوا هذا القول.

﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾ أي ألأجل أنا قد سخرناهم في الدنيا في أعمالنا، أو سخرنا منهم، وكانوا أهل الكرامة فأخطأنا، فلم يدخلوا النار، أم هم معنا ولكن لم نعلم مكانهم في النار؟ قال الحسن البصري: كل ذلك قد فعلوه، اتخذوهم سخرياً، وزاغت عنهم أبصارهم، أي وهم في الجنة. وقوله: ﴿سِخْرِيًّا﴾ بضم السين وكسرها، قيل: هما بمعنى واحد، وقيل: بالكسر هو الهزء، وبالضم: هو التذليل والتسخير.

وهذا إنكار على أنفسهم وتأنيب لها على اتخاذهم سخرياً في الدنيا.

ثم أكد الله تعالى حدوث هذا التخاصم والتنازع قائلاً:

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ أي إن ذلك الذي حكاه الله عنهم لحق لا بدّ أن يتكلموا به، أو هذا الذي أخبرناك به يا محمد أمر واقع حتماً يوم القيامة، وهو تخاصم أهل النار فيها، وما قالته الرؤساء للأتباع، وما قالته الأتباع لهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

ذكر الله تعالى ألواناً من العذاب في النار للكفار يوم القيامة، وتلك الألوان أو الأنواع هي ما يأتي:

١ - إن مصير الظالمين الكافرين شرّ مرجع ومآب ومنقلب يصيرون إليه.

٢ - إنهم يصلون جهنم، أي يدخلونها، وبئس ما مهدوا لأنفسهم، أو بئس الفراش لهم، وهو ما تحتهم من النار.

٣ - إن شرابهم الحميم والغَسَّاق، والحميم: الماء الحار الشديد الحرارة، والغساق: ما سال من جلود أهل النار من القيح والصديد.

٤ - لهم أصناف وألوان أخرى من العذاب كالزمهرير والسموم وأكل الزقوم والصعود والهوي، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة المتضادة، والجميع مما يعذبون به، ويهانون بسببه.

٥ - قال ابن عباس: إن القادة إذا دخلوا النار، ثم دخل بعدهم الأتباع، قالت الخزنة للقادة: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾ يعني الأتباع، والفوج: الجماعة ﴿مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ أي داخل النار معكم، فقالت السادة: ﴿لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ أي لا اتسعت منازلهم في النار، والمراد به الدعاء. فقال القادة أو الملائكة: ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ كما صليناها.

قال أبو حيان: والظاهر أن قوله: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ من قول رؤسائهم بعضهم لبعض.

٦ - ردَّ الأتباع على الرؤساء بقولهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ أنتم دعوتمونا إلى العصيان فبئس القرار لنا ولكم. وقالوا أيضاً: ربنا من سوَّغ لنا هذا وسنَّه وتسبب في عذابنا هذا فضاعف عذابه، عذاباً على الكفر، وعذاباً على الإضلال.

وكل كلام من الفريقين فيه زيادة تبكيت وإيلام وإزعاج للفريق الآخر.

٧ - زعم الكفار في الدنيا أن أعداءهم في الدنيا وهم فقراء المؤمنين العرب أو الموالي غير العرب، كبلال وصهيب وسلمان من أهل النار، فافتقدوهم بحسب زعمهم في النار معهم، فلم يجدوهم، فلاموا أنفسهم على خطئهم باتخاذهم سخرياً في الدنيا. وهذا لون آخر من التعذيب النفسي الداخلي.

قال مجاهد وغيره: يسألون أين عمار، أين صهيب، أين فلان، يعدون ضعفاء المسلمين، فيقال لهم: أولئك في الفردوس.

٨ - إن هذا التخاصم والتنازع الذي يزعج أهل النار أمر واقع حتماً في النار، وهو حق ثابت، يجب الإيمان به.

بعض أدلة صدق النبي ﷺ

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾

القراءات:

﴿لِىَ مِنْ عِلْمٍ﴾:

وهي قراءة حفص، وقرأ الباقون (ليْ من علم).

الإعراب:

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾: ﴿هُوَ نَبَؤٌا۟﴾ مبتدأ وخبر، و﴿عَظِيمٌ﴾ صفة، و﴿أَنتُمْ﴾ مبتدأ، وخبره ﴿مُعْرِضُونَ﴾، و﴿عَنْهُ﴾ متعلق بالخبر وهو ﴿مُعْرِضُونَ﴾.

﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ : ﴿أَنَّمَآ﴾ إما مرفوع نائب فاعل لـ ﴿يُوحَىٰٓ﴾ وإما منصوب بتقدير حذف حرف الجر، أي بأنما أنا نذير، و﴿إِلَيَّ﴾ يقوم مقام نائب الفاعل لـ﴿يُوحَىٰٓ﴾ والوجه الأول أوجه.

المفردات اللغوية:

﴿قُلْ﴾ يا محمد لكفار مكة. ﴿مُنذِرٌ﴾ مخوف بالنار. ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ لخلقه. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب أو الغالب على أمره.

﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ الذي يغفر ما يشاء من الذنوب لمن يشاء.

﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين. ﴿هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾ خبر مهم جداً. ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي إن القرآن الذي أنبأتكم به وجئتكم فيه بما لا يعلم إلا بوحي هو مهم جداً، وأنتم معرضون عنه لتمادي غفلتكم، فإن العاقل لا يعرض عن مثله.

﴿بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ الملائكة، وهم أشراف الخلق، أي ما كان لي من علم بكلام الملأ الأعلى. ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ في شأن آدم حين قال الله: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠].

﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ أي ما يوحى إلي إلا أني بيِّن الإنذار.

المناسبة:

هذه الآيات عود على بدء السورة الداعية إلى التوحيد وإثبات نبوة النبي ﷺ، والمعاد، فهي تقرير للتوحيد، ووعد ووعيد للموحدين والمشركين بسبب الإعراض عن دعوة النبي محمد ﷺ، وإثبات للبعث الذي يفصل فيه بين المؤمنين والكافرين بعد إنذار النبي ﷺ في الدنيا بعقاب من أنكر التوحيد والنبوة والمعاد.

وهذا دليل على أن السورة إلى آخرها في أحسن وجوه الترتيب والنظم.

التفسير والبيان:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ أي قل أيها الرسول للكفار بالله، المشركين به من أهل مكة وغيرهم، المكذبين لرسوله ﷺ: إنما أنا مخوف لكم من عقاب الله وعذابه، مبلّغ أحوال عقاب من أنكر التوحيد والنبوة والمعاد، مثل عقاب الأمم السابقة في الدنيا كعاد وثمود، وأحوال عذاب جهنم في الآخرة.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أي ليس هناك إلا إله واحد لا شريك له، قهار لكل شيء سواه، قد قهر كل شيء وغلبه.

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾ أي مالك جميع السماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات، ومتصرف فيه، وهو الذي يَغْلِب ولا يُغْلَب، فلا يغالبه مغالب إذا عاقب العصاة، وهو غفار الذنوب لمن أطاعه، ولمن شاء من عباده إذا تاب، ولمن التجأ إليه.

ثم توعدهم تعالى على مخالفة أمر الله تعالى ورسوله ﷺ والإعراض عن القرآن، فقال:

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي قل أيها الرسول لمشركي مكة وغيرهم: إن هذا الذي أنبأتكم به من كوني رسولاً منذراً، وأن الله واحد لا شريك له، وأن القرآن وحي منزل من عند الله، هو خبر عظيم مهم جداً، لا يعرض عن مثله إلا غافل شديد الغفلة، فهو ينقذكم من الضلالة إلى النور، لكنكم أنتم معرضون عما أقول، لا تتفكرون فيه. وفي هذا توبيخ لهم وتقريع، لكونهم أعرضوا عنه، فعليهم العدول عن خطئهم.

ثم ذكر تعالى ما يدل على نبوة محمد ﷺ، فقال:

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي ما كان لي قبل أن يوحى إلي علم باختلاف الملأ الأعلى في شأن آدم عليه السلام، وامتناع إبليس من السجود له، ومحاجته ربه في تفضيله عليه، فلولا الوحي من أين كنت أدري بتلك المغيبات.

﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ أي ما يوحى إلي إلا للإنذار الواضح، والتبليغ البيِّن، لا لأمر آخر من تسلط أو ملك.

فقه الحياة أو الأحكام:

أبان الله تعالى في هذه الآيات بعض أدلة صدق النبي ﷺ في نبوته، وأوضح بعض مهامه وواجباته.

أما مهمته: فهي إنذار من عصاه بالنار، وتخويف عقاب الله من أنكر التوحيد والنبوة والمعاد.

وكذلك تقرير التوحيد وهو أن لا إله إلا الله، المنزه عن الشريك والنظير، وأنه سبحانه القهار لكل شيء، وهذا يدل على كونه واحداً، وأن الذي جعل شريكاً له لا يقدر على شيء أصلاً، مثل هذه الأوثان والجمادات التي لا تضر ولا تنفع.

ولما كانت صفة ﴿الْقَهَّارُ﴾ توجب الخوف الشديد، أردفه تعالى بذكر صفات ثلاث له دالة على الرحمة والفضل والكرم:

أولها - كونه رباً للسماوات والأرض والعناصر الأربعة (الماء، والهواء، والنار، والتراب) والمواليد الثلاثة (الإنس والجن والحيوان).

ثانيها - كونه عزيزاً (أي منيعاً قوياً لا مثل له) فهو قادر على كل الممكنات، فهو يغلب الكل ولا يغلبه شيء.

ثالثها - كونه غفاراً لذنوب عباده المطيعين المخلصين في العبادة.

والمنذر به: هو الحساب والثواب والعقاب والنبوة والقرآن، وهذا خبر عظيم القدر، فلا ينبغي أن يستخف به. وليس من مهام النبي التسلط أو التجبر أو تحقيق النفوذ.

وأما بعض أدلة النبوة وإنزال الوحي عليه: فهو ما يخبر عنه القرآن الكريم من أنباء الملأ الأعلى وهم الملائكة حين اختصموا في أمر آدم حين خلق فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠] وقال إبليس: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٢] فهذا البيان من محمد ﷺ عن قصة آدم وغيره من الغيبيات لا يتصور إلا بتأييد إلهي، وحينئذ قامت المعجزة على صدقه.

فما بالهم أعرضوا عن تدبر القرآن ليعرفوا صدقه.

وقوله: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ترغيب في النظر والاستدلال في العقائد ومنع التقليد.

قصة آدم عليه السلام

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾

القراءات:

﴿لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ﴾:

وقرأ نافع (لعنتيَ إلى).

﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (المخلِصين).

﴿فَٱلْحَقُّ﴾: قرئ:

١- (فالحقُّ) وهي قراءة عاصم، وحمزة، وخلف.

٢- (فالحقَّ) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾ الحق الأول بالرفع: إما خبر مبتدأ محذوف وتقديره: أنا الحق أو فالحق قسمي أو مني، وإما مبتدأ، والخبر محذوف،

تقديره: فالحق مني، ويقرأ بالنصب على تقدير فعل، تقديره: الزموا الحق أو اتبعوا الحق، أو بتقدير حذف حرف القسم، كقولك: اللهَ لأفعلن، والدليل على أنه قسم: قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾. و﴿وَٱلْحَقَّ﴾ الثاني: منصوب بـ﴿أَقُولُ﴾ أي أقول الحق، وهو اعتراض بين القسم وجوابه. وقرئ: فالحقِّ والحقِّ أقول، بالجر فيها على القسم، وإعمال حرف الجر في القسم مع الحذف، كما تقول: اللهِ لأفعلن، (و) الله لأذهبن، وهي قراءة شاذة.

البلاغة:

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ تأكيد بمؤكدين: لفظ كل، ولفظ ﴿أَجْمَعُونَ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ أي اذكر حين ذلك. ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ هو آدم. ﴿سَوَّيْتُهُۥ﴾ أتممته وعدَّلت وأكملت خلقته. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ وأحييته بنفخ الروح فيه، وأضاف الروح إلى نفسه لشرفه وطهارته، والروح: جسم لطيف يحيا به الإنسان بنفوذه فيه. ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ﴾ فخروا له أو اسقطوا له. ﴿سَٰجِدِينَ﴾ تكرمة وتبجيلاً له، وهو سجود تحية بالانحناء، لا سجود عبادة.

﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ تأكيدان، الأول لإفادة العموم، والثاني لإفادة الاجتماع في السجود. ﴿إِبْلِيسَ﴾ هو أبو الجن، وكان طاووس الملائكة. ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾ تعاظم. ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في علم الله، أو باستكباره عن أمر الله تعالى، واستنكافه عن الطاعة. ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ ما صرفك وصدك. ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ خلقته بنفسي من غير توسط أب وأم، واليد: القدرة، وهو تمثيل للخلق المستقل وللدلالة على أنه معتنى بخلقه، فهذا تشريف لآدم، فإن كل مخلوق تولّى الله خلقه. ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ أي تكبرت الآن عن

السجود من غير استحقاق، أم كنت من المتكبرين المتفوقين المستحقين للترفع عن طاعة الله، فتكبرت عن السجود، لكونك منهم، وهو استفهام توبيخ.

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ إبداء للمانع. ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ من الجنة أو من السماوات. ﴿رَجِيمٌ﴾ مرجوم مطرود من الرحمة. ﴿لَعْنَتِىٓ﴾ طردي. ﴿فَأَنظِرْنِىٓ﴾ فأمهلني. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ يبعث الناس. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾ وقت النفخة الأولى. ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ بسلطانك وقهرك. ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ لأضلنهم. ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ المؤمنين الذين أخلصتهم للعبادة وعصمتهم من الضلالة.

﴿فَٱلْحَقُّ﴾ المراد بالحق: إما اسمه عز وجل أو الحق الذي هو نقيض الباطل، عظمه الله بإقسامه به، أي فالحق مني أو فالحق قسمي، وجواب القسم: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾. ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ أُحق الحق وأقوله. ﴿مِنكَ﴾ أي من ذريتك وجنسك. ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي من ذرية آدم.

المناسبة:

هذه هي القصة الأخيرة في هذه السورة، وقد ذكرت في سور: البقرة، والأعراف، والحِجْر، والإسراء، والكهف. والمقصود منها منع الحسد والكبر؛ لأن امتناع إبليس عن السجود كان بسبب الحسد والكبر، والكفار إنما نازعوا محمداً ﷺ بسبب الحسد والكبر، وذكرت هنا لتكون زاجراً للكفار عن هاتين الخصلتين المذمومتين.

التفسير والبيان:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ أي اذكر يا محمد قصة خلق آدم أبي البشر، حين قال الله للملائكة: إني سأخلق بشراً هم آدم وذريته، ﴿مِّن طِينٍ﴾ تراب مخلوط بالماء، كما في آية أخرى: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ١٥/٢٦].

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ أي فإذا أتممت خلقه وعدلته وأكملته، وجعلته حياً بعد أن كان جماداً لا حياة فيه، فاسجدوا له، أي سجود التحية والتكريم، لا سجود العبادة. وهو أمر واجب بالسجود. والنفخ تمثيل لإفاضة مادة الحياة فيه، فليس هناك نافخ ولا منفوخ.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أي فامتثل الملائكة كلهم لأمر الله، وسجدوا عن آخرهم، ما بقي منهم ملَك إلا سجد، وسجدوا مجتمعين في آن واحد، لا متفرقين.

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ أي سجد الملائكة كلهم إلا إبليس امتنع مستكبراً متعاظماً ولم يكن من الساجدين، جهلاً منه بأنه طاعة، وكان استكباره استكبار كفر، فصار من الكافرين بمخالفة أمر الله وأنفته من السجود واستكباره عن طاعة الله، أو إنه كان من الكافرين في علم الله.

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ قال الله له: يا إبليس ما الذي صرفك وصدك عن السجود لآدم، الذي توليت بنفسي خلقه من غير وساطة أب وأم، هل استكبرت عن السجود الآن، أم أنك كنت من القوم المتعالين عن ذلك؟ والمراد إنكار الأمرين معاً. فأجاب قائلاً:

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ أي إنني خير من آدم، فإني مخلوق من نار، وآدم مخلوق من طين، والنار خير وأشرف من الطين في زعمه؛ لما فيها من صفة الارتفاع والعلو، وأما التراب فهو خامد هابط لا ارتفاع فيه.

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ قال الله تعالى: فاخرج من الجنة أو من السماوات أو من زمرة الملائكة، فإنك مرجوم بالكواكب، مطرود من رحمة الله ومحل أنسه ومن كل خير.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨﴾ أي وإن طردي مستمر دائم ما دامت الدنيا إلى يوم الجزاء والقيامة، ثم في الآخرة يلقى من عذاب الله وعقوبته وسخطه ما هو به حقيق.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩﴾ أي قال إبليس: رب أمهلني حياً، ولا تعاجلني بالإماتة إلى اليوم الذي يبعث فيه الناس، أي آدم وذريته بعد موتهم. طلب هذا ليوسوس لآدم وذريته، فيثأر من آدم الذي كان سبباً لطرده من رحمة الله.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٨١﴾ قال الله تعالى: فإنك من الممهلين، إلى اليوم الذي قدره الله لفناء الخلائق، وهو عند النفخة الأولى. وقد طلب إبليس الإنظار (الإمهال) إلى يوم البعث، ليتخلص من الموت؛ لأنه إذا أنظر إلى يوم البعث، لم يمت، فأنظره الله إلى وقت الصعق لا إلى البعث، فلما أمن الهلاك تمرد وطغى وتحدى قائلاً:

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ أي فإني أقسم بعزتك (سلطانك وقهرك) أن أضل بني آدم بتزيين الشهوات لهم، وإدخال الشبه عليهم، إلا الذين أخلصتهم لطاعتك، وعصمتهم من الضلالة والهوى والشيطان، فهؤلاء لا أقدر على إضلالهم وإغوائهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝٤٢﴾ [الحجر: ١٥/٤٢].

فأجابه الله تعالى:

﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٥﴾ أي قال الله: أنا الحق أو الحق مني ملء جهنم من إبليس وأتباعه، وأقول الحق: لأملأن جهنم من جنسك من الشياطين، وممن تبعك من ذرية آدم، فأطاعوك إذ دعوتهم إلى الضلال والغواية. فهذا قسم من الله تعالى

لإبليس أنه سيدخله وأتباعه النار حتى تمتلئ منهم. وقال الزمخشري﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ أي ولا أقول إلا الحق، على حكاية لفظ المقسم به، ومعناه التوكيد والتسديد.

فقه الحياة أو الأحكام:

قصة آدم عليه السلام هذه مع إبليس اللعين: تصوير بالغ للأمر الإلهي، وبيان مدى طاعته، وتقرير العقاب على المخالف، وعناصر القصة هي:

-لقد أخبر الله الملائكة أنه سيخلق بشراً من التراب، فإذا خلقه وأحياه، فيجب عليكم أن تسجدوا له إكراماً وتحية، لا عبادة وتأليهاً.

- فامتثل الملائكة وسجدوا كلهم مجتمعين لآدم خضوعاً له وتعظيماً لله بتعظيمه إلا إبليس الذي كان من جنس الجن، فخانه طبعه وجبلته، فأنف من السجود لآدم، جهلاً بأن السجود له طاعة لله، والأنفة من طاعة الله استكباراً كفر، ولذلك كان من الكافرين باستكباره عن أمر الله تعالى.

-سأله ربه سؤال تقرير وتوبيخ عن سبب امتناعه من السجود لما خلق الله، أكان ذلك استكباراً عن السجود أم كان من المتكبرين على ربه، فتكبر لهذا؟

-أجاب إبليس بأنه خير من آدم؛ لأنه مخلوق من النار وآدم مخلوق من الطين، والنار في زعمه أشرف من الطين لما فيها من خاصية الارتفاع والاندفاع والتعالي. وهذا جهل منه؛ لأن الجواهر أو العناصر متجانسة متساوية، فقاس وأخطأ القياس.

- كان عقابه الإخراج من الجنة، والرجم بالكواكب والشهب، والطرد والإبعاد من رحمة الله إلى يوم القيامة؛ لأن اللعن منقطع حينئذ.

- أراد الملعون ألا يموت، فطلب تأخيره إلى يوم البعث، فلم يجبه الله إلى

ذلك، وإنما أخره إلى الوقت المعلوم، وهو يوم يموت الخلق فيه، فأخّر إليه استهانة به.

- لما أمن إبليس الهلاك طغى وتمرد وتحدى ربه، وأقسم بعزة الله أنه يضل بني آدم بتزيين الشهوات والمعاصي، وإدخال الشبه عليهم، ودعوتهم إلى المعاصي، وقد علم أنه لا يتمكن إلا من الوسوسة، ولا يفسد إلا من كان لا يصلح لو لم يوسوسه.

- لهذا استثنى من تسلطه عباد الله الذين أخلصهم لطاعته وعبادته وعصمهم منه.

- أقسم الله بذاته، وأخبر أنه لا يقول إلا الحق أنه سيملأ جهنم من إبليس وأتباعه، عقاباً على مخالفتهم أوامر الله، وإصرارهم على ارتكاب المعاصي.

حال الداعي وحال الدعوة ومعجزة القرآن

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾

الإعراب:

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ أصله: (لتعلمون) إلا أنه لما اتصلت به نون التوكيد الثقيلة أوجبت بناءه؛ لأنها أكدت الفعلية، فردته إلى أصله في البناء، فحذفت النون، فاجتمع ساكنان: الواو والنون، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين، وبقيت الضمة قبلها. والمعنى: لتعرفنَّ، لذا تعدى إلى مفعول واحد. واللام: لام قسم مقدر، أي والله لتعلمن.

المفردات اللغوية:

﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على تبليغ الرسالة والوحي والقرآن. ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ جُعْل

أو عوض. ﴿ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ المتقولين القرآن من تلقاء نفسي أو المتصنعين المتحلين بما ليسوا من أهله، فأنتحل النبوة والقول على الله. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ ما القرآن إلا عظة بليغة للإنس والجن والعقلاء، دون الملائكة.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ لتعرفن يا كفار مكة وغيركم خبر صدقه وعاقبة خبره وهو ما فيه من الوعد والوعيد، بإتيانه يوم القيامة، وذلك لمن آمن به ومن أعرض عنه.

المناسبة:

هذه خاتمة شريفة لهذه السورة، يتبين فيها حال الداعي وهو الرسول ﷺ وهو أنه لا يأخذ أجراً ومالاً على هذه الدعوة، ويظهر فيها كيفية الدعوة وهي أنها لا تقوّل فيها وإنما هي وحي من عند الله، ودين يشهد بصحته العقل، وتتحدد فيها مهمة القرآن بأنه عظة للعالمين، وستظهر معجزته ووعده ووعيده يوم القيامة.

التفسير والبيان:

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين من قومك: ما أطلب منكم من جُعْل أو مال تعطونيه على تبليغ رسالتي ووحي الله والنصح بالقرآن وغيره من الوحي، وما أنا من المتقوِّلين على الله، حتى أقول ما لا أعلم، أو أدعوكم إلى غير ما أمرني الله بالدعوة إليه. والتكلف: التصنع والتقول والاختلاق.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أي ما هذا القرآن، أو ما أدعوكم إليه إلا موعظة للخلق أجمعين، والعاقل من يشهد بصحته. و﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ الإنس والجن. ونحو الآية: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩/٦] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧/١١].

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ لتعرفن أيها الكفار خبره وصدقه، من الدعوة إلى الله وتوحيده، والترغيب في الجنة، والتحذير من النار، بعد زمان قريب، إما بعد الموت، وإما يوم القيامة. قال الحسن البصري: يابن آدم، عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - لم يطلب النبي ﷺ على تبليغ دعوته عوضاً مادياً، ولم ينشد تحقيق مكسب مالي أو مطمع دنيوي كالحكم والسلطة والجاه، وهذا دليل على صدقه في نبوته؛ لأن من الظاهر أن الكذاب لا بدّ من أن يظهر طمعه في طلب الدنيا، وكان ﷺ بعيداً عن الدنيا، عديم الرغبة فيها.

٢ً - لم يكن النبي ﷺ متكلفاً متقوّلاً ولا متخرّصاً ما لم يؤمر به من عند ربه، فهو مبلّغ وحي الله بأمانة متناهية دون زيادة ولا نقص. أخرج الشيخان في صحيحيهما عن عبد الله بن مسعود قال: يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

وأخرج ابن عدي عن أبي بَرْزة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأهل الجنة؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: هم الرحماء بينهم، قال: ألا أنبئكم بأهل النار؟ قلنا: بلى، قال: هم الآيسون القانطون الكذابون المتكلّفون».

٣ً - تتلخص دعوة النبي ﷺ في أصول ثمانية، هي الأصول المعتبرة في دين الله، ويشهد بصحتها كل ذي عقل سليم وطبع مستقيم وهي:

أولاً - الدعوة إلى الإقرار بوجود الله.

ثانياً - الدعوة إلى تنزيه الله وتقديسه عن كل ما لا يليق به: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ٤٢/١١].

ثالثاً - الإقرار بكونه تعالى موصوفاً بكمال العلم والقدرة والحكمة والرحمة.

رابعاً - الإقرار بكونه منزهاً عن الشركاء والأضداد.

خامساً - الامتناع عن عبادة الأوثان التي هي مجرد جمادات، ولا منفعة في عبادتها، ولا مضرة في الإعراض عنها.

سادساً - تعظيم الأرواح الطاهرة المقدسة، وهم الملائكة والأنبياء.

سابعاً - الإقرار بالبعث والقيامة ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٥٣/٣١].

ثامناً - الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة[١].

٤ - إن ما دعا إليه النبي ﷺ من الوعد والوعيد والإيمان بالقرآن هو عظة بليغة للعالمين، أي الجن والإنس.

وسيعلم الكفار نبأ الذكر وهو القرآن أنه حق وصدق بعد زمان قريب، إما بعد الموت وإما يوم القيامة.

---

(١) تفسير الرازي: ٢٦/٢٣٦

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الزمر

مكية، وهي خمس وسبعون آية

تسميتها:

سميت سورة (الزُّمَر) لأن الله تعالى ذكر في آخرها زمرة الكفار الأشقياء مع الإذلال والاحتقار [٧١-٧٢] وزمر المؤمنين السعداء مع الإجلال والإكرام [٧٣-٧٥].

مناسبتها لما قبلها:

تظهر صلة هذه السورة بما قبلها وهي سورة ﴿صٓ﴾ من وجهين:

الأول - أنه تعالى ختم سورة ﴿صٓ﴾ واصفاً القرآن بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧)﴾ وابتدأ هذه السورة بقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (١)﴾ فكأنه قيل: هذا الذكر تنزيل، فهما كالآية الواحدة، بينهما اتصال وتلاحم شديد.

الثاني - ذكر تعالى في آخر ﴿صٓ﴾ قصة خلق آدم عليه السلام، وذكر في القسم الأول من هذه السورة أحوال الخلق من المبدأ إلى المعاد، متصلاً بخلق آدم المذكور في السورة المتقدمة.

مشتملاتها:

موضوع هذه السورة الحديث عن التوحيد وأدلة وجود الله ووحدانيته، وعن الوحي والقرآن العظيم.

ابتدأت هذه السورة ببيان تنزيل القرآن الكريم من الله تعالى على رسوله ﷺ، وأمر الرسول ﷺ بإخلاص الدين لله، وتنزيه الله عن مشابهة المخلوقات، وتوضيح شبهة المشركين في اتّخاذ الأصنام آلهة شفعاء، وعبادتها وسيلة إلى الله تعالى، والنّعي عليهم في عبادة الأوثان.

وأردفت ذلك بإقامة الأدلة على وحدانية الله، من خلق السماوات والأرض، وتعاقب الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر، وخلق الإنسان في أطوار مختلفة متعاقبة، ثم نددت بطبيعة المشرك وتناقضه حين يدعو الله حال الضر، وينساه حال الرخاء. ثم عادت لإيراد بعض هذه الأدلة كإنزال المطر وإنبات النبات.

ثم ذكرت مقارنة بين المؤمنين وبين الكافرين، حيث يسعد الأوائل في الدنيا والآخرة، ويشقى الآخرون فيهما، ويتمنون الفداء حين يرون العذاب.

وأشادت بعظمة القرآن الكريم حيث تقشعر من آياته جلود المؤمنين الخائفين، ثم تلين جلودهم وقلوبهم لذكر الله، على عكس المشركين الذين تنقبض قلوبهم عند سماع توحيد الله، كما أن القرآن يتضمن أمثالاً للناس لعلهم يتذكرون.

ومن هذه الأمثال يتضح الفرق بين من يعبد إلهاً واحداً، وبين من يعبد آلهة متعددة لا تسمع ولا تجيب، كالعبد المملوك لسيد واحد، والمملوك لعدة شركاء متخاصمين فيه، ثم ردَّ تعالى على المشركين الذين يتخذون الأصنام شفعاء من دون الله، ولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون.

وأخبر الله تعالى عن موت النَّبي ﷺ وموت أصحابه، وأن الله هو المهيمن على الأرواح، فيتوفَّى بعضها في أجلها، ويترك بعضها إلى أجل آخر.

ثم فتح باب الأمل أمام المسرفين، ووعدهم بمغفرة ذنوبهم إذا تابوا، وأوضح ما يرى على وجوه الذين كذبوا على الله أهل النار يوم القيامة من كآبة وحزن.

وأعقب ذلك ببيان أحوال القيامة، وحدوث نفختين: الأولى للإماتة، والثانية للإحياء من القبور، ثم يأتي الحساب والقضاء بالحق، وإيفاء كل نفس ما عملت.

وختمت السورة بتقسيم الناس يوم القيامة فريقين: فريق الكافرين الذين يساقون زمراً وجماعات إلى جهنم، ويشاهدون من أهوال المحشر، وفريق المؤمنين الذين يساقون إلى الجنان وتحييهم الملائكة، ويشاهدون في الجنة النعيم المقيم الذي يستدعي الحمد التام لله رب العالمين، ويرون الملائكة حافين حول العرش يسبحون بحمد ربهم.

فضلها:

أخرج النسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان ﷺ يقرأ في كل ليلة: بني إسرائيل - أي الإسراء - والزُّمَر.

مصدر القرآن والأمر بالعبادة الخالصة للّه تعالى

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾

الإعراب:

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿تَنزِيلُ﴾: مبتدأ، و﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: خبره، ويجوز كونه خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هذا تنزيل. وقرئ (تنزيلَ) بالنصب، على إضمار فعل نحو اقرأ أو الزم.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وخبره محذوف، تقديره: يقولون: ما نعبدهم، ويجوز جعل الخبر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾. ويكون «يقولون» المحذوف حال في ضمير ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾ تقديره: والذين اتخذوا من دونه أولياء قائلين: ما نعبدهم. وجملة ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ في موضع نصب بـ «يقولون» المقدر؛ لأن الجمل تقع بعد القول محكية في موضع نصب.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ القرآن ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ القوي في ملكه ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في صنعه، يضع الأشياء في موضعها المناسب ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالحق متعلق بـ ﴿أَنزَلْنَآ﴾ أي متلبساً بالحق، قائماً عليه، أو بسبب

إثبات الحق وإظهاره وتفصيله ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ ممحضاً له الدين، خالياً من الشرك والرياء، أي موحداً الله.

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي لله وحده الدين صافياً نقياً، لا يستحقه غيره؛ لأنه المنفرد بصفات الألوهية والاطلاع على الأسرار والضمائر. ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي المتخذون من دون الله نصراء وهم كفار مكة الذين اتخذوا الأصنام آلهة. ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ يقولون: ما نعبدهم. ﴿زُلْفَىٰ﴾ قربى، مصدر بمعنى التقريب. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ وبين المسلمين. ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين، فيُدخل المؤمنين الجنة، والكافرين النار.

﴿لَا يَهْدِي﴾ لا يوفق للاهتداء إلى الحق. ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ في نسبة الولد إليه. ﴿كَفَّارٌ﴾ شديد الكفر بعبادته غير الله.

﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ كما قال المشركون: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾. ﴿لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ لاختار من خلقه ما يشاء غير ما قالوا: إن الملائكة بنات الله، وعزير ابن الله، والمسيح ابن الله. ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهاً له عن اتخاذ الولد. ﴿الْقَهَّارُ﴾ القاهر كل شيء من خلقه.

سبب النزول:

نزول الآية (٣):

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾: أخرج جويبر عن ابن عباس في هذه الآية قال: أنزلت في ثلاثة أحياء: عامر وكنانة وبني سلمة، كانوا يعبدون الأوثان، ويقولون: الملائكة بناته، فقالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى.

التفسير والبيان:

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ أي هذا الكتاب العظيم

وهو القرآن تنزيل من الله تعالى، العزيز الذي لا يغلب ولا يعجزه شيء، الحكيم في صنعه، يضع الأشياء في مواضعها المناسبة، فهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/١٩٢-١٩٥] وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ، لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٤١-٤٢].

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي إنا أنزلنا إليك يا محمد القرآن مقترناً بالحق، أي إن كل ما فيه حق، من إثبات التوحيد والنبوة والمعاد وأنواع التكاليف الشرعية، ولم ننزله باطلاً لغير شيء.

﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ فاعبد الله وحده لا شريك له وادع الخلق إلى ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا لله وحده، وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد. والإخلاص: أن يقصد العبد بعمله وجه الله سبحانه، ولا يقصد شيئاً آخر. والدين: العبادة والطاعة، ورأسها توحيد الله، واعتقاد أنه لا شريك له. ولهذا قال تعالى مؤكداً هذا المعنى:

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ﴾ أي ألا لله العبادة والطاعة الخالصة من شوائب الشرك والرياء وغيره. وأما ما سواه من الدين فليس بدين الله الخالص الذي أمر به، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له. وقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ﴾ يفيد الحصر، أي أن يثبت الحكم في المذكور، وينتفي عن غيره.

وإذا كان رأس العبادة الإخلاص لله، فطريق المشركين مذموم، كما قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ

زُلْفَىٰٓ﴾ أي وأما المشركون الذين والوا غير الله تعالى، وهي الأصنام التي عبدوها من دونه، فيقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله تقريباً، ويشفعوا لنا عنده في حوائجنا.

وهؤلاء عاقبتهم وخيمة كما قال تعال مهدداً لهم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي إن الله يحكم بين أهل الأديان يوم القيامة، ويفصل في خلافاتهم، ويجزي كل عامل بعمله، فيُدخل المخلصين الموحدين الجنة، ويُدخل المشركين النار.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي إن الله لا يرشد لدينه، ولا يوفق للاهتداء إلى الحق، من هو كاذب مُفْتَرٍ على الله، في زعمه أن لله ولداً، وأن الآلهة تشفع له وتقربه إلى الله، مُغالٍ في كفره باتخاذ الأصنام آلهة، وجعلها شركاء لله، من غير دليل عقلي ولا نقلي مقبول.

ثم ردَّ الله تعالى على زعمهم اتخاذ الله ولداً، فقال:

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي لو شاء الله اتخاذ ولد، وهو لا يحتاج لذلك، لاختار من جملة خلقه ما يشاء أن يختاره، ولكان الأمر على خلاف ما يزعمون، فيختار أكمل الأولاد وهم الأبناء، لا البنات كما زعموا؛ إذ لا موجود سواه إلا وهو مخلوق له، ولا يصح أن يكون المخلوق ولداً للخالق، فلم يبق إلا أن يختار ما يريد هو، لا ما يزعمون.

ثم نزَّه الله تعالى نفسه عن اتخاذ الولد، فقال:

﴿سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أي تنزه الله وتقدس عن أن يكون له ولد، فإنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي يفتقر إليه كل شيء، وهو الغني عما سواه، قهر الأشياء فدانت له وخضعت وذلت، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى الأحكام التالية:

١ً - إن القرآن العظيم تنزيل من رب العالمين، وكل ما فيه من إثبات التوحيد والنبوة والمعاد وأنواع التكاليف حق لا مرية فيه، وصدق يجب العمل به. والدليل على نزوله من عند الله: أن الفصحاء عجزوا عن معارضته، ولو لم يكن معجزاً؛ لأنه كلام الله الموحى به إلى رسوله ﷺ، لما عجزوا عن معارضته.

٢ً - العبادة والطاعة لا تكون إلا لله وحده، فلله الدين الخالص الذي لا يشوبه شيء. روى أبو هريرة رضي الله عنه: أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني أتصدق بالشيء، وأصنع الشيء، أريد به وجه الله، وثناء الناس، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسُ محمد بيده لا يقبل الله شيئاً شورك فيه» ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾. وروى ابن جرير عن أبي هريرة حديثاً قدسياً بلفظ: «من عمل عملاً أشرك فيه غيري، فهو له كله، وأنا أغنى الشركاء عن الشرك».

٣ً - قال ابن العربي عن آية: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾: هي دليل على وجوب النية في كل عمل، وأعظمُه الوضوء الذي هو شطر الإيمان، خلافاً لأبي حنيفة والوليد ابن مسلم عن مالك اللذين يقولان: إن الوضوء يكفي من غير نية، وما كان ليكون من الإيمان شطره، ولا ليخرج الخطايا من بين الأظافر والشعر، بغير نية[1].

٤ً - اعتمد المشركون في عبادتهم الأصنام واتخاذها شفعاء عند الله على وهم

(١) أحكام القرآن: ٤/ ١٦٤٤

لا يعتمد أصلاً على أساس مقبول من العقل والنقل؛ إذ كيف يعقل أن تكون الأصنام والجمادات وسيلة تقرب إلى الله؟ وكذلك لا يعقل أن تكون هذه الأصنام تماثيل الكواكب أو تماثيل الأرواح السماوية، أو تماثيل الأنبياء والصالحين الذين مضوا، ويكون المقصود من عبادتها توجيه تلك العبادات إلى من جعلت تماثيل لها؛ لأن هذه المخلوقات عاجزة عن جلب الخير لنفسها أو دفع الضر عنها، فكيف تحقق ذلك لغيرها؟!!.

ويلاحظ أن ظاهرة الشرك قديمة، وجاءت الرسل لتفنيدها وإبطالها والنهي عنها، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ١٦/٣٦] والطاغوت: كل ما عبد من دون الله من الأوثان وغيرها، وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٢٥].

٥ - أجاب الله تعالى عن شبهة المشركين مقتصراً في الجواب على مجرد التهديد، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي إن الله يحكم بين أهل الأديان يوم القيامة، فيجازي كلاً بما يستحق.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي إن الله لا يوفق للدين الذي ارتضاه، وهو دين الإسلام، ولا يرشد إلى الهداية من كذب على الله وافترى عليه، وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه.

٦ - أبان الله تعالى بعدئذ أنه لا ولد له كما يزعم جهلة المشركين في الملائكة، والمعاندون من اليهود والنصارى في العزير وعيسى، فلو أراد تعالى أن يسمي أحداً من خلقه بأنه ولد، ما جعله عز وجل إليهم، سبحانه، أي تنزه وتقدس ربنا عن الولد، فهو الله الواحد الأحد، القهار لكل شيء.

من أدلة التوحيد وكمال القدرة وكمال الاستغناء

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ۝٦ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾

القراءات:

﴿بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾: قرئ:

١- (بطونِ إِمِّهاتِكم) وهي قراءة حمزة.

٢- (بطونِ إِمَّهاتِكم) وهي قراءة الكسائي.

٣- (بطونِ أُمَّهاتِكم) وهي قراءة الباقين.

وأجمعوا على ضم الهمزة، وفتح الميم عند البدء بـ (أمهاتكم).

﴿يَرۡضَهُ﴾: قرئ:

١- (يرضَهُ) قرأ نافع وعاصم، وحمزة، بضم الهاء من غير صلة، وقرأ ابن كثير، وابن ذكوان، والكسائي، وخلف، وابن ذكوان بالضم مع الصلة.

٢- (يرضَهْ) وهي قراءة السوسي.

الإعراب:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ متعلق بـ ﴿خَلَقَ﴾.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾: مبتدأ، و﴿رَبُّكُمْ﴾: خبره، و﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾: خبر آخر، و﴿ٱلْمُلْكُ﴾: مرفوع بالجار والمجرور، وتقديره: ذلكم ربكم كائن له الملك. و﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيه وجهان: الرفع على أنه خبر آخر للمبتدأ، والنصب على أنه منصوب على الحال، وتقديره: منفرداً بالوحدانية.

البلاغة:

﴿تَكْفُرُواْ﴾ ﴿تَشْكُرُواْ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ يلقي هذا على هذا، والتكوير: اللف على الجسم المستدير، وهذا يدل على كروية الأرض، ومنه كوَّر المتاع والعمامة: ألقى بعضه على بعض ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ ذلل وطوع، وجعلهما منقادين له ﴿يَجْرِى﴾ في فلكه ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لوقت معين محدود هو يوم القيامة ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ القوي الغالب على كل شيء ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ لذنوب عباده إذا شاء وإذا تابوا. والآية دليل على وجود الله ووحدانيته وقدرته.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي آدم ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فيه ثلاث دلالات على وجود الله وتوحيده وقدرته: خلق آدم عليه السلام أولاً من غير أب وأم، ثم خلق حواء منه أو من جنسه، ثم شعّب الخلق منهما. و﴿ثُمَّ﴾ معطوف على محذوف تقديره: مثل خلقها، للدلالة على مباينتها لها في الفضل والمزية، فهو - كما قال الزمخشري - من التراخي في الحال والمنزلة، لا من

التراخي في الوجود[١] ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ وقضى لكم وقسم؛ لأن قضاياه وقسمه موصوفة بالنزول من السماء، حيث كتب في اللوح: كل كائن يكون. أو أحدث لكم بأسباب نازلة كأشعة الكواكب والأمطار ﴿ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ الإبل والبقر والغنم - الضأن والمعز ﴿ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أي جعل من كل صنف من الإبل والبقر والضأن والمعز ذكراً وأنثى. وهي جمع أزواج، والزوج: اسم لكل واحد معه غيره، فإن انفرد فهو فرد ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي بالتدرج من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام مكسوة لحماً ﴿فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ﴾ هي ظلمة البطن وظلمة الرحم، وظلمة المَشيمة أو الصلب ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي هذه أفعاله ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ هو المستحق للعبادة والمالك ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا يشاركه في الخلق غيره ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي يعدل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره.

﴿غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ عن إيمانكم ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ رحمة عليهم ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ لأنه سبب فلاحكم، أي وإن تشكروا الله فتؤمنوا يرض الشكر لكم ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ لا تتحمل نفس آثمة ذنب نفس أخرى ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمحاسبة والمجازاة ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بحديث النفس، فلا تخفى عليه خافية من أعمالكم.

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى في الآية المتقدمة كونه منزهاً عن الولد بكونه إلهاً واحداً قهاراً غالباً، أي كامل القدرة، أعقبه ببيان الأدلة الدالة على الوحدانية وكمال القدرة وكمال الاستغناء عن أحد من خلقه، فذكر ثلاثة أدلة: خلق

---

(١) يعني أن ﴿ثُمَّ﴾ كما تكون للترتيب في الزمن مع التراخي، تكون أيضاً لمطلق الترتيب. والمعطوف عليه هنا مقدر هو (خلقها).

السماوات والأرض وما فيهما من العوالم، وتذليل الشمس والقمر لقدرته، وتسييرهما في نظام ومسار دقيقين؛ وخلق الإنسان الأول وتشعيب الخلق منه، وخلق ثمانية أزواج من أنواع الأنعام ذكراً وأنثى، وفي كل دليل من هذه الأدلة أدلة ثلاثة أبينها بمشيئة الله هنا.

التفسير والبيان:

الدليل الأول وأقسامه من العالم العلوي:

أ - ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أبدع وأوجد العالم العلوي من السماوات والأرض إبداعاً قائماً على الحق والصواب، لأغراض ضرورية وحكم ومصالح، فلم يخلقهما باطلاً وعبثاً، وجعلهما في أبدع نظام، وهذا يدل على وجود الإله القادر، وعلى استحالة أن يكون له شريك أو صاحبة أو ولد، فهو واحد، كامل القدرة، كامل الاستغناء عن غيره.

ب - ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ أي يُغشي كلاً منهما الآخر، حتى يُذهب ضوءه أو ظلمته، أو يجعلهما متتابعين متعاقبين، يطلب كل منهما الآخر طلباً حثيثاً، كقوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٤] وقوله سبحانه: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٦] .

وهذا دليل على كروية الأرض أولاً؛ لأن التكوير: اللف على الجسم المستدير، وعلى دورانها حول نفسها ثانياً؛ لأن تعاقب الليل والنهار والنور والظلمة لا يتم دون دوران.

جـ - ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي وجعلهما منقادين لأمره بالطلوع والغروب لمنافع العباد ومصالحهم، وكل منهما يسير في فلكه إلى منتهى دورته، وإلى وقت معين محدود في علم الله، وهو

انتهاء الدنيا، ومجيء القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٤].

وذيَّل الآية بالدلالة على المراد وهو إثبات كمال القدرة الإلهية مع الترغيب في طلب المغفرة، فقال:

﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ ﴿أَلَآ﴾: تنبيه، أي تنبهوا، أي إن خلق هذا العالم العلوي وأجرامه العظيمة من غالب قادر على الانتقام ممن عاداه، ساتر لذنوب عباده بالمغفرة، ولا أحد مثله في ذلك، والجمع بين هاتين الصفتين للدلالة على أنه مع عزته وعظمته وكبريائه وكمال قدرته، هو غفار عظيم الرحمة والفضل والإحسان، يغفر لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه، فإن الإخبار عن كونه عظيم القدرة يوجب الخوف والرهبة، فأتبعه بوصف ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ الذي يوجب كثرة الرحمة، وكثرة الرحمة لا تعني الطمع من دون فعل، وإنما توجب الرجاء والرغبة في طلب المغفرة بالعبادة والإخلاص له.

والخلاصة: إن هذا التذييل للترغيب في العمل الموجب للمغفرة، بعد الترهيب الموجب للحذر.

ثم أتبعه بدليل آخر:

الدليل الثاني وأقسامه من العالم السفلي:

أ - ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي خلقكم أيها الناس على اختلاف أجناسكم وألسنتكم وألوانكم من نفس واحدة، هي آدم عليه السلام، ثم جعل من جنسها[1] زوجها، وهي حواء، ثم شعَّب الخلق منهما، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا

(١) وهذا رأي الرازي.

﴿زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ٤/ ١] وهذا الجزء من الدليل في عالم الأرض مشتمل كما هو واضح على أدلة ثلاثة. والمشهور في قوله: ﴿مِنْهَا﴾ أنه خلق حواء من ضلع آدم، ولم يخلق سبحانه أنثى من ضلع رجل غيرها.

ب - ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أي وقضى لكم وقسم وخلق وأعطاكم من ظهور الأنعام (وهي الإبل والبقر والضأن والمعز) ثمانية أزواج من كل صنف ذكراً وأنثى، كما قال تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٤٣]، ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٤٤] أي ذكر وأنثى لكل منها.

جـ - ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ أي يبتدئ خلقكم ويقدره في بطون أمهاتكم في مراحل متدرجة من الخلق، حيث يكون أحدكم أولاً نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم تتكون العظام، ثم تكسى العظام باللحم والعروق والأعصاب، ثم تنفخ فيه الروح، فيصير إنساناً خلقاً آخر في أحسن تقويم.

وتكون مراحل الخلق في ظلمات أغشية ثلاثة، هي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، والأغشية - كما يقول الأطباء -: هي الغشاء المنباري، والخربون، والغشاء اللفائفي.

ثم ذيَّل هذه الآية كالآية السابقة بما يشير إلى الهدف وهو الإيمان بالموجد الخالق المنشئ، فقال تعالى:

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي هذا الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما، وخلق الإنسان هو الرب المربي لكم، الذي له الملك الحقيقي المطلق في الدنيا والآخرة، الواحد الأحد الذي لا إله إلا هو، ولا يشاركه أحد فيه، فلا تنبغي العبادة إلا له، فكيف تصرفون عن عبادته، مع ما يوجب استحقاقه لها، إلى عبادة غيره؟ أو كيف تعبدون معه غيره، وكيف تتقبل عقولكم ذلك؟

ثم أبان الله تعالى أن ثمرة هذه العبادة لكم، والله غني على الإطلاق، فقال:

﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ أي إن تكفروا بالله بعد توافر أدلة وجوده وتوحيده وقدرته، فإن الله هو الغني عما سواه من المخلوقات، كما قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ١٤/٨].

وفي صحيح مسلم: «لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجِنّكم كانوا على أفجر قلبِ رجلٍ منكم، ما نَقَصَ ذلك من ملكي شيئاً».

وهذا هو الدليل الثالث على قدرة الله تعالى

ثم ذكر الله تعالى ما يأمر به ويرضاه وما ينهى عنه ولا يرضاه، فقال:

﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي لا يحب الله تعالى الكفر ولا يأمر به؛ لأنه مرتع الضلال والانحراف والذل لمعبودات لا ضرر منها ولا نفع فيها، وهو سبب الشقاوة في الدارين.

وإن تشكروا الله على نعمه، يرض لكم الشكر ويحبه ويزدكم من فضله؛ لأن الله عز وجل هو سبب السعادة في الدنيا والآخرة.

ثم أعلن الله تعالى مبدأ المسؤولية الفردية في الدنيا والآخرة الذي هو من مفاخر الإسلام فقال:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل نفس عن نفس شيئاً من الآثام والذنوب والجرائم، بل كل إنسان مطالب بأمر نفسه وعمله من خير أو شر. وقد وردت هذه الآية في القرآن الكريم خمس مرات. وهي كقوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٥٢/٢١] وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾ [المدثر: ٧٤/٣٨].

والجزاء على قدر العمل، فقال تعالى:

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي ثم مآلكم ومصيركم إلى ربكم يوم القيامة، فيخبركم بأعمالكم من خير وشر، إنه خبير بما تضمره القلوب وتستره أي مكنونات النفوس، فلا تخفى عليه خافية.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات الكريمات على الآتي:

١ - الأدلة على وجود الله وتوحيده وكمال قدرته واستغنائه عن الصاحبة والولد: هي خلق السماوات والأرض وما بينهما، وتعاقب الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر لمصالح العباد والمخلوقات، وخلق الإنسان في أصله أو باتخاذ الأسباب الظاهرية، وخلق ثمانية أزواج أو أصناف من الأنعام، من الإبل اثنين ومن البقر اثنين ومن المعز اثنين، كل واحد زوج، والأزواج ثمانية تشمل الذكر والأنثى.

٢ - دلَّ تكوير الليل على النهار، وتكوير النهار على الليل على كروية الأرض ودورانها حول نفسها.

٣ - ودلَّ تسخير الشمس والقمر بالطلوع والغروب لمنافع العباد، وجريانهما في فلكهما إلى يوم القيامة، على كمال قدرة الله ودقة نظامه ومراعاته مصالح العباد.

٤ - ينبه الله تعالى على أنه عزيز غالب، غفار ستَّار لذنوب خلقه برحمته، وفي هذا جمع بين الرهبة والرغبة، رهبة من الله عز وجل، ورغبة في إخلاص العبادة والطاعة لله تعالى.

٥ً - مراحل خلق الإنسان تحدث متعاقبة متدرجة من نطفة إلى علقة إلى مضغة، إلى عظم ثم لحم. ويبدأ تكون الإنسان في داخل ظلمات ثلاث: ظلمة البطن وظلمة الرحم، وظلمة المَشيمَة.

٦ً - إن الله الذي خلق هذه الأشياء هو ربكم مربيكم، وهو المالك الواحد الأحد، كما قال تعالى: ﴿رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

فكيف تنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟

٧ً - إذا كفر جميع الناس فلا يضرّون الله، والله هو الغني عنهم، لكن لا يرضى الله الكفر لعباده ولا يحب ذلك منهم، وإن شكروه رضي بالشكر وأمر به، ومصير جميع الخلائق إلى ربهم، فيخبرهم بما قدموا من خير أو شر.

والآية دليل على أن الإرادة غير الرضا، وهو مذهب أهل السنة، فقد يريد الله شيئاً، لكن لا يرضى به، فهو يريد كون ما لا يرضاه، وقد أراد الله عز وجل خلق إبليس، وهو لا يرضاه، والرضا: ترك اللوم والاعتراض، وليس هو الإرادة.

٨ً - من مفاخر الإسلام ومبادئه الكبرى تقرير مبدأ المسؤولية الشخصية: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وذلك يدفع إلى العمل، ويمنع الخمول والكسل، ويخلِّص الناس من فكرة النصارى بإرث الخطيئة، ويفتح باب الأمل لبناء الإنسان نفسه ومجده والاعتماد على نفسه، دون تأثر بأفعال الآخرين، وذلك غاية التكريم الإلهي للإنسان.

٩ً - دلَّ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ على إثبات البعث والقيامة، ودلَّ قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ على شمول علم الله بالكليات والجزئيات، وبالكبائر والصغائر، وبالفعل الحاصل والقول المقول، وبما يسبقه من نية وحديث نفس وعزم وهمّ وغير ذلك من مراحل تكوين الفعل والقول.

تناقض الكفار واستقامة المؤمنين

﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾

القراءات:

﴿لِّيُضِلَّ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (لِيَضِل).

﴿أَمَّنْ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وحمزة (أَمَنْ).

الإعراب:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ ﴿أَمَّنْ﴾ بالتشديد: بإدخال «أم» بمعنى بل والهمزة على «من» بمعنى الذي، وليس بمعنى الاستفهام؛ لأن «أم» للاستفهام، فلا يدخل على ما هو استفهام. وفي الكلام محذوف تقديره: العاصون ربهم خير أم من هو قانت، ودخل على هذا المحذوف أيضاً: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وقرئ بالتخفيف على أن تكون الهمزة للاستفهام بمعنى التنبيه، ويكون في الكلام محذوف تقديره: أمَنْ هو قانت يفعل كذا كمن هو على خلاف ذلك. ودخل على هذا المحذوف: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى﴾ أو أن تكون الهمزة للنداء، وتقديره: يا من هو قانت أبشر فإنك من أهل الجنة؛ لأن ما قبله يدل

عليه، وهو قوله تعالى﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾. و﴿وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ في موضع الحال، أو الاستئناف للتعليل.

البلاغة:

﴿وَيَرْجُواْ﴾ ﴿يَحْذَرُ﴾ بينهما طباق.

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾ أمر أريد به التهديد، مثل ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦/١٣٥] [ومواضع أخرى].

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ إيجاز بالحذف، أي كمن هو كافر.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي الكافر ﴿ضُرٌّ﴾ شدة ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾ تضرع ﴿مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ راجعاً إليه ﴿خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً﴾ أعطاه إنعاماً وملكه ﴿نَسِىَ﴾ ترك الضر ﴿مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ﴾ الذي يتضرع إلى كشفه ﴿إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ وهو الله، من قبل النعمة ﴿أَندَادًا﴾ شركاء، جمع ندّ ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ عن سبيل دين الإسلام، وقرئ ﴿لِيَضِلَّ﴾ كل من الضلال والإضلال نتيجة، وليسا غرضين.

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ بقية أجلك، وهو أمر تهديد، فيه إشعار بأن الكفر نوع تشهٍ لا سند له، وإقناط للكافر من التمتع في الآخرة، ولذلك علّله بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ هذا استئناف على سبيل المبالغة.

﴿قَٰنِتٌ﴾ طائع خاشع ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ ساعاته ﴿وَقَآئِمًا﴾ للصلاة ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ﴾ يخاف عذابها ﴿وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ أي جنته، وفي الكلام محذوف تقديره: كمن هو عاص بالكفر أو غيره ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ نفي لاستواء الفريقين، أي لا يستويان، وكما لا يستوي العالمون

والجاهلون لا يستوي القانتون والعاصون ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ يتعظ ﴿أُوْلُوا الْأَلْبَٰبِ﴾ أصحاب العقول.

سبب النزول:

نزول الآية (٩):

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾؟: أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر في قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ الآية، قال: نزلت في عثمان بن عفان، وأخرج ابن سعد عن ابن عباس قال: نزلت في عمار بن ياسر. وأخرج جويبر عن ابن عباس قال: نزلت في ابن مسعود وعمار بن ياسر وسالم مولى أبي حذيفة.

المناسبة:

بعد بيان فساد مذهب المشركين في عبادة الأصنام، وأنه لا دليل لهم على عبادتها، وبيان أن الله تعالى هو الذي يجب أن يعبد، وأن الله غني عما سواه من المخلوقات لا يفتقر إلى عبادتهم، ذكر الله تعالى هنا تناقض الكفار بالرجوع إلى الله وقت الشدة، وتركه وقت الرخاء. ثم أردفه ببيان مدى صلابة المؤمنين في دينهم، وتمسكهم بمبدئهم، فهم لا يرجعون إلا إلى الله، ولا يعتمدون إلا على فضل الله.

التفسير والبيان:

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ هذا موقف متناقض من الكفار، فإذا أصاب الكافر شدة من مرض أو فقر أو خوف، تضرع إلى ربه، راجعاً إليه تائباً، مستغيثاً به في تفريج كربته، وكشف ما نزل به، ثم إذا منحه نعمة أو أعطاه وملكه، وصار في حال رخاء ورفاهية، نسي ذلك الدعاء والتضرع، أو نسي ربه الذي كان يدعوه من قبل.

وجعل لله شركاء من الأصنام أو غيرها، يعبدها، ليصير وتكون نتيجته وعاقبته الضلال والإضلال، يضل بنفسه، ويضل الناس بعمله هذا ويمنعهم من توحيد الله والدخول في الإسلام، فسبيل الله: الإسلام والتوحيد، والأنداد الأوثان والأصنام، ولام ﴿لِّيُضِلَّ﴾ لام العاقبة.

والمعنى الأول (وهو أنه عند الحاجة يتضرع ويستغيث بالله) مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦٧] .

والمعنى الثاني (وهو أنه في حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع) مثل قوله تعالى:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٠/ ١٢] .

والمعنى الثالث (جعل الأنداد الشركاء لله) كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ [العاديات: ١٠٠/ ٦] .

لكل هذا هدّد الله وأوعد ذلك الكافر المتناقض على ما فعل، فقال:

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ قل أيها الرسول لمن هذه حالته وطريقته ومسلكه: استمتع أيها الإنسان بكفرك تمتعاً قليلاً أو زماناً قليلاً هو مدة أجلك، فمتاع الدنيا قليل، فإنك في الآخرة من أصحاب النار الخالدين فيها أبداً، ومصيرك إليها عن قريب، كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٠] وقوله سبحانه: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٤] .

ثم ذكر الله تعالى أحوال المؤمنين القانتين الذين لا يعتمدون دائماً إلا على ربهم، فقال:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ أي أذلك الكافر أحسن حالاً ومآلاً، أم المؤمن بالله، الذي هو مطيع خاشع يصلي لله في ساعات الليل، وخشوعه مستمر حال سجوده وحال قيامه، يخاف الآخرة، ويرجو رحمة ربه، فيجمع بين الخوف والرجاء، وتلك هي العبادة الكاملة، التي يفوز بها صاحبها؟! الجواب واضح. قال أبو حيان: وفي الآية دليل على فضل قيام الليل وأنه أرجح من قيام النهار.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي هل يستوي العلماء والجهال؟ إنما يتعظ بآيات الله ويتدبرها أهل العقول السليمة، لا الجهلاء، وإنما يعرف الفرق بين الصنفين العاقل، لا الجاهل.

لا يستوي الفريقان، فإن العالم الذي يدرك الحق ويعرف منهج الاستقامة، فيتبعه ويعمل به، لا يستوي أبداً مع الجاهل الذي يخبط خبط عشواء، ويسير في متاهة وضلال.

والمراد بالإتيان بهذه الآية لنفي استواء الفريقين بطريق الاستفهام: هو تأكيد نفي المساواة بين الفريقين الأولين: الكافر المتناقض والمؤمن المطيع الخاشع، فكما أنه لا يستوي العالم والجاهل، لا يستوي المؤمن والمشرك الذي جعل لله أنداداً ليضل عن سبيل الله، الأول في قمة الخير والعلم، والآخر في أسفل دركات الشر والجهل.

قال أبو حيان: دلت الآية على أن كمال الإنسان محصور في هذين المقصودين: العلم والعمل، فكما لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، كذلك لا يستوي المطيع والعاصي. والمراد بالعلم هنا: ما أدى إلى معرفة الله، ونجاة العبد من سخطه.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى وجود موقفين متعارضين بين الناس، فريق الكافرين وفريق المؤمنين.

أما الكافر: فهو متناقض، تراه يستغيث بالله راجعاً إليه مخبتاً مطيعاً له إذا أصابته شدة من مرض أو فقر أو خوف، لإزالة تلك الشدة عنه، فإن سلم ونجا وعوفي، وصار في حال اطمئنان واستقرار ورخاء ورفاهية، بفضل من الله وحده، نسي ربه الذي كان يدعوه من قبل في كشف الضر عنه.

ولا يقتصر أمره على مجرد النسيان والهجر أو الترك، وإنما يتجاوز ذلك إلى اعتقاد الشرك بالله، واتخاذ الأوثان والأصنام شركاء لله.

بل لا يقتصر في ذلك على أن يضل نفسه، بل يضل غيره بفعله أو قوله، ويدعوه إلى أن يشاركه في ذلك فيزداد إثماً على إثمه.

لهذا حق أن يُوجَّه له التهديد الشديد والوعيد الأكيد بأن يتمتع بكفره زمناً قليلاً، فإن مصيره في النهاية إلى النار.

وأما المؤمن: فهو سوي غير متناقض، مستقيم غير مضطرب، صلب في دينه غير متزعزع، يثبت في جميع أحواله على حال واحدة، من الإيمان الراسخ بالله، والاستقامة على أمر الله، فهو إذن ليس كالكافر الذي مضى ذكره.

تراه مصلياً خاشعاً لربه في جنح الظلام، والناس نيام، يناجي ربه، جامعاً بين الخوف والرجاء.

ثم أكد الله تعالى وجه الفرق بين المؤمن والكافر بالمقارنة بين العالم والجاهل، فكما لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، كذلك لا يستوي المطيع والعاصي. ثم إن الذين يعلمون هم الذين ينتفعون بعلمهم ويعملون به، فأما من لم ينتفع بعلمه ولم يعمل به، فهو بمنزلة من لم يعلم، وفي

هذا إشارة إلى أن الكافر أو المشرك أو العاصي جاهل وإن كان عالماً بعلوم الدنيا، فإنما يتذكر ويعتبر ويتعظ بهذه المقارنات أصحاب العقول من المؤمنين.

ويلاحظ الترتيب في تعداد أوصاف المؤمن، بدأ فيها بذكر العمل في وصفه بكونه قانتاً ساجداً قائماً، ثم ختمها بذكر العلم في قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصور في العمل والعلم، فالعمل هو البداية، والعلم هو النهاية.

ثم إنه تعالى نبَّه على أن الانتفاع بالعمل إنما يحصل بالمواظبة عليه، فإن القنوت عبارة عن كون الرجل قائماً دائماً بما يجب عليه من الطاعات.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ تنبيه عظيم على فضيلة العلم وفضل العلماء.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يدل على أن إدراك التفاوت بين العلماء والجهال ومعرفته لا يكون إلا من أولي الألباب، أي العقول السليمة.

قيل لبعض العلماء: إنكم تقولون: العلم أفضل من المال، ثم نرى العلماء يجتمعون عند أبواب الملوك، ولا نرى الملوك مجتمعين عند أبواب العلماء؟ فأجاب العالم بأن هذا أيضاً يدل على فضيلة العلم؛ لأن العلماء علموا ما في المال من المنافع فطلبوه، والجهال لم يعرفوا ما في العلم من المنافع، فلا جرم تركوه[١].

(١) تفسير الرازي: ٢٦/ ٢٥١

نصائح للمؤمنين في العبادة ووعدهم ووعيد عبدة الأصنام

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾

القراءات:

﴿إِنِّىٓ أُمِرْتُ﴾:

وقرأ نافع (إنيَ أُمرت).

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إنيَ أخاف).

الإعراب:

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ ﴿حَسَنَةٌ﴾: مبتدأ، وخبره:

الجار والمجرور قبله، و﴿فِي﴾ يتعلق بـ ﴿أَحْسَنُوا﴾ إذا أريد بالحسنة: الجنة، وبـ ﴿حَسَنَةٌ﴾ إذا أريد بالحسنة ما يعطى للعبد في الدنيا، مما يستحب فيها، والوجه الأول أوجه؛ لأن الدنيا ليست بدار جزاء.

﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤)﴾ ﴿اللَّهَ﴾: منصوب بـ ﴿أَعْبُدُ﴾ و﴿مُخْلِصًا﴾: حال من ضمير ﴿أَعْبُدُ﴾ أو من ضمير ﴿قُلِ﴾ و﴿دِينِي﴾ مفعول ﴿مُخْلِصًا﴾.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ ﴿أَن﴾: مصدرية في موضع نصب بدل من مفعول ﴿اجْتَنَبُوا﴾ تقديره: والذين اجتنبوا عبادة الطاغوت. و﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ ﴿لَهُمُ﴾: في موضع رفع خبر المبتدأ الذي هو ﴿وَالَّذِينَ﴾ و﴿الْبُشْرَىٰ﴾ مرفوع بـ﴿لَهُمُ﴾ لوقوعه خبراً للمبتدأ.

البلاغة:

﴿فَوْقِهَا﴾ و﴿تَحْتِهَا﴾ بينهما طباق.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ جناس اشتقاق.

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ﴾ أسلوب تهكمي؛ لأن إطلاق الظلة على النار المحرقة تهكم.

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ وضع فيه الظاهر موضع ضمير ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا﴾ للدلالة على مبدأ اجتنابهم والتمييز بين الحق والباطل.

﴿مَن فِي النَّارِ﴾ وضع فيه الظاهر موضع الضمير، للدلالة على أنه واقع في العذاب.

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ مقابلة بين حال أهل النار وحال أهل الجنة.

﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ مجاز مرسل، أطلق المسبب (دخول جهنم) وأراد السبب (الكفر والضلال)؛ لأن الضلال سبب لدخول النار.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ﴾ عذاب ربكم بلزوم طاعته. ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ﴾ أي للذين أحسنوا بالطاعات في الدنيا مثوبة حسنة في الآخرة، وقيل: حسنة في الدنيا هي الصحة والعافية. ﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ﴾ فمن تعسر عليه الإحسان بالطاعة في وطنه، فليهاجر إلى مكان يتمكن فيه من الطاعة وترك المنكرات ومخالطة الكفار. ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على مشاق الطاعة من احتمال البلاء ومهاجرة الأوطان لأجل الطاعة. ﴿أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ بغير مكيال ولا ميزان.

﴿مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي أعبده عبادة خالصة من الشرك والرياء، موحداً له. ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ﴾ بأن أكون. ﴿أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ من هذه الأمة. ﴿إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾ بترك الإخلاص والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك والرياء. ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ لعظمة ما فيه. ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤﴾ من الشرك، وهو أمر بالإخبار عن إخلاصه وأن يكون مخلصاً له دينه، بعد الأمر بالإخبار عن كونه مأموراً بالعبادة والإخلاص خائفاً على المخالفة من العقاب، قطعاً لأطماعهم، ولذا رتب عليه قوله:

﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ غيره، وهذا تهديد لهم. ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي الكاملين في الخسران الذين خسروا ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ بالضلال ﴿وَأَهۡلِيهِمۡ﴾ بالإضلال، ونوع الخسارة: التخليد في النار وعدم الوصول إلى الجنة. ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾ البيّن الواضح ﴿ظُلَلٞ﴾ طبقات من النار، جمع ظُلَّة. ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ﴾ ذلك العذاب هو الذي يخوف به عباده المؤمنين ليتقوه، بدليل نهاية الآية: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾.

﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾ البالغ غاية الطغيان، فهو مشتق من الطغيان للمبالغة، والتاء فيه مزيدة للتأكيد مثل رحموت وملكوت (واسع الرحمة والملك) والطاغوت: كل ما عبد من دون الله من الأوثان وغيرها .﴿أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ بدل اشتمال من الطاغوت .﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أقبلوا ورجعوا .﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾ بالجنة والثواب. ﴿هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ لدينه .﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أصحاب العقول.

﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾ ﴿حَقَّ﴾ ثبت ووجب، و﴿تُنقِذُ﴾ تخرج، والهمزة للإنكار، والكلام جملة شرطية معطوفة على محذوف، دلَّ عليه الكلام تقديره: أأنت مالك أمرهم، فمن حق عليه العذاب، فأنت تنقذه. والمعنى: لا تقدر على هدايته، فتنقذه من النار.

﴿ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ بأن أطاعوه .﴿غُرَفٞ﴾ جمع غرفة وهي الحجرة .﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ أي من تحت تلك الغرف .﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾ مصدر مؤكد، منصوب بفعله المقدر؛ لأن قوله: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ﴾ في معنى الوعد .﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ الوعد؛ لأن الخُلْف نقص، وهو على الله تعالى محال.

سبب النزول:

نزول الآية (١٧ - ١٨):

﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾: أخرج جويبر عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٍ﴾ الآية، أتى رجل من الأنصار النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن لي سبعة مماليك، وإني قد أعتقت لكل باب منها مملوكاً، فنزلت فيه الآية: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ، ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾.

نزول الآية (١٧):

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم أن هذه الآية نزلت في ثلاثة نفَر، كانوا في الجاهلية يقولون: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: زيد ابن عمرو بن نفيل، وأبي ذر الغفاري، وسلمان الفارسي.

المناسبة:

بعد نفي المساواة بين من يعلم وبين من لا يعلم، أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن ينصح المؤمنين بجملة نصائح تتضمن الأمر بالتقوى والاستمرار بالطاعة، والأمر بإخلاص الدين لله في العبادة، حتى تكون خالية من الشرك والرياء، والتحذير من خسارة النفس والأهل لئلا يَصْلَوْا نار جهنم، ثم ذكر الله تعالى تهديده ووعيده لعبدة الأصنام، وأردفه بوعد المبتعدين عن عبادتها وعن كل ألوان الشرك، ليقترن الوعد بالوعيد، والترهيب بالترغيب، كما هي عادة القرآن.

التفسير والبيان:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ قل أيها الرسول: يا عباد الله الذين آمنوا بالله رباً وبالإسلام ديناً، اتقوا عذاب ربكم باتباع أوامره واجتناب نواهيه، والاستمرار على طاعته وتقواه.

وعلة الأمر:

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في الدنيا وهي الصحة والعافية والظفر والغنيمة والعزة والسلطان، وفي الآخرة وهي الجنة والمثوبة الطيبة الجزيلة. وتنكير ﴿حَسَنَةٌ﴾ للتعظيم للدلالة على كمالها.

ثم رغبهم في الهجرة للتمكن من التقوى والطاعة، فقال:

﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ أي إذا لم تتمكنوا من التقوى في بلد، فهاجروا إلى حيث تمكن طاعة الله، والعمل بما أمر به، والترك لما نهى عنه، وجاهدوا، واعتزلوا الأوثان ومستنقعات الكفر، أسوة بالأنبياء والصالحين، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء: ٤/ ٩٧].

ثم ذكر أجرهم على الهجرة والصبر على مفارقة الأوطان، فقال:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي إنما يوفيهم الله أجرهم في الجنة في مقابلة صبرهم على الهجرة وترك الأوطان بغير حساب، أي بغير كيل ولا وزن، وبما لا يقدر على حصره وحسبانه حاصر وحاسب.

وهذا دليل على أن مجرد الإيمان بالقلب أو إعلان الإسلام دون تقوى ولا عمل بأوامر الله واجتناب نواهيه لا يكفي إطلاقاً.

ثم ضمَّ تعالى إلى الأمر بالتقوى الأمر بالإخلاص في العبادة والطاعة، فقال:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ أي إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده، إخلاصاً خالياً من الشرك والرياء وغير ذلك. وهذا وإن كان أمراً للرسول ﷺ، فهو لوم على عبادة الأوثان، من قبيل «إياك أعني واسمعي يا جارة».

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ أي وأمرت بأن أكون أول المسلمين من هذه الأمة في مخالفة دين الآباء الوثنيين، وتوحيد الله، وأول من انقاد لله تعالى من أهل العصر أو القوم؛ لأنه أول من خالف عبّاد الأصنام.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ أي قل لهؤلاء المشركين عبدة الأوثان: إني أخشى إن عصيت ربي بترك إخلاص العبادة له وتوحيده، وترك الدعوة المعادية للشرك وتضليل أهله عذاب يوم شديد الهول، وهو يوم القيامة. وهذا تعريض بهم بطريق الأولى والأحرى.

ثم أكد الأمر بالإخلاص في الطاعة للدلالة على أنه يعبد الله وحده، ولترسيخ المعنى في الأذهان، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾﴾ قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين مرة أخرى: أمرني ربي أن أعبده وحده لا شريك

له[١]، وأن يكون تعبُّدي خالصاً لله غير مشوب بشرك ولا رياء ولا غيرهما، فلا أعبد غيره، لا استقلالاً، ولا على جهة الشركة.

ثم هددهم وأوعدهم قائلاً:

﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ أي اعبدوا ما أردتم أن تعبدوه من غير الله، من الأوثان والأصنام، فسوف تجازون بعملكم، وهذا الأمر للتهديد والتقريع والتوبيخ والتبرؤ منهم.

ثم حذرهم من عاقبة الخسران يوم القيامة قائلاً:

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي قل لهم أيها الرسول: إنما الخاسرون كل الخسران هم الذين خسروا أنفسهم بالضلال والشرك والمعاصي، وخسروا أتباعهم من الأهل حيث أضلوهم وأوقعوهم في العذاب الدائم يوم القيامة، وهذا هو الخسران البيِّن الظاهر الواضح، فلا خسران أعظم منه؛ إذ لا مجال لتعويض الخسارة.

ثم وصف حالهم في النار لبيان نوع الخسران فقال:

﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾ أي لهم أطباق متراكمة من النار الملتهبة عليهم، من فوقهم ومن تحتهم، أي إن النار محيطة بهم من كل جانب، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٤١﴾ [الأعراف: ٤١/٧] وقوله: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٥٥﴾ [العنكبوت: ٢٩/٥٥].

وسمى ما تحتهم ظللاً؛ لأنها تظلل من تحتها من أهل النار؛ ففي كل طبقة من طبقات النار طائفة من طوائف الكفار.

---

(١) إن تقديم المفعول في الآية: ﴿ٱللَّهَ أَعۡبُدُ﴾ على الفعل يفيد القصر، أي لا أعبد أحداً غير الله.

﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ أي ذلك العذاب الشديد الذي يخبر به الله خبراً كائناً لا محالة ليرهب به عباده، لينزجروا عن المعاصي والمآثم والمحارم، فيا عبادي اخشوا بأسي وسطوتي، وعذابي ونقمتي. وهذا التحذير والتنبيه نعمة عظمى صادرة من فيض رحمة الله وفضله، حتى لا يفاجأ الناس بالعذاب، ومن أنذر فقد أعذر.

وبعد إيراد هذا الوعيد لعبدة الأصنام، ذكر الله تعالى وعده لمن اجتنب عبادتها، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ أي والذين أعرضوا عن عبادة الأصنام والشيطان، وأقبلوا على عبادة الله معرضين عما سواه، لهم البشارة العظمى بالثواب الجزيل، وهو الجنة، إما على ألسنة الرسل، أو حين الموت أو عند البعث. وهي بشارة شاملة لمن نزلت الآية في حقهم ولغيرهم ممن اجتنب عبادة الأوثان؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والآية كقوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ [يونس: ١٠/ ٦٤] .

والطاغوت[1]: يطلق على الواحد والجمع، ويشمل عبادة الأوثان والشيطان؛ لأن الشيطان هو الآمر بتلك العبادة والمزيّن لها، فهو سبب الكفر والعصيان.

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ، ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ أي بشر بالجنة أيها الرسول عبادي المؤمنين الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت، والذين يستمعون القول الحق، من كتاب الله وسنة رسوله، فيفهمونه، فيتبعون أحسن ما يؤمرون به، فيعملون بما فيه، كما قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٥] .

(١) وقرئ: الطواغيت.

وهذا مدح لهم بأنهم نُقَّاد في الدين يميزون بين الحسن والأحسن، والفاضل والأفضل.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي هؤلاء المتصفون بهذه الصفة هم الذين وفقهم للصواب في الدنيا والآخرة، وهم ذوو العقول الصحيحة والفطر المستقيمة.

ثم بيَّن تعالى أضداد المذكورين قائلاً:

﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾ أي أأنت مالك أمر الناس، فمن وجب عليه العذاب لإعراضه وعناده، فأنت تخلصه من النار؟ والمعنى: إنك لا تقدر على هدايته، فتنقذه من عذاب النار. والآية مواساة وإيناس لرسول الله ﷺ؛ لأنه كان حريصاً على إيمان قومه، فأعلمه الله أن من كان من أهل الضلالة والهلاك، لا تستطيع هدايته.

ثم أعاد الله تعالى الإخبار عن جزاء المتقين السعداء للحض على التقوى، فقال:

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾ أي لكن أولئك الذين اتقوا عذاب ربهم بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، لهم في الجنة غرف مبنية محكمة البناء، وهي القصور الشاهقة ذات الطبقات المزخرفات العالية؛ لأن الجنة درجات بعضها فوق بعض، والنار دركات بعضها تحت بعض، والجنة تجري فيها من تحت تلك الغرف أنهار عذبة الماء، وفي ذلك كمال بهجتها وزيادة رونقها، ثم أكد تعالى حسن هذا الجزاء، فأخبر أنه وعد من الله وعده للمتقين المؤمنين، ووعد الله حق ثابت، لا ينقض ولا يخلف.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - أمر الله المؤمنين بأن يضموا إلى الإيمان التقوى: وهي امتثال المأمورات واجتناب المنهيات، مما يدل على أن الإيمان وحده لا يكفي، كما يدل على أن الإيمان يبقى مع المعصية.

٢ - للتقوى فوائد جُلّى، فللمتقين حسنة في الدنيا من صحة وعافية ونصر وسلطان وجاه وغنى، وحسنة في الآخرة بالثواب الجزيل والعطاء الكثير الدائم.

٣ - لا عذر للمقصرين في الإحسان والطاعة، فمن صدَّ عن طاعة الله في بلد، فعليه المهاجرة إلى بلد آخر يتمكن فيه من الاشتغال بالطاعات والعبادات، اقتداءً بالأنبياء والصالحين في هجرتهم إلى غير بلادهم، ليزدادوا إحساناً إلى إحسانهم وطاعة إلى طاعتهم.

والمقصود من الآية ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ الترغيب في الهجرة من مكة حيث كانت واجبة في صدر الإسلام، والصبر على مفارقة الأوطان.

٤ - الصبر: هو الرضا بمفارقة الأوطان والأهل، واحتمال البلايا وفجائع الدنيا في طاعة الله تعالى. وثواب الصبر مفتوح غير مقيد بحدود، فكل من رضي بما أصابه، وترك ما نهي عنه، فلا مقدار لأجره. وهذا يشابه ثواب الصوم، لقوله ﷺ عن ربه فيما رواه مسلم عن أبي هريرة: «الصوم لي وأنا أجزي به».

عن الحسين رضي الله عنه قال: سمعت جدي رسول الله ﷺ يقول: «أدّ الفرائض تكن من أعبد الناس، وعليك بالقنوع تكن من أغنى الناس، يا بني إن في الجنة شجرة يقال لها: شجرة البلوى، يؤتى بأهل البلاء، فلا ينصب لهم ميزان، ولا ينشر لهم ديوان، يصبّ عليهم الأجر صبّاً» ثم تلا النبي ﷺ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

قال النحاس: لفظ صابر يمدح به، وإنما هو لمن صبر عن المعاصي، وإذا أردت أنه صبر على المصيبة قلت: صابر على كذا.

ثم إن الأجر على الصبر إنما هو بحسب الوعد من الله، لا بحسب الاستحقاق.

٥ - أمر الله تعالى رسوله ﷺ مرتين في هذه الآيات للتأكيد بإخلاص العبادة والطاعة لله وحده لا شريك له، دون أن تكون مشوبة بشائبة الشرك أو الرياء أو غير ذلك. وأمة الرسول ﷺ من بعده مأمورة بذلك؛ لأن أمر الرسول ﷺ أمر للأمة، والبدء به تعليم وإرشاد وجعله قدوة لأمته.

كذلك أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يكون أول المسلمين من هذه الأمة، وكان ذلك فعلاً، فإنه كان أول من خالف دين آبائه، وخلع الأصنام وحطمها، وأسلم لله وآمن به، ودعا إلى ذلك.

وأمر الرسول ﷺ أيضاً بأن يخاف عذاب يوم القيامة.

وكل هذه الأوامر تعريض بالمشركين وتعليم وإرشاد للمؤمنين.

٦ - قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ ليس إباحة ولا إذناً وإقراراً لعبادتهم الأصنام، وإنما هو أمر تهديد ووعيد وتقريع، كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤١/ ٤٠] وقوله: ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٣٥].

٧ - إن الخسارة الكبرى التي لا تعوض للمشركين والكافرين هي خسارة النفس والأهل يوم القيامة بسبب الضلال عن الدين الحق، والإضلال للأتباع عن دين الله. قال ابن عباس: ليس من أحد إلا وخلق الله له زوجة في الجنة، فإذا دخل النار خسر نفسه وأهله. ومن عمل بطاعة الله، كان له ذلك المنزل والأهل إلا ما كان له قبل ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١٠].

٨ً - للكفار عذاب يحيط بهم من كل جانب في نار جهنم يوم القيامة. وهو عذاب شديد، لذا خوَّف الله به عباده المؤمنين وأولياءه المتقين، فيا أولياء الله، اتقوا الله ربَّكم من هذا العذاب، بإخلاص التوحيد والطاعة. وهذا وعيد شديد لعبدة الأصنام.

٩ً - وعد الله بالجنة المؤمنين الذين اجتنبوا عبادة الأوثان والشيطان الذي زين لهم تلك العبادة، والذين أنابوا إلى الله، أي رجعوا بالكلية إلى عبادته وطاعته.

وهؤلاء فعلاً هم الذين انتفعوا بعقولهم، وهم الذين ميَّزوا بين الحق والباطل، وبين الحسن والقبيح، ففهموا أوامر الله، واتبعوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

١٠ً- الهداية بيد الله تعالى وحده، لذا خاطب الله رسوله ﷺ مسلياً له: أفأنت تنقذ من النار من حقت عليه كلمة العذاب؟ ويلاحظ أن الهداية والضلال من خلق الله تعالى وإيجاده، كخلق جميع أعمال الإنسان، أما تحصيلهما واكتسابهما واختيارهما فمن العبد، قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٨/١٧] .

١١ً - لما بيّن الله تعالى أن للكفار ظللاً من النار من فوقهم ومن تحتهم، بيَّن أن للمتقين غرفاً فوقها غرف، أي علالٍ مرتفعة فوقها علالي مبنية كبناء منازل الأرض؛ لأن للجنة درجات يعلو بعضها بعضاً، وللنار دركات بعضها أسفل من بعض.

والجنة مزدانة بأبهى أنواع الجمال، فهي تجري من تحت غرفها الأنهار، أي هي جامعة لأسباب النزهة، وقد وعد الله بها عباده الأتقياء وعداً محققاً كائناً لا شك فيه، كما أوعد الكافرين بالنار، وإن الله لا يخلف الميعاد الذي وعد به الفريقين.

حال الدنيا

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾

الإعراب:

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ ﴿يَجْعَلُهُ﴾: فعل مضارع مرفوع، وقرئ بالنصب، وهي قراءة ضعيفة.

المفردات اللغوية:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعلم ﴿مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ من السحاب مطراً﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ﴾ أدخله عيوناً وأمكنة نبع، والينابيع: جمع ينبوع: وهو عين الماء ﴿يَهِيجُ﴾ ييبس ويجف ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ تشاهده بعد الخضرة مثلاً مصفراً ﴿أَلْوَانُهُ﴾ أنواعه وأصنافه ﴿حُطَامًا﴾ فُتاتاً مكسراً ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ تذكيراً بأنه لا بدَّ من صانع حكيم دبره وسوّاه ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لأصحاب العقول، فهم لا غيرهم الذين يتذكرون به للدلالة على وحدانية الله تعالى وقدرته.

المناسبة:

بعد أن وصف الله تعالى الآخرة بصفات تقتضي الرغبة فيها، وفي طاعة الله، وصف الدنيا بصفة تستوجب النفرة منها، وهي قصر مدتها وسرعة زوالها. وإنما قدم وصف الآخرة؛ لأن الترغيب في الآخرة مقصود بالذات، والتنفير عن الدنيا مقصود عرضاً.

التفسير والبيان:

ألم تشاهد أيها الرسول وكل مخاطب أن الله أنزل من السحاب مطراً،

فأدخله وأسكنه في الأرض، ثم أخرج منها عيوناً متدفقة بالماء، ثم تسقى به الأرض، فيُخرج بذلك الماء من الأرض زرعاً مختلفاً أنواعه، كَ (بُرٍّ وشعير وخضار) وغيرها، ومختلفاً ألوانه، من أصفر وأخضر وأبيض وأحمر وغيرها من الألوان البديعة الأخاذة.

ثم ييبس ويجف، فتراه مصفراً بعد خضرته ونضارته، ثم يصير متفتتاً متكسراً، وإنّ فيما تقدم ذكره من إنزال المطر وإخراج الزرع به موعظة ينتفع بها أهل العقول الصحيحة، وتذكرة وتنبيهاً على حكمة فاعل ذلك وقدرته.

فهؤلاء يعلمون بأن حال الحياة الدنيا كحال هذا الزرع في سرعة الزوال والانقطاع، وذهاب بهجتها، وتلاشي رونقها ونضارتها، ولم يبق لديهم شك في أن الله قادر على البعث والحشر.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٥] .

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه الآية تدل على قدرة الله في إحياء الخلق، والتمييز بين المؤمن والكافر، فهو قادر على ذلك، كما أنه قادر على إنزال الماء من السماء، أي إنزال المطر من السحاب.

وهي أيضاً ترغب في الآخرة لخلودها، وتنفر من الدنيا لتوقيتها وقصر مدتها وسرعة زوالها وانقضائها.

فهذه الدنيا الفانية متاعها زائل، وزخرفها باهت، وهي متحولة متغيرة لا تبقى على حال واحدة، ونهايتها محتومة، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٢٦-٢٧] وقال سبحانه: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٢٨/ ٨٨] .

والخلاصة: إن الآية مَثَل لحال الدنيا، يتعظ بها كل ذي عقل سليم، بعيد النظر، عميق الفكر والتأمل، ينظر إلى المستقبل الحتمي نظرة اليقظ الحَذِر، المستعدّ العامل.

الهداية للإسلام

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

القراءات:

﴿وَقِيلَ﴾:

بإشمام كسرة القاف الضم قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

الإعراب:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا﴾ كتاباً بدل من أحسن.

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الواو للحال، وقد: مقدّرة.

البلاغة:

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾؟ إيجاز بالحذف لدلالة السياق عليه

لحذف خبره وتقديره: كمن طبع الله على قلبه؟ ومثله: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ﴾ وجوابه كمن أمن منه بدخول الجنة.

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي وقيل لهم، وضع الظاهر موضع الضمير تسجيلاً للظلم عليهم وإشعاراً بما يوجب القول لهم، وهو: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

﴿يَهْدِى﴾ و﴿يُضْلِلِ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿شَرَحَ﴾ فتح وبسط، والمراد: خلق نفسه شديدة الاستعداد لقبول الإسلام ﴿صَدْرَهُۥ﴾ أي قلبه، فاهتدى، من حيث إن الصدر محل القلب منبع الروح المتعلق بالنفس القابلة للإسلام، وجواب الاستفهام محذوف تقديره: كمن طبع الله على قلبه، بدليل ما بعده وهو: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ ويل: كلمة عذاب، والقاسية قلوبهم: المعرضة عن قبول القرآن، والقسوة: جمود القلب وصلابته. وقوله المتقدم: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يعني نور المعرفة والاهتداء إلى الحق، والنور: البصيرة والهدى، قال ﷺ: «إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح» وسيأتي الحديث بتمامه ﴿مُّبِينٍ﴾ بيّن واضح.

﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ أي القرآن ﴿كِتَٰبًا﴾ قرآناً ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ في النظم والمعنى، أي يشبه بعضه بعضاً في الإعجاز، وحسن النظم، والدقة، وصحة المعنى والإحكام ﴿مَّثَانِىَ﴾ جمع مثنى، من التثنية: التكرار، أي ثنى فيه الوعد والوعيد وغيرهما ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ﴾ تضطرب وتتحرك وترتعد خوفاً عند ذكر وعيده ﴿يَخْشَوْنَ﴾ يخافون ﴿تَلِينُ﴾ تطمئن وتسكن ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ عند ذكر وعده ﴿ذَٰلِكَ﴾ الكتاب ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ هدايته ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ ومن يخذله ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يخرجه من الضلالة.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ يجعله دَرَقة (ترساً) يقي به نفسه أشد العذاب، بأن يُلْقى في النار مغلولة يداه إلى عنقه، والجواب محذوف تقديره: كمن أمن منه بدخول الجنة ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ كفار مكة وأمثالهم ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي ذوقوا وباله وجزاءه.

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي كذبوا رسلهم في إتيان العذاب ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من الجهة التي لا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها ﴿ٱلْخِزْىَ﴾ الذل والهوان ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كالقتل والسبي والإجلاء والخسف والمسخ ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ لو كان المكذبون يعلمون عذاب الآخرة ما كذبوا.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٣):

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ﴾: روى الحاكم وغيره عن سعد بن أبي وقاص قال: نزل على النبي ﷺ القرآن، فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو حدثتنا؟ فنزل﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾. وعن ابن عباس: أن قوماً من الصحابة قالوا: يا رسول الله، حَدّثنا بأحاديث حسان وبأخبار الدهر، فنزل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾

المناسبة:

بعد أن بيّن الله تعالى ما يوجب الإقبال على الآخرة بطاعة الله تعالى، وما يوجب الإعراض عن الدنيا، أوضح أن الانتفاع بهذه البيانات لا يكمل إلا إذا شرح الله الصدور ونوَّر القلوب، ثم أوضح أن من أضله الله فلا هادي له، وأن من يلقى في النار ليس كمن آمن وأمن، فدخل الجنة، وأن مكذبي الرسل لهم عذاب شديد في الدنيا والآخرة.

التفسير والبيان:

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ أي أفمن وسّع الله صدره للإسلام، فقبله واهتدى بهديه، فهو بسبب هذه الهداية على بصيرة ونور من ربه يفيض عليه، أي نور المعرفة والاهتداء إلى الحق، كمن قسا قلبه لسوء اختياره وغفلته وجهالته، فصار في ظلمات الضلالة وبليّات الجهالة؟!

والمعنى: أنه لا يستوي المهتدي المهدي الموفق للإسلام والحق ومن هو قاسي القلب، البعيد عن الحق، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٢] وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٥] .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: قلنا: يا رسول الله، قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ كيف انشرح صدره؟ قال: «إذا دخل النور القلب انشرح وانفتح، قلنا: يا رسول الله، وما علامة ذلك؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله».

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن ابن عمر: أن رجلاً قال: يا رسول الله، أي المؤمنين أكيس؟ قال: «أكثرُهم للموت ذكراً، وأحسنهم له استعداداً، وإذا دخل النور في القلب انفسح واستوسع، قالوا: فما آية ذلك يا نبي الله؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت».

ثم ذكر عقاب قساة القلوب للدلالة على الكلام المحذوف الذي قدر، فقال:

﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ أي فالعذاب

الشديد لمن لا تلين قلوبهم عند ذكر الله، ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم، أولئك قساة القلوب في ضلال واضح عن الحق، وغَواية ظاهرة لكل الناس.

أخرج الترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُكْثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي».

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: اطلبوا الحوائج من السُّمَحاء، فإني جعلت فيهم رحمتي، ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم، فإني جعلت فيهم سخطي».

وقال مالك بن دينار: ما ضُرب عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة قلب، وما غضب الله على قوم إلا نزع الرحمة من قلوبهم.

ثم وصف الله القرآن الذي يشرح الصدر، فقال:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي الله[1] نزل أحسن الأحاديث وهو القرآن، لما فيه من الخيرات والبركات والمنافع العامة والخاصة، وهو كتاب يشبه بعضه بعضاً في جمال النظم وحسن الإحكام والإعجاز، وصحة المعاني، وقوة المباني، وبلوغه أعلى درجات البلاغة، وتثنى فيه القصص وتردد، وتتكرر فيه المواعظ والأحكام من أوامر ونواه ووعد ووعيد، ويثنى في التلاوة فلا يملّ سامعه، ولا يسأم قارئه.

إذا ذُكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله، كما قال الزجاج،

---

(١) الابتداء باسم الله وإسناد ضمير ﴿نَزَّلَ﴾ إليه: فيه تفخيم للمنزَّل ورفع منه، كما تقول: الملك أكرم فلاناً.

وتضطرب النفس وترتعد بالخوف مما فيه من الوعيد. ثم تسكن وتطمئن الجلود والقلوب عند سماع آيات الرحمة، قال قتادة: هذا نعت أولياء الله، نعتهم بأنها تقشعر جلودهم، ثم تطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما ذلك في أهل البدع، وهو من الشيطان.

عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: كان أصحاب النبي ﷺ إذا قرئ عليهم القرآن، كما نعتهم الله، تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم. قيل لها: فإن أناساً اليوم إذا قرئ عليهم القرآن، خرّ أحدهم مغشياً عليه، فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي ذلك الكتاب أو القرآن هو هداية الله يهدي به من يشاء هدايته ويوفقه للإيمان، وهذه صفة من هداه الله، ومن كان على خلاف ذلك، فهو ممن أضله الله.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي من يخذله الله عن الإيمان بالقرآن من الفساق والفجرة، فلا مرشد له.

ثم أبان الله تعالى سبب التفرقة بين المهتدي والضال، فقال:

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ هذا مثل قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤١/ ٤٠]. والمعنى: أمن يتقحم نار جهنم، فلا يجد ما يتقي به سوى وجهه، ليتقي العذاب الشديد يوم القيامة، كمن هو آمن لا يعتريه شيء من المخاوف أو المكروه، ولا يحتاج إلى اتقاء المخاوف، بل هو سالم من كل سوء، مطمئن في جنة الله؟! أي لا يستوي هذا وذاك، كما قال عز وجل: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٦٧/ ٢٢].

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: وحين يقال للكافرين:

ذوقوا جزاء كسبكم من المعاصي في الدنيا، كقوله تعالى ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ٣٥].

ثم ذكر تعالى عذاب مكذبي الرسل من الأمم الماضية في الدنيا، فقال: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦)﴾ أي إن بعض الأمم الماضية الذين كذبوا الرسل، أهلكهم الله بذنوبهم، وأتاهم العذاب من جهة لا يترقبون إتيان العذاب منها، وذلك عند أمنهم وغفلتهم، فأذاقهم الله الذل والهوان بما أنزل بهم من العذاب والنكال، كالخسف والمسخ والقتل والسبي والأسر وغير ذلك.

ثم إن عذاب الآخرة أشد وأنكى وأعظم مما أصابهم في الدنيا، لكونه في غاية الشدة والدوام، لو كانوا ممن يعلم ويتفكر ويعمل بمقتضى علمه.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - لا يستوي المهتدي الذي شرح الله صدره للإسلام، فهو على هدى من ربه، ومن طبع على قلبه وحرم الهداية، فالويل ثم الويل لقساة القلوب المعرضين عن ذكر الله، فهم في ضلال واضح.

٢ - القرآن الكريم هو أحسن الحديث، أي إن أحسن ما يسمع هو ما أنزله الله وهو القرآن، وهذه هي الصفة الأولى للقرآن.

ومن خصائصه وصفاته: أنه متشابه بعضه مع بعض في الحسن والحكمة والإحكام أي في النظم والمعنى، ويصدق بعضه بعضاً، ليس فيه تناقض ولا اختلاف. وأنه مثاني أي تثنى فيه القصص والمواعظ والأحكام، وتثنى تلاوته فلا يملّ منه، وأنه يجمع بين الترهيب والترغيب، فالنفس المؤمنة به تضطرب

وتخاف مما فيه من الوعيد، ثم تطمئن وتسكن عند سماع آيات الرحمة. وأنه هدى الله الذي يهدي به من يشاء هدايته، وأما من يضله ويخذله من الفساق والفجار المعرضين عنه، فلا مرشد له. فهذه صفات خمس للقرآن المجيد.

٣ً - لا يستوي عقلاً وعدلاً وواقعاً رجلان: أحدهما يرمى به مكتوفاً في النار، فأول شيء تمس منه النار وجهه، ومن هو آمن من العذاب لا يتعرض لشيء من المكروه والمخاوف. ويقال للظالمين الكافرين تبكيتاً وتوبيخاً: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

٤ً - إن عقاب الأمم الماضية المكذبة بالرسل نوعان: عقاب في الدنيا بالمسخ والخسف والزلزلة والصيحة والريح الصرصر والغرق والقتل والأسر والتشريد والذل والهوان ونحو ذلك، مما أتاهم من جهة لا يحتسبون إتيان العذاب منها، وعقاب آخر أشد وأنكى وأكبر وأعظم مما أصابهم في الدنيا، لو علموا به وتفكروا وتأملوا، وعملوا بمقتضى علمهم.

والمقصود من كل ذلك التخويف والترهيب.

عربية القرآن وضرب الأمثال فيه

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾، ﴿قُرْءَانًا﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (القران، قراناً).

﴿سَلَمًا﴾:

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (سَالِماً).

الإعراب:

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ ﴿قُرْءَانًا﴾: توطئة للحال أو حال مؤكدة، و﴿عَرَبِيًّا﴾: حال من القرآن.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا﴾ بدل من ﴿مَثَلًا﴾ تقديره: ضرب الله مثلاً مَثَل رجل، فحذف المضاف.

و ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ مرفوع بالظرف على المذهبين: البصري والكوفي؛ لأن الظرف وقع صفة لقوله: ﴿رَّجُلًا﴾. و﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ معطوف على قوله: ﴿رَّجُلًا﴾ الأول، أي مثل رجل سالم.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ تمييز.

المفردات اللغوية:

﴿ضَرَبْنَا﴾ جعلنا ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتاج إليه الناظر في أمر دينه ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ لا اختلال فيه بوجه من الوجوه، ولا لَبْس ولا اختلاف ﴿يَتَّقُونَ﴾ الكفر.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ للمشرك والموحد، وضرب المثل: تشبيه حال غريبة بحال أخرى مثلها ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾ متنازعون مختلفون لسوء أخلاقهم وطباعهم ﴿سَلَمًا﴾ سالماً خالصاً ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي لا يستوي العبد المملوك لجماعة، والعبد لواحد، فإن الأول يحتار فيمن يخدم من سادته إذا طلبوه وهو مثل للمشرك، والثاني مثل للموحد.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كل الحمد له وحده، لا يشاركه فيه على الحقيقة سواه؛ لأنه المنعم بالذات والمالك على الإطلاق ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أكثر أهل مكة والكفار لا يعلمون ما ينتظرهم من العذاب، فيشركون بالله غيره؛ لفرط جهلهم.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ إنك يا محمد ميت، والكل سواء في الموت، ستموت ويموتون، فلا شماتة بالموت. نزلت الآية لما استبطؤوا موته ﷺ. والميِّت (بالتشديد) من سيموت، والميْت (بالتخفيف) من مات ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ أيها الناس، فيه تغليب المخاطب على الغائب ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾ تحتكمون للقضاء فيما حدث بينكم من المظالم.

المناسبة:

بعد بيان صفات القرآن الخمس المتقدمة والتي على رأسها أنه ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ ذكر تعالى خواصَ أخرى للقرآن: هي أنه يضرب فيه الأمثال للناس تخويفاً وتحذيراً، وأنه قرآن متلو إلى يوم القيامة، وأنه عربي اللسان، وغير ذي عوج، أي بريء من التناقض.

ثم ذكر فيه مثلاً عجيباً للمؤمن الموحد والمشرك، يدل على فساد مذهب المشركين، بعد أن أفاض تعالى في شرح وعيد الكفار في هذه السورة.

التفسير والبيان:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي لقد بيَّنا للناس المطلوب فيه بضرب الأمثال. من كل مثل يحتاجون إليه في أمر دينهم، ومن أمثال القرون الخالية تخويفاً لهم وتحذيراً، والمثل يقرِّب المعنى إلى الذهن، لعلهم يتعظون، فيعتبرون. قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا

﴿ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/٤٣] . والخلاصة: إن الحكمة في ضرب الأمثال للناس هي أن تكون عظة وذكرى لهم ليتقوا ربهم، ويرتدعوا عن غيهم.

ووصف القرآن بصفات ثلاث: هي كونه قرآناً أي كونه متلواً في المحاريب إلى قيام القيامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ١٥/٩] . وكونه عربياً بلسان عربي مبين، أي أعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته، كما قال سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٨٨] . وكونه غير ذي عوج، أي براءته من التناقض، كما قال تعالى﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٤/٨٢] . وذلك لعلهم يتقون ما حذرناهم منه من بأس الله وسطوته.

وإنما قدم ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ على ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لأن التذكر متقدم على الاتقاء، لأنه إذا اتعظ به وفهم معناه، حصل الاتقاء والاحتراز.

ثم ذكر تعالى مثلاً للمؤمن الموحد والكافر المشرك، فقال:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾؟ أي ضرب الله مثلاً للمشرك في صنعه لا في معبوده، الذي يعبد أكثر من إله، بحالة رجل عبد مملوك يملكه عدد من الرجال، مختلفون فيما بينهم، متنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم، متعاسرون، لسوء أخلاقهم وطباعهم، كل له رأي وحاجة، فإذا طلب كل واحد من السادة من هذا العبد شيئاً أو حاجة، فماذا يفعل، وكيف يرضي جميع الشركاء؟ كذلك المشرك في عبادته آلهة متعددة لا يتمكن من إرضاء جميع تلك الآلهة.

وضرب الله مثلاً آخر للمؤمن الموحد بحالة رجل آخر مملوك لشخص واحد، لا يشاركه فيه غيره، فإذا طلب منه شيئاً لبّاه دون ارتباك ولا حيرة،

وهذا كالمسلم الذي لا يعبد إلا الله، ولا يسعى لإرضاء غير ربه، فهل يكون في طمأنينة أم في حيرة؟

هذان المملوكان هل يستويان صفة وحالاً؟ أي لا يستوي هذا وهذا، فكذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له، فأين هذا من هذا؟

ولما كان هذا المثل ظاهراً بيّناً جلياً، قال تعالى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي الحمد لله على إقامة الحجة عليهم، وعلى أن الحمد لله لا لغيره، وعلى التوفيق للإسلام والحق، بل أكثر الناس لا يعلمون هذا الفرق، فيشركون مع الله غيره.

ونظراً لجهل أكثر الناس بالحق وعدم انتفاعهم بهذا المثل، أخبر تعالى تهديداً بالموت بأن مصير الخلائق كلهم إلى الله، وهناك يتقاضون في المظالم بين يدي الله، فقال:

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ أي إنك أيها الرسول ستموت، وهم سيموتون، ثم يحصل التقاضي عند الله، فيما اختلفتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك، وسيحكم الله بينكم يوم القيامة، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين.

وقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ نعي أجل رسول ﷺ وإعلام الصحابة بأنه يموت ولا يخلد في الدنيا، فقد كان بعضهم يعتقد أنه لا يموت، وهو أيضاً حثّ لكفار قريش على انتهاز الفرصة، والمسارعة إلى الإيمان، وتلقي الوحي عن النبي ﷺ؛ لأن إقامته فيهم قليلة، وليس خالداً بينهم.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ ليس خاصاً

بالمؤمنين والكافرين في التخاصم بينهم في الدار الآخرة، وإنما هي شاملة لكل متنازعين في الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة في الآخرة. وهو دليل على أن محمداً ﷺ سيخاصم قومه ويحتج عليهم بأنه قد بلغهم الرسالة وأنذرهم، وهم يخاصمونه، ويعتذرون بما لا معنى له.

روى الترمذي - وقال: حسن صحيح - عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)﴾ قال الزبير رضي الله عنه: أي، رسول الله، أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا، مع خواص الذنوب؟ قال ﷺ: «نعم ليكررن عليكم حتى يؤدى إلى كل ذي حق حقه».

وروى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «أول الخصمين يوم القيامة جاران».

وروى الإمام أحمد أيضاً عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنه ليختصم حتى الشاتان فيما انتطحتا».

وروى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بالإمام الجائر الخائن يوم القيامة، فتخاصمه الرعية، فيفلحون عليه، فيقال له: سدّ ركناً من أركان جهنم».

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى الآتي:

أ - القرآن الكريم كتاب شامل كامل لم يترك شيئاً من أمر الدنيا والآخرة إلا بينه وأجلاه، حتى بالأمثال الموضحة للناس معانيه ومراميه، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٦/٣٨].

والقرآن الكريم عظة وتذكير، وسبب اتقاء الكفر وتكذيب الرسل. وخواصه: أنه قرآن متلو في المحاريب وغيرها إلى يوم القيامة، ونزل بلسان عربي مبين، ولا تناقض ولا اختلاف فيه.

٢ً - إن مذهب المشركين في عبادة الأوثان وتعدد الآلهة فاسد باطل لا يقبله عاقل صحيح العقل، ومن عوامل بطلانه وتهافته أنه لا يحقق لذويه غاياتهم، وأبسط دليل على ذلك هو هذا المثل الذي ضربه القرآن هنا للمؤمن الموحد والكافر المشرك.

مثل الأول الذي يعبد الله وحده: مثل رجل عبد مملوك لسيد واحد، يستطيع إرضاءه وتحقيق مراده. ومثل الثاني الذي يعبد آلهة متعددة: مثل رجل عبد مملوك لعدة شركاء، يطلبون منه في الخدمة مطالب متعارضة، فكيف يستطيع إرضاء الكل؟ وأخلاقهم متباينة، ونياتهم متغايرة، لا يلقاه أحد إلا استخدمه في حوائجه الخاصة، فتراه يلقى منهم العناء والنَّصب والتعب الشديد، وهو مع ذلك لا يرضي واحداً منهم بخدمته، لكثرة الحقوق والواجبات الملقاة على عاتقه، ما يجعله ينفر ويأبق ويهرب ولا يستمر على هذا النحو من العذاب.

أما الذي يخدم واحداً لا ينازعه فيه أحد، إذا أطاعه وحده، عرف ذلك له، وإن أخطأ صفح عن خطئه، فأيهما أقل تعباً أو على هدى مستقيم؟!

لذا ختم الله تعالى بيانه بتعليمنا فضله علينا، وإرشادنا إلى حمده وشكره والثناء عليه على أن هدانا للإسلام، ووفقنا للحق، بعد ظهور الحجة على الكافرين، ولكن أكثر الناس لا يعلمون الحق، فيتبعونه.

٣ً - إن مصير جميع الخلائق إلى الله لحسابهم وتصفية منازعاتهم والقضاء العدل فيهم، سواء المؤمنون والكافرون، فيتخاصم الكافر والمؤمن والظالم والمظلوم، وورد في خبر عن ابن منده عن ابن عباس: «إن الخصومة تبلغ يوم القيامة إلى أن يحاجّ الروح الجسد».

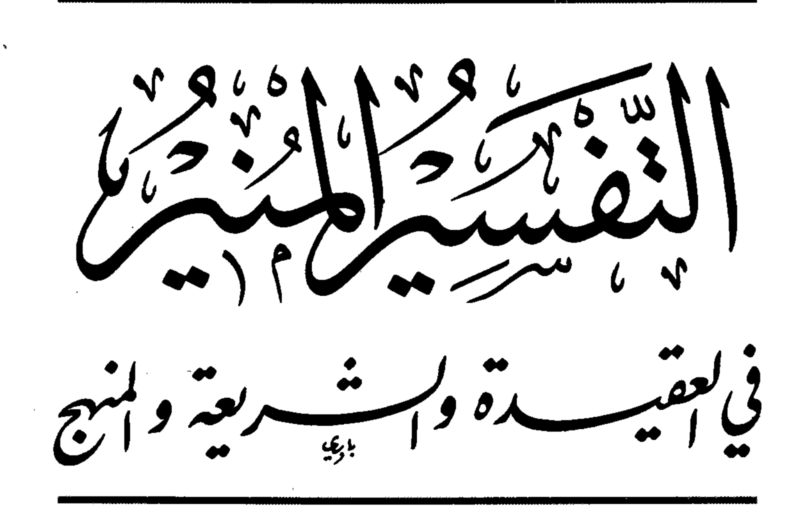
وأخرج البخاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من كان عنده مظلمة لأخيه من عِرْض أو مال، فليتحللْه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح، أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه، فحملت عليه».

وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المفلسُ؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال رسول الله ﷺ: إن المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقْضى ما عليه، أُخذ من خطاياهم، فطُرحت عليه، ثم طرح في النار».

وقال أبو سعيد الخدري: كنا نقول: ربنا واحد، وديننا واحد، ونبينا واحد، فما هذه الخصومة؟ فلما كان يوم صِفِّين، وشدَّ بعضنا على بعض بالسيوف، قلنا: نعم هو هذا.

تم الجزء الثالث والعشرين ولله الحمد

بسم الله الرحمن الرحيم



الجزء الرابع والعشرون



وعيد المكذبين ووعد المصدقين

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

القراءات:

﴿عَبْدَهُۥ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (عِبادَه).

الإعراب:

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

﴿وَٱلَّذِى﴾: مبتدأ، وخبره: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾. وإنما جاز أن يقع ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ خبراً للذي، و﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ جمع، و﴿وَٱلَّذِى﴾ واحد؛ لأن ﴿وَٱلَّذِى﴾ يراد به الجنس، فلهذا جاز أن يقع خبره جمعاً.

البلاغة:

﴿مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ فيه إقامة الظاهر مقام المضمر، أي مثوى لهم.

﴿يُضْلِلِ﴾ و﴿هَادٍ﴾ و﴿يَهْدِ﴾ و﴿مُّضِلٍّ﴾ بينهما طباق.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾؟ استفهام إنكار للنفي، مبالغة في الإثبات، والعبد: رسول الله ﷺ، ويحتمل إرادة الجنس، وفسر بالأنبياء. وهكذا كل استفهام إنكاري مثل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ [الشرح: ٩٤/١] ، ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ﴾ [يس: ٣٦/ ٦٠] دخل على نفي، يفيد معنى التقرير والتثبيت بالدليل؛ إذ نفي النفي إثبات.

المفردات اللغوية:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي لا أحد أظلم ﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بنسبة الشريك والولد إليه ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ وهو القرآن الذي نزل على محمد ﷺ ﴿مَثْوًى﴾ مُقاماً ومأوى ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ اللام تحتمل العهد (أي كفار قريش) والجنس: جميع الكفار، وذلك يكفيهم جزاء لأعمالهم.

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ هو النبي ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ هم أتباعه المؤمنون، كأبي بكر الصديق، فـ﴿وَٱلَّذِى﴾ : بمعنى الذين، لذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الشركَ ﴿جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ﴾ أسوأ وأحسن بمعنى السيئ والحسن، كقولهم: الناقص والأشج أعدلا بني مروان .﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾ : ويعطيهم ثوابهم على الطاعات في الدنيا. و﴿ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ بِما عملوه من المعاصي. وخصَّ الأسوأ للمبالغة، فإنه إذا كفِّر كان غيره أولى بذلك. ويقابلهم بالأحسن في زيادة الأجر وعظمه لفرط إخلاصهم في أعمالهم.

﴿بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ أي يكفي عبده النبي ﷺ وعيد المشركين وكيدهم ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والتخويف من قريش ﴿بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي الأصنام، بأن تقتله أو تخبله ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ تركه في الضلال والاعتقاد بما لا ينفع ولا يضر ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يهديهم إلى الرشاد ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ يوفقه للإيمان ﴿بِعَزِيزٍ﴾ غالب منيع قوي قاهر ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ أي ينتقم ممن عاداه وعادى رسوله ﷺ.

ويقال: (بلى) بعد كل من الاستفهامات الثلاثة في الآيات: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾؟

سبب النزول:

نزول الآية (٣٦):

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾: أخرج عبد الرزاق عن معمر: قال لي رجل: قالوا للنبي ﷺ: لتكُفَّنَّ عن شتم آلهتنا أو لنأمرنها فلتُخبِّلَنَّك: فنزلت: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾.

المناسبة:

بعد أن بالغ واستقصى الله تعالى في بيان وعيد الكفار، وأردفه بذكر مثل يدل على فساد مذهبهم وقبح طريقتهم في قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ أتى هنا بأسوأ اعتقادهم وهو تكذيب الله بإثبات ولد له أو شريك، وتكذيب الرسول ﷺ بعد إثبات صدقه بالأدلة القاطعة، وختمه بوعيدهم في جهنم.

ثم أتبعه بوعد الصادق المصدوق ووعد أتباعه المصدقين المؤمنين من تكفير السيئات ومنحهم أفضل الثواب، ليكون الوعد مقروناً بالوعيد.

التفسير والبيان:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ هذا نوع آخر من قبائح أفعال الكفار المشركين، وهو أنهم يكذبون الله، ويكذبون القائل المحق وهو رسوله الكريم ﷺ، والمعنى: لا أحد أظلم ممن كذب على الله، فزعم أن له ولداً أو شريكاً أو صاحبة وحرَّم وحلل من غير أمر الله، وكذب بما جاء به رسول الله ﷺ من دعوة الناس إلى التوحيد، وأمرهم بالقيام بفرائض الشرع، ونهيهم عن محرّماته، وإخبارهم بالبعث والنشور.

فهم جمعوا بين طرفي الباطل: كذب على الله تعالى، وتكذيب رسول الله ﷺ بعد قيام الأدلة القاطعة على كونه صادقاً في ادعاء النبوة.

وقوله: ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ أي وقت مجيئه فاجأه بالتكذيب من غير فكر ولا تروٍّ ولا نظر، بل وقت مجيئه كذب به.

ثم أردفه بوعيدهم فقال:

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؟ بلى، أي أليس في نار جهنم الواسعة العريضة مقام ومأوى وسكنى لهؤلاء الكافرين. وفيه تنبيه على علة كذبهم وتكذيبهم، وهو الكفر. والمراد: ألا يكفيهم العذاب في جهنم جزاء على أعمالهم؟ وهو استفهام تقرير وإثبات، لا نفي.

ثم أتبع الوعيد السابق بوعد الصادقين المصدقين، فقال:

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي أما الذي جاء بالصدق والقول الحق وهو رسول الله ﷺ وخاتم الأنبياء وإمام الرسل، والذين صدقوا به وآمنوا بأنه رسول من عند الله وهم أتباعه المؤمنون، وأيقنوا أن القرآن كلام الله تبيان كل شيء وخير وسعادة للبشرية جمعاء، فأولئك هم الذين اتقوا الله، وتجنبوا الشرك، وتبرؤوا من الأصنام والأوثان.

وثواب هؤلاء ما قال تعالى:

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾ أي لهم ما يطلبون عند ربهم في الجنان، من رفع الدرجات، ودفع المضرّات، وتكفير السيئات، فضلاً عن أن في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وذلك جزاء الذين أحسنوا في أعمالهم. والإحسان كما ثبت في الصحيح لدى الشيخين عن عمر عن رسول الله ﷺ، قال: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك».

وعلة هذا الجزاء:

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ وعدهم الله بما سبق ليكفر عنهم سيئ ما عملوا، ويجزيهم أجرهم كاملاً بالمحاسن من أعمالهم، ولا يجزيهم بالمساوئ. وإذا غفر لهم ما هو الأسوأ من أعمالهم، غفر لهم ما دونه بطريق أولى. والحسن الذي يعملونه هو الأحسن عند الله تعالى.

وقوله: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ يدل على سقوط العقاب عنهم على أكمل الوجوه.

ثم ذكر تعالى أنه يكفي المؤمنين في الدنيا ما أهمهم ويمنع عنهم ما يخوفونهم به، فقال:

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ أي إن الله سبحانه يكفي من عَبَده وتوكَّل عليه، فيدفع عنه الويلات والمصائب، ويعطيه جميع المرغوبات، كقوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢/ ١٣٧] .

وعبر بلفظ الاستفهام لإنكار النفي، مبالغة في الإثبات، والمراد تقرير ذلك في النفوس، والإشارة إلى كفايته تعالى على أبلغ وجه وأظهره بحيث لا ينكره أحد؛ لأنه ثبت أنه تعالى عالم بجميع المعلومات، قادر على كل الممكنات، غني عن كل الحاجات، فهو تعالى عالم بحاجات العباد، وقادر على توفيرها، وهو ليس بخيلاً ولا محتاجاً حتى يمنعه بخله وحاجته عن إعطاء عبده ما يريد.

والمراد بعبده: النبي ﷺ وجميع عباد الله، بدليل قراءة «عبادَه» . روى الترمذي والنسائي وابن أبي حاتم عن فضالة بن عبيد الأنصاري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أفلح من هُدي إلى الإسلام، وكان عيشه كَفافاً وقنع به» .

وبعد أن ذكر الله تعالى المقدمة وهي كفاية العباد، رتب عليها النتيجة المطلوبة فقال:

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي ويخوفك أيها الرسول المشركون ويتوعدونك بأصنامهم وآلهتهم التي يدعونها من دون الله جهلاً منهم وضلالاً، فلا تخف مما يخوفونك به من آلهتهم وجنودهم، فإن الله يحميك مما يضرك، وليس عند آلهتهم نفع ولا ضرر. وقد عرفنا في سبب النزول أن المشركين خوفوا النبي ﷺ مضرَّة الأوثان، فقالوا: أتسبّ آلهتنا؟ لئن لم تكُفَّ عن ذكرها لتخبلنَّك أو تصيبنك بسوء. ولما بعث النبي خالداً إلى كسر العُزّى قال له سادنها: إني أخاف عليك منها، فلها قوة لا يقدم لها شيء، فأخذ خالد الفأس، فهشم به وجهها ثم انصرف.

والآية دليل على أن الله يحمي نبيه ﷺ من السوء، ويكفيه وأتباعه الدين والدنيا؛ إذ لما كان تعالى كافياً عبده، كان التخويف بغيره عبثاً باطلاً.

ثم أبان الله تعالى مدى قدرته وسلطانه ليبطل توعد المشركين ويبين جهلهم، فقال:

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ، وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ أي من حق عليه القضاء بضلاله، لسوئه وفسقه وعصيانه، فما له من هاد يهديه إلى الرشد ويخرجه من الضلالة، ومن يوفقه الله إلى السعادة والإيمان لاستعداده لهما. فلا مضل له أبداً.

والمراد أن خلق المهتدين والضالين بيد الله، فهو الفاعل، وليس لمن عداه أي تأثير في ذلك، فلا رادَّ لفضله، ولا مانع لمراده، لذا هدد كفار قريش قائلاً:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾؟ أي أليس الله بغالب لكل شيء قاهر له،

ينتقم من عصاته بعذاب شديد؟ فهو منيع الجناب، لا يضام من استند إلى جنابه، ولجأ إلى بابه، فإنه القوي الذي لا أقوى منه، ولا أشد انتقاماً منه، ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله ﷺ.

والخلاصة: إن الآية وعد للمؤمنين، وعيد لكفار قريش وأمثالهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يلي:

١ً - لاأحد عند الله أظلم ممن كذب عليه، فزعم أن له ولداً وشريكاً، وكذَّب بالقرآن الذي نزل على النبي المصطفى ﷺ.

٢ً - يكفي هؤلاء الجاحدين مقراً ومقاماً جهنم، وساءت مصيراً.

٣ً - إن النبي ﷺ الذي جاء بالصدق والحق، وأتباعه الذين صدقوا به كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، هم المتقون الله حق التقوى، الذي وحّدوه فلم يشركوا به شيئاً، وتجنبوا عذابه وعقابه ومعاصيه.

٤ً - قد أثبت الله تعالى للذي جاء بالصدق وصدق به أربعة أحكام:

الأول - أنهم هم المتقون، كما تقدم.

الثاني - أن لهم ما يشاؤون عند ربهم من الكرامة والنعيم في الجنة، ذلك جزاء المحسنين وهو الثناء في الدنيا، والثواب في الآخرة. وهذا الوعد يدخل فيه كل ما يرغب الإنسان فيه، ويدل على حصول الثواب على أكمل الوجوه.

الثالث - أن الله يكرمهم ولا يؤاخذهم بسيئاتهم، ويثيبهم على الطاعات في الدنيا بأحسن أعمالهم وهي الجنة. وهذا يدل على سقوط العقاب عنهم على أكمل الوجوه.

الرابع - بدد الله كل تخويفات المبطلين التي يرددونها ويشيعونها كثيراً، بإثبات كفايته عباده وحمايته لهم من كل سوء أو شر، سواء أكان مصدر الجن أو الإنس الأشرار، أو الأصنام في زعم عبدتها مع أنها لا تضر ولا تنفع. قال إبراهيم عليه السلام فيما حكى القرآن عنه: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ [الأنعام: ٦/ ٨١].

٥ - قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ دليل على خلق الأعمال وإرادة الكائنات من الله الذي ينتقم ممن عاداه أو عادى رسله. ودليل أيضاً على أن من يضله الله بتركه في غيه وضلالته، فما له من هاد يهديه إلى الخير أبداً، ومن يهده الله إلى الحق والصواب، فما له من مضل أبداً.

تزييف طريقة عبدة الأصنام وتهديدهم

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٤٠)﴾

القراءات:

﴿أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ﴾:

وقرأ حمزة (أرادنيْ الله).

﴿كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾، ﴿مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾:

وقرأ أبو عمرو (كاشفاتٌ ضرَّه، ممسكاتٌ رحمتَه).

الإعراب:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ﴾ ﴿مَّا تَدْعُونَ﴾ هو المفعول الأول، وجاء المفعول الثاني جملة استفهامية، وفيها العائد على ﴿مَّا﴾ وهو لفظ (هن).

﴿كَٰشِفَٰتُ﴾ ﴿مُمْسِكَٰتُ﴾ كل منهما خبر المبتدأ، ويقرأ كل منهما بالتنوين وترك التنوين، فمن نوّن نصب (ضُرَّه) و (رحمتَه) باسم الفاعل، ومن ترك التنوين جرهما بالإضافة، وهي لا تفيد هنا تعريفاً؛ لأنها في نية الانفصال؛ لأن اسم الفاعل ليس بمعنى الماضي، والأصل هو التنوين، وإنما يحذف للتخفيف.

البلاغة:

﴿ضُرِّهِۦ﴾ و﴿رَحْمَتِهِۦ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَلَئِن﴾ اللام لام القسم. ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لوضوح البرهان على تفرده بالخالقية. ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦ﴾ أي أرأيتم بعدما تحققتم أن خالق العالم هو الله وليست آلهتكم، إن أراد الله أن يصيبني بضر هل يكشفنه، أو أرادني بنفع هل يمسكنه عني؟ لا، و﴿تَدْعُونَ﴾ تعبدون، و﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الأصنام. والضر: الشدة والبلاء، والرحمة: النعمة والرخاء. وقال: ﴿كَٰشِفَٰتُ﴾ و﴿مُمْسِكَٰتُ﴾: لما يصفونها به من الأنوثة، تنبيهاً على ضعفها.

﴿حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ كافياً في إصابة الخير ودفع الضر، وتقرر بهذا أن الله هو القادر الذي لا مانع لما يريده من خير أو شر ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يثق

الواثقون لعلمهم بأن الكل منه تعالى .﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالكم، وهو اسم للمكان استعير للحال .﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على مكانتي أي على حالتي، فحذف للاختصار والمبالغة في الوعيد .﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ، مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ فإن خزي أعدائه دليل غلبته، وقد أخزاهم الله يوم بدر ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ عذاب دائم، وهو عذاب النار.

سبب النزول:

نزول الآية (٣٨):

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ : روي عن مقاتل أن النبي ﷺ سألهم، فسكتوا، فنزل ذلك. وقال غيره: قالوا: لا تدفع شيئاً قدّره الله، ولكنها تشفع، فنزلت.

المناسبة:

بعد أن أوضح الله تعالى وعيد المشركين ووعد الموحدين، عاد إلى إقامة الدليل على تزييف طريقة عبدة الأصنام، معتمداً على أصلين:

الأول - أن هؤلاء المشركين مقرُّون بوجود الإله الخالق القادر العالم.

والثاني - أن هذه الأصنام لا قدرة لها على الخير والشر.

التفسير والبيان:

أقام الله تعالى الدليل على وحدانيته بإقرار المشركين أنفسهم بذلك، فقال:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي إذا سألت المشركين عن خالق السماوات والأرض، اعترفوا بأنه هو الله سبحانه، مع عبادتهم للأوثان. وإذا اعترفوا، فكيف قبلت عقولهم عبادة غير الخالق، وتشريك مخلوق مع خالقه في العبادة؟ مع أن هذه المعبودات لا تملك لأنفسها نفعاً ولا ضراً، كما قال موبخاً لهم:

﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾؟ أي إذا أقررتم بأن الله تعالى خلق الأشياء كلها، فأخبروني عن آلهتكم هذه، هل تقدر على كشف ما أراده الله بي من الشدة والضرر، أو هل تستطيع أن تمنع عني ما أراده الله لي من الخير والنعمة والرخاء؟ وإذا كانت في الواقع لا تملك شيئاً ولا قدرة لها على شيء، فكيف تجوز عبادتها؟! وأنث قوله: ﴿هُنَّ كَٰشِفَٰتُ﴾ و﴿هُنَّ مُمْسِكَٰتُ﴾ وهي الأصنام للتنبيه على كمال ضعفها وتحقيرها وتعجيزها، فإن الأنوثة مظنة الضعف، ولأنهم كانوا يصفونها بالتأنيث ويسمونها: اللات والعزى ومناة.

﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ قل أيها النبي: الله كافيني أو كافيَّ في جميع أموري من جلب النفع ودفع الضر، فلا أخاف تلك الأصنام التي تخوفونني بها، وإنما أخاف الله الذي عليه لا على غيره يتوكل المؤمنون، ويعتمد المعتمدون.

وذلك كما قال هود عليه السلام: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ١١/ ٥٤-٥٦].

أخرج الإمام أحمد والترمذي والحاكم وابن أبي حاتم عن عبد الله بن عباس قال: كنت خَلْف النبي ﷺ فقال: «يا غلام، إني أُعلّمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجدْه تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام، وجَفّت الصحف.

واعمل لله بالشكر في اليقين. واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً» .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أيضاً، رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ قال: «من أحبّ أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله تعالى، ومن أحبّ أن يكون أغنى الناس، فليكن بما في يد الله عز وجل أوثق منه بما في يديه، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله عز وجل» .

ثم هدّد الله المشركين وأوعدهم بقوله:

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ أي قل أيها النبي: يا قومي، اعملوا ما شئتم، اعملوا على حالتكم وطريقتكم التي أنتم عليها من عداوة رسالتي، واعتداد بالقوة والشدة، واجتهدوا في أنواع المكر، فإني على حالتي ومنهجي وطريقتي التي أنا عليها في الدعوة إلى توحيد الله ونشر دينه بين الناس، فسوف تعلمون وبال ذلك، ومن سيأتيه عذاب يهينه ويذله في الدنيا بعد افتخاره واستكباره، فيظهر عندئذ أنه المبطل وخصمه المحقّ، ويحل عليه عذاب دائم مستمر لا محيد له عنه يوم القيامة، وهو عذاب النار.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه الآيات تدرجت في الإثبات من وجوب الاعتقاد بوحدانية الله إلى ضرورة عبادته وحده، إلى معرفة علمه وقدرته وتمكنه من إنفاذ تهديده ووعيده في الوقت المناسب.

ولكن ما أغبى المشركين وأجهلهم وأحمقهم وأسخفهم!! إنهم مع عبادتهم الأوثان مقرّون بأن الخالق هو الله، وإذا كان الله هو الخالق القادر العالم الحكيم الرحيم، فكيف يعبدون سواه؟ وكيف يخوفون رسول الله ﷺ بآلهتهم

الخرقاء العاجزة التي هي مخلوقة لله تعالى، وهو رسول من عند الله الذي خلقها وخلق السماوات والأرض؟!

وبعد اعترافهم بهذا، ألا يدركون أن هذه الأصنام جمادات صمّ، لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر؟ فإن أراد الله عبده بشدة وبلاء، فلا تستطيع هذه الأصنام دفعه ورفعه وإزالته، وإذا أراد الله إمداد عبده بنعمة ورخاء، فلا تتمكن من حجب رحمته وإمساكها ومنعها، وترك الجواب لدلالة الكلام عليه، يعني فسيقولون: لا تكشف ولا تمسك.

وأما المؤمن أو العاقل، فإنه لا يلتفت إلى تخويف المشركين بالأصنام الصمّ كما في الآية السابقة: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾، ويعلن أنه معتمد على الله، متوكل عليه، ويجب أن يعتمد عليه المعتمدون.

كذلك يصر المؤمن بالبقاء على منهجه وطريقته في عبادة الله وحده ويهزأ بكل من ضلَّ عن هذا المنهج، وسوف تنجلي الحقائق، وتتبين ما تتمخض عنه الأحداث والأيام، ويدرك الكفار أنهم مهزومون، واقعون في عذاب مهين مذل في الدنيا، وعذاب شديد دائم في الآخرة.

والخلاصة: كما يقول المثل: (من فَمِك أُدينُكَ يا إسرائيل) : إنه تعالى انتزع منهم الإقرار بأن خالق العالم هو الله، ثم سألهم أو استخبرهم عن أصنامهم: هل تدفع شراً وتجلب خيراً؟ لبيان عدم صلاحيتها للألوهية والربوبية، وللتنبيه على الجواب عن قوله تعالى المتقدم: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ فهي معدومة الهيبة والإخافة.

مظاهر القدرة التامة والعلم الكامل لله عز وجل

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾

القراءات:

﴿قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (قُضِيَ عليها الموتُ).

الإعراب:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ﴾: ﴿وَٱلَّتِى﴾ معطوف بالنصب على ﴿ٱلْأَنفُسَ﴾ أي ويتوفى التي لم تمت في منامها. ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أي الأنفس الأخرى: وهي التي لم يقض عليها الموت، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه، و﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ منصوب بـ﴿وَيُرْسِلُ﴾.

﴿ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾ ﴿جَمِيعٗاۖ﴾ حال من ﴿ٱلشَّفَٰعَةُ﴾. وإنما قال ﴿جَمِيعٗاۖ﴾ و﴿ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ واحد في لفظه؛ لأنه مصدر، والمصدر يدل على الجمع، كما يدل على الواحد، فحمل جميعاً على المعنى، والحمل على المعنى كثير في كلامهم.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ﴾ ﴿وَحۡدَهُ﴾ إما منصوب على المصدر، بحذف الزيادة؛ لأن أصله (أوحد إيحاداً) أو على الحال أو على الظرف، والوجه الأول أوجه الوجوه. و﴿وَإِذَا﴾ الأولى شرطية، والثانية فجائية كالفاء التي تربط الجواب بالشرط.

البلاغة:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ﴾ استفهام إنكار.

﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ و﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ بينهما طباق، وكذا ﴿ٱهۡتَدَىٰ﴾ و﴿ضَلَّ﴾.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ﴾ فيها مقابلة بين الله تعالى والأصنام، وبين الاستبشار والاشمئزاز. والمقابلة: أن يؤتى بمعنيين أو أكثر، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب، وهو من المحسنات البديعية.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ﴾ نزلنا عليك القرآن لأجل الناس؛ ليحقق مصالحهم الدنيوية والأخروية. ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ متعلق بـ ﴿أَنزَلۡنَا﴾ أي ملتبساً بالحق ملازماً له.

﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ أي فاهتداؤه نفع به نفسه. ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾ على نفسه، أي فإن وباله لا يتخطاها. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي بموكَّل عليهم لتجبرهم على الهدى، بل عليك البلاغ فحسب.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ﴾ يقبضها عند انتهاء آجالها. ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي

﴿مَنَامِهَا﴾ أي ويتوفى غير الميتة وقت النوم، وهي التي لم يحضر أجلها، يتوفاها في منامها. ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ ولا يردها إلى البدن الذي خرجت منه. ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ﴾ أي النائمة. ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي إلى وقت موتها. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من التوفي والإمساك والإرسال. ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلالات على كمال قدرة الله وحكمته. ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في الحياة والموت، فيعلمون أن القادر على ذلك قادر على البعث، وقريش لم يتفكروا في ذلك.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ بل اتخذت قريش. ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ أي اتخذوا الأصنام آلهة عند الله بزعمهم، تشفع لهم عند الله. ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ قل لهم: أيشفعون، ولو لم يملكوا الشفاعة وغيرها؟ لا ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أنكم تعبدونهم، ولا يعقلون غير ذلك.

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ أي هو مختص بها ومالك الشفاعة كلها، فلا يشفع أحد إلا بإذنه، ولا يستقل بها أحد. ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مالك الملك كله، لا يملك أحد أن يتكلم في أمره دون إذنه ورضاه. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيكون الملك له أيضاً حينئذ. ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي دون آلهتهم. ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ نفرت وانقبضت، والاشمئزاز: أن يمتلئ غماً، فيحدث انقباض في القلب، وضيق في النفس، يظهر أثره في الوجه ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي الأصنام. ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ الاستبشار: امتلاء القلب سروراً، حتى تنبسط له بشرة الوجه. ويستبشرون هنا لفرط افتتانهم بالأصنام ونسيانهم حق الله تعالى.

﴿اللَّهُمَّ﴾ أي يا الله. ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعها. ﴿عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ ما غاب وما شوهد. ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي فأنت وحدك تقدر أن تحكم بيني وبينهم، في أمر الدين، اهدني

لما اختلفوا فيه من الحق .﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ سيئات أعمالهم أو كسبهم حين تعرض صحائفهم .﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وأحاط بهم جزاؤه.

سبب النزول:

نزول الآية (٤٥):

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾: أخرج ابن المنذر عن مجاهد أنها نزلت في قراءة النبي ﷺ النجم عند الكعبة وفرحهم عند ذِكْره الآلهة. أي قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ الآيات من سورة النجم [٥٣/ ١٩-٢٣].

المناسبة:

بعد بيان أدلة وحدانية الله وقدرته، وتوضيح فساد مذاهب المشركين بالأدلة والبراهين، وإتباعه بالوعد والوعيد، سرّى الله عن قلب نبيه ﷺ ضيقه وانزعاجه لإصرارهم على الكفر، وأزال عنه الخوف، فأعلمه بإنزال القرآن العظيم عليه بالحق لنفع الناس واهتدائهم به، وهذا أول مظاهر قدرته. ثم أتبعه بمظهرين آخرين للقدرة هما قبضه الأرواح بانتهاء آجالها، وكونه مالك الشفاعة، ثم ذكر بعدهما بعض قبائح المشركين وعيوبهم واشمئزازهم من ذكر الله.

ثم أردف كل ذلك بأمور ثلاثة:

الأول - ذكر الدعاء العظيم المتضمن وصف الله بالقدرة التامة في قوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ ثم وصفه بالعلم الكامل في قوله: ﴿عَٰلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ﴾.

الثاني - ظهور أنواع من العقاب لم تكن في حسابهم في قوله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾.

الثالث - ظهور آثار تلك السيئات التي اكتسبوها في قوله: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾.

التفسير والبيان:

يخاطب الله رسوله محمداً ﷺ بقوله:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي إنا نحن رب العزة وإله الكون نزَّلنا عليك يا محمد القرآن العظيم، لأجل الناس، أي والجن، ولبيان ما كُلِّفوا به، وإنذارهم به، أنزله ربك مقروناً مصحوباً بالحق ملتبساً به، وهو دين الإسلام. قال الزمخشري: ﴿لِلنَّاسِ﴾ لأجلهم ولأجل حاجتهم إليه، ليُبَشَّروا ويُنْذَروا، فتقوى دواعيهم إلى اختيار الطاعة على المعصية، ولا حاجة لي إلى ذلك فأنا الغني، فمن اختار الهدى فقد نفع نفسه، ومن اختار الضلالة فقد ضرّها[1]، قال تعالى:

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي فمن عرف طريق الحق وسلكها، فاهتداؤه لنفسه، ويعود نفع ذلك إلى نفسه، ومن حاد عن طريق الحق، فضلاله على نفسه، ويرجع وبال ذلك على نفسه، وما أنت أيها الرسول بموكل أن يهتدوا، ولا بمكلف في حملهم على الهداية، بل عليك البلاغ، وقد فعلت، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١١/ ١٢] وقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ١٣/ ٤٠] وقوله عز وجل: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٨٨/ ٢١-٢٢].

(١) الكشاف: ٣/ ٣٣

ثم ذكر الله تعالى نوعاً آخر من أنواع قدرته وتصرفه في الوجود، بعد إنزال القرآن، فقال:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ أي إن الله هو الذي يقبض الأنفس أو الأرواح حين انقضاء آجالها بالموت، الوفاة الكبرى، بما يرسل من الملائكة الذين يقبضونها من الأبدان، ويقطع تعلقها بالأجساد.

وكذلك يتوفى الأنفس التي لم يأت أجلها الوفاة الصغرى عند المنام، تشبيهاً للنائمين بالموتى، حيث يمنعهم من التمييز والتصرف كالموتى بالفعل، مع بقاء الأرواح في أبدانهم.

﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي يمسك الأنفس والأرواح التي قضى عليها الموت الحقيقي، أي لا يردها إلى الجسد الذي كانت فيه، ويرسل النفس النائمة إلى الأجساد حين اليقظة، بأن يعيد إليها إحساسها، إلى أجل مسمى، هو وقت الموت.

إن في ذلك المذكور من التوفي التام والإمساك لنفوس، والإرسال لنفوس أخرى لعلامات عجيبة دالة على كمال قدرة الله الباهرة، وحكمته البديعة.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٦٠-٦١] فذكر الوفاتين الصغرى ثم الكبرى، وفي هذه الآية هنا ذكر الكبرى ثم الصغرى، وقال النبي ﷺ: «لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تصحون».

واختلف العلماء في النفس والروح

هل هما شيء واحد أو شيئان؟ قال ابن عباس: إن في ابن آدم نَفْساً وروحاً، بينهما مثل شعاع الشمس، فالنفس: التي بها العقل والتمييز، والروح: هي التي بها النفَس والتحريك، فيتوفيان عند الموت، وتتوفى النفس وحدها حين النوم. والأظهر أنهما شيء واحد، كما تدل الآثار الصحاح الآتية في استنباط الأحكام.

وقال الرازي: النفس الإنسانية: عبارة عن جوهر مشرق روحاني إذا تعلق بالبدن حصل ضوؤه في جميع الأعضاء، وهو الحياة. ففي وقت الموت: ينقطع تعلقه عن ظاهر البدن وباطنه، وذلك هو الموت. وأما في وقت النوم فإنه ينقطع ضوؤه عن ظاهر البدن دون باطنه، فثبت أن الموت والنوم من جنس واحد، إلا أن الموت انقطاع تام كامل، والنوم انقطاع ناقص من بعض الوجوه[١].

ونظراً لشبه النوم بالموت في بعض الأوجه، إذ النوم موت أصغر، والموت نوم أكبر، يسنّ عند النوم الدعاء التالي، ورد في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه، فلينفضه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم ليقل: باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» . وخرج البخاري عن حذيفة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده؛ ثم يقول: «اللهم باسمك أموت وأحيا» وإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور» .

---

(١) تفسير الرازي: ٢٦/٢٨٦

ثم ذم الله تعالى اتخاذ المشركين شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان، وهي لا تملك شيئاً من الأمر، إذ هي جمادات لا تعقل ولا تسمع ولا تبصر، فقال:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ أي بل هل اتخذوا من دون الله آلهة شفعاء تشفع لهم عند الله؟ أي لا ينبغي لهم ذلك، وردَّ الله عليهم بقوله:

﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أي قل لهم أيها النبي وأخبرهم: كيف تتخذون تلك الأصنام شفعاء لكم، وهم لا يملكون شفاعة ولا غيرها، ولا يعقلون شيئاً من شفاعة أو غيرها، ولا يدركون أنكم تعبدونهم؟

ثم أعلمهم الله تعالى بصفة جازمة عن ملكه بنفسه جميع أنواع الشفاعات قائلاً: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي إن الله تعالى هو مالك جميع أنواع الشفاعة، وليس لأحد منها شيء، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن ارتضاه وأذن له، كما قال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥] وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٢٨] .

والسبب أن الله تعالى هو مالك السماوات والأرض، وهو المتصرف في جميع شؤونها، وإليه مصيركم بعد البعث. وعليه، تجب العبادة لمالك النفع والضر في الدنيا، ومالك الجزاء والحساب في الآخرة على جميع الأعمال. وفي هذا تهديد ووعيد بالاعتماد على من دون الله في أي شيء.

ثم ذكر الله تعالى بعض قبائح المشركين وغرائبهم، فقال:

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي إن من سيئات المشركين

الكبرى أنه إذا قيل لهم: لا إله إلا الله، انقبضوا ونفروا واغتاظوا؛ لأنهم لا يؤمنون بالله ولا بالبعث بعد الموت، وإذا ذكر الذين من دونه، أي الأصنام والأنداد، أو الآلهة المزعومة، كاللات والعُزَّى ومناة، كما ورد في سورة النجم، إذا هم يفرحون ويسرّون. ومدار المعنى على قوله: ﴿وَحۡدَهُۥ﴾ أي إذا أفرد الله بالذكر، ولم يذكر معه آلهتهم، اشمأزوا، أي نفروا وانقبضوا، وإذا ذكرت آلهتهم مع الله سروا وفرحوا.

وذلك يدل على الجهل والحماقة؛ لأن ذكر الله أساس السعادة وعنوان الخير، وأما ذكر الأصنام وهي الجمادات، فهو رأس الجهالة والحماقة.

قال الزمخشري: ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز؛ إذ كل واحد منهما غاية في بابه؛ لأن الاستبشار: أن يمتلئ قلبه سروراً حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهلل. والاشمئزاز: أن يمتلئ غماً وغيظاً حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه.

وبعد بيان مذمة المشركين وفساد عقولهم في حبهم للشرك ونفرتهم من التوحيد، أمر الله نبيه بالالتجاء إليه والدعاء المنجي من لوثاتهم، فقال:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٤٦﴾ أي ادع الله قائلاً: يا الله خالق السماوات والأرض، ويا عالم السر والعلانية، أنت تفصل بين عبادك، يوم المعاد، فتجازي المحسن بإحسانه، وتعاقب المسيء بإساءته، حتى يظهر المحق من المبطل، وترتفع خلافاتهم التي كانت بينهم في الدنيا. وفطر السماوات والأرض: جعلها على غير مثال سابق.

وقوله: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ دليل على صفة الله بالقدرة التامة، وقوله: ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ﴾ دليل على وصف الله بالعلم الكامل، وإنما قدم ذكر القدرة على ذكر العلم؛ لأن العلم بكونه تعالى قادراً متقدم على العلم بكونه عالماً.

أخرج مسلم وأبو داود وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل، افتتح صلاته: اللهم ربِّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطرَ السماوات والأرض، عالمَ الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلِف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم» .

وأخرج الإمام أحمد الحديث المتقدم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «من قال: اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إني أعهد إليك في هذه الدنيا أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك، فإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر، وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهداً توفينيه يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد، إلا قال الله عز وجل لملائكته يوم القيامة: إن عبدي قد عهد إلي عهداً، فأوفوه إياه، فيدخله الله الجنة» .

وأخرج أحمد أيضاً والترمذي عن مجاهد قال: قال أبو بكر الصديق: «أمرني رسول الله ﷺ أن أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعي من الليل: اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، لا إله إلا أنت، ربُّ كل شيء ومليكه، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه، أو أقترف على نفسي سوءاً أو أجرّه على نفسي» .

ثم ذكر الله تعالى ثلاثة أشياء في وعيد هؤلاء المشركين، فقال:

أ - ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي ولو أن هؤلاء الكفار المشركين ملكوا كل ما في الأرض من الأموال والذخائر، وملكوا مثله معه أي منضماً إليه، لجعلوا الكل فدية لأنفسهم من ذلك العذاب الشديد يوم القيامة، جزاء ظلمهم. وهذا وعيد شديد وإقناط نهائي من الخلاص.

٢ - ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ أي وظهر لهم من أنواع العقاب والسخط والعذاب المعد لهم، ما لم يكن في حسابهم ولا خطر في بالهم وهذا يقابل صفة الثواب في الجنة: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». وهو مأخوذ من الآية: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧/٣٢].

٣ - ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي وظهر لهم جزاء وآثار تلك السيئات والمآثم التي اكتسبوها في الدنيا، وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا، من إنذار الرسول ﷺ الذي كان ينذرهم به.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - آنس الله نبيه عما كان يعظم عليه ويُحزنه من عدم إيمان قومه، وأخبره أنه أنزل عليه النعمة العظمى، وهو القرآن المجيد مصحوباً بالحق، وهو دين الإسلام، لينتفع به الناس، ويحققوا حاجاتهم.

فمن اهتدى، فثواب هدايته إنما هو له، ومن ضلَّ عن الحق، فعقاب ضلاله إنما هو عليه.

وليس النبي ﷺ بموكل عليهم ولا ذا سلطان قاهر، حتى يجبرهم على الإيمان.

٢ - من مظاهر قدرة الله تعالى العظيمة أنه يقبض الأنفس والأرواح عند انتهاء آجالها، ويقبض الأنفس عن التصرف في الأجسام، ويمسك أرواح الموتى في الملأ الأعلى، ويرد الأنفس إلى الأجساد بعد النوم، فيطلقها بالتصرف إلى أجل موتها. قال ابن عباس وغيره من المفسرين: إن أرواح الأحياء

والأموات تلتقي في المنام، فتتعارف ما شاء الله منها، فإذا أراد جميعها الرجوع إلى الأجساد، أمسك الله أرواح الأموات عنده، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها.

والأظهر أن النفس والروح شيء واحد كما تقدم، لما دلت عليه الآثار الصحاح، منها حديث مسلم عن أم سَلَمة قالت: دخل رسول الله ﷺ على أبي سَلَمة، وقد شَقَّ بصرُه[1] فأغمضه، ثم قال: «إن الروح إذا قُبض تبعه البصر» وحديث مسلم أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تروا الإنسان إذا مات شَخَص بَصرُه، فذلك حين يَتْبَع بصرُه نَفْسَه» .

وحديث ابن ماجه عن النبي ﷺ قال: «تحضر الملائكة، فإذا كان الرجل صالحاً، قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وابشري برَوح ورَيْحان وربٍّ راض غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَج بها إلى السماء» . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: «إذا خرجت روح المؤمن تلقّاها مَلَكان يصعدان بها» . وقال بلال في حديث الوادي: «أخذ بنَفْسي يا رسول الله الذي أخذ بنفسك» .

والصحيح أن الروح: جسم لطيف مشابك للأجسام المحسوسة.

٣ً - إن في قبض الله نفس الميت والنائم، وإرساله نَفْس النائم وحبسه نفس الميت لدلالات على قدرة الله لقوم يتفكرون في خلق الله.

٤ً - لم يتفكر الكفار بنحو صحيح، بل اتخذوا الأصنام شفعاء، مع أنها لا تملك شيئاً من الشفاعة ولا تعقل؛ لأنها جمادات.

٥ً - الله تعالى هو مالك الشفاعة كلها، ومالك السماوات والأرض، وإليه مصير الخلائق وحسابهم يوم البعث والمعاد.

---

(١) أي انفتح.

٦ً - تميز المشركون بالجهل والحماقة، فإذا ذكر الله وحده دون أصنامهم انقبضوا ونفروا، وإذا ذكرت الأوثان ظهر في وجوههم البشر والسرور.

٧ً - الله تعالى مبدع السماوات والأرض على غير مثال سبق، وعالم الغيب والشهادة، أي السر والعلانية، والحاكم الفصل بين العباد في خلافاتهم الدنيوية.

٨ً - لو ملك المكذبون المشركون جميع ما في الأرض من أموال وثروات لقدموه فداء رخيصاً لافتداء أنفسهم من سوء عذاب يوم القيامة.

٩ً - يفاجأ الكفار بأنواع من العقاب لم تخطر ببالهم، ولا جرى تقديرها في حسابهم.

١٠ً - يظهر للكفار يوم القيامة آثار المحارم والآثام والكفر والمعاصي، من ألوان العقاب، ويحيط بهم وينزل جزاء ما كانوا به يستهزئون في الدنيا من الإنذارات والبعث والعذاب والحساب الشديد.

دعاء الإنسان عند الضر وجحوده عند النعمة وإعلامه بأن الرزق بيد الله

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

البلاغة:

﴿يَبْسُطُ﴾ ﴿وَيَقْدِرُ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾ أي أصاب جنس الإنسان، وهو معطوف على قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾ لبيان تناقضهم، بمعنى أنهم يشمئزون عن ذكر الله وحده، ويستبشرون بذكر الآلهة، فإذا مسهم ضرّ، دعوا من اشمأزوا من ذكره، دون من استبشروا بذكره، وما بينهما اعتراض مؤكد لإنكار ذلك عليهم.

﴿خَوَّلْنَٰهُ﴾ أعطيناه وملكناه تفضلاً ﴿نِعْمَةً﴾ إنعاماً ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ على علم مني بوجوه كسبه، أو علم من الله بأني له أهل ومستحق، وضمير ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ عائد على النعمة، وذكّر الضمير؛ لأن المراد شيء من النعمة ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ أي بل النعمة امتحان له، أيشكر أم يكفر، وتأنيث هي مراعاة للفظ النعمة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن تخويل النعمة استدراج وامتحان. وهو دليل على أن المراد بالإنسان الجنس.

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم كقارون وقومه الراضين بها، وأنث ضمير ﴿قَالَهَا﴾ لأن المراد هو الجملة أو الكلمة التي هي: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من متاع الدنيا ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ جزاء سيئات أعمالهم وجزاء أعمالهم، وسماه سيئة؛ لأنه في مقابلة أعمالهم السيئة، رمزاً إلى أن جميع أعمالهم كذلك ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بالعتوّ ﴿مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركين، و﴿مِنْ﴾ للبيان، أو للتبعيض ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ جزاء كسبهم كما أصاب أولئك، وقد أصابهم، فإنهم قحطوا سبع سنين، وقتل صناديدهم في بدر ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين عذابنا.

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ يوسعه ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ امتحاناً ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيقه لمن يشاء ابتلاء ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بأن الحوادث كلها من الله، سواء بالبسط أو بالتضييق.

المناسبة:

بعد أن حكى الله تعالى بعض قبائح المشركين، أتبعه بحكاية نوع آخر من القبائح، وهو أنهم عند الوقوع في الضر الذي هو الفقر والمرض يفزعون إلى الله تعالى، وفي حال النعمة وهي السعة في المال أو العافية في النفس، يزعمون أن حصول ذلك بكسبهم وجهدهم وجِدّهم، وهذا تناقض قبيح صارخ. والحقيقة أن ما أوتوه من النعمة فتنة واختبار ليعرف شكرهم أو كفرهم، وأما مقالتهم فهي قديمة قالها كثير قبلهم كقارون وغيره.

ثم أبان تعالى أن الله وحده مصدر الرزق، يوسعه لمن يشاء، ويضيقه على من يشاء، بدليل اختلاف الناس في سعة الرزق وضيقه، سواء من المؤمنين والكافرين، وليس جمع الثروة أو ضعفها بعقل الرجل وجهله، أو كياسته وخبرته وغباوته، وإنما بتوفيق الله وتيسيره.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن سوء طبع الإنسان وحاله، فيقول:

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي إذا أصاب الإنسان المشرك وغيره ضر من فقر أو مرض أو غيرهما، تضرع إلى الله عز وجل، واستعان به لكشف الضر عنه، وإذا أعطاه الله نعمة من مال أو جاه أو غيرهما، بغى وطغى، وقال: إنما أعطيته على علم ومهارة مني بوجوه المكاسب، أو لما يعلم الله تعالى من استحقاقي وتأهلي له. قيل: نزلت في حُذَيفة ابن المغيرة.

والحقيقة: ليس الإعطاء لما ذكرتَ، وليس الأمر كما زعمتَ، بل هو محنة لك، واختبار لحالك، وقد أنعمنا عليك بهذه النعمة لنختبرك فيما أنعمنا

عليك، أتشكر أم تكفر؟ أتطيع أم تعصي؟ مع علمنا المتقدم بذلك، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن ذلك استدراج لهم من الله، وامتحان لما عندهم من الشكر أو الكفر، فلهذا يقولون ما يقولون، ويدّعون ما يدّعون.

ويلاحظ أن لفظ النعمة مؤنث، ومعناه مذكر، لذا حينما قال: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ راعى التأنيث، وحينما قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ راعى التذكير، وكلا الأمرين جائز.

ثم أوضح الله تعالى قِدَم مقالتهم وسبقهم بها، فقال:

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي قد قال هذه المقالة أو الكلمة، وهي قولهم: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ وزعم هذا الزعم، وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم، كقارون وغيره، فما صحَّ قولهم، ولم يغن عنهم ما كسبوا من متاع الدنيا شيئاً، ولا نفعهم جمعهم المال الكثير، لذا قال تعالى:

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ۚ﴾ أي فحلَّ بهم جزاء سيئات ما كسبوا من الأعمال، فعوقبوا في الدنيا كالخسف بقارون وبداره الأرض، وسيعاقبون أشد العذاب في الآخرة. ونظير الآية قوله تعالى عن قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٢٨/٧٨].

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ: ٣٤/٣٥].

ثم هدّد الله تعالى وأوعد مشركي مكة بعقاب مماثل، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾

أي والذين ظلموا من هؤلاء الموجودين من الكفار، ومنهم مشركو مكة، سيصيبهم أيضاً وبال كسبهم الأعمال المنكرة، كما أصاب من قبلهم، من القحط والقتل والأسر والقهر، وما هم بفائتين على الله، هرباً يوم القيامة، بل مرجعهم إليه، يصنع بهم ما يشاء من العقوبة، ودليل قدرته العظمى ما قال:

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أي أو لم ير هؤلاء المشركون أن الله يوسع الرزق لمن يشاء توسعته له، ويقبضه لمن يشاء قبضه وتضييقه عليه، إن في ذلك لدلالات عظيمة وعلامات مؤثّرة لقوم يؤمنون بالله وحده وبسلطانه وبقدرته. وقد خصَّ المؤمنين؛ لأنهم المنتفعون بالآيات.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستفاد من الآيات ما يأتي:

١ً - إن حال الإنسان قلق مضطرب، لا وفاء عنده، ولا ثبات لديه على المبدأ، فتراه عند الشدة يستجير بالله ويستغيث به لينجو من محنته، وعند النعمة يبغي ويطغى ويبطر ويزعم أن النعمة بجهده ومهارته واستحقاقه وأهليته لها.

٢ً - الحق أن الثروة والغنى والفقر ليست ميزان قربى العبد من ربه، فقد يمنح الله المؤمن ويمنع الكافر، وقد يفعل العكس، لحكمة بالغة له في ذلك، والنعمة مع الكفر والمعصية استدراج وابتلاء واختبار، ليعرف كون العبد شاكراً أم جاحداً، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن إعطاءهم المال اختبار.

٣ً - لقد زعم كثير من الناس قديماً وحديثاً أن إعطاءهم المال لعلم ومهارة لديهم، وعلم من الله باستحقاقهم، فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً، وأصابهم جزاء سيئات أعمالهم، وسيصيب الذين أشركوا من أمة النبي ﷺ ومن كل الأمم جزاء كسبهم في الدنيا بالجوع والقتل مثلاً، وفي الآخرة بعذاب جهنم، وما هم بفائتين الله ولا سابقيه.

٤ - إن الله تعالى وحده هو مصدر الرزق، يمنح منه ما يشاء، ويمنعه عمن يشاء، وفي ذلك عبرة للمؤمنين؛ وخصَّ المؤمن بالذكر؛ لأنه هو الذي يتدبر الآيات وينتفع بها، ويعلم أن سعة الرزق قد تكون استدراجاً، وتقتيره رفعة وإعظاماً.

مغفرة الذنوب بالتوبة وإخلاص العمل

﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٥٩)﴾

القراءات:

﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ﴾: قرئ:

١- (ياعباديَ الذين) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وابن عامر، وعاصم.

٢- (ياعباديْ الذين) وهي قراءة الباقين.

﴿لَا تَقْنَطُوا۟﴾:

وقرأ أبو عمرو، والكسائي (لاتقْنِطوا).

الإعراب:

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ﴾: ﴿أَن﴾ وصلتها: في موضع نصب، مفعول لأجله.

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ جواب قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ والجواب بـ﴿بَلَىٰ﴾ لأنها تأتي في جواب النفي؛ لأن المعنى: ما هداني الله وما كنت من المتقين، فقيل له: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾، فلولا أن معنى الكلام النفي، وإلا لما وقعت ﴿بَلَىٰ﴾ في جوابه. ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ ﴿وَإِن﴾: مخففة من الثقيلة.

البلاغة:

آية ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ فيها: إقباله تعالى على خلقه ونداؤه لهم، وإضافة عباد إليه للتشريف، والتفات من التكلم إلى الغيبة، إذ الأصل: تسرفوا، ولا تقنطوا من رحمتي، وإضافة الرحمة في قوله ﴿مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ إلى الله باعتبار لفظ الجلالة جامعاً لجميع الأسماء والصفات، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ جملة معرَّفة الطرفين، مؤكدة بإن وضمير الفصل، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ﴾ وضع فيه الاسم الظاهر موضع الضمير؛ لدلالته على أنه المستغني والمنعم على الإطلاق.

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ قوله: ﴿جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾: كناية عن حق الله وطاعته.

المفردات اللغوية:

﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ هذه الإضافة مخصوصة بالمؤمنين في عرف القرآن.

﴿أَسْرَفُوا۟﴾ أي تجاوزوا الحد في أفعالهم، بالإسراف أو الإفراط في المعاصي ﴿لَا تَقْنَطُوا۟﴾ لا تيأسوا من مغفرته وتفضله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ عفواً منه، ولو بعد تعذيب، وتقييد المغفرة بالتوبة خلاف الظاهر، كما قال البيضاوي، ويدل على إطلاقها فيما عدا الشرك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء: ٤/٤٨] والتعليل بقوله هنا:

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ على المبالغة وإفادة الحصر، والوعد بالرحمة بعد المغفرة. لكن هذا متروك لمشيئة الله وتفضله، وليس هو القانون العام.

﴿وَأَنِيبُوٓاْ﴾ ارجعوا وتوبوا ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ﴾ أخلصوا العمل ﴿لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ بمنعه، إن لم تتوبوا، وذكر الإنابة بعد المغفرة لئلا يطمع طامع في حصولها بغير توبة، وللدلالة على أنها شرط فيها لازم، لا تحصل بدونه، كما قال الزمخشري، أي إن المغفرة لا تحصل لكل أحد من غير توبة وإخلاص في العمل، وهو القانون العام.

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ وهو القرآن ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بمجيئه، فتتداركون التقصير في الأعمال ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ كراهة أن تقول نفس، وتنكير نفس لأن القائل بعض الأنفس، أو للتكثير ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ أي يا حسرتي وندامتي ﴿فَرَّطتُ﴾ قصرت ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ جانبه أي طاعته وعبادته وطلب مرضاته ﴿وَإِن﴾ وإني ﴿ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ المستهزئين بدينه وكتابه وأهله.

﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ بالطاعة والإرشاد إلى الحق فاهتديت ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ عذابه، باتقاء الشرك والمعاصي ﴿كَرَّةً﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ المؤمنين الذين أحسنوا العقيدة والعمل ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ القرآن، وهو سبب الهداية، وهو ردّ من الله على القائل: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ الذي في قوله معنى النفي أي أن ﴿بَلَىٰ﴾ حرف لا يجاب به إلا بعد النفي. ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ تكبرت عن الإيمان بها. وتذكير الخطاب على المعنى، وقرئ بالتأنيث عوداً للنفس.

سبب النزول:

نزول الآية (٥٣):

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ﴾: أخرج الشيخان: البخاري ومسلم، وأبو

داود والنسائي عن ابن عباس: أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً ﷺ، فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، أو تخبرنا أن لنا توبة - أو أنْ لِما عَمِلنا كفارة -؟ فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٧٠] ونزل: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ الآية.

والمراد من آيات الفرقان: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا﴾ الآية.

وأخرج الإمام أحمد عن ثَوْبان مولى رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية، فقال رجل: يا رسول الله، فمن أشرك؟ فسكت النبي ﷺ، ثم قال: «ألا، ومن أشرك - ثلاث مرات» .

وأخرج أحمد أيضاً عن عَمْرو بن عَنْبَسة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ شيخ كبير، يدعم على عصاً له، فقال: يا رسول الله، إن لي غَدَرات وفَجَرات، فهل يُغْفَر لي؟ فقال ﷺ: «ألست تشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: بلى، وأشهد أنك رسول الله، فقال ﷺ: قد غفر لك غَدَراتك وفَجَراتك».

وأخرج الحاكم والطبراني عن ابن عمر قال: كنا نقول: ما لِمُفْتَتن توبة، إذا ترك دينه بعد إسلامه ومعرفته، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، أنزل فيهم: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير وابن مَرْدُويه عن ابن عباس قال: إن أهل مكة قالوا: يزعم محمد أن من عبد الأوثان، ودعا مع الله إلهاً آخر، وقتل النفس التي حرم الله، لم يُغْفَر له، فكيف نهاجر ونسلم، وقد عبدنا الآلهة، وقتلنا النفس، ونحن أهل شرك؟ فأنزل الله: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ﴾ الآية.

المناسبة:

بعد أن أوعد الله تعالى الكافرين بشتى أنواع الوعيد، أردفه ببيان كمال رحمته وفضله وإحسانه في حق عباده المؤمنين، بغفران ذنوبهم إذا تابوا وأنابوا إليه وأخلصوا العمل له، لترغيب الكفار في الإيمان بالله تعالى وترك الضلال، وكثيراً ما تأتي آيات الرحمة مع آيات النقمة ليرجو العبد ويخاف. قال أبو حيان: وهذه الآية: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ﴾ عامة في كل كافر يتوب ومؤمن عاص يتوب، تمحو الذنبَ توبته.

التفسير والبيان:

﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ أي قل أيها الرسول: يا عباد الله الذين أفرطوا في المعاصي واستكثروا منها، لا تيأسوا من مغفرة الله تعالى، فإن الله يغفر كل ذنب إلا الشرك الذي لم يتب منه صاحبه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء: ٤/٤٨] إن الله كثير المغفرة والرحمة، فلا يعاقب بعد التوبة. قال ابن كثير: هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها، ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، ولا يصح حمل هذه على غير توبة؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه[1].

وقال الشوكاني: وهذه الآية أرجى آية في كتاب الله، لاشتمالها على أعظم بشارة، فإنه أولاً أضاف العباد إلى نفسه، لقصد تشريفهم ومزيد تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي والاستكثار من الذنوب، ثم عقَّب ذلك بالنهي

(١) تفسير ابن كثير: ٤/٥٨

عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب، فالنهي عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب الأولى وبفحوى الخطاب، ثم جاء بما لا يبقى بعده شك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾.

وتقييد المغفرة بالتوبة والإنابة وإخلاص العمل مأخوذ من الآية التالية: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ الآية ومن الأحاديث المتقدمة في سبب النزول، فباب الرحمة واسع، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة: ٩/ ١٠٤] وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠﴾ [النساء: ٤/ ١١٠].

أخرج الطبراني عن سُنَيد بن شَكَل قال: سمعت ابن مسعود يقول: إن أعظم آية في كتاب الله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥] و[آل عمران ٣/ ٢]. وإن أجمع آية في القرآن بخير وشر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ١٦/ ٩٠]. وإن أكثر آية في القرآن فرجاً في سورة الغُرَف (أي الزمر): ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾. وإن أشد آية في كتاب الله تفويضاً: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا، وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٦٥/ ٢-٣] فقال له مسروق: صدقت[١].

وروى ابن أبي حاتم عن أبي الكنود قال: مَرّ عبد الله - يعني ابن مسعود - رضي الله عنه على قاض، وهو يذكّر الناس، فقال: يا مذكّر، لِمَ تقنطُ الناس من رحمة الله؟ ثم قرأ: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾.

ثم ذكر الله تعالى تقييد المغفرة بشرطين، فقال:

أ - الإنابة والتوبة ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٥٩

﴿ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أي ارجعوا إلى الله بالتوبة والطاعة، واجتناب المعاصي، والاستسلام لأمره، والخضوع لحكمه، من قبل مجيء عذاب الدنيا بالموت، ثم لا تجدوا نصيراً ولا معيناً يمنع عذابه عنكم، أي قبل حلول النقمة.

٢ - اتباع القرآن: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي واتبعوا القرآن، أحلوا حلاله، وحرموا حرامه، والتزموا طاعته واجتنبوا معاصيه، أي اتبعوا أوامر الله واجتنبوا نواهيه، والقرآن كله حسن.

وذلك من قبل مجيء العذاب فجأة، وأنتم غافلون عنه، لا تشعرون به. وهذا تهديد ووعيد شديد واضح.

ثم حذر الله تعالى من التعلل بالأماني والتحسر على الماضي في وقت لا ينفع فيه ذلك، فقال:

أ - ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أي بادروا إلى التوبة والعمل الصالح، واحذروا أن تقول نفس مجرمة مفرطة في التوبة والإنابة: يا ندامتي وحسرتي على تقصيري في الإيمان بالله، وطاعته، وبالقرآن والعمل به، وإنما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزئ بدين الله وكتابه وبرسوله وبالمؤمنين، غير موقن ولا مصدّق بشيء من ذلك.

٢ - ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾﴾ أي أو أن تقول: لو أن الله أرشدني إلى دينه، لكنت ممن يتقي الله، ويجتنب الشرك والمعاصي.

٣ - ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ

﴿ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ أي أو أن تقول حين معاينة العذاب: ليت لي رجعة أخرى إلى الدنيا، فأكون من المؤمنين بالله، الموحّدين له، المحسنين في أعمالهم، وبإيجاز: تود لو أعيدت إلى الدنيا لتحسن العمل.

فردّ الله تعالى بقوله:

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ أي نعم، لقد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتي المنزلة في القرآن في الدار الدنيا، وقامت حججي عليك، فكذبت بها، واستكبرت عن اتباعها، وكنت من الجاحدين لها، والمعنى: قد كنت متمكناً من التصديق والمتابعة، فلماذا تطلب الرجعة إلى الدنيا الآن؟! ولن تنفعك الرجعة ولا فائدة منها لقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٨] .

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات الأحكام التالية:

١ - إن لله تعالى أن يغفر جميع الذنوب الصادرة من المؤمنين، ويعفو عن الكبائر منها أيضاً. وهذا متروك لمشيئة الله وفضله.

٢- يغفر الله تعالى الذنوب بالتوبة من الشرك والكفر والمعاصي، والإنابة والرجوع إلى الله بالإخلاص والعمل الصالح، والخضوع له والطاعة لأوامره واجتناب نواهيه.

ومحل ذلك كله في الدنيا قبل مجيء العذاب بالموت، وتعذر التخلص منه، أو المنع منه بناصر أو معين.

٣ - العمل: هو اتباع القرآن العظيم، بإحلال حلاله، وتحريم حرامه، والتزام أوامره وطاعته، واجتناب نواهيه ومعصيته. ويلاحظ أنه تعالى لما وعد بالمغفرة أمر بعد هذا الوعد بشيئين:

الأول: الإنابة والتوبة.

الثاني: متابعة الأحسن، وهو القرآن، كما قال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٣٩/٢٣] والقرآن كله حسن، واتباعه: العمل بما أمر الله في كتابه، واجتناب معصيته.

٤ - يأتي المقصر يوم القيامة بثلاثة أشياء:

أولها - الحسرة على التفريط في الطاعة، وأنه ما كان إلا من المستهزئين بالقرآن وبالرسول وبأولياء الله المؤمنين في الدنيا.

ثانيها - التعلل بفقد الهداية، وهذا قريب من احتجاج المشركين فيما أخبر الله عنه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٦/١٤٨] فهي كلمة حق أريد بها باطل.

ثالثها - تمني الرجعة إلى الدنيا، كما قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ٢٣/٩٩-١٠٠].

٥ - أجاب الله تعالى عن كلامهم بأن قال: التعلل بفقد الهداية باطل؛ لأن الهداية كانت حاضرة، والأعذار زائلة، ولكن العبد كذب بالقرآن، وتكبر عن اتباع آياته، وكان من الكافرين بها، الجاحدين لها.

حال المشركين المكذبين وحال المتقين يوم القيامة

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾

القراءات:

﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (بمفازاتهم).

الإعراب:

﴿تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ ﴿الَّذِينَ﴾: مفعول ﴿تَرَى﴾ و﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾: جملة اسمية في موضع نصب على الحال، واستغني عن الواو لمكان الضمير في قوله: ﴿وُجُوهُهُم﴾. ولو نصب ﴿وُجُوهُهُم﴾ على البدل من ﴿الَّذِينَ﴾ لكان جائزاً حسناً.

﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ حال، أو استئناف لبيان المفازة.

المفردات اللغوية:

﴿كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ بنسبة الولد والشريك إليه ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ لما ينالهم من الشدة، ويعتريهم من الذل والحسرة ﴿مَثْوًى﴾ مقام أو مأوى ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان والطاعة. والاستفهام: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ تقرير وإثبات لأنهم يُرون كذلك.

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ﴾ من جهنم ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك الذي هو الكذب على الله ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بفوزهم بالجنة وفلاحهم، بأن يجعلوا في الجنة، وتفسيرها بالسعادة والعمل الصالح إطلاق لها على السبب، فإن سبب منجاتهم العمل الصالح، ويجوز أن يسمى العمل الصالح بنفسه مفازة؛ لأنه سببها.

المناسبة:

بعد وعيد المشركين بما سبق من أهوال القيامة، ووعد المتقين بالعفو والمغفرة والنعيم، ذكر الله تعالى نوعاً آخر من الوعيد والوعد، وهو حال

الفريقين يوم القيامة، حال المكذبين، وحال المتقين، فتسودُّ وجوه الفريق الأول، وتبيضُّ وجوه الفريق الثاني.

التفسير والبيان:

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠)﴾ أي واذكر أيها الرسول خبراً مهماً هو حين ترى يوم القيامة الذين كذبوا على الله في دعواهم له شريكاً وصاحبة وولداً، وجوههم مسودة بكذبهم وافترائهم، لما أحدق بهم من شدة وحزن وكآبة، ولما شاهدوه من العذاب وغضب الله ونقمته.

إن في جهنم مسكناً ومقاماً للمتكبرين عن طاعة الله، الذين أبوا الانقياد للحق. والكبر: هو بطر الحق وغمط الناس، كما في الحديث الصحيح. وفي حديث آخر أخرجه أحمد والترمذي عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ: «يُحشر المتكبرون يوم القيامة كأمثال الذَّرّ في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان يساقون إلى سجن في جهنم..» .

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١)﴾ هذا حال الفريق الآخر في مواجهة فريق المشركين المكذبين، وهو أن الله ينجي الذين اتقوا الشرك ومعاصي الله من عذاب جهنم، ينجيهم بفوزهم، أي بنجاتهم من النار، وفوزهم بالجنة، وينفي السوء والحزن عنهم يوم القيامة، بل هم آمنون من كل فزع.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيتان على شيئين:

الأول - اسوداد وجوه الكفار المشركين الذين كذبوا على الله بنسبة الشريك والولد إليه، مما أحاط بهم من غضب الله ونقمته، والزج بهم في نار جهنم، في أشد حالات الذل والمهانة والصغار.

الثاني - نجاة المتقين الشركَ والمعاصي من النار، وفوزهم بالجنة. والآية الثانية في شأنهم تدل على أن المؤمنين لا ينالهم الخوف والرعب يوم القيامة، وتأكد هذا بقولهم: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٣] .

وقد فسر النبي ﷺ هذه الآية في حديث أبي هريرة، قال: «يَحْشُرُ الله مع كل امرئ عملَه، فيكون عمل المؤمن معه في أحسن صورة، وأطيب ريح، فكلما كان رُعْبٌ أو خَوْف، قال له: لا تُرَع، فما أنت بالمراد به، ولا أنت بالمعنيّ به، فإذا كثر ذلك عليه قال: فما أحسنك! فمن أنت؟ فيقول: أما تعرفني؟ أنا عملك الصالح، حملتني على ثِقَلي، فوالله لأحملنك، ولأدفعنّ عنك، فهي التي قال الله: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾» .

دلائل الألوهية والتوحيد

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾

القراءات:

﴿تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾: قرئ:

١- (تأمرونيَ أعبد) وهي قراءة نافع.

٢- (تأمرونِّيَ أعبد) وهي قراءة ابن كثير.

٣- (تأمروني أعبد) وهي قراءة ابن عامر.

٤- (تأمرونِّيْ أعبد) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾؟ (غير) : إما منصوب بـ﴿أَعْبُدُ﴾ أي أعبد غير الله فيما تأمروني به، وإما منصوب بـ﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾ لأنه يقتضي مفعولين. الثاني منهما بحرف جر، كقولك: أمرتك الخير، أي بالخير، فالياء: هي المفعول الأول، وغير: مفعول ثان. وأعبد: في موضع البدل من (غير) تقديره: أتأمروني بغير الله أن أعبد.

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب بـ ﴿أَعْبُدُ﴾ أو منصوب بتقدير فعل، أي بل اعبد الله فاعبد. والفاء: زائدة عند الأخفش، وغير زائدة عند غيره.

﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾ ﴿وَٱلْأَرْضُ﴾: مبتدأ، و﴿قَبْضَتُهُۥ﴾: خبره، و﴿جَمِيعًا﴾: حال.

البلاغة:

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استعارة، شبه الخيرات والبركات والأرزاق بخزائن، واستعار لها لفظ المقاليد أي المفاتيح، والمعنى: خزائن رحمته وفضله بيده تعالى.

﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ استعارة تمثيلية، مثّل لعظمته وكمال قدرته وحقارة السماوات والأرض بالنسبة إلى القدرة بمن قبض شيئاً عظيماً بكفه، وطوى السماوات بيمينه بطريق الاستعارة التمثيلية.

المفردات اللغوية:

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من خير وشر وإيمان وكفر ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

﴿وَكِيلٌ﴾ قيّم يتولى التصرف فيه ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مفاتيح خزائنها من المطر والنبات وغيرهما، لا يملك أمرها ولا يتمكن من التصرف فيها غيره، وهو كناية عن قدرته وحفظه لها ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآن ودلائل قدرة الله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أنفسهم، وهذا عائد على فريق المكذبين الذين نسبوا إلى الله ولداً وشريكاً، وما قبله اعتراض للدلالة على أنه مهيمن على العباد، مطلع على أفعالهم، مجاز عليها.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي أفغير الله أعبد بعد هذه الدلائل والمواعيد، و﴿تَأْمُرُوٓنِّىٓ﴾ اعتراض للدلالة على أنهم أمروه به عقيب ذلك. وقرئ (تأمروني) بتخفيف النون، مثل: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أي تبشرونني.

﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ كلام على سبيل الفرض، والمراد به تهييج الرسل، وإقناط الكفرة، وتنبيه الأمة. وأفرد الخطاب: باعتبار كل واحد. واللام الأولى: موطئة للقسم، والأخيرتان للجواب. وعطف الخسران على إحباط الأعمال: من عطف المسبب على السبب. و﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ ليذهبن هباء منثوراً. والإحباط: الإبطال.

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ ردّ لما أمروه به ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ إنعامه عليك ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ ما عظّموه حق التعظيم اللائق به، حيث جعلوا له شريكاً ووصفوه بما لا يليق به ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا﴾ أي الأراضي السبع ﴿قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ مقبوضة له في ملكه وتصرفه، والقبضة: المرة من القبض ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ مجموعات بقدرته. وهذه الآية تنبيه على عظمة الله وكمال قدرته وحقارة الأجرام العظام بالنسبة لقدرته، وفيها دلالة على أن تخريب العالم أهون شيء عليه. والآية على طريقة التمثيل

والتخييل من غير اعتبار القبضة واليمين حقيقة ولا مجازاً، كما ذكر الزمخشري والبيضاوي. ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه وتقدس وتعاظم الله عما يشركون معه، فما أبعد ما ينسب إلى الله من الولد والشريك عن قدرته وعظمته. هذا واليمين تطلق على اليد، وعلى القدرة والملك، وعلى القوة: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/٤٥] أي بالقوة والقدرة، والمعنى لأخذنا قوته وقدرته. قال الشاعر:

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

سبب النزول:

نزول الآية (٦٤):

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾: أخرج البيهقي في الدلائل عن الحسن البصري قال: قال المشركون للنبي ﷺ: أتضلل آباءك وأجدادك يا محمد؟ فأنزل الله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾ إلى قوله: ﴿مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، ويعبدوا معه إلهه، فنزلت: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾ الآية.

نزول الآية (٦٧):

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾: أخرج الترمذي وصححه عن ابن عباس قال: مرّ يهودي بالنبي ﷺ فقال: كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السماوات على ذه، والأرضين على ذه، والماء على ذه، والجبال على ذه، فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: غدت اليهود، فنظروا في خلق السماوات والأرض والملائكة، فلما فزعوا أخذوا يقدرونه، فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾

وأخرج ابن المنذر عن الربيع بن أنس قال: لما نزلت: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥] قالوا: يا رسول الله، هذا الكرسي، فكيف العرش؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية.

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى الوعد والوعيد يوم القيامة لأهل التوحيد وأهل الشرك، عاد إلى تبيان دلائل الألوهية والتوحيد. ثم نعى على الكافرين أمرهم رسول الله ﷺ بعبادة الأصنام، وأنهم لم يعرفوا الله حق المعرفة؛ إذ لو عرفوه لما جعلوا الجمادات شركاء له في العبودية.

التفسير والبيان:

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ أي إن الله تعالى هو مبدع الأشياء كلها وخالقها جميعها، الموجودة في الدنيا والآخرة، لا فرق بين شيء وآخر، وهو ربها ومالكها والمتصرف فيها والقائم بحفظها وتدبيرها، فهي محتاجة إليه في وجودها وبقائها معاً. وهذا دليل على أن أعمال العباد مخلوقة لله.

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي هو مالك أمرها وحافظها، وهذا استعارة لملكه خيراتها وأرزاقها، أو كناية عن انفراده تعالى بحفظها وتدبيرها وملك مفاتيحها؛ لأن حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذي يملك مقاليدها، أي مفاتيحها. وهذه الجملة تأكيد للجملة السابقة: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أو عطف بيان، أو تعليل لها، ورأى بعضهم أنها جملة مستأنفة.

والمعنى الجامع للجملتين: أن السلطان والملك، والتصرف في كل شيء، والتدبير والحفظ هو لله تعالى.

وروى ابن أبي حاتم عن عثمان بن عفان رضي الله عنه «أنه سأل رسول الله

ﷺ عن تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فقال: ما سألني عنها أحد قبلك يا عثمان، تفسيرها: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، وبحمده، أستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، بيده الخير، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير..» يعني أن قائل ذلك تفتح له خزائن السماوات والأرض، ويصيبه خير كثير، وأجر كبير.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي والذين جحدوا آيات الله في القرآن وبراهينه في الأكوان الدالة على وحدانية الله وعظيم قدرته وأنه مالك السماوات والأرض ومدبرهما، أولئك هم الذين خسروا أنفسهم، وخلدوا في نار جهنم، جزاء كفرهم.

ثم أمر الله رسوله بتوبيخ المشركين على الدعوة لعبادة الأصنام، فقال:

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي قل أيها الرسول لكفار قومك الذين دعوك إلى عبادة الأصنام قائلين: هو دين آبائك: أتأمروني أيها الجهلة بعبادة غير الله بعد أن قامت الأدلة القطعية على تفرده بالألوهية، فهو خالق الأشياء كلها وربها ومدبرها، فلا تصلح العبادة إلا له سبحانه.

﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ أي إن أمركم لعجيب، فلقد أوحي إلي وإلى من قبلي من الرسل أن الإله المعبود هو الله وحده لا شريك له، وأنه إذا أشرك نبي - على سبيل الفرض والتقدير - ليحبطن ويبطلن عمله، وليكونن من الذين خسروا أنفسهم، وضيعوا دنياهم وآخرتهم.

وإذا كان الشرك موجباً إحباط عمل الأنبياء فَرَضاً، فهو محبط عمل غيرهم بطريق الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٨٨].

ثم انتقل من النهي عن الشرك إلى الأمر بعبادة الله وحده، فقال تعالى:

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ أي أخلص العبادة لله وحده لا شريك له أنت ومن اتبعك وصدَّقك، واعبده وحده، ولا تعبد معه أحداً سواه، وكن من الشاكرين إنعامه عليك بالتوفيق والهداية للإيمان بالله وحده، وتشريفك بالرسالة والدعوة إلى دين الله تعالى.

وبعد أن نعى الله تعالى ما أمر به المشركون نبيَّ الله من عبادة الأوثان، نعى عليهم أنهم لم يعرفوا الله حق المعرفة، فقال:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أي ما عظموا الله حق تعظيمه، وما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه إلهاً غيره، وهو الذي لا أعظم ولا أقدر منه.

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حَبْرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السماوات على أصبع، والأرضين على أصبع، والشجر على أصبع، والماء والثرى على أصبع، وسائر الخلق على أصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، تصديقاً لقول الحَبْر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الآية.

وروى أحمد ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «إن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده، يحركها يُقْبِلُ بها ويُدْبِرُ: يمجِّد الرب نفسه، أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملِك، أنا العزيز، أنا الكريم. فرُجِفَ برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا: ليخرّنَّ به».

﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي والحال أن الأرض تحت تصرف الله وملكه، والسماوات خاضعة لقدرته وسلطانه ومشيئته وإرادته، تنزه وتقدس الله عما يشركون به من المعبودات التي جعلوها شركاء لله، فالمراد باليمين: القدرة.

وهذه الجملة في رأي الخلف تمثيل لحال عظمة الله تعالى وكمال تصرفه ونفاذ قدرته بحال القابض على الأرض كلها والسماوات جميعها. ويرى السلف وجوب الإيمان بهذه الظواهر، والاعتقاد بالقبضة واليمين؛ لأن الأصل في الكلام حمله على الحقيقة، ويقولون: رأي السلف أسلم، ورأي الخلف أحكم. وإني أميل إلى الأسلم.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟» .

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ً - إن الله تعالى خالق الأشياء كلها، ومنها أعمال العباد.

٢ً - إن الله سبحانه هو القائم بحفظ الأشياء وتدبيرها من غير مشارك، وهو سبحانه مالك أمر السماوات والأرض وحافظها، وهذا التعبير من باب الكناية؛ لأن حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذي بيده مقاليدها.

٣ً - إن الذين كفروا بالقرآن والحجج والدلالات الدالة على وجود الله ووحدانيته وكمال عظمته وقدرته هم الخاسرون أنفسهم في الدنيا والآخرة. وصريح الآية يقتضي أنه لا خاسر إلا كافر.

٤ً - من العجب العجاب صدور أمرين من المشركين: أولهما - أن يطلبوا من النبي ﷺ عبادة أصنامهم، ليعبدوا معها إلهه. وثانيهما - أنهم لم يعرفوا الله حق المعرفة، ولم يعظموه حق التعظيم؛ إذ عبدوا معه غيره، وهو خالق الأشياء ومالكها.

٥ً - وصف الله تعالى المشركين بالجهل؛ لأنهم لم يتفكروا بخالق الأشياء ولا بكونه مالكاً لمقاليد السماوات والأرض، وعبدوا أصناماً جمادات لا تضر ولا تنفع، ومن فعل مثل ذلك فهو في غاية الجهل.

٦ً - إن الشرك والكفر محبط مبطل لجميع أعمال الكفار والمشركين، ولو كانت صالحة، فلا ثواب لهم عليها في الآخرة، بسبب أرضية الكفر التي قامت عليها.

ومن ارتد أيضاً ومات على الكفر، لم تنفعه طاعاته السابقة، وحبطت أعماله كلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢/٢١٧] . وعليه من حج ثم ارتد ثم عاد إلى الإسلام لا يجب عليه إعادة الحج.

٧ً - السماوات والأرض كلها تحت ملك الله وقدرته وتصرفه، وليس ذلك بجارحة لأنه نزه نفسه عنها فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه وتقدس عن أن تجعل الأصنام شركاء له في المعبودية.

نفختا الصور والفصل في الخصومات وإيفاء كل واحد حقه

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

القراءات:

﴿وَجِاْىٓءَ﴾:

بإشمام كسرة الجيم الضم قرأ الكسائي. وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

﴿بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

وقرأ نافع (بالنبيئين).

الإعراب:

﴿يَنظُرُونَ﴾ حال من ضميره.

البلاغة:

﴿يَنظُرُونَ﴾ ﴿يُظْلَمُونَ﴾ ﴿يَفْعَلُونَ﴾ بينها توافق الفواصل في الحرف الأخير، مما يوحي بروعة البيان وكمال الجمال.

المفردات اللغوية:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ النفخة الأولى التي يموت بها الخلائق كلهم،

و﴿ٱلصُّورِ﴾ بوق أو قرن ينفخ فيه ﴿فَصَعِقَ﴾ مات أو غُشي عليه ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قيل: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فإنهم يموتون بعد ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ النفخة الثانية للبعث من القبور ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ جميع الخلائق الموتى ﴿قِيَامٌ﴾ قائمون من قبورهم ﴿يَنظُرُونَ﴾ ينتظرون ما يفعل بهم.

﴿وَأَشْرَقَتِ﴾ أضاءت ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بما أقام فيها من العدل، وما قضى به من الحق ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ وضع كتاب الأعمال أو صحائف الأعمال للحساب ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الذين يشهدون للأمم وعليهم من الملائكة والمؤمنين ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ وقضي بين العباد بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ شيئاً ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ وصلت كل نفس إلى حقها، وحصلت على الجزاء ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ عالم ﴿بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فلا يحتاج إلى شاهد.

المناسبة:

بعد بيان أدلة عظمة الله وكمال قدرته بتصرفه في الكون وتدبيره، وخلقه كل شيء، ذكر الله تعالى مقدمات يوم القيامة الدالة أيضاً على تمام القدرة وعظمة السلطان، وهي نفختا الصور مرتين، الأولى للإماتة، والثانية للبعث من القبور، ثم الفصل بالحق والعدل بين الخلائق للحساب والجزاء، وإيصال الحق إلى كل واحد.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن هول يوم القيامة وما فيه من الآيات العظيمة الباهرة الدالة على كمال القدرة وتمام العظمة الإلهية، فيقول:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي هذه هي النفخة الأولى للموت، حيث ينفخ إسرافيل في الصور الذي هو بوق أو قرن، فيموت من الفزع وشدة الصوت أهل السماوات والأرض، والصعق: الموت في الحال.

إلا من شاء الله ألا يموت حينئذ كجبرائيل وميكائيل وإسرافيل نفسه الذين يموتون بعد ذلك. قال قتادة: لا ندري من هم؟

ثم ينفخ فيه نفخة أخرى للبعث من القبور، فيقوم الخلق كلهم أحياء على أرجلهم ينظرون أهوال القيامة وما يقال لهم أو ينتظرون ما يفعل بهم، بعد أن كانوا عظاماً ورفاتاً، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ٧٩/١٣-١٤] وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٥٢] وقال جل وعلا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم: ٣٠/٢٥].

ثم ذكر الله تعالى بعض أحوال يوم القيامة:

١ - ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي أضاءت أرض المحشر وأنارت بتجلي الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء، وبما أقامه الله من العدل بين أهلها، وما قضى به من الحق بين عباده.

٢ - ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي وضعت كتب وصحائف أعمال بني آدم بين يدي أصحابها، إما باليمين وإما بالشمال، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء: ١٧/١٣] وقال سبحانه: ﴿مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ﴾ [الكهف: ١٨/٤٩].

٣ - ٤: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ أي وجيء بالأنبياء إلى الموقف، ليسألوا عما أجابتهم به أممهم، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤/٤١] وجيء أيضاً بالشهود الذين يشهدون على الأمم من الملائكة الحفظة التي تقيد أعمال العباد كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [ق: ٥٠/٢١]

والسائق: يسوق للحساب، والشهيد يشهد عليها، وكذا من أمة محمد ﷺ الذين يشهدون على الأمم بما بلغتهم به رسلهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢/١٤٣].

وكذلك يجاء بالشهداء المؤمنين الذين استشهدوا في سبيل الله، فيشهدون يوم القيامة بالبلاغ على من بلّغوه، فكذّب بالحق.

وبعد فصل الخصومات، بيَّن تعالى أنه يوصل إلى كل شخص حقه، فقال معبراً عن هذا المعنى بأربع عبارات:

١ً - ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي وقضي بين العباد بالعدل والصدق.

٢ً - ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقصون من ثوابهم، ولا يزاد في عقابهم، ويكون جزاؤهم على قدر أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٤٧] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤/٤٠].

٣ً - ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي وفيت وأعطيت كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر.

٤ً - ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي والله عالم بما يفعل العباد في الدنيا، من غير حاجة إلى كاتب ولا حاسب ولا شاهد، وإنما وضَعَ الكتاب، وجيء بالنبيين والشهداء لتكميل الحجة، وقطع المعذرة. وأتى بهذا الحكم للدلالة على أنه تعالى يقضي بالحق عن علم تام، فلا يحتمل وجود أي خطأ في ذلك الحكم. والمقصود: بيان أن كل مكلف يصل إلى حقه.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - يكون يوم القيامة نفختان: النفخة الأولى منهما يموت بها الخلق، ويحيون في الثانية. والذي ينفخ في الصور هو إسرافيل عليه السلام. وقد قيل: إنه يكون معه جبريل؛ لحديث ابن ماجه في السنن عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن صاحبي الصور بأيديهما قَرْنان يلاحظان النظر، متى يؤمران» وحديث أبي داود عن أبي سعيد الخدري أيضاً قال: «ذكر رسول الله ﷺ صاحب الصور، وقال: عن يمينه جبرائيل، وعن يساره ميكائيل» .

٢ً - اختلف في المستثنى من هم؟ فقيل: هم الشهداء متقلّدين أسيافهم حول العرش؛ لحديث مرفوع عن أبي هريرة ذكره القشيري، وحديث عبد الله ابن عمر الذي ذكره الثعلبي. وقيل: إنهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملَك الموت عليهم السلام، لحديث أنس الذي ذكره الثعلبي والنحاس أن النبي ﷺ تلا: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فقالوا: يا نبيّ الله من هم الذين استثنى الله تعالى؟ قال: «هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملَك الموت» ثم ذكر أنه يؤمر جبريل بإماتة نفس إسرافيل وميكائيل وملك الموت، ثم يميت الله جبريل، ففي هذا الحديث: «إن آخرهم موتاً جبريل عليه وعليهم السلام» .

قال القرطبي: وحديث أبي هريرة في الشهداء أصح. وقال قتادة: الله أعلم بثنياه، أي استثنائه.

٣ً - يكون البعث: بأن يبعث الأموات من أهل الأرض والسماء أحياء من قبورهم، وتعاد إليهم أبدانهم وأرواحهم، فيقومون ينظرون، ماذا يؤمرون، أو ينتظرون ما يفعل بهم.

٤ً - تستنير أرض المحشر وتضيء بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده، والظلم ظلمات، والعدل نور. أو إنها تستنير بنور خلقه الله تعالى، فيضيء به الأرض.

وقال أبو جعفر النحاس: وقوله عز وجل: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ يبين هذا الحديثُ المرفوع من طرق كثيرة صحاح: «تنظرون إلى الله عز وجل، لا تُضامّون في رؤيته»[١] أي لا يلحقكم ضيم كما يلحقكم في الدنيا في النظر إلى الملوك.

٥ً - إن أحوال الحكم والقضاء سبع: أن يوضع كتاب الأعمال بين آخذ بيمينه وآخذ بشماله، ويجاء بالنبيين والشهداء، فيسألون عما أجابت الأمم أنبياءها، ويقضى بين الناس بالصدق والعدل، ولا يظلمون، فلا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم، وتوفى كل نفس ما عملت من خير أو شر، والله أعلم بما فعلت كل نفس في الدنيا.

أحوال أهل العقاب وأهل الثواب

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

(١) وهو يروى على أربعة أوجه: لا تُضامُون، ولا تُضارُون، ولا تضامّون، ولا تضارّون. أي لا يلحقكم ضير.

القراءات:

﴿وَسِيقَ﴾:

بإشمام كسرة السين الضم قرأ ابن عامر، والكسائي، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

﴿فُتِحَتْ﴾، ﴿وَفُتِحَتْ﴾: قرئ:

١- (فُتِحَتْ، وفُتِحَتْ) وهي قراءة عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (فُتِّحَت، وفُتِّحَت) وهي قراءة الباقين.

﴿قِيلَ﴾، ﴿وَقِيلَ﴾:

بإشمام كسرة القاف الضم، قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

﴿فَبِئْسَ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي (فبيس).

الإعراب:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ﴾ (٧٣) جواب ﴿إِذَا﴾: إما محذوف تقديره: حتى إذا جاؤوها فازوا أو نعموا، والواو فيه للحال بتقدير: قد، أو قوله تعالى﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ والواو زائدة، تقديره: حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها، أو قوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ والواو زائدة، تقديره: حتى إذا جاؤوها قال لهم خزنتها. والوجه الأول أوجه.

﴿طِبْتُمْ﴾ حال.

﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ ﴿حَآفِّينَ﴾: حال؛ لأن المراد بـ ﴿وترى﴾ رؤية البصر لا رؤية القلب. وواحد حافين: حاف. وقال الفراء: هذا لا واحد له؛ لأن هذا الاسم لا يقع لهم إلا مجتمعين.

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ الجملة حال ثانية.

البلاغة:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ مقابلة بينهما، قابل بين حال السعداء وحال الأشقياء. والمقابلة كما تقدم: أن يؤتى بمعنيين أو أكثر، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب.

﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وضع الظاهر فيه موضع الضمير للدلالة على اختصاص ذلك بالكفرة.

﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ استعارة، تشبيهاً بحال الوارث وتصرفه في إرثه.

المفردات اللغوية:

﴿وَسِيقَ﴾ من السوق: وهو الحث على السير بعنف وشدة وإزعاج، بقصد الإهانة والاحتقار ﴿زُمَرًا﴾ الزمر: جماعات أو أفواج متفرقة مرتبة، بعضها إثر بعض، بمقدار تفاوتهم في الضلالة والشر ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ ليدخلوها، وهو جواب إذا، وفتح أبواب جهنم عند مجيئهم ليبقى حرّها إليهم، إهانة لهم. ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ تقريعاً وتوبيخاً ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ من جنسكم ﴿ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ القرآن وغيره ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ ويخوفونكم وقتكم هذا، وهو وقت دخولهم النار، قال البيضاوي: وفيه دليل على أنه لا تكليف قبل الشرع، من حيث إنهم عللوا توبيخهم بإتيان الرسل وتبليغ الكتب. ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وجبت عليهم كلمة الله بالعذاب، وهو الحكم عليهم بالشقاوة بسبب أعمالهم، وأنهم من أهل النار، وقيل: هو قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١/١١٩] .

﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أبهم القائل لتهويل ما يقال لهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ ماكثين فيها على الدوام ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ اللام فيه للجنس، والمخصوص بالذم محذوف سبق ذكره، أي بئس المأوى جهنم، وهذا دليل على أن تكبرهم عن الحق سبب لدخول النار.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾أي أسرع بهم بلطف إلى دار الكرامة جماعات، على تفاوت مراتبهم في الشرف وعلو الطبقة ﴿وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ أي والحال أنه قد فتحت لهم الأبواب قبل مجيئهم تكريماً وتعظيماً، وحذف جواب ﴿إِذَا﴾ للدلالة على أن لهم حينئذ من الكرامة والتعظيم ما لا يحيط به الوصف، وأن أبواب الجنة تفتح لهم قبل مجيئهم منتظرين استقبالهم، والجواب المقدر: دخلوها ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ لا يعتريكم بعد مكروه ﴿طِبۡتُمۡ﴾ طهرتم من دنس المعاصي ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ أي مخلدين فيها على الدوام أو مقدَّرين الخلود، والفاء للدلالة على أن ﴿طِبۡتُمۡ﴾ سبب لدخولهم وخلودهم، وهو لا يمنع دخول العاصي بعفوه تعالى؛ لأنه يطهره.

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ عطف على الفعل المقدر جواباً لـ ﴿إِذَا﴾ وهو: دخلوها ﴿صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾ بالبعث والثواب والجنة ﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي أرض الجنة، يريدون المكان الذي استقروا فيه، وقد أورثوها، أي ملكوها وجعلوا ملاكها، وأطلق تصرفهم فيها كما يشاؤون، تشبيهاً بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه، على سبيل الاستعارة ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ ننزل ﴿مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ﴾ ننزل في أي مقام أردنا من الجنة الواسعة، مع أن في الجنة مقامات معنوية لا يتمانع واردوها ﴿فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ الجنة.

﴿حَآفِّينَ﴾ محدقين من حول العرش ومحيطين حوله .﴿مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾ من كل جانب. و﴿مِنۡ﴾ مزيدة ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ﴾ ينزهون ربهم من كل نقص، ملتبسين بحمده، قائلين: سبحان الله وبحمده، والجملة حال ثانية أو

مقيدة للأولى، والمعنى: ذاكرين له بوصفي جلاله وإكرامه تلذذاً به. وفيه إشعار بأن منتهى درجات العليين وأعلى لذائذهم هو الاستغراق في صفات الحق.

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ حكم بين جميع الخلائق بالعدل، فيدخل المؤمنون الجنة، والكافرون النار ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ أي على ما قضى بيننا من الحق، والقائلون هم المؤمنون المقضي بينهم، أو الملائكة، وقد طوي ذكرهم لتعينهم وتعظيمهم. والخلاصة: لقد ختم استقرار الفريقين بالحمد لله.

المناسبة:

بعد بيان أحوال أهل القيامة مجملاً، بقوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أبان الله تعالى بالتفصيل أحوال أهل العقاب وأحوال أهل الثواب، ثم وصف ذلك الموكب المهيب موكب الملائكة المحدقين الحافين حول العرش، الذين يسبحون بحمد ربهم، ينزهونه عن النقائص، ويشكرونه، ويقولون بعد استقرار الفريقين في الجنة والنار: الحمد لله رب العالمين على ما أنعم به، وقضى بالحق بين الخلائق.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن حال الأشقياء الكفار، كيف يساقون إلى النار، فيقول:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ أي يساق الكافرون بربهم إلى النار، سوقاً عنيفاً بزجر وتهديد ووعيد، جماعات متفرقة مرتبة، بعضها إثر بعض، لكل جماعة قائد: هو رأسهم في الكفر وداعيتهم إليه. ونظير الآية: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ [الطور: ٥٢/١٣] أي يدفعون إليها دفعاً.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ أي حتى إذا وصلوا إليها، فتحت لهم أبوابها السبعة سريعاً ليدخلوها ولتعجل لهم العقوبة، ويختصوا بنارها.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾؟ أي وقال لهم خزنتها من الملائكة الزبانية الأشداء القوى حفظة النار والقائمين عليها، على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل: ألم يأتكم رسل من جنسكم وأنفسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم، يتلون عليكم آيات ربكم التي أنزلها لإقامة الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه، ويحذرونكم من شرّ هذا اليوم، ويخوفونكم لقاء هذا اليوم الذي صرتم إليه.

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي أجابهم الكفار معترفين قائلين لهم: بلى، قد جاؤونا وأنذرونا وأقاموا علينا الحجج والبراهين، ولكن كذبناهم وخالفناهم، ووجبت كلمة العذاب على من كفر بالله وأشرك، وهو قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١/١١٩].

ونظير الآية: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ، قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ٦٧/٨-١٠].

وبعد هذا الإقرار أجيبوا بإصدار حكم الجزاء، فقال تعالى:

﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ أي تقول لهم الملائكة الحفظة على النار: ادخلوا في أبواب جهنم التي فتحت لكم، مقدَّراً لكم فيها من قبل الله الخلود والبقاء، ماكثين فيها إلى الأبد، لا خروج لكم منها، ولا زوال لكم عنها، فبئس المسكن الدائم جهنم، بسبب تكبركم في الدنيا عن اتباع الحق، فهو الذي صيركم إلى ما أنتم فيه.

وإنما أُبهم القائل وأطلق، ولم ينسب إلى قائل معين، ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم يستحقون ما هم فيه، بما حكم العدل الخبير عليهم به.

ثم يخبر الله تعالى عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون إلى الجنة مكرّمين، فيقول:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾ أي وتسوق الملائكة المؤمنين بإعزاز وتشريف وتكريم وفداً إلى الجنة، جماعة بعد جماعة: المقربون، فالأبرار، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كل طائفة مع أمثالهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع الصديقين، والشهداء بعضهم مع بعض، والعلماء مع أقرانهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ أي حتى إذا وصلوا إلى أبواب الجنة الثمانية، بعد مجاوزة الصراط، واقتص لهم من مظالم الدنيا، وكانت قد فتحت أبوابها لاستقبالهم بالحراس.

ثبت في صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول شفيع في الجنة» وفي لفظ: «وأنا أول من يقرع باب الجنة».

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يدخل الجنة من أمتي زمرة هم سبعون ألفاً تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر، فقام عُكاشة بن مُحْصِن، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: اللهم اجعله منهم، ثم قام رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله، ادع الله تعالى أن يجعلني منهم، فقال ﷺ: سبَقَك بها عكاشة».

وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ، أو فيسبغ الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء».

وأخرج البخاري ومسلم عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ

قال: «إن في الجنة ثمانية أبواب، باب منها يسمّى الريان، لا يدخله إلا الصائمون».

وروى أحمد عن الحسن عن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مفاتيح الجنة: شهادة أن لا إله إلا الله».

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ أي وقال خزنة الجنة للمؤمنين: سلامة لكم من كل آفة ومكروه، طابت أعمالكم وأقوالكم وطاب سعيكم في الدنيا، فلم تتدنسوا بالشرك والمعاصي، وطاب جزاؤكم في الآخرة، كما أمر رسول الله ﷺ أن ينادى بين المسلمين في بعض الغزوات فيما رواه أحمد والترمذي والحاكم عن علي: «لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة - أو مؤمنة» فادخلوا الجنة ماكثين فيها أبداً، لا زوال ولا تحول عنها، ولا موت ولا فناء فيها.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ أي وقال المؤمنون الأتقياء الذين عملوا الصالحات إذا عاينوا الجنة وما فيها من نعيم مقيم وثواب وافر: الحمد والشكر لله العظيم الذي أنجزنا وعده بالبعث والثواب بالجنة، والذي وعدنا به على ألسنة رسله الكرام، كما دعَوْا في الدنيا: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٤]، ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٥/ ٣٤-٣٥].

وجعلنا ملاك الجنة المتصرفين فيها، نرث أرض الجنة، كأنها صارت من غيرهم إليهم، فملكوها وتصرفوا فيها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠٥].

وأين شئنا حللنا، نتخذ في الجنة من المنازل ما نشاء حيث نشاء، فنعم الأجر أجرنا على عملنا، ونعم أجر العاملين: الجنة. جاء في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه في قصة المعراج، قال النبي ﷺ: «أُدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ[١]، وإذا ترابها المسك».

ثم أخبر الله تعالى عن حال الملائكة المحدقين حول العرش، فقال:

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ أي وترى أيها السعيد المؤمن جماعات الملائكة محيطين محدقين بالعرش المجيد، يسبِّحون الله (ينزهون الله عن كل نقص وجور) ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه، ويحمدونه ويشكرونه على أفضاله ونعمه، قائلين: سبحان الله وبحمده.

والحال أيضاً أنه قد قضي بين العباد بالعدل، فأدخل بعضهم الجنة، وبعضهم النار، ونطق المؤمنون والملائكة والكون أجمعه بالحمد والشكر لله ربّ العالمين من الإنس والجن، في حكمه وعدله وقضائه بين المؤمنين وبين أهل النار بالحق المطلق الذي لا خطأ فيه.

وأبهم القائل وأطلق هنا كالسابق للدلالة على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد. قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ٦/١] ، واختتم بالحمد في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ويلاحظ أن المؤمنين حمدوا ربَّهم أولاً على إنجاز وعده ووراثتهم أرض الجنة، يتبوَّؤون منها حيث يشاؤون، وحمدوه ثانياً على القضاء بالحق، والحكم بالعدل بين الناس جميعاً.

---

(١) أي قباب اللؤلؤ، مفرده جُنْبذة: وهي ما ارتفع من الشيء واستدار كالقبة، يقال: مكان مُجَنْبذ: مرتفع (لسان العرب).

فقه الحياة أو الأحكام:

أبانت الآيات ما يأتي:

١ - توفى كل نفس عملها، فيساق الكافر إلى النار، والمؤمن إلى الجنة.

٢ - يساق أهل النار إليها بسرعة وعنف، إهانة لهم واحتقاراً، وهم حينذاك جماعات متفرقة بعضها إثر بعض، وتفتح أبواب جهنم عند وصولهم إليها، وتقول لهم سدنتها تقريعاً وتوبيخاً: ألم تأتكم الرسل من جنسكم لتبليغكم الكتب المنزلة عليكم، وإنذاركم وتخويفكم لقاء وقتكم هذا؟

٣ - يجيب أهل النار: نقر ونعترف بقيام الحجة علينا بمجيء الرسل، ولكن وجب العذاب على الكفار؛ لقوله تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود: ١١/١١٩].

٤ - دلّت هذه الآية: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٌ مِّنكُمۡ﴾ على أنه لا تكليف ولا إيجاب لشيء من الشرائع والأحكام قبل مجيء الشرع؛ لأن الملائكة بيَّنوا أنه ما بقي للكفار علّة ولا عذر بعد مجيء الأنبياء عليهم السلام، ولو لم يكن مجيء الأنبياء شرطاً في استحقاق العذاب، لما بقي في هذا الكلام فائدة.

٥ - تقول الملائكة بعد سماع جواب الكافرين: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾.

٦ - يقاد الأتقياء بلطف وإعزاز وإكرام، من الشهداء والزهاد والعلماء والقُرّاء وغيرهم، ممن اتقى الله تعالى وعمل بطاعته، ويؤتى بهم إلى الجنة، فيجدون أبوابها مفتحة لهم: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٥٠] ويذكر خزنة الجنة لأهل الثواب هذه الكلمات الثلاث:

الأولى - قولهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ يبشّرونهم بالسلامة من كل الآفات.

الثانية - قولهم: ﴿طِبْتُمْ﴾ من دنس المعاصي وطهرتم من خبث الخطايا.

الثالثة - قولهم: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ والتعليل بالفاء يدلّ على كون ذلك الدخول معللاً بالطيب والطهارة.

٧ً - سبب التفرقة بين أهل النار وأهل الجنة في فتح الأبواب، حيث فتحت أبواب النار بغير الواو، وفتحت أبواب الجنة بالواو: هو احتقار الفريق الأول وتخصيصهم بالنار، وإعزاز الفريق الثاني وإكرامهم بالاستقبال والاستعداد، فلا تفتح أبواب النار إلا عند دخول أهلها فيها، وتفتح أبواب الجنة قبل وصول أهلها إليها، ولذلك جيء بالواو، كأنه قيل: حتى إذا جاؤوها وقد فتحت أبوابها.

٨ً - إذا خاطبت الملائكة المتقين بالكلمات الثلاث السابقة، قال المتقون عند ذلك وبعد دخول الجنة: الحمد لله الذي صدقنا وعده بنعيم الجنة، وأورثنا أرض الجنة، فنعم ثواب المحسنين هذا الذي أعطيتنا.

٩ً - يكون الملائكة في جوانب العرش وأطرافه، قائلين: سبحان الله وبحمده، متلذذين بذلك لا متعبدين به، أي يصلون حول العرش شكراً لربهم، بعد أن قضي بين أهل الجنة والنار بالعدل، ويقول المؤمنون والملائكة ونحوهم: الحمد لله على ما أثابنا من نعمه وإحسانه، ونصرنا على من ظلمنا. ويرى الرازي أن قوله: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي بين الملائكة، وهو دليل على أنهم على درجات مختلفة ومراتب متفاوتة، فلكل واحد منهم في درجات المعرفة والطاعة حدّ محدود لا يتجاوزه ولا يتعداه[1].

---

(١) تفسير الرازي: ٢٧/ ٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة غافر

مكية، وهي خمس وثمانون آية

تسميتها:

تسمى هذه السورة سورة (غافر)؛ لافتتاحها بتنزيل القرآن من الله غافر الذنب وقابل التوب، والغافر من صفات الله وأسمائه الحسنى. وتسمى أيضاً سورة (المؤمن)؛ لاشتمالها على قصة مؤمن آل فرعون.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من ناحيتين:

الأولى - التشابه في الموضوع: فقد ذكر في كل من السورتين أحوال يوم القيامة وأحوال الكفار في يوم المحشر.

الثانية - الترابط بين خاتمة السورة السابقة ومطلع هذه السورة، فقد ذكر في نهاية سورة الزمر أحوال الكفار الأشقياء والمتقين السعداء، وافتتحت سورة غافر بأن الله غافر الذنب لحث الكافر على الإيمان وترك الكفر.

ومناسبة الحواميم السبع لسورة الزمر: تشابه الافتتاح بـ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ ورتبت الحواميم إثر بعضها، لاشتراكها بفاتحة ﴿حمٓ ۝١﴾ وبذكر

﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بعد ﴿حمٓ ۝١﴾ وأنها مكية، بل ورد في حديث أنها نزلت جملة واحدة، وفيها شبه من ترتيب ذوات (الراء) الست. ذكر السيوطي عن ابن عباس وجابر بن زيد في ترتيب السور: أن الحواميم نزلت عقب الزمر، وأنها نزلت متتاليات كترتيبها في المصحف: المؤمن، ثم السجدة، ثم الشورى، ثم الزخرف، ثم الدخان، ثم الجاثية، ثم الأحقاف، ولم يتخللها نزول غيرها، وذلك مناسبة واضحة لوضعها هكذا.

ويقال لها أيضاً: آل حم، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: آل حم ديباج القرآن. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن لكل شيء لباباً، ولباب القرآن آل حم، أو قال: الحواميم. وقال النبي ﷺ: «لكل شيء ثمرة، وإن ثمرة القرآن ذوات حم، هنّ روضات حسان مُخْصبات متجاورات، فمن أحبّ أن يرتع في رياض الجنة فليقرأ الحواميم» .

وقال رسول الله ﷺ لأصحابه في بعض الغزوات - فيما رواه أبو عبيد -: «إن بُيِّتم الليلة، فقولوا: حم لا ينصرون - أو لا تنصرون» .

وروى الحافظ أبو بكر البزار والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ آية الكرسي، وأول حم المؤمن، عصم ذلك اليوم من كل سوء» .

مشتملاتها:

سورة غافر والحواميم السبع مكية، فهي تُعنى بأصول العقيدة كسائر السور المكية، لذا جاءت آياتها عنيفة شديدة التأثير لإثبات وحدانية الله وتنزيل القرآن والبعث، ووصف ملائكة العرش، وإنهاء الصراع بين أهل الحق وبين أهل الباطل أو فريق الهدى وفريق الضلال.

وقد ابتدأت بإعلان تنزيل الكتاب الكريم من الله المتصف بالصفات

الحسنى، وهاجمت الكفار الذين يجادلون بالباطل، ثم وصفت مهام ملائكة العرش.

وأخبرت عن طلب أهل النار الخروج منها لشدة العذاب، ورفض هذا الطلب، وأقامت الأدلة على وجود الله القادر، وخوّفت من أهوال القيامة، وأنذرت الكفار من شدائد ذلك اليوم.

ثم لفتت الأنظار لموضع العبرة من إهلاك الأمم الغابرة وهو كفرهم بالآيات البيِّنات التي جيئوا بها، وخصّت بالذكر قصة موسى عليه السلام مع فرعون وهامان وقارون، وما دار من حوار بين فرعون وقومه وبين رجل من آل فرعون يكتم إيمانه، وما فعله فرعون الطاغية من قتل أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم، خشية انتشار الإيمان في قومه، وانتهاء القصة بهلاك فرعون بالغرق في البحر مع جنوده، ونجاة موسى وقومه جند الإيمان في ذلك العصر. وتلك هي قصة الإيمان والطغيان.

وقد أردف ذلك بإعلان خذلان الكافرين، ونصر الرسل والمؤمنين نصراً مؤزراً في الدنيا والآخرة.

وختمت القصة بأمر النبي ﷺ بالصبر على أذى قومه كما صبر موسى وغيره من أولي العزم.

ثم أوردت السورة الأدلة الكونية الدالة على وحدانية الله وقدرته، وضربت المثل للمؤمن بالبصير، وللكافر بالأعمى؛ فالمؤمن نيِّر القلب والبصيرة بنور الله، والكافر مظلم النفس يعيش في ظلمة الكفر.

وأتبعت ذلك ببيان نعم الله على عباده من الأنعام والفلك وغيرها.

وختمت السورة بما يؤكد الغرض المهم منها: وهو الاعتبار بمصرع الظالمين المكذبين، وما يلقونه من أصناف العذاب، ومبادرتهم إلى الإيمان حين

رؤية العذاب، ولكن لا ينفعهم ذلك، فإن سنّة الله الثابتة ألا يقبل إيمان اليأس أو حال رؤية البأس.

مصدر تنزيل القرآن وحال المجادلين في آياته

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾

القراءات:

﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر (كلمات ربك).

الإعراب:

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال الرازي: الأقرب ها هنا أن يقال ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ اسم للسورة، فقوله ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبر، والتقدير: إن هذه السورة المسماة بحم تنزيل الكتاب، فقول: ﴿تَنزِيلُ﴾ مصدر، لكن المراد منه: المنزل.

ويرى القرطبي وغيره أن ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مبتدأ، والخبر ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ ويجوز أن يكون ﴿تَنزِيلُ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي هذا ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ويجوز أن يكون ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ مبتدأ، و ﴿تَنزِيلُ﴾ خبره، كما قال

الرازي، والمعنى: إن القرآن أنزله الله وليس منقولاً، ولا مما يجوز أن يكذّب به. و﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾إما نعتان أو بدلان، ويجوز النصب على الحال. وأما ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ فهو نكرة ويكون خفضه على البدل.

و﴿حمٓ ١﴾: قرئ بالسكون، وهو المشهور على الأصل في الحروف المقطعة، وقرئ (حاميمَ) بفتح الميم، والفتح إما لالتقاء الساكنين؛ لأنه أخف الحركات، أو أن يكون فتح الميم علامة النصب بتقدير فعل، أي اتل حم.

﴿أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ بدل من ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بدل الكل من اللفظ أو الاشتمال من المعنى.

البلاغة:

﴿ٱلذَّنۢبِ﴾ و﴿ٱلتَّوۡبِ﴾ بينهما طباق.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وارد بصيغة الحصر.

المفردات اللغوية:

﴿حمٓ ١﴾ تقرأ هكذا: حاميم بالسكون، أو بالفتح حاميمَ، وهذه الحروف المقطعة المبدوء بها بعض السور للتنبيه على إعجاز القرآن وتحدي العرب أن يأتوا بمثله، وللدلالة على أن هذا القرآن المعجز منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية التي تتركب منها الكلمات والجمل العربية.

﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ القوي في ملكه، العليم بخلقه، قال البيضاوي: لعلّ تخصيص الوصفين لما في القرآن من الإعجاز والحِكَم، الدال على القدرة الكاملة والحكمة البالغة. ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾للمؤمنين التائبين. ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ يقبل منهم التوبة فضلاً منه ورحمة. ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾للكافرين. ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ صاحب الفضل والإنعام على عباده، وذو الغنى والسعة أيضاً، وإيراد هذه

الصفات للترغيب والترهيب والحثّ على الإيمان .﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ المرجع، فيجازي المطيع والعاصي.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآن .﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من مشركي مكة وأمثالهم، فيه تسجيل صفة الكفر على المجادلين في القرآن بالباطل والطعن فيه لإدحاض الحق .﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ لا تغترّ بإمهالهم وإقبالهم في دنياهم وتقلبهم في بلاد الشام واليمن بالتجارات الرابحة بقصد المعاش، فإن عاقبتهم النار والهلاك. والتقلب في البلاد: التصرف والتنقل.

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ كذبت قوم نوح بالرسل وعادوهم، وكذلك كذبت الأحزاب (الجماعات) من بعدهم كعاد وثمود وغيرهما .﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ﴾ من هؤلاء ﴿وَهَمَّتۡ﴾ عزمت. ﴿لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾ ليتمكنوا منه بما أرادوا من تعذيب وقتل، فيحبسوه ويأسروه ويعذبوه ويقتلوه .﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ بما لا حقيقة له .﴿لِيُدۡحِضُواْ﴾ يزيلوا به الحق. ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡۖ﴾ بالإهلاك والعقاب .﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي عقابي لهم، بأن وقع موقعه.

﴿حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ وجبت كلمته أي حكمه بالهلاك وقضاؤه بالعذاب .﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ لكفرهم .﴿أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي وتلك الكلمة هي أنهم مستحقون للنار.

سبب النزول:

نزول الآية (٤):

﴿مَا يُجَٰدِلُ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قال: نزلت في الحارث بن قيس السهمي.

التفسير والبيان:

موضوع هذه الآيات بيان مصدر نزول القرآن: وهو أنه من عند الله، الذي وصف نفسه بصفات ست، ثم مناقشة الكفار الذين جادلوا في آيات الله بالباطل أي بقصد الطعن فيها وإدحاض الحق، فاستحقوا التهديد بعذاب الله وهو أنهم في النار.

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢﴾ ﴿حمٓ ۝١﴾: من الحروف المقطعة في فواتح السور، للتنبيه على مضمون السورة وعلى إعجاز القرآن المكون نظمه من حروف اللغة العربية التي ينطق بها العرب وينظمون بها الأشعار ويدبّجون بها الخطب الرنانة، ومع ذلك لا يستطيعون معارضته؛ لأنه كلام الله تعالى.

والقرآن المتلو بين الناس على الملأ منزَّل من عند الله، ليس بكذب عليه، والله الذي أنزله هو العزيز أي الغالب القوي القادر القاهر، والعليم أي البالغ العلم التام بخلقه وما يقولونه ويفعلونه، الذي يعلم السر وأخفى.

ثم وصف الله نفسه بستة أنواع من الصفات الجامعة بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، فقال:

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ أي إن الله منزل القرآن هو غافر الذنب الذي سلف لأوليائه، سواء أكان صغيرة أم كبيرة بعد التوبة أو قبل التوبة بمشيئته، وقابل توبتهم المخلصة، وشديد العقاب لأعدائه، وذو التفضل والإنعام والسعة والغنى، ينعم بمحض إحسانه تعالى، وهو الإله الواحد الذي لا شريك له ولا ندّ ولا صاحبة ولا ولد، وإليه المرجع والمآب في اليوم الآخر، لا إلى غيره.

ثم ذكر تعالى أحوال المجادلين في القرآن بقصد إبطاله وإطفاء نوره، فقال:

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾﴾ أي ما يخاصم في دفع آيات الله وتكذيبها إلا الذين كفروا، فهم يجادلون بالباطل بقصد دحض الحق، كوصفهم القرآن بأنه شعر أو سحر أو أساطير الأولين، فلا تغترّ أيها النبي وكل مؤمن بشيء من رفاهية الدنيا التي تراهم فيها، كالتجارة في البلاد، وتحقيق الأرباح، وجمع الأموال، فإنهم معاقبون عما قليل، وعاقبتهم في النهاية الدمار والهلاك، وهذا إيناس للنبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٣/١٩٦-١٩٧] ، وقال سبحانه: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٤] .

ويلاحظ أن الجدال نوعان: جدال في تقرير الحق، وجدال في تقرير الباطل، أما الجدال بالحق لبيان غوامض الأمور والوصول إلى فهم الحقائق: فهو جائز مشروع، اتخذه الأنبياء أسلوباً في دعوتهم إلى الدين الحق، قال تعالى حكاية عن قوم نوح عليه السلام أنهم قالوا له: ﴿يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: ١١/ ٣٢] ، وقال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٥] .

وأما الجدال بالباطل كالمذكور هنا فهو مذموم، كما قال تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٥٨] ، وهو المشار إليه في قوله ﷺ: «لا تُماروا في القرآنِ، فإن المِراء فيه كفر» ، «إن جدالاً في القرآن كفر» .

قال أبو العالية: آيتان ما أشدهما على الذين يجادلون في القرآن، قوله: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۢ بَعِيدٖ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٦] .

ثم أخبر الله تعالى عن تشابه أقوام الأنبياء في تكذيب رسلهم، فقال:

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ أي كذبت قبل قوم

قريش قوم نوح (وهو أول رسول بعثه الله للنهي عن عبادة الأوثان) والجماعات الذين تحزبوا على الرسل من بعد قوم نوح، كعاد وثمود وأصحاب لوط وقوم فرعون، بتكذيب رسلهم، فعوقبوا أشد العقاب.

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا بِالْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ أي وعزمت وحرصت كل أمة من تلك الأمم المكذبة برسولهم المرسل إليهم على أخذه، لحبسه وتعذيبه وإصابة ما يريدون منه أو قتله، فمنهم من قتل رسوله، وخاصموا رسولهم بالشبهة وبالباطل من القول، ليردوا الحق الواضح الجلي، وليبطلوا الإيمان. روى أبو القاسم الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من أعان باطلاً ليدحض به حقاً، فقد برئت منه ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ». وقال يحيى بن سلام: جادلوا الأنبياء بالشرك ليبطلوا به الإيمان.

﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي فأخذت هؤلاء المجادلين بالباطل بالعذاب، وأهلكتهم، فقد جاء الأخذ بمعنى الإهلاك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٢٢/٤٤] . فانظر كيف عقابي الذي عاقبتهم به؟ فإنه كان مهلكاً مستأصلاً، وليعتبر قومك يا محمد بهذا، فإني أعاقبهم بعقاب مماثل، وإنهم يمرون على بلادهم ومساكنهم، فيعاينون أثر ذلك. وهذا تقرير فيه معنى التعجيب، وأكّد هذا المعنى بقوله:

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ النَّارِ ﴿٦﴾﴾ أي ومثل ذلك عذاب كل كافر، والمعنى: وكما وجب العذاب على الأمم المكذبة لرسلهم، وجب على الذين كفروا بك يا محمد، وجادلوك بالباطل، وتحزبوا عليك، فالسبب واحد والعلة واحدة، وذلك العذاب هو استحقاقهم النار. والمراد بكلمة العذاب هي أنهم مستحقون النار.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت الآيات على ما يأتي:

١ً - إن تنزيل القرآن من الله ذي العزة والعلم، فهو ليس منقولاً ولا مما يصحّ أن يكذّب به.

٢ً - وصف الله تعالى نفسه بستّ صفات تجمع بين الترغيب والترهيب، وتفتح باب الأمل للعصاة والكفار للمبادرة إلى ساحة الإيمان والتزام جادة الاستقامة على أمر الله ومنهجه. وتشير القصتان التاليتان إلى مدى فعالية هذا الأسلوب القرآني في إصلاح البشرية.

روى ابن أبي حاتم وابن جرير عن أبي إسحاق السبيعي قال: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين، إني قَتَلْتُ، فهل لي من توبة؟ فقرأ عمر رضي الله عنه: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ الآية، وقال: اعمل ولا تيأس.

وروى ابن أبي حاتم أيضاً والحافظ أبو نعيم عن يزيد بن الأصم قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس، وكان يفد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ففقده عمر، فقال: ما فعل فلان بن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، تتابع في هذا الشراب. فدعا عمر كاتبه، فقال:

اكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾. ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يُقبل بقلبه ويتوب الله عليه.

فلما بلغ الرجل كتاب عمر رضي الله عنه جعل يقرؤه ويردده، ويقول:

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ قد حذّرني عقوبته، ووعدني أن يغفر لي. فلم يزل يرددها على نفسه، ثم بكى، ثم نزع فأحسن النزع.

فلما بلغ عمر خبره قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاً لكم زلّ زلّة، فسدّدوه ووثّقوه، وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه.

٣ً - قد يعفو الله تعالى عن الذنوب الصغائر بتوبة أو بغير توبة، وقد يعفو أيضاً عن الكبائر كالقتل والسرقة والزنى بعد التوبة، وإطلاق الآية ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ يدل على كونه غافراً للذنوب الكبائر قبل التوبة، إذا شاء وأراد.

ولكن قبول التوبة من الذنب يقع على سبيل التفضل والإحسان من الله، وليس بواجب على الله؛ لأنه تعالى ذكر كونه قابلاً للتوب على سبيل المدح والثناء، ولو كان ذلك من الواجبات لم يبق فيه من معنى المدح إلا القليل. وقالت المعتزلة: إنه واجب على الله بإيجاب منه على نفسه، لا بإيجاب غيره عليه.

٤ً - في الآية إيماء بترجيح جانب الرحمة والفضل على جانب الغضب والعدل؛ لأنه تعالى لما أراد أن يصف نفسه بأنه ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ ذكر قبله أمرين، كل واحد منهما يقتضي زوال العقاب، وهو كونه ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ وذكر بعده ما يدلّ على حصول الرحمة العظيمة، وهو قوله: ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِۖ﴾

٥ً - إن الجدال لتقرير الباطل لدحض الحق وإبطال الإيمان، بالاعتماد على الشبهات، بعد البيان القرآني وظهور البرهان الإلهي: كفر وضلال وجحود لآيات الله وحججه وبراهينه.

والجدال في آيات الله أن يقال مثلاً عن القرآن: إنه سحر أو شعر أو من قول الكهنة، أو أساطير الأولين، أو إنما يعلّمه بشر، ونحو ذلك.

أما الجدال لتوضيح الحق ورفع اللَّبْس والرّد إلى الحق، فهو من أعظم ما يتقرّب به المتقرِّبون، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٤٦].

٦ - لا يغترن أحد بإمهال الكفرة والعصاة وتركهم سالمين في أبدانهم وأموالهم يترددون في البلاد للتجارة وطلب المعاش، فإن الله يمهل ولا يهمل، وإنه وإن أمهلهم فإنه سينتقم منهم كما فعل بأمثالهم من الأمم الماضية.

٧ - المثال المتكرر في القرآن الكريم: هو أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة برسلها، الذين جادلوا الأنبياء بالشرك ليبطلوا به الإيمان، وقد لمس الناس آثار ذلك الهلاك في ديارهم ومساكنهم، لذا قال تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي كيف كان عقابي إياهم، أليس وجدوه حقاً؟!

٨ - إن مثل الذي وجب (حق) على الأمم السالفة من العقاب، يجب (يحق) على الذين كفروا في كل زمان ومكان، سواء من قريش وغيرهم، فهم على وشك نزول العقاب بهم.

محبة الملائكة حملة العرش للمؤمنين ونصرتهم

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾

القراءات:

﴿وَقِهِمْ﴾ : قرئ:

١- (وقهِم) وهي قراءة أبي عمرو.

٢- (وقهُم) وهي قراءة حمزة، والكسائي.

٣- (وقهِمُ) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ مبتدأ، وخبره: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾

﴿وَمَن صَلَحَ﴾ معطوف على هم ضمير ﴿وَأَدۡخِلۡهُمۡ﴾.

﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ﴿وَمَن﴾ اسم موصول، مبتدأ، وخبره جملة ﴿فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ﴾

المفردات اللغوية:

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ هم الملائكة الكروبيون الذين هم أعلى طبقات الملائكة وأولهم وجوداً، وحملهم العرش عند بعضهم: مجاز عن حفظهم وتدبيرهم له، و﴿ٱلۡعَرۡشَ﴾ مركز تدبير العالم، وهو حقيقة، الله أعلم به ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ يقرنون التسبيح (تنزيه الله عن كل النقائص) بالحمد والشكر، فيقولون: سبحان الله وبحمده. ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ بالله تعالى، أي يصدقون ببصائرهم بوحدانية الله. ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يطلبون المغفرة لهم، فهم يشفعون لهم ويلهمون المؤمنين ما يوجب المغفرة، ويحملونهم على التوبة، وفيه تنبيه على أن المشاركة في الإيمان توجب النصح والشفقة. ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ أي يقولون ربَّنا، وهو بيان لقوله: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ﴾. والمعنى: يا ربنا؛ لقد وسعت رحمتك كل شيء، ووسع علمك

كل شيء .﴿فَٱغۡفِرۡ﴾ المغفرة: الستر .﴿تَابُواْ﴾ من الشرك .﴿وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ دين الإسلام .﴿وَقِهِمۡ﴾ احفظهم واصرف عنهم .﴿عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ عذاب النار.

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ إقامة دائمة .﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ القوي الغالب القاهر .﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في صنعه .﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ احفظهم من عذابها أي جزاء السيئات .﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ﴾ يوم القيامة.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى أن الكفار يبالغون في إظهار العداوة للمؤمنين، بيَّن هنا أن أشرف المخلوقات وهم حملة العرش والذين هم حول العرش يبالغون في إظهار المحبة والنصرة للمؤمنين، فلا تبال بالكفرة أيها الرسول، ولا تلتفت إليهم ولا تُقِمْ لهم وزناً، فإن حملة العرش ومن حوله ينصرونك.

التفسير والبيان:

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ﴾ إن الملائكة حملة العرش ومن حوله من الملائكة الكروبيين الذين هم أفضل الملائكة يقرنون بين التسبيح (التنزيه) الدال على نفي النقائص، والتحميد المقتضي لإثبات صفات الثناء والتمجيد، ويصدقون بوجود الله ووحدانيته ولا يستكبرون عن عبادته، فهم خاشعون له، أذلاء بين يديه، ويطلبون المغفرة للذين آمنوا من أهل الأرض ممن آمن بالغيب.

ولما كان هذا من سجايا الملائكة عليهم السلام، فهم يؤمِّنون على دعاء المؤمن لأخيه المؤمن بظهر الغيب، كما ثبت في صحيح مسلم: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب، قال الملَك: آمين، ولك بمثله» .

ونحن نؤمن بحمل الملائكة العرش، ونترك الكيف والعدد لله عز وجل، ورأى بعض المفسرين أن المراد بالحمل: التدبير والحفظ، والعرش أعظم المخلوقات، ونؤمن به كما ورد.

وذكر ابن كثير أن حملة العرش اليوم أربعة، فإذا كانوا يوم القيامة كانوا ثمانية، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾(١) [الحاقة: ٦٩/ ١٧].

وفائدة وصف الملائكة بالإيمان، مع أن التسبيح والتحميد يكون مسبوقاً بالإيمان: هو إظهار شرف الإيمان وفضله والترغيب فيه، كما وصف الأنبياء في غير موضع من كتاب الله بالصلاح لذلك، وكما عقَّب أعمال الخير بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ٩٠/ ١٧] فأبان بذلك فضل الإيمان. وفائدة أخرى هي التنبيه على أن إيمانهم كغيرهم سواء بطريق النظر والاستدلال لا غير، لا بالمشاهدة والمعاينة(٢).

وصيغة استغفارهم للمؤمنين هي:

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي وسعت رحمتك وعلمك كل شيء، فاستر واصفح عن الذين تابوا عن الذنوب، واتبعوا سبيل الله وهو دين الإسلام، واحفظهم من عذاب الجحيم - عذاب النار.

قال خلَف بن هشام البزار القارئ: كنت أقرأ على سليم بن عيسى، فلما بلغت: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بكى، ثم قال: يا خلَف! ما أكرم المؤمن على الله، نائماً على فراشه، والملائكة يستغفرون له.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾ ربنا وأدخلهم جنات الإقامة الدائمة التي وعدتهم بها على ألسنة رسلك، وأدخل معهم من صلح من

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٧١

(٢) الكشاف: ٣/ ٤٥، تفسير الرازي: ٢٧/ ٣٢

آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، بأن كان مؤمناً موحداً قد عمل الصالحات، اجمع بينهم وبينهم، تكميلاً لنعمتك عليهم، وتماماً لسرورهم، فإن الاجتماع بالأهل أكمل للبهجة والأنس، إنك أنت القوي الغالب الذي لا يغالب، الحكيم في أقوالك وأفعالك من شرعك وقدرك.

ونظير الآية: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِي بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور: ٥٢/ ٢١].

قال مُطَرِّف بن عبد الله الشِّخِّير: أنصح عباد الله للمؤمنين: الملائكة، ثم تلا هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ الآية، وأغشُّ عباده للمؤمنين: الشياطين.

وقال سعيد بن جُبَير: إن المؤمن إذا دخل الجنة، سأل عن أبيه وابنه وأخيه، أين هم؟ فيقال: إنهم لم يبلغوا طبقتك في العمل، فيقول: إني إنما عملت لي ولهم، فيلحقون به في الدرجة، ثم قرأ سعيد بن جبير هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآبِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾

ودعاؤهم إيجابي وسلبي، يشمل دخول الجنان ومنع العقاب، فقال تعالى:

﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَبِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ أي واحفظهم من العقوبات أو العذاب وجزاء السيئات التي عملوها، بأن تغفرها لهم، ولا تؤاخذهم بشيء منها، وأبعد عنهم ما يسوؤهم من العذاب، ومن تَقِهِ السيئات يوم القيامة، فقد رحمته من عذابك، وأدخلته جنتك، وهذا هو الفوز الساحق الأكبر الذي لا فوز أفضل منه.

وفائدة استغفار الملائكة للمؤمنين التائبن الصالحين الموعودين المغفرة وعداً لا خلف فيه: زيادة الكرامة والثواب.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١ - أخبر الله تعالى عن الملائكة حملة العرش بثلاثة أشياء: التسبيح المقرون بالتحميد، والإيمان الكامل بالله تعالى وحده لا شريك له، والاستغفار للمؤمنين شفقة عليهم. ويلاحظ أنه قدم التسبيح والتحميد على الاستغفار؛ لأن التعظيم لأمر الله مقدم على الشفقة على خلق الله.

والتسبيح: تنزيه الله تعالى عما لا يليق، والتحميد: الاعتراف بأنه هو المنعم على الإطلاق، والأول إشارة إلى الجلال، والثاني إشارة إلى الإكرام، كما قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/٧٨].

والعرش أعظم المخلوقات، نؤمن به، وندع أمر وصفه لله عز وجل. لكن يجب تنزيه الله عن التحديد والتجسيم والتكييف والحصر في مكان معين.

٢ - احتج كثير من العلماء بهذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ في إثبات أن الملَك أفضل من البشر؛ لأن الملائكة لما فرغوا من الثناء على الله والتقديس، اشتغلوا بالاستغفار لغيرهم، وهم المؤمنون. وهذا يدل على أنهم مستغنون عن الاستغفار لأنفسهم وإلا لبدؤوا بأنفسهم قبل غيرهم، بدليل قوله ﷺ: فيما رواه النسائي عن جابر «ابدأ بنفسك» وقوله تعالى لنبيه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ٤٧/١٩] فأمر محمداً ﷺ أن يستغفر لنفسه، ثم لغيره.

٣ - تدل هذه الآية أيضاً على حصول الشفاعة من الملائكة للمذنبين؛ لأن الاستغفار طلب المغفرة، والمغفرة لا تذكر إلا في إسقاط العقاب، أما طلب النفع الزائد وهو زيادة الثواب للمؤمنين، فإنه لا يسمى استغفاراً.

٤ - قال أهل التحقيق: إن هذه الشفاعة الصادرة عن الملائكة في حق البشر تجري مجرى اعتذار عن زلة سبقت.

٥ً - إن الدعاء في أكثر الأحوال يبدأ بلفظ (ربنا) كما فعل الملائكة في دعائهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ﴾ ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ﴾ ومن أرضى الدعاء: أن ينادي العبد ربه بقوله: (يا رب).

٦ً - السنة في الدعاء: أن يبدأ فيه بالثناء على الله تعالى، ثم يذكر الدعاء عقيبه، بدليل هذه الآية، فإن الملائكة لما عزموا على الدعاء والاستغفار للمؤمنين، بدؤوا بالثناء، فقالوا﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ وكذلك بدأ إبراهيم الخليل بالثناء أولاً على الله الهادي، الرزاق، الشافي، المحيي، الغفار، ثم قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/٨٣]. والعقل والأدب يدلان أيضاً على هذا الترتيب.

٧ً - وصف الملائكة الله تعالى في ثنائهم بقولهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ بثلاث صفات: الربوبية والرحمة والعلم، والربوبية إشارة إلى الإيجاد والإبداع، والرحمة إشارة إلى أن جانب الخير والرحمة والإحسان راجح على جانب الضر، وأنه تعالى خلق الخلق للرحمة والخير، لا للإضرار والشر.

٨ً - قوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ دليل على كونه سبحانه عالماً بجميع المعلومات التي لا نهاية لها من الكليات والجزئيات.

٩ً - اشتمل دعاء الملائكة على الخير كله وعلى أشياء كثيرة للمؤمنين وهي:

أ - طلب الغفران للتائبين من الشرك والمعاصي، الذين اتبعوا دين الإسلام.

ب - الوقاية من عذاب جهنم حتى لا يصل إليهم.

جـ - إدخالهم جنات عدن، قال عمر بن الخطاب لكعب الأحبار: ما جنات عدن؟ قال: قصور من ذهب في الجنة يدخلها النبيون والصدّيقون والشهداء وأئمة العدل.

وإدخال أقاربهم معهم أيضاً من الآباء والأزواج والذريات.

د - إن صونهم من جزاء السيئات، أي وقايتهم في الدنيا من العقائد الفاسدة والأعمال الفاسدة والوقاية من عذاب السيئات دليل على رحمة الله بدخول الجنة، وتلك هي النجاة الكبيرة.

والخلاصة: إن أكمل الدعاء: ما طلب فيه ثواب الجنة، والنجاة من النار.

اعتراف الكفار بذنوبهم وباستحقاقهم العقاب الأخروي والتذكير بقدرة الله وفضله

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

القراءات:

﴿وَيُنَزِّلُ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (ويُنْزِل).

الإعراب:

﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ مبتدأ وخبر، واللام لام الابتداء، وقعت بعد ﴿يُنَادَوْنَ﴾ لأنها في معنى: يقال لهم.

﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ ﴿إِذْ﴾: ظرف زمان، وعامله: إما: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ أو ﴿مَّقْتِكُمْ﴾ أو ﴿تُدْعَوْنَ﴾ أو فعل مقدر، تقديره: مقتكم إذ تدعون، أي حين دعيتم إلى الإيمان فكفرتم، وقيل: تقديره: اذكروا إذ تدعون.

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ ﴿يَوْمَ﴾: بدل منصوب من قوله ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ وهذا منصوب على أنه مفعول به لفعل: ينذر، لا الظرف؛ لأن الإنذار لا يكون في يوم التلاق، وإنما يكون الإنذار به، لا فيه. و﴿هُم بَٰرِزُونَ﴾: جملة اسمية في موضع جر بإضافة ﴿يَوْمَ﴾ إليها.

و ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ﴾ مبتدأ وخبر و﴿ٱلْيَوْمَ﴾ منصوب متعلق بمدلول قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي لمن استقر الملك في هذا اليوم، أو متعلق بنفس ﴿ٱلْمُلْكُ﴾. أو يوقف على ﴿ٱلْمُلْكُ﴾، ويبتدأ: ﴿ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أي هو مستقر لله الواحد القهار في هذا اليوم.

البلاغة:

﴿أَمَتَّنَا﴾ و﴿وَأَحْيَيْتَنَا﴾ بينهما طباق.

﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ استفهام يراد به التمني، وأنهم يعلمون أنهم لا يخرجون.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ بينهما مقابلة، قابل بين التوحيد والشرك، والكفر والإيمان.

﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ مجاز مرسل، أطلق الرزق الذي هو مسبب وأراد المطر الذي هو سبب في الأرزاق.

﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ ﴿ٱلرُّوحَ﴾ كناية عن الوحي؛ لأنه كالروح للجسد.

المفردات اللغوية:

﴿يُنَادَوْنَ﴾ يوم القيامة من قبل الملائكة، فيقال لهم: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ إياكم، وهو أشد البغض. ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ الأمارة بالسوء. ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ أي إن مقت الله حين دعيتم إلى الإيمان به في الدنيا، فكفرتم. ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ إماتتين، بأن خلقتنا أمواتاً أولاً، ثم صيرتنا أمواتاً عند انقضاء آجالنا، فإن الإماتة: جعل الشيء عادم الحياة، إما ابتداء، أو انتقالاً من الحياة إلى الموت. ﴿وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ الإحياءة الأولى وإحياءة البعث. ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ بالشرك والكفر بالبعث. ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ نوع من الخروج من النار لنطيع ربنا. ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ طريق، فنسلكه. جوابهم: لا.

﴿ذَٰلِكُم﴾ أي العذاب الذي أنتم فيه. ﴿بِأَنَّهُۥ﴾ بسبب أنه. ﴿إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ﴾ عبد الله وحده دون غيره. ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بالتوحيد. ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ﴾ يجعل له شريك في العبادة. ﴿تُؤْمِنُوا۟﴾ تصدقوا بالإشراك. ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ فالقضاء لله في تعذيبكم بالعذاب السرمدي. ﴿ٱلْعَلِىِّ﴾ عن أن يشرك به أحد من خلقه ويسوّى به. ﴿ٱلْكَبِيرِ﴾ العظيم الكبير على من أشرك به بعض مخلوقاته في العبادة.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دلائل قدرته وتوحيده ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ أسباب الرزق وهو المطر. ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ يتعظ بالآيات المستقرة في الفطر والعقول. ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ يرجع عن الشرك.

﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ اعبدوه. ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من الشرك. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إخلاصكم له وشق عليهم. ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ أي الله عظيم الصفات، المنزه عن مشابهة المخلوقات. ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ خالقه ومالكه. ﴿يُلْقِى

﴿ٱلرُّوحَ﴾ الوحي سمي روحاً؛ لأنه كالروح للجسد. ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ من قوله، وهذه أخبار ثلاثة بعد قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ﴾. ﴿لِيُنذِرَ﴾ يخوف النبي الملقى عليه الوحي الناس. ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ يوم اجتماع وتلاقي الخلائق للحساب أمام الله، فإنه يوم يلتقي فيه أهل السماء والأرض والعابد والمعبود والظالم والمظلوم والأعمال والعمال.

﴿بَٰرِزُونَ﴾ ظاهرون لا يسترهم شيء، أو خارجون من قبورهم. ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ حكاية لسؤال وما يجاب به، يسأله تعالى ويجيب نفسه، فهو القهار لخلقه. ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لا يشغله شأن عن شأن، فيحاسب الخلائق سريعاً، يحاسب جميع الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا، كما ورد في الحديث.

المناسبة:

بعد بيان أحوال الكافرين المجادلين في آيات الله، بيَّن الله تعالى أنهم يوم القيامة يعترفون بذنوبهم واستحقاقهم العذاب الذي ينزل بهم، ويسألون الرجوع إلى الدنيا، ليتلافوا ما فرط منهم.

وبعد ذكر ما يوجب التهديد الشديد للمشركين، ذكر ما يدل على كمال قدرته وحكمته، بإظهار البيِّنات والآيات، وإنزال الرزق من السماء، وإلقاء الوحي على من يشاء من عباده، لإنذار الناس بالعذاب يوم الحساب.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن مناداة الكفار يوم القيامة وهم يتلظون في النار، فيقول:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي تنادي الملائكة الكافرين يوم

القيامة، وهم يعذبون في نار جهنم، فيمقتون أنفسهم، ويبغضونها غاية البغض، بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة التي كانت سبب دخولهم إلى النار، قائلين لهم: أيها المعذِّبون أنفسهم في هذه الحالة، إن بغض الله لكم حين عُرض عليكم الإيمان في الدنيا من طريق الأنبياء، فتركتموه وكفرتم وأبيتم قبوله، أشد من بغضكم أنفسكم حين عاينتم عذاب النار يوم القيامة، ففي الآية حذف وتقديم وتأخير، أي لمقت الله إياكم حال ما تدعون إلى الإيمان فتكفرون أكبر من مقتكم أنفسكم.

فيجيبون بقولهم:

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿١١﴾﴾ أي قال الكفار المعذبون: ربنا أمتنا مرتين، حين كنا نطفاً في أصلاب الآباء قبل الحياة الظاهرة، وحين أصبحنا أمواتاً بعد حياتنا الدنيوية، وأحييتنا مرتين أيضاً: الأولى في الدنيا، والثانية عند البعث، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ [البقرة: ٢/٢٨].

فاعترفنا بذنوبنا التي ارتكبناها في الدنيا، من تكذيب الرسل، والإشراك بالله وترك توحيده، وإنكار البعث، ولكنه اعتراف وندم في وقت لا ينفعهم فيه الندم، فهل لنا طريق إلى الخروج من النار والرجوع إلى الدنيا، لنعمل غير الذي كنا نعمل؟ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ٣٢/١٢] وقال سبحانه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٦/٢٧] وقال عز وجل: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/١٠٧-١٠٨].

فأُجيبوا بالرفض مع بيان السبب، فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ أي أنتم هكذا على وضعكم، وإن رددتم إلى الدار الدنيا: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٨] فلا رجعة لكم، وتظلون في العذاب، بسبب أنكم كنتم إذا دعي الله وحده دون غيره في الدنيا، كفرتم به وتركتم توحيده باستمرار، وإن يشرك به غيره من الأصنام أو غيرها، تؤمنوا بالإشراك به وتجيبوا الداعي إليه، فالحكم لله وحده دون غيره، ولا يحكم إلا بالحق وبمقتضى الحكمة، وهو المتعالي عن المماثل في ذاته وصفاته، والأكبر من أن يكون له مثل أو صاحبة أو ولد أو شريك، فقوله: ﴿ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ دلالة على الكبرياء والعظمة.

ثم ذكر الله تعالى ما يدل على كمال قدرته وكبريائه وعظمته، فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ الله تعالى هو الذي يظهر لكم دلائل توحيده وعلامات قدرته، بما أودع في سمائه وأرضه من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها، وهو سبحانه الذي ينزل لكم المطر الذي يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس من اختلاف ألوانه وطعومه وروائحه وأشكاله وألوانه، مع أنه من ماء واحد وتراب واحد، مما يدل على قدرته وعظمة صنعه، ولكن ما يتعظ ويعتبر بتلك الآيات الباهرة إلا من يرجع إلى ربه، بالتأمل والتفكر والنظر في آيات الله، ثم بالطاعة والإذعان إليه.

ولما قرر الله تعالى ما يوجب توحيده، صرح بالمطلوب وهو الإقبال بالكلية على الله تعالى، والإعراض عن غير الله، فقال:

﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء، وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم، ولو كره الكافرون منهجكم ذلك، فلا تلتفتوا إلى كراهتهم، ودعوهم يموتوا بغيظهم.

ثبت في الصحيح عن عبد الله بن الزبير أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له المُلْك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين، ولو كره الكافرون» .

وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ادعوا الله تبارك وتعالى، وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاهٍ» .

ثم ذكر تعالى أيضاً ثلاث صفات أخرى من صفات الجلال والعظمة، فقال:

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ أي هو الذي يريكم آياته، وهو رفيع الصفات، وهو صاحب العرش ومالكه وخالقه والمتصرف فيه، وذلك يقتضي علو شأنه وعِظَم سلطانه، وهو الذي ينزل الوحي على من يريد من عباده الذين يختارهم لرسالته وتبليغ أحكامه، وهم الأنبياء، ليقوموا بإنذار الناس بالعذاب يوم يلتقي أهل السماوات والأرض في المحشر، ويلتقي الأولون والآخرون.

وسمي الوحي روحاً؛ لأن الناس يحيون به من موت الكفر، كما تحيا الأبدان بالأرواح. والمراد بقوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي من شرائعه التي يوحي بها إلى أنبيائه ليمتثلوا ويسيروا في حياتهم بموجبها.

ونظائر الآية كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾[النحل: ١٦/ ٢] ونحو قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾[الشعراء: ٢٦/ ١٩٢-١٩٤] .

ومن صفات يوم القيامة أيضاً ما يلي:

﴿يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ أي إن يوم التلاقي هو اليوم الذي هم فيه ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء، لاستواء الأرض، وهم خارجون من قبورهم في العراء، لا يخفى على الله شيء من أعمال العباد التي عملوها في الدنيا، سراً أو علانية، كما في آية أخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/١٨].

ويكون فيه الملك المطلق والسلطان الشامل لله الواحد الأحد، القاهر عباده وكل شيء بقدرته، قهرهم بالموت، ثم بالبعث الشامل. وقد أورد هذا المعنى لتقريره في الأذهان بصورة سؤال يسأل فيه الرب تعالى، يقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؟ أي يوم القيامة، فلا يجيبه أحد، فيجيب تعالى نفسه، فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

والخلاصة: ذكر تعالى هنا أربع صفات ليوم القيامة: هي كونه يوم التلاقي، وكون الخلق فيه ظاهرين جميعاً أمامه لا يسترهم شيء، وكونه يوماً لا يخفي الله فيه من الأعمال شيئاً، والمقصود بذلك الوعيد، فإنه تعالى إذا جمع الخلق، يجازي كلاً بحسبه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وكون الملك المطلق فيه لله عز وجل.

ثم ذكر تعالى صفة خامسة وسادسة ليوم القيامة، تبينان صفات عدل الله في حكمه بين خلقه، وفضله ورحمته، فقال:

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ أي إن يوم القيامة هذا هو يوم الجزاء وثواب كل عامل بعمله، من خير وشر، ولا ظلم في الحكم فيه على أحد، بنقص من ثوابه أو بزيادة في عقابه، وإن الله سريع حسابه لعباده على أعمالهم في الدنيا، فيحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفساً واحدة كما قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا

بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٣١/٢٨] وقال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٤/٥٠] ولأنه تعالى لا يحتاج إلى تفكر، ويحيط علمه بكل شيء، فلا يغيب عنه مثقال ذرة. وذكر سرعة الحساب في هذا الموضع لائق جداً؛ لأنه تعالى لما بيّن أنه لا ظلم، بيَّن أنه سريع الحساب، وذلك يدل على أنه يصل إليهم ما يستحقونه في الحال.

وقد روى مسلم في صحيحه حديثاً في بيان منع الظلم في الحساب عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، فيما يحكي عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادي إني حرَّمتُ الظلمَ على نفسي، وجعلته بينكم محرَّماً، فلا تَظالموا - إلى أن قال - يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله تبارك وتعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

فقه الحياة أو الأحكام:

يؤخذ من الآيات ما يأتي:

١ - إن الله تعالى يحب الخير لعباده ويكره الكفر والشر لهم، لذا كان مقته وبغضه للكفار في وقت تعذيبهم بالنار أشد من بغضهم أنفسهم في ذلك الوقت؛ لأنها أوبقتهم في المعاصي.

٢ - احتج أكثر العلماء بآية: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ في إثبات عذاب القبر، بناء على تفسير السدّي: أنهم أميتوا في الدنيا، ثم أحياهم في القبور للسؤال، ثم أميتوا ثم أُحيوا في الآخرة. وإنما جنح إلى هذا التفسير؛ لأن لفظ الميت لا ينطلق في العرف على النطفة. ولو كان الثواب والعقاب للروح دون الجسد فما معنى الإحياء والإماتة؟

كذلك تدل هذه الآية على حصول الحياة في القبر.

٣ً - يعترف الكفار بذنوبهم واستحقاقهم العقاب يوم القيامة، ويندمون على ذلك، لكن لا ينفعهم فيه الندم والاعتراف.

٤ً - يطلب الكفار الرجوع إلى الدنيا للإيمان والطاعة، ولكن لا رجعة لهم.

٥ً - إن تعذيب الكفار بسبب إعراضهم عن الإيمان بالله وبالبعث وبالرسل في الدنيا التي هي دار التكليف والعمل، وتركهم التوحيد، واختيارهم الشرك والمعاصي.

٦ً - أقام الله تعالى آيات وأدلة كثيرة على وجوده وتوحيده وقدرته وحكمته، ومنها هنا آيات السماوات والأرضين وما فيهما وما بينهما من الشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والبحار والأنهار والعيون والجبال والأشجار وآثار قوم هلكوا، ومنها إنزال الرزق بإنزال المطر سبب الحياة والبركة والخير.

ويلاحظ أنه جمع في هذه الآية بين رعاية مصالح الأديان ومصالح الأبدان؛ لأن بإظهار الآيات قوام الأديان، وبإنزال الرزق من السماء قوام الأبدان.

ولكن ما يتعظ بهذه الآيات، فيوحد الله إلا من ينيب ويرجع إلى طاعة الله، والمعنى: إنّ لمس وإدراك دلائل توحيد الله كالشيء المستقر في العقول، والاشتغال بالشرك وبعبادة غير الله مانع يحجب أنوار العقل والفكر، فإذا تخلى العبد عن الشرك، وأناب إلى الله، زال الغطاء، واستنار القلب، فحصل الفوز التام، وظهرت سبيل النجاة.

٧ً - وكما أن من صفات كبرياء الله وإكرامه: كونه مظهراً للآيات، منزلاً للأرزاق، فله صفات ثلاث أخرى من صفات الجلال والعظمة، وهي كونه رفيع الصفات، خالق العرش ومدبره ومالكه، منزل الوحي والنبوة على من يشاء من عباده. وسمي الوحي روحاً؛ لأن الناس يحيون به من موت الكفر، كما تحيا الأبدان بالأرواح، كما تقدم.

٨ً - ما على العباد أمام هذه الصفات العليا إلا عبادة الله وحده لا شريك له، مخلصين له العبادة والطاعة، حتى لو كره الكافرون عبادة الله، فلا تعبدوا أيها المؤمنون غيره.

٩ً - إنما يبعث الله الرسل لإنذار يوم البعث يوم تلاقي الخلائق جميعهم في أرض المحشر، ويوم يكونون ظاهرين في صعيد واحد، لا يسترهم شيء، لاستواء الأرض، وذلك اليوم لا يخفى على الله شيء من العباد ومن أعمالهم، وهو اليوم الذي يظهر فيه السلطان المطلق والملك التام لله الواحد القهار، ويقول سبحانه بعد فناء الخلق وهلاك كل من في السماوات ومن في الأرض: لمن الملك في هذا اليوم؟ فلا يجيبه أحد، فيجيب نفسه: لله الواحد القهار. وفي تفسير آخر: أن السائل غير الله، والمجيب هم أهل المحشر، ورجح هذا القرطبي، فقال:

أصح ما قيل فيه: ما رواه أبو وائل عن ابن مسعود قال: يُحْشَر الناس على أرض بيضاء مثل الفضة، لم يُعْصَ الله جل وعز عليها، فيؤمر منادٍ ينادي: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؟ فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ فيقول المؤمنون هذا الجواب سروراً وتلذذاً، ويقوله الكافرون غَمّاً وانقياداً.

ثم أردف القرطبي قائلاً: والقول الأول ظاهر جداً؛ لأن المقصود إظهار انفراده تعالى بالملك عند انقطاع دعاوى المدَّعين وانتساب المنتسبين؛ إذ قد ذهب كل مَلِك ومُلْكه، ومتكبر وملكه، وانقطعت نسبهم ودعاويهم. ودلَّ على هذا قوله الحق عند قبض الأرض والأرواح وطيّ السماء: «أنا الملك، فأين ملوك الأرض» كما في حديثي أبي هريرة وابن عمر، ثم يطوي الأرض بشماله والسماوات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون، أين المتكبرون؟![1].

(١) تفسير القرطبي: ١٥/ ٣٠٠ - ٣٠١

١٠ً- ومن صفات ذلك اليوم: أن تجزى كل نفس بما كسبت من خير أو شر، وأنه لا ظلم فيه، فلا ينقص أحد شيئاً من عمله، وأن الله سريع الحساب، فلا يحتاج إلى تفكر واستدلال؛ لأنه تعالى العالم الذي لا يعزب عن علمه شيء، فلا يؤخر جزاء أحد للاشتغال بغيره، وكما يرزقهم في ساعة واحدة يحاسبهم كذلك في ساعة واحدة. جاء في الخبر: «ولا ينتصف النهار حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار» .

والخلاصة: ذكر الله تعالى ست صفات ليوم القيامة: وهي كونه يوم التلاقي، وكون الخلق بارزين ظاهرين فيه، ولا يخفى على الله منهم شيء، ويظهر فيه الملك التام لله الواحد القهار، وتجزى فيه كل نفس بما كسبت من خير أو شر، ولا ظلم في الحساب الذي هو سريع الإجراء والتنفيذ وتحقيق المطلوب.

أوصاف أخرى هائلة رهيبة ليوم القيامة

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

القراءات:

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ :

وقرأ نافع (والذين تدعون).

﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾:

وقرأ ابن عامر (أشد منكم).

﴿رُسُلُهُم﴾:

وقرأ أبو عمرو (رُسْلهم).

الإعراب:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ ﴿إِذِ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾ الذي هو مفعول به لـ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ لا ظرف؛ لأن الإنذار لا يكون يوم الآزفة. و﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ مبتدأ، و﴿لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ خبر. و﴿كَٰظِمِينَ﴾ حال من ضمير ﴿لَدَى﴾ أو حال من أصحاب القلوب. و: من في ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ زائدة، تقديره: ما للظالمين حميم ولا شفيع. و﴿يُطَاعُ﴾ جملة فعلية صفة لـ ﴿شَفِيعٍ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟﴾ ﴿فَيَنظُرُوا۟﴾ إما منصوب على جواب الاستفهام بالفاء بتقدير (أن) أو مجزوم عطفاً على ﴿يَسِيرُوا۟﴾ و﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب؛ لأنها خبر ﴿كَانَ﴾ و﴿عَٰقِبَةُ﴾: اسم كان المرفوع، وفي ﴿كَيْفَ﴾ ضمير يعود على العاقبة. ويجوز جعل ﴿كَانَ﴾ تامة، فلا تحتاج إلى خبر، فيكون ﴿كَيْفَ﴾ ظرفاً ملغىً لا ضمير فيه. وكذلك ﴿كَانُوا۟﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ﴾ يجوز فيها الوجهان، ويكون ﴿أَشَدَّ﴾ إذا جعلت ﴿كَانَ﴾ بمعنى (وقع) حالاً. و﴿قُوَّةً﴾ تمييز. وجملة كان واسمها وخبرها مفعول: ينظروا. و﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ جواب ﴿كَيْفَ﴾.

البلاغة:

﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الكفار، فيه وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على اختصاص ذلك بهم، وإنه لظلمهم.

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؟ استفهام إنكاري.

﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ من صيغ المبالغة.

المفردات اللغوية:

﴿يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ﴾ يوم القيامة، سميت بها لأزوفها، أي قربها، يقال: أزف الرحيل يأزف أزفاً: قرب ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ﴾ ترتفع خوفاً عند الحناجر أي الحُلوق، جمع حنجرة أو حنجور كحُلْقوم لفظاً ومعنى. ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الكفار ﴿كَٰظِمِينَۚ﴾ ممتلئين غماً ﴿حَمِيمٖ﴾ قريب نافع أو محب ﴿وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ مشفع أي تقبل شفاعته، ولا مفهوم للوصف﴿يُطَاعُ﴾ إذ لا شفيع لهم أصلاً كما قال تعالى ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٠٠] أو له مفهوم بناء على زعمهم أن لهم شفعاء أي لو شفعوا فَرَضاً لم يقبلوا.

﴿يَعۡلَمُ﴾ الله ﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ أي النظرة الخائنة، كالنظرة الثانية إلى الحرام، واستراق النظر إليه، فالمراد الأعين الخائنة: وهي التي تختلس النظر إلى المحرَّم وتسارقه ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ القلوب، أي ما تكتمه الضمائر. والجملة خبر خامس للقلوب، للدلالة على أنه ما من خفي إلا وهو متعلَّق العلم والجزاء.

﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ﴾ لأنه المالك الحاكم على الإطلاق، فلا يقضي بشيء إلا وهو حقه ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ يعبدون، أي كفار مكة ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي الأصنام ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ﴾ فكيف يكونون شركاء لله؟ وهذا تهكم بهم؛ لأن الجماد لا يقال فيه: إنه يقضي أو لا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ السميع

لأقوالهم البصير بأفعالهم، وهذا تعليل وتقرير لعلمه بخائنة الأعين وقضائه بالحق، ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون، وتعريض بحال ما يدعونه من دونه.

﴿عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مآل حال الذين كذبوا الرسل قبلهم كعاد وثمود ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قدرة وتمكناً ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من قلاع ومصانع وقصور ومدائن حصينة ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أهلكهم ﴿وَاقٍ﴾ حافظ يدفع عنهم السوء أو العذاب.

﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ بالمعجزات الظاهرات والأحكام الواضحة ﴿إِنَّهُۥ قَوِىٌّ﴾ متمكن مما يريده غاية التمكن ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ليس هناك عقاب أشد منه.

المناسبة:

بعد بيان كون الأنبياء ينذرون الناس يوم التلاق، أتى بأوصاف هائلة رهيبة أخرى ليوم القيامة، لتخويف الكفار بعذاب الآخرة، ثم خوفهم بعذاب الدنيا المماثل لإهلاك الأمم السابقة الذين كذبوا الرسل.

التفسير والبيان:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ﴾ أي خوف أيها الرسول الكفار يوم القيامة، ليؤمنوا ويقلعوا عن الشرك، ذلك اليوم الذي لكأن القلوب تزول من مواضعها من الخوف، وترتفع حتى تصير إلى الحلوق، حال كون أصحابها مكروبين ممتلئين غماً.

﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي وحال كون أولئك الكافرين ليس لهم قريب ينفعهم، ولا شفيع مشفع تقبل شفاعته لهم.

والمقصود بالآية تخويف الكفار وترويعهم من شدة الخوف وأهوال يوم القيامة. وفي الآية إشارة إلى أن الكفار يوم القيامة يشتد خوفهم، حتى لكأن

قلوبهم لدى حلوقهم، وفيها تصريح بعدم جدوى شفاعة الأصنام كما زعموا وتأملوا.

والقيامة وإن طال زمانها في تقدير الناس إلا أنها آتية من غير أي شك فيها، وكل آتٍ قريب، كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: ١/٥٤] وقال جل وعلا: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١/٢١] وقال سبحانه: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١/١٦] وقال عز وجل: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الملك: ٢٧/٦٧].

ثم أعلمهم تعالى بشمول علمه وضبطه ودقته، فقال:

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ أي إن الله يعلم النظرة الخائنة التي ينظرها العبد إلى المحرَّم، ويعلم ما تُسرّه الضمائر من أمور خيِّرة أو شريرة، حتى حديث النفس أو خواطر النفس. وهذا يعني أن علم الله تام محيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها، ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله حق الحياء، ويتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه تعالى يعلم العين الخائنة، وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر، أي مضمرات القلوب.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسناء، أو تمرّ به وبهم المرأة الحسناء، فإذا غفلوا لَحَظ إليها، فإذا فطنوا غض بصره عنها، فإذا غفلوا لَحَظ، فإذا فطنوا غض، وقد اطّلع الله تعالى من قلبه أنه ودَّ أن لو اطلع على فرجها[1].

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ أي والله يحكم بالحكم العادل، فيجازي بالحسنة الحسنة، وبالسيئة السيئة، ويجازي كل أحد بما يستحقه من خير أو شر.

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن أبي شيبة وابن المنذر.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ أي والذين يعبدونه من الأصنام من غير الله، لا يتمكنون من القضاء بشيء، أي فلا يحكمون بشيء، ولا يملكون شيئاً؛ لأنهم لا يعلمون شيئاً، ولا يقدرون على شيء، فالذي تجب عبادته هو القادر على كل شيء، ولا يخفى عليه شيء؛ فإن الله سميع لأقوال خلقه، بصير بأفعالهم، فيجازيهم عليه يوم القيامة.

وهذا وعيد لهم على أقوالهم وأفعالهم وأنه يعاقبهم عليه، وتصريح بعدم جدوى عبادة الأصنام والأوثان والأنداد وغيرها من المعبودات، وتهكم بهم؛ لأن ما لا يوصف بالقدرة لا يقال فيه: يقضي أو لا يقضي.

هذه موجبات التخويف من عذاب الآخرة، ثم خوفهم الله تعالى بعذاب الدنيا، فقال:

﴿۞ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٢١﴾﴾ أي أرشدهم الله تعالى إلى الاعتبار بغيرهم، والمعنى: أفلم يمش هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد، فينظروا مآل حال الذين مضوا من الكفار المكذبين بالأنبياء، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال، مع أنهم كانوا أشد قوة من هؤلاء الحاضرين من كفار مكة وأمثالهم، وأبقى آثاراً في الأرض، بما عمروا فيها من الحصون والقصور، وأقاموا من المدن والحضارات.

فأهلكهم الله بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، وما كان لهم من دافع يدفع عنهم العذاب، وللكافرين أمثالها. وهذا تحذير واضح للكافرين في كل زمان بما حلّ بالأمم الغابرة.

ونظير بعض الآية: قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٤٦/٢٦] وقال سبحانه: ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٣٠/٩].

ثم ذكر الله تعالى علة إهلاكهم وتدميرهم، فقال:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ أي ذلك الأخذ والإهلاك بسبب أن رسلهم كانوا يأتونهم بالحجج الواضحة على الإيمان الحق، فكفروا بما جاؤوهم به، فأهلكهم الله ودمّر عليهم، إن الله ذو قوة عظيمة وبطش شديد، يفعل كل ما يريده، لا يعجزه شيء، وعقابه أليم شديد وجيع لكل من عصاه، فيا أيها الكفار والعصاة اعتبروا واتعظوا بغيركم، فالسعيد من وُعظ بغيره.

فقه الحياة أو الأحكام:

موضوع الآيات شيئان: التخويف من عذاب الآخرة، والتحذير من عذاب الدنيا.

أما عذاب الآخرة: فقد ذكر الله تعالى ثمانية أسباب موجبة للخوف وهي[1]:

١ - أنه سمى ذلك اليوم يوم الآزفة، أي يوم القرب من العذاب لمن أذنب.

٢ - أنه بلغ ذلك الخوف إلى أن زال القلب من الصدر وارتفع إلى الحنجرة.

٣ - لا يمكنهم أن ينطقوا لشدة ما اعتراهم من الحزن والخوف، وذلك يوجب القلق والاضطراب.

٤ - ليس لهم قريب ينفعهم، ولا شفيع يطاع فيهم، فتقبل شفاعته.

٥ - أنه سبحانه عالم بكل شيء صغير أو كبير، دقيق أو جليل، وهذا يوجب شدة الخوف.

---

(١) تفسير الرازي: ٥٢/٢٧

٦ - الله يقضي بالحق المطلق والعدل التام، وهذا أيضاً يوجب عظم الخوف.

٧ - لا فائدة مما عول عليه المشركون من شفاعة الأصنام، فهم لا يقضون بشيء.

٨ - إن الله يسمع من الكفار ثناءهم على الأصنام ونحوها من المعبودات الباطلة، ويبصر خضوعهم وسجودهم لها.

وأما عذاب الدنيا: فأمام هؤلاء الكفار المكذبين لرسول الله محمد ﷺ نماذج وألوان من عذاب الأمم القديمة المكذبة رسلها، وقد نزل بهم العذاب لأجل أنهم كفروا وكذبوا الرسل، وهؤلاء الحاضرون يشاهدون آثار دمارهم وهلاكهم، والله يحذر الكفار قوم الرسول من مثل أفعال أولئك الماضين، وقد ختم الكلام بقوله: ﴿إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ مبالغة في التحذير والتخويف.

قصة موسى عليه السلام مع فرعون وهامان

- ١ -

تعذيب بني إسرائيل والتهديد بقتل موسى

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

القراءات:

﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ﴾:

وقرأ ابن كثير (ذرونيَ أقتل).

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إنيَ أخاف).

﴿دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾: قرئ:

١- (دينكم وأن يُظْهِر في الأرض الفسادَ) وهي قراءة نافع، وأبي عمرو.

٢- (دينكم وأن يَظْهَر في الأرض الفسادُ) وهي قراءة ابن كثير، وابن عامر.

٣- (دينكم أو أن يَظْهَر في الأرض الفسادُ) وهي قراءة حمزة، والكسائي.

٤- (دينكم أو أن يُظهِر في الأرض الفسادَ) وهي قراءة حفص.

البلاغة:

﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ فيه وضع الظاهر وهو ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ موضع الضمير أي كيدهم لتعميم الحكم والدلالة على العلة وهي الكفر.

﴿كَذَّابٌ﴾ صيغة مبالغة.

المفردات اللغوية:

﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي المعجزات ﴿وَسُلۡطَٰنٖ﴾ حجة وبرهان ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهر واضح، والعطف بين الآيات والسلطان لتغاير الوصفين ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ ملك

مصر ﴿وَهَٰمَٰنَ﴾ وزير فرعون ﴿وَقَٰرُونَ﴾ كان ثرياً ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ يعنون موسى عليه السلام، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ وبيان عاقبة من هو أشد بطشاً من الذين كانوا من قبلهم وأقربهم زماناً.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾ استبقوهم أحياء، والمعنى: أعيدوا عليهم ما كنتم تفعلون بهم من قتل الأولاد الذكور وإبقاء النساء أحياء للخدمة ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ ضياع.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ فيه غاية الكيد والحقد والتجلد وعدم المبالاة بدعاء ربه ليمنعه منه ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ إن لم أقتله ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أن يغير ما أنتم عليه من عبادتي وعبادة الأصنام. ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ أي ما يفسد دنياكم من القتل والتحارب وإثارة الفتن إن لم يقدر أن يبطل دينكم ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لقومه لما سمع كلام فرعون ﴿إِنِّى عُذْتُ﴾ استعذت واستجرت واستعنت، وبدأ بـ (إن) للتأكيد والدلالة على أن السبب المؤكد في دفع الشر هو العياذ بالله ﴿بِرَبِّى وَرَبِّكُم﴾ خص اسم الرب؛ لأن المطلوب هو الحفظ والتربية، وقوله: ﴿وَرَبِّكُم﴾ للحث على الاقتداء به، فيتعوذوا بالله مثله ويعتصموا بالتوكل عليه مثله ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ لم يسم فرعون، وذكر وصفاً يعمه وغيره لتعميم الاستعاذة بحيث تشمل فرعون وغيره من الجبابرة، ولاستخدام طريقة التعريض التي هي أبلغ. والتكبر: الاستكبار عن الإذعان للحق، وهو أقبح استكبار ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ ذكر هذا لأنه إذا اجتمع في الرجل التجبر والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة، استكمل وصف القسوة والجرأة على الله وعلى عباده.

المناسبة:

لما آنس الله تعالى رسوله بذكر عاقبة الكفار الذين كذبوا الأنبياء قبله

وبمشاهدة آثارهم، آنسه أيضاً بذكر قصة موسى عليه السلام التي دلت على أنه مع قوة معجزاته، كذبه فرعون وهامان وقارون، وقالوا عنه: هو ساحر كذاب. ولكن في النهاية انتصر عليهم، وتلك بشارة لنبينا ﷺ بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة، كما جرى لموسى بن عمران عليه السلام.

التفسير والبيان:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾﴾ أي تالله لقد أرسلنا موسى بالمعجزات التي هي الآيات التسع كاليد والعصا، وبحجة بينة واضحة وبرهان قوي.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ أرسلنا موسى إلى فرعون ملك مصر، وهامان وزيره، وقارون أغنى أهل زمانه، فقالوا عنه: إنه ساحر مخادع مجنون مموه، كذاب فيما زعم أن الله أرسله، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥١/٥٢-٥٣] .

وخصَّ هؤلاء الطغاة بالذكر؛ لأنهم رؤساء المكذبين بموسى، وغيرهم تابع لهم. وشأن الجبابرة عدم الإصغاء للحجة والمنطق واللجوء إلى القوة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي بالبرهان القاطع الدال على أن الله عز وجل أرسله إليهم، وهي معجزاته الظاهرة الواضحة.

﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ﴾ أي قال أولئك الطغاة: عودوا إلى قتل الذكور وترك النساء، لئلا يكثر جمعهم، ولكي يضعف شأنهم. وهذه هي المرة الثانية بالأمر بذلك بعد بعثة موسى، وكانت المرة الأولى قبل ولادة موسى، لأجل تفادي وجوده، ولإذلال الشعب الإسرائيلي، ولتقليل عددهم، لئلا ينصروا عليهم. ولكن الله تعالى أحبط كيدهم وأفشل خطتهم كما قال:

﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ أي وما مكرهم وقصدهم تقليل عدد بني إسرائيل إلا في ضياع وذهاب سدى، لم يحقق فائدة لهم؛ فإنهم لما باشروا قتلهم أولاً، فما أفادهم، وعاش موسى، فكذلك لا يفيدهم تجديد مأساة القتل الجماعي، وسيكون النصر للمؤمنين.

ولكنه زاد في هذه المرة العزم على قتل موسى، فقال:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ أي قال فرعون لقومه: دعوني أقتل موسى، وليدع ربه الذي يزعم أنه أرسله إلينا، فليمنعه من القتل إن قدر على ذلك، ولا أبالي به. وهذا في الظاهر استهانة بدعاء رب موسى، وفي الباطن كان يرتعد من دعائه، فقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ شاهد صدق على فرط خوفه منه.

وسبب القتل ما قال تعالى:

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ أي إني أخشى أن يغير منهاج دينكم الذي أنتم عليه من عبادتي وعبادة الأصنام، ويدخلكم في دينه الذي هو عبادة الله وحده، أو أن يوقع بين الناس الخلاف والفتنة، فتكثر الخصومات والمنازعات، وتثار القلاقل والاضطرابات. والمراد: إظهار الخوف من تبديل الدين أو إفساد أمر الدنيا.

وإذا كان فرعون اعتز بجبروته وقوته، فإن موسى عليه السلام اعتصم بالله، فقال:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ أي لما بلغ موسى قول فرعون: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ قال: إني استجرت بالله وعذت به من شره وشر أمثاله من كل متعاظم متعال مستكبر عن الإذعان للحق، كافر مجرم لا يؤمن بالبعث والحساب والجزاء.

وقد استعاذ موسى ممن جمع بين الاستكبار والتكذيب بالجزاء؛ لأنهما عنوان الجرأة على الله وعلى عباده. وقال موسى ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ لحث قومه على مشاركته في الاستعاذة بالله من شر فرعون وملئه.

وقد ثبت في الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: «اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم، وندرأ بك في نحورهم».

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - يشترك الأنبياء في أمور هي تأييدهم بالمعجزات الدالة على صدقهم، وإعراض أقوامهم عنهم، واتهامهم بالكذب والتمويه والسحر، والتهديد بالطرد والتشريد أو القتل والتعذيب، ولكن النصر في النهاية للأنبياء والمؤمنين.

٢ - وهذا المنهج هو ما عرف عن قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، أيده الله بالمعجزات وهي الآيات التسع المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١/١٧] . وكان ابتلاء الله موسى برؤوس الطغيان والكبرياء وهم فرعون الملك، وهامان الوزير، وقارون صاحب الأموال والكنوز الذي اتفق مع فرعون وهامان في الكفر والتكذيب، فلما عجزوا عن معارضته بالحجة، وأبوا الإذعان للمنطق، وصفوا المعجزات بالسحر، ووصفوه بالكذب.

٣ - وزاد طغيان فرعون، وامتد إلى القتل الجماعي لبني إسرائيل، وإبادة الأولاد الذكور بعد الولادة، وإبقاء النساء أحياء للإذلال والخدمة والإهانة، لئلا ينشأ الأطفال على دين موسى، فيقوى بهم، وتلك عودة منه إلى عادته القديمة بارتكاب هذه المنكرات.

قال قتادة: هذا قتل غير القتل الأول؛ لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان بعد ولادة موسى، فلما بعث الله موسى، أعاد القتل على بني إسرائيل عقوبة لهم، فيمتنع الإنسان من الإيمان، ولئلا يكثر جمعهم، فيعتضدوا بالذكور من أولادهم، فشغلهم الله عن ذلك بما أنزل عليهم من أنواع العذاب، كالضفادع والقُمَّل والدم والطوفان، إلى أن خرجوا من مصر، فأغرقهم الله تعالى.

٤ً - تحقق نصر الله تعالى لموسى عليه السلام، وأحبط مكائد فرعون وقومه، وجعل مكرهم في خسران وضياع، فإن الناس لا يمتنعون من الإيمان، وإن فعل بهم مثلما فعل فرعون أو أشد.

٥ً - عزم فرعون أيضاً على قتل موسى غير مبال ببطش الله وقوته، وأبان لقومه السبب الموجب لقتله وهو أن وجوده يؤدي إلى أحد أمرين أو كليهما: إما فساد الدين أو فساد الدنيا. والمراد بالدين: هو عبادة فرعون والأصنام، والمقصود بفساد الدنيا: إيقاع الخصومات، وإثارة الفتن والقلاقل والاضطرابات.

٦ً - لما هدد فرعون بالقتل، لجأ موسى إلى ربه مستعيذاً به من كل متعظم عن الإيمان، ولا يؤمن بالآخرة.

٧ً - استنبط الرازي من كلمات موسى ودعائه ثماني فوائد هي بإيجاز:

الأولى - أن قول موسى ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ مستخدماً لفظة ﴿إِنِّي﴾ الدالة على التأكيد، للدلالة على أن الطريق المؤكد المفيد في دفع الشرور والآفات عن النفس، الاعتماد على الله، والتوكل على عصمة الله تعالى.

الثانية - الاستعاذة بالله تصون الإنسان من شياطين الإنس والجن، فإذا

قال المسلم: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فالله تعالى يصون دينه وإخلاصه عن وساوس شياطين الجن، فكذلك إذا قال المسلم: أعوذ بالله، فالله يصونه عن كل الآفات والمخافات.

الثالثة - قوله ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾: لما كان المولى ليس إلا الله، وجب ألا يرجع العاقل في دفع كل الآفات إلا إلى حفظ الله تعالى، فهو المربي والحافظ.

الرابعة - قوله ﴿وَرَبِّكُم﴾ فيه بعث أو حث لقوم موسى عليه السلام على أن يقتدوا به في الاستعاذة بالله.

الخامسة - لم يذكر موسى فرعون في دعائه، رعاية لحق تربيته له في الصغر.

السادسة - بالرغم من عزم فرعون على قتل موسى، فلا فائدة في الدعاء عليه بعينه، بل الأولى الاستعاذة بالله في دفع كل من كان موصوفاً بصفة التكبر والكفر بالبعث، حتى يشمل كل من كان عدواً ظاهراً أو خفياً.

السابعة - أن الجرأة على إيذاء الناس أمران: أحدهما - كون الإنسان متكبراً قاسي القلب، والثاني - كونه منكراً للبعث والقيامة، وقد اتصف فرعون بالأمرين.

الثامنة - أجاب موسى عن استهزاء فرعون بقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾: بأن ما ذكرته يا فرعون بطريق الاستهزاء هو الدين الحق، وأنا أدعو ربي، وأطلب منه أن يدفع شرك عني، وسترى كيف أن ربي يقهرك، وكيف يسلطني عليك. وهو ردّ قولي وفعلي.

الخلاصة من هذا الدعاء: إن طريق دفع كيد الأعداء وإبطال مكرهم هو الاستعاذة بالله، والرجوع إلى حفظ الله تعالى.

- ٢ -

قصة مؤمن آل فرعون ودفاعه عن موسى عليه السلام

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾

القراءات:

﴿بأسِ﴾، ﴿دأبِ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (باس، داب).

﴿قلبِ﴾:

وقرأ أبو عمرو، وابن ذكوان (قلبٍ).

الإعراب:

﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ منصوب بنزع الخافض، أي بأن يقول.

﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا﴾ حذفت النون من ﴿يَكُ﴾ لكثرة الاستعمال، وهو رأي جمهور النحاة، أو تشبيهاً لها بنون الإعراب في نحو (يضربون) وهو قول المبرِّد، والوجه الأول أوجه.

﴿ظَـٰهِرِينَ﴾ حال.

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ ﴿مِثْلَ﴾: بدل منصوب من ﴿مِّثْلَ﴾ الأول في قوله تعالى: ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾.

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ بدل منصوب من ﴿يَوْمَ﴾ الأول في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدل منصوب من ﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ ويجوز جعله خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هم الذين. ورأى السيوطي أن ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، و﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ هو الخبر.

البلاغة:

﴿كَـٰذِبًا﴾ و﴿صَـٰدِقًا﴾ بينهما طباق.

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ استفهام على سبيل الإنكار.

﴿كَذَّابٌ﴾ ﴿جَبَّارٍ﴾ من صيغ المبالغة.

المفردات اللغوية:

﴿رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ من أقاربه، فهو ابن عم فرعون وولي

عهده وصاحب شرطته، وهو الظاهر، وقيل: إنه رجل إسرائيلي أو غريب موحد كان يجاملهم ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ أتقصدون قتله؟ ﴿أَن يَقُولَ﴾ لأن يقول: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ وحده، وذلك من غير روية وتأمل في أمره ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الظاهرات والبراهين الواضحات على وحدانية الله والدالة على صدقه ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ نسب الرب إليهم استدراجاً لهم إلى الاعتراف به، ثم احتج عليهم بقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾: لا يتخطاه وبال كذبه وضرره، فلا حاجة إلى قتله ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ فلا أقل من أن يصيبكم بعضه. قال البيضاوي: وفيه مبالغة في التحذير، وإظهار للإنصاف وعدم التعصب، ولذلك قدم كونه كاذباً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ مشرك مُفْتَرٍ، فالمسرف: المقيم على المعاصي المكثر منها، والكذاب: المفتري. وهو احتجاج ثالث من وجهين: أحدهما - أنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله إلى البينات، ولما عضده بتلك المعجزات، وثانيهما - أن من خذله الله وأهلكه فلا حاجة لكم إلى قتله. وفيه تعريض بفرعون وتكذيب ربوبيته.

﴿ظَٰهِرِينَ﴾ غالبين عالين على بني إسرائيل ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾؟ من يمنعنا من عذاب الله إن قتلتم أولياءه؟ أي لا ناصر لنا، وإنما أدرج نفسه في ضميري الفعلين لأنه كان قريباً لهم، وليريه أنه معهم ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي ما أشير عليكم إلا بما أشير به على نفسي، وهو قتل موسى ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي ما أدلكم إلا على طريق الصواب.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم﴾ في تكذيبه والتعرض له ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي مثل أيام الأمم الماضية، يعني وقائعهم، و﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾ الأقوام الذين تحزّبوا على أنبيائهم وكذبوهم، وكلمة ﴿يَوْمِ﴾ مفرد مضاف فيعم، فقد أغنى جمع الأحزاب عن جمع اليوم ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي مثل عادة وجزاء ما كانوا

عليه من الكفر وإيذاء الرسل، بتعذيبهم في الدنيا واستئصالهم ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ كقوم لوط ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ فلا يعاقبهم بغير ذنب، ولا يترك الظالم منهم بغير انتقام، وهو أبلغ من قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ لأن المنفي فيه عدم تعلق إرادته بالظلم.

﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ يوم القيامة، ينادي فيه بعضهم بعضاً للاستغاثة، ويكثر فيه نداء أصحاب الجنة وأصحاب النار وبالعكس، فينادى بالسعادة لأهل الجنة، وبالشقاوة لأهل النار وغير ذلك ﴿مُدۡبِرِينَ﴾ منصرفين عن موقف الحساب إلى النار ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من عذابه ﴿مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾ مانع يعصمكم من عذابه.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ﴾ يوسف بن يعقوب عليه السلام، من قبل موسى عليه السلام ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الظاهرات الدالة على صدقه ﴿هَلَكَ﴾ مات يوسف ﴿لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾ فيه تكذيب رسالته في حياته والكفر بها، وتكذيب رسالة من بعده ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل إضلالكم ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ في العصيان ﴿مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ﴾ في معاصي الله مستكثر منها ﴿مُّرۡتَابٌ﴾ شاك فيما شهدت به البينات على وحدانية الله ووعده ووعيده .﴿سُلۡطَٰنٍ﴾ حجة قوية وبرهان ظاهر ﴿مَقۡتًا﴾ المقت: أشد البغض ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ﴾ أي مثل إضلالهم يطبع (يختم) الله بالضلال على قلوب المتجبرين، ومتى تكبر القلب تكبر صاحبه، وبالعكس. وقرئ بتنوين (قلبٍ) و(كلٍّ) على القراءتين يراد به عموم الضلال جميع القلب، لا عموم القلب.

المناسبة:

بعد أن حكى الله تعالى عن موسى عليه السلام أنه ما زاد في دفع شر فرعون الذي عزم على قتله، على الاستعاذة بالله، أبان تعالى أنه قيَّض له رجلاً من آل فرعون يدافع عنه، لتسكين الفتنة وإزالة الشر. واشتمل دفاعه على أمور ثلاثة كبرى هي:

الأول - استنكارقتل موسى المؤمن بربه، المستضعف مع قومه في مواجهة قوم فرعون.

الثاني - تحذيرهم بأس الله في الدنيا والآخرة في المكذبين للرسل وهم جماعات الأحزاب كقوم نوح وعاد وثمود.

الثالث - تذكيرهم بما فعل آباؤهم الأولون مع يوسف عليه السلام من تكذيب رسالته ورسالة من بعده.

التفسير والبيان:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي قال رجل من أقارب فرعون ورجال دولته: كيف تقتلون رجلاً لا ذنب له إلا أن قال: الله ربي، والحال أنه قد جاءكم بالمعجزات الواضحات والأدلة الدالة على نبوته وصحة رسالته وصدقه؟ فهذا لا يستدعي القتل، فتوقف فرعون عن قتله، بسبب صدقه في الدفاع.

قال ابن عباس رضي الله عنهما - فيما رواه ابن أبي حاتم -: «لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل، وامرأة فرعون، والذي قال: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٢٠] ».

والحق أنه كان لهذه الكلمة: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ تأثير عظيم في نفس فرعون، وقد كررها أبو بكر في محاولة عقبة بن أبي معيط خنق رسول الله ﷺ، أخرج البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ، قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ، ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه

خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه، فأخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي ﷺ، ثم قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾؟

وأخرج البزار وأبو نعيم في فضائل الصحابة أيضاً عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «أيها الناس، أخبروني من أشجع الناس؟ قالوا: أنت، قال: أما إني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه، ولكن أخبروني عن أشجع الناس، قالوا: لا نعلم، فمن؟ قال: أبو بكر، رأيت رسول الله ﷺ، وأخذته قريش، فهذا يجؤه، وهذا يتلتله، وهم يقولون: أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً!! قال: فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر، يضرب هذا، ويجأ هذا، ويتلتل هذا، وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله؟ ثم رفع - أي علي - بردة كانت عليه، فبكى حتى اخضلَّت لحيته، ثم قال: أنشدكم، أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر؟ فسكت القوم، فقال: ألا تجيبون؟ فوالله لساعة من أبي بكر خير من مثل مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه، فأثنى الله عليه في كتابه، وهذا رجل أعلن إيمانه، وبذل ماله ودمه».

ثم أورد مؤمن آل فرعون ست حجج أخرى مفصلة لتأييد رأيه، فقال تعالى:

أ - ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ أي إن كان هذا الرجل كاذباً في دعوته، كان وبال كذبه وإثمه عليه يجازيه الله في الدنيا والآخرة، فاتركوه، وإن كان صادقاً في دعواه يصبكم بعض الذي يعدكم به إن خالفتموه من العقوبة الدنيوية والأخروية، فاتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه.

وإنما قال: ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ فلأنه عليه السلام كان يتوعدهم

بعذاب الدنيا وبعذاب الآخرة، فإذا أصابهم عذاب الدنيا، فقد أصابهم بعض الذي يعدهم به. والمراد أنه إذا لم يصبكم كل العذاب المتوعد به، فلا أقل من أن يصيبكم بعضه، وفي بعض ذلك هلاككم.

٢ - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أي لو كان موسى مسرفاً في قوله، متجاوزاً حده، كذاباً في دعواه النبوة، لما هداه الله إلى البينات، ولا أيده بالمعجزات، ولو كان كاذباً على الله، خذله الله وأهلكه، فلا حاجة لكم إلى قتله.

٣ - ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾؟ أي يا قومي، قد أنعم الله عليكم بهذا الملك الواسع، وأنتم الغالبون العالون على بني إسرائيل في أرض مصر، فلكم الكلمة النافذة والجاه العريض، فراعوا هذه النعمة بشكر الله وتصديق رسوله ﷺ، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله ﷺ، فمن الذي يمنعنا من عذاب الله إن حلَّ بنا؟ ولا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر، ولا ترد عنا شيئاً من بأس الله إن أرادنا بسوء.

وإنما قال: ﴿يَنصُرُنَا﴾ و﴿جَآءَنَا﴾ لأنه كان يظهر من نفسه أنه منهم، وأن الذي ينصحهم به هو مشارك لهم فيه، وأنه حريص على دفع الشر عنهم، ليتأثروا بنصحه.

فردّ فرعون بنصيحة فيها مراوغة، مظهراً أنه أخلص نصحاً لقومه من هذا الرجل، فقال تعالى:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي قال فرعون مجيباً الرجل المؤمن: ما أشير عليكم إلا بما أرى لنفسي، وما أدلكم وأدعوكم إلا إلى طريق الصواب الذي يؤدي إلى الفوز والنجاة والغلبة وهو قتل موسى. وقد كذب فرعون وافترى في قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾

فإنه كان يتحقق صدق موسى عليه السلام فيما جاء به من الرسالة، وكذب أيضاً في قوله: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد، ولكن قومه مع ذلك قد أطاعوه واتبعوه بسبب سلطانه ونفوذه، قال تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ [هود: ١١/ ٩٧] وقال سبحانه: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٧٩] جاء في الحديث الثابت الذي رواه الشيخان عن معقل بن يسار: «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت، وهو غاشّ لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمس مئة عام».

٤ - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ أي لقد حذر هذا الرجل المؤمن الصالح قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة، فبدأ بتخويف العذاب الدنيوي، فقال: يا قومي، إني أخشى عليكم إن كذبتم موسى أن يصيبكم مثلما أصاب الأقوام الذين تحزبوا على أنبيائهم وكذبوا رسلهم من الأمم الماضية، كقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم كقوم لوط، فقد حلَّ بهم بأس الله، ولم يجدوا لهم ناصراً ينصرهم، ولا عاصماً يحميهم. فقوله ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ﴾ أي مثل حالهم في العذاب، أو مثل عادتهم في الإقامة على التكذيب.

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ أي لا يريد الله إلحاق ظلم بعباده، فلم يهلكهم بغير جرم، إنما أهلكهم بذنوبهم وتكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره.

ثم خوفهم العذاب الأخروي، فقال:

٥ - ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾ أي ويا قومي، إني أخشى عليكم عذاب يوم القيامة، حين ينادي بعضكم بعضاً مستغيثاً به من الأهوال، أو حين ينادي أهل النار أهل الجنة، وأهل الجنة أهل النار، كما قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ

أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم﴾ [الأعراف: ٧/ ٤٤] وقال سبحانه: ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم﴾ [الأعراف: ٧/ ٤٨] . وقال عز وجل: ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٠] .

وحين تفرّون هاربين من النار، أو منصرفين عن الموقف إلى النار، لا تجدون واقياً ولا مانعاً ولا عاصماً يعصمكم من عذاب الله ويمنعكم منه، وهذا تأكيد للتهديد.

﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ أي من أضله الله، فلم يوفقه ولم يلهمه رشده، فلا هادي له غيره يهديه إلى الصواب والنجاة.

٦- ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً﴾ أي أذكركم بأن تكذيب الرسل موروث لديكم من الآباء والأجداد، فلقد بعث الله لكم أي لآبائكم يا أهل مصر رسولاً من قبل موسى عليه السلام هو يوسف بن يعقوب، وجاءكم بالمعجزات الباهرات الدالة على صدقه، والآيات الواضحات المبينة لدين الله وشرائعه، فكذبتموه وكذبتم من جاء بعده من الرسل، وما زلتم في شك من البينات ولم تؤمنوا به، حتى إذا مات أنكرتم بعثة رسول من بعده، فكفرتم به في حياته، وكفرتم بمن بعده من الرسل بعد موته، مما يدل على توارث التكذيب، واستمرار العناد في مواجهة الرسل، والكفر برسالاتهم.

﴿كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب﴾ أي مثل هذا الضلال وسوء الحال، يكون حال من يضله الله لإسرافه في المعاصي والاستكثار منها، وارتياب قلبه في دين الله، وشكه في وحدانية الله ووعده ووعيده.

وصفة هؤلاء المسرفين المرتابين ما حكاه تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي إن أولئك المسرفين المرتابين هم الذين يجادلون في آيات الله ليبطلوها، بغير حجة واضحة ولا دليل بيِّن، ويحاربون الحق بالباطل، كبر ذلك الجدل بغضاً عند الله والمؤمنين؛ لأنه جدال بالباطل لا أساس له، أما مقت الله فهو تعذيبه العصاة، وأما مقت المؤمنين فهو هجر الكفار وترك التعامل معهم.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء المجادلين المسرفين، فكذلك يطبع ويختم على جميع قلوب المتكبرين الجبارين، الذين يتكبرون على اتباع الحق، ويتجبرون على الضعفاء بالإذلال والتسخير، والإهانة والقتل بغير حق. قال الشعبي وغيره: لا يكون الإنسان جباراً حتى يقتل نفسين. وقال قتادة: آية الجبابرة القتل بغير حق. وقال مقاتل: ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ عن قبول التوحيد ﴿جَبَّارٍ﴾ في غير حق. فهو في الأول يعادي الله، وفي الثاني يقسو على خلق الله.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - لقد كان دفاع هذا الرجل المؤمن الصالح من آل فرعون في مجلس فرعون وسلطانه في غاية القوة والجرأة والعقل والمنطق.

٢ - لا مسوغ لإنسان مهما كان أن يعتدي على الحرية الدينية ويصادرها، فكيف يصح أن يُقْتَل رجل لا جُرْم له إلا أن يقول: ربي الله؟

٣ - لا عذر للناس في تكذيب الرسل والكفر بهم بعد أن يأتوهم بالمعجزات الباهرات والأدلة الواضحات على صدقهم.

٤ - عجباً من مكذبي الرسل فإن منطقهم أعوج وتفكيرهم أخرق، فإن

الرسول إذا كان كاذباً فعليه وزر كذبه ولا يتضرر به من لا يتبعه، وإن كان صادقاً نفعهم صدقه، وسلموا من الآفات وألوان العذاب الذي يهدد به.

وقد استخدم المؤمن هذا الأسلوب: ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ لا لشك منه في صحة رسالة موسى وصدقه، ولكن تلطفاً في الدفاع، وبعداً عن الأذى، وإظهاراً للتجرد والموضوعية.

٥ً - إن الله تعالى لا يهدي أبداً إلى الحق أهل الإسراف في المعاصي والكذب، وإنه تعالى هدى موسى إلى الإتيان بالمعجزات الباهرة، ومن هداه الله إلى ذلك لا يكون مسرفاً كذاباً، وهذا يدل على أن موسى عليه السلام ليس من الكاذبين.

٦ً - إن من المستغرب حقاً أن يخشى أصحاب السلطان والقهر المعتمدين على الجند أو الجيش أو العسكر المدجج بأنواع الأسلحة الفتاكة، من الأنبياء والرسل والقادة المصلحين الذين ليس لهم إلا البيان القوي، والحجة الهادفة، والكلمة المؤثرة. وما ذاك إلا لأن الحق فوق القوة وأثبت منها وأنفذ، لذا تهتز العروش بصوت الحق، ولا يتأثر أصحابها ببأس الأقوياء، وقوة الشجعان.

فهذا فرعون الطاغية ملك مصر يحذر رجلاً عادياً هو موسى عليه السلام لا سند له من قوة مادية أو سلاح أو عسكر.

٧ً - كذلك لقد خوف هذا الرجل المؤمن قومه بهلاك معجل في الدنيا، ثم خوفهم أيضاً بهلاك الآخرة بقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ فاهتز قلب فرعون.

٨ً - زاد هذا المؤمن في الوعظ والتخويف، وأفصح عن إيمانه، إما مستسلماً موطّناً نفسه على القتل، أو واثقاً بأنهم لا يقصدونه بسوء، وقد وقاه الله شرهم، بقوله الحق: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ [غافر: ٤٠/٤٥]

وصرح بالخوف من عذاب يوم القيامة - يوم التنادي، حيث ينادي الناس بعضهم بعضاً للاستغاثة، وينادي أهل النار أهل الجنة، وأهل الجنة أهل النار.

٩ً - وذكّرهم أيضاً بالماضي السحيق، حيث جاء أسلافَهم نبي الله يوسف ابن يعقوب عليهما السلام، وذكّرهم قديم عتوهم على الأنبياء، فجاءهم يوسف بالشواهد القاطعة الدالة على صدقه، فكفروا به وكذبوه في حياته، وكفروا بالأنبياء من بعده، فأضلهم الله بعدئذ عن الحق والصواب.

١٠ً - ثم ختم المؤمن كلامه بالتحذير من بقاء قومه بالشك والإسراف، بسبب الجدال في حجج الله الظاهرة بغير حجة وبرهان، إما بناء على التقليد المجرد، وإما بناء على شبهات واهية، وهؤلاء المجادلون يغضب الله عليهم ويعذبهم في جهنم، ويبغضهم المؤمنون أشد البغض، وتصبح قلوبهم مغلقة لا ينفذ إليها الخير.

١١ً - ما أروع تلك الكلمات التي كان مؤمن آل فرعون يختم بها حججه وبراهينه!! فهي كما حكاها تعالى مع إقرارها دستور الحق، وسنة الله، وسبيل إقامة العدل، وأساس الحساب في الدار الآخرة، وتلك هي:

أ - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ إشارة إلى علو شأن موسى عليه السلام على طريق الرمز والتعريض، أو إلى أن فرعون مسرف في عزمه على قتل موسى، كذاب في إقدامه على ادعاء الألوهية، والله لا يهدي من هذا شأنه وصفته، بل يدمره ويهدم بنيانه.

ب - ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ يعني أن تدمير الأحزاب الذين تحزبوا على الرسل، فكذبوهم وكفروا بهم، كان عدلاً؛ لأنهم استوجبوه بسبب تكذيبهم للأنبياء.

ج - ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ تنبيه على قوة ضلالتهم وشدة جهالتهم بعد أن أكد التهديد بقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾.

د - ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أي مثل ذلك الضلال في الآباء والأجداد يضل الله من هو مشرك، شاكّ في وحدانية الله تعالى، مثل قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٢٧] وقوله سبحانه: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦].

هـ - ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء المجادلين في آيات الله بالباطل من غير حجة ولا برهان، كذلك يختم الله على جميع قلوب المتكبرين الجبابرة، حتى لا تعقل الرشاد ولا تقبل الحق.

- ٣ -

بحث فرعون عن إله موسى استهزاء به وإنكاراً لرسالته

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

القراءات:

﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (لعليَ أبلغ).

﴿فَأَطَّلِعَ﴾:

وهي قراءة حفص، وقرأ الباقون (فأطَّلِعُ).

﴿وَصُدَّ﴾: وقرئ:

١- (وَصَدَّ) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر.

٢- (وَصُدَّ) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بدل من ﴿ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ الأولى .﴿فَأَطَّلِعَ﴾ بالنصب جواب ﴿لَّعَلِّيٓ﴾ بالفاء، بتقدير (أن) ، ويقرأ بالرفع عطفاً على لفظ ﴿أَبْلُغُ﴾

المفردات اللغوية:

﴿فِرْعَوْنُ﴾ ملك القبط في مصر .﴿يَٰهَٰمَٰنُ﴾ وزير فرعون .﴿صَرْحًا﴾ بناءً ضخماً عالياً كالأبراج العالية اليوم .﴿ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ الطرق الموصلة إلى المطلوب، جمع سبب: وهو ما يتوصل به إلى شيء كحبل وسُلَّم وطريق، والمراد هنا: الأبواب .﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أنظر إليه، متأثراً بدين المشبهة الذين يعتقدون أن الله في السماء لا أنه سمع ذلك من موسى عليه السلام، قال البيضاوي: ولعله أراد أن يبني له مرصداً في موضع عال يرصد منه أحوال الكواكب التي هي أسباب سماوية تدل على الحوادث الأرضية، فيرى هل فيها ما يدل على إرسال الله إيّاه، أي موسى.

﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ لأظن موسى كاذباً في دعوى الرسالة أو في ادِّعاء إله غيري، قال فرعون ذلك تمويهاً .﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي ومثل ذلك التزيين، زين له الشرك والتكذيب، ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ صدّ عن سبيل الرشاد وطريق الهدى .﴿تَبَابٍ﴾ خسران وهلاك، ومنه قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المسد: ١/١١١] وقوله سبحانه: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١/١١] .

المناسبة:

بعد وصف فرعون بأنه متكبر جبار، أخبر الله تعالى عن عتوه وتمرده وافترائه في تكذيب موسى عليه السلام، حتى بلغ به الأمر أن أمر وزيره ببناء قصر عال منيف شاهق من الآجر، ليصعد به إلى السماء، للاطلاع على إله موسى، قاصداً بذلك التحدي والتمويه، والاستهزاء بموسى وإنكار رسالته.

التفسير والبيان:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ أي قال فرعون الملك لوزيره هامان بعد سماع دفاع الرجل المؤمن عن موسى: يا هامان، ابنِ لي قصراً مشيداً منيفاً عالياً، لعلي أصل إلى أبواب السماء وطرقها، فإذا وصلت إليها بحثت عن إله موسى. وهو لا يريد بذلك إلا الاستهزاء منه، وإنكار رسالته. ثم أكّد ذلك بقوله: وإني لأظن موسى كاذباً في ادّعائه بأن له إلهاً غيري، وأنه أرسله إلينا. وقد قصد بذلك التمويه والتلبيس على قومه، من أجل إبقائهم في الكفر، واعتقادهم بأنه هو الإله، والاستخفاف بعقولهم، وإيهامهم بما يريد.

وهذا تصريح من فرعون بتكذيب موسى عليه السلام في أن الله أرسله إليه، كما قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ أي ومثل ذلك التزيين المفرط في الحماقة والبلادة والغباوة، زيّن لفرعون الجبار سوء عمله وقبح صنعه، من الشرك والتكذيب، فتمادى في الغي، واستمر على الطغيان، أي زيّن له الشيطان عمله السيئ، فصده عن سبيل الهدى والرشاد، وحجبه عن طريق الحق والعدل والسداد، وما كان كيده واحتياله وعمله الذي يوهم به الناس إلا في خسران وضياع مال، لذهاب نفقته سدىً دون التوصل إلى شيء مما أراد.

والخلاصة: إن فعل فرعون وأمثاله صنيع المكذبين الضالين، وإن عاقبة كفرهم وضلالهم وتكذيبهم الهلاك والخسران، وأن تدبير فرعون الذي دبَّره ليصرف الناس عن الإيمان بموسى عليه السلام مبدَّد ضائع لا فائدة فيه.

فقه الحياة أو الأحكام:

تدلّ هذه الآيات على نوع من التمويه والمكر والخداع الذي لجأ إليه فرعون، لإنكار ألوهية الله ووجوده، وتكذيب رسالة موسى عليه السلام، لما خاف أن يتمكن كلام الرجل المؤمن في قلوب القوم، وقد أدرك قوة حجته، وأصالة فكره، وسلامة منطقه.

أوهم الناس أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد، فإن نجح تحقق غرضه، وإن خاب ثبَّتهم على دينهم، فأمر هامان ببناء الصَّرح. ونحن نثق بوجود هذا الوزير في عهد فرعون، وإن لم يعرف هذا الاسم في تاريخ الفراعنة، لأن كلام الله تعالى حجة قطعية.

وأغلب المفسرين الظاهريين على أن فرعون قصد فعلاً بناء الصرح ليصعد إلى السماء، فيرى إله موسى إن كان موجوداً، وإلا أخبر قومه بعدم وجوده، وأنه هو الإله والرّب الأعلى. واستبعد الرازي على فرعون الذكي الحاكم القوي لجوءه إلى مثل ذلك؛ لأن كل عاقل يعلم ببديهة عقله أنه يتعذر في قدرة البشر وضع بناء يكون أرفع من الجبل العالي. والراجح أن فرعون كان من الدهرية، وغرضه من هذا الكلام إيراد شبهة تشغل الناس في نفي الإله الخالق الصانع. وكأنه يقول: لو كان إله موسى موجوداً لكان له محل، ومحله إما الأرض وإما السماء، وإذا لم نره في الأرض، فهو في السماء، والسماء لا يتوصل إليها إلا بسُلَّم، فيجب بناء صرح للوصول إليه.

وأبطل الرازي هذه الشبهة؛ لأن طرق العلم بالأشياء ثلاثة: الحس، والخبر، والنظر، ولا يلزم من انتفاء طريق واحد هو الحس، انتفاء المطلوب،

وذلك لأن موسى عليه السلام كان قد بيَّن لفرعون أن الطريق إلى معرفته تعالى إنما هو الحجة والدليل، كما قال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢٦] ، ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢٨] إلا أن فرعون لخبثه ومكره تغافل عن ذلك الدليل[١].

ولقد توهم فرعون أن الله في السماء، فهذا دين المشبِّهة، ولعله كان على دينهم، فهو إنما ذكر هذا الاعتقاد من قبل نفسه، لا لأجل أنه قد سمعه من موسى عليه السلام. وربما فهم خطأ من قول موسى عليه السلام: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أنه ربّ السماوات بمعنى كونه فيها، كما يقال: ربّ الدار بمعنى كونه ساكناً فيها. وأما عقيدتنا فهي كما أخبر الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٨٤] .

ويتلخص أمر فرعون في أن الشيطان زيّن له عمله وهو الشرك والتكذيب، فصدّه عن سبيل الحق والرشاد، وأصبح كيده واحتياله في دمار وخسران وضلال.

(١) تفسير الرازي: ٢٧/ ٦٥ - ٦٦

- ٤ -

متابعة الرجل المؤمن نصحه لقومه

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾

القراءات:

﴿يَدْخُلُونَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (يُدْخَلُون).

﴿مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (ماليَ أدعوكم).

﴿أَمْرِىٓ إِلَى﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو (أمريَ إلى).

﴿ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (الساعةُ ادْخُلُوا)، وإذا ابتدؤوا ضموا الهمزة.

الإعراب:

﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾ الجملة بدل أو عطف بيان. والدعاء كالهداية في التعدية بـ (إلى) واللام.

﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ﴾ فيه محذوف، أي ليس له إجابة دعوة، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ ﴿ٱلنَّارُ﴾: إما بدل مرفوع من قوله تعالى: ﴿سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ وإما خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو النار، وإما مبتدأ، وخبره: ﴿يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾ ﴿ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾: مفعول به لفعل ﴿أَدۡخِلُوٓاْ﴾ وقرئ بوصل همزة(أدخلوا) وضمها وضم الخاء، فيكون ﴿ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾ منادى مضاف، أي ادخلوا يا آل فرعون.

البلاغة:

﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ استعارة تمثيلية، حيث شبه حالهم بحال متاع يعرض للبيع، وجعل النار كالطالب الراغب في الكفار.

﴿غُدُوّٗا﴾ و﴿وَعَشِيّٗا﴾ بينهما طباق.

﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩﴾ بينهما ما يسمى بالمقابلة في علم البديع.

﴿ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ ﴾ فيها توافق أواخر الآيات مع السجع البديع، والبيان الرائع الذي يهز أعماق النفس الإنسانية.

المفردات اللغوية:

﴿ ٱتَّبِعُونِ ﴾ بإثبات الياء: اتبعوني .﴿ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ أدلكم على طريق الصواب والسداد، و﴿ ٱلرَّشَادِ ﴾: وهو ضدّ الغي والضلال، وهو السبيل الذي يصل سالكه إلى المقصود الأسمى والنجاة. وفيه تعريض بأن ما عليه فرعون وقومه سبيل الغي .﴿ مَتَٰعٞ ﴾ تمتع يسير، لسرعة زوالها، يستمتع به زمناً قليلاً ثم يزول .﴿ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴾ دار البقاء والدوام والخلود.

﴿ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ ﴾ عدلاً من الله، وفيه دليل على أن الجنايات في الأبدان والأموال تغرم بمثلها .﴿ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ بغير تقدير ولا تقنين ولا موازنة بالعمل، فهو رزق واسع لا حدود له، فضلاً من الله ورحمة. وقوله: ﴿ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ ﴾ قيد أو شرط في اعتبار العمل، وأن ثوابه أعلى من ذلك. والتعبير في جانب الثواب على العمل الصالح مع الإيمان بالجملة الاسمية. ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ للدلالة على الثبوت والاستمرار، وتغليب الرحمة، وجعل العمل عمدة.

﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ ﴾ أي إلى الإيمان بالله الذي يؤدي إلى النجاة، وقد كرر نداءهم إيقاظاً لهم من الغفلة، واهتماماً بهم، ومبالغة في توبيخهم على ما يقابلون به نصحه من إدبار وإعراض .﴿ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ إلى الكفر وعبادة الأوثان الموجبة لدخول النار .﴿ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾ أشرك بما لا وجود له، ولم يقم على ربوبيته دليل ولا برهان. وفيه إيماء بأن الألوهية لا بدّ لها منَ برهان واعتقاد بيقين.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي حق، وفاعله: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ لأعبده ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ ليس له إجابة دعوة لمن يدعو إليه، والمعنى: حقّ عدم استحقاق آلهتكم العبادة؛ لأنها جمادات، ولأنها ليس لها دعوة مستجابة. ﴿مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مرجعنا بالموت إلى لقاء الله. ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين الحدّ، الذين يغلب شرهم على خيرهم، الواقعين في الضلالة والطغيان، كالإشراك والكفر وسفك الدماء. ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ ملازموها.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ تتذكرون عند معاينة العذاب. ﴿مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ من النصيحة. ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ليعصمني من كل سوء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فيحرسهم. وكان هذا جواب توعدهم المفهوم من قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ حماه الله وحفظه من شدائد مكرهم الذي مكروا به من القتل. ﴿وَحَاقَ﴾ نزل. ﴿بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ بفرعون وقومه. ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ بالغرق في الدنيا والموت، والنار في الآخرة.

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ مثل يَصْلَوْنها، أي يحرقون بها، فإن عرضهم على النار: إحراقهم بها، مأخوذ من قولهم: عرض الحاكم الأسارى على السيف: إذا قتلهم به. ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ صباحاً ومساء، وذكر هذين الوقتين يفيد التأبيد والدوام ما دامت الدنيا، فإذا قامت القيامة قيل لهم: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ عذاب جهنم، فإنه أشدّ مما كانوا فيه، أو أشدّ عذاب جهنم. والمعنى: أن أرواح الكفار وهم في القبور تعرض على النار صباح مساء، أي تحرق بها، مما يدلّ على بقاء النفس، وثبوت عذاب القبر، كما روى ابن مسعود رضي الله عنه: «أن أرواحهم في أجواف طير سود، تعرض على النار، بكرةً وعشياً إلى يوم القيامة» وقد يراد بهذين الوقتين التخصيص، فيعذبون بالنار فيهما، وفيما بين ذلك الله أعلم بحالهم: فإما أن يعذبوا بجنس آخر من العذاب، أو ينفَّس عنهم.

المناسبة:

هذا بقية كلام مؤمن آل فرعون، فإنه أعاد عليهم النصح مرة أخرى حينما رآهم يتمادون في كفرهم وبغيهم، ونادى قومه ثلاث مرات، في المرة الأولى دعاهم في الآيات السابقة إلى قبول الدين الذي دعا إليه موسى، على سبيل الإجمال، وفي المرتين الأخريين على سبيل التفصيل.

فدعاهم إلى الإيمان بالله سبحانه طريق الرشاد، ثم حذّرهم من الاغترار بالدنيا، وحثّهم على العمل للآخرة لدوامها، وقارن بين دعوته لهم إلى الإيمان بالله تعالى طريق النجاة، وبين دعوتهم له إلى عبادة الأصنام طريق النار. ثم أخبر سبحانه عن وقايته وعصمته من السوء الذي دبَّروه له، وإغراق آل فرعون، وإدخالهم في جهنم يوم القيامة.

التفسير والبيان:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾ قال مؤمن آل فرعون يعظ قومه: يا قوم، اتبعوني فيما أقول لكم وأدعوكم إليه، أدلكم على طريق الرشاد والخير والسداد، وهو اتباع دين الله الذي جاء به موسى.

وفيه تعريض بأن سبيل فرعون وآله سبيل الغي والضلال والفساد.

ثم حذّرهم من الافتتان بنعيم الدنيا والاغترار بزخارفها، فقال:

﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ أي يا قوم، ما هذه الحياة الدنيوية إلا مجرد متاع يستمتع به قليلاً ثم يزول وينتهي بالموت، وإن الآخرة هي دار الاستقرار والبقاء والخلود، فهي دائمة باقية لا زوال عنها، ولا انتقال منها، والناس إما في النعيم وإما في الجحيم، ولا ثالث غيرهما، فالسعيد من سعى إلى النعيم، والشقي من سعى إلى الجحيم؛ لأن النعيم فيها دائم، والعذاب فيها دائم.

وهذا نعي للدنيا الزائلة الفانية عما قريب، وبشارة بالآخرة الدائمة الباقية.

ثم أبان تعالى طريق تقسيم العباد وكيفية المجازاة في الآخرة، مشيراً إلى أن جانب الرحمة غالب على جانب العقاب، فقال:

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾، أي من ارتكب معصية من المعاصي، فلا يجزى في الآخرة إلا مثلها، عدلاً من الله، ومن عمل العمل الصالح وهو اتباع أمر الله واجتناب نهي الله، وكان مصدقاً بالله وبرسله، فهؤلاء هم لا غيرهم أهل الجنة التي يتمتعون بنعيمها ورزقها أضعافاً مضاعفة، بغير تقدير ولا تساوٍ مع العمل، فضلاً من الله ونعمة ورحمة.

وهذا دليل على أن جزاء السيئة مقصور عل المثل، وجزاء الحسنة خارج عن الحساب، غير مقصور على المثل. والآية أيضاً أصل كبير في أحكام الشريعة فيما يتعلق بأحكام الجنايات، فإن مقتضى الآية أن يكون المثل مشروعاً، وأن الزائد عن المثل غير مشروع، أي إن الواجب في الجنايات على الأنفس والأموال هو إما المثل في المثليات كالحبوب، وإما القيمة في القيميات كالأمتعة والأثاث واللآلئ والجواهر.

ثم أكّد وكرر الرجل المؤمن دعوته إلى الله، وصرّح بإيمانه بالله وحده لا شريك له، فقال:

﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾ أي ما لكم يا قوم؟ أخبروني عنكم، ما بالي أدعوكم إلى النجاة من النار ودخول الجنة، بالإيمان بالله تعالى، وعبادة الله وحده لا شريك له، وتصديق رسوله المبعوث إليكم من عند ربكم، وتدعونني إلى عمل أهل النار، بما تريدون مني من الشرك وعبادة الأصنام؟

ثم فسّر الدعوتين قائلاً:

﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ أي تدعونني لأمر خطير جداً هو الكفر بالله، والإشراك به في عبادته جهلَ من لم يقم أي دليل على ألوهيته، ولا علم لي من وجه صحيح بكونه شريكاً لله، وأنا أدعوكم إلى الإيمان بمن اتصف بصفات الألوهية الحقة، من العزة والقدرة والغلبة والعلم والإرادة والتمكن من المغفرة والتعذيب، فآمنوا به يغفر لكم ويعزّكم، فهو القوي الغالب في انتقامه ممن كفر، الغفار في عزته وكبريائه لذنب من آمن به وتاب إليه.

ثم أكّد تفنيد دعوتهم وفساد منهجهم، فقال:

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي قد حقّ وثبت وصحّ عقلاً وواقعاً أن الذي تدعونني إليه من عبادة الأصنام والأنداد ليس له أي دعوة مستجابة، فلا يجيب داعيه، لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأنه جماد لا يسمع ولا يبصر، ولا ينفع ولا يضرّ، كما في آية أخرى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٤٦/٥-٦]، وقال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ٣٥/١٤].

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي والواقع الحتمي أن مرجعنا ومصيرنا إلى الله بالموت ثم بالبعث في الدار الآخرة، فيجازي كل إنسان بعمله، وأن المسرفين في المعاصي، المستكثرين منها، المتعدِّين حدود الله، المنغمسين في الشرك والوثنية والكفر، هم أهل النار الذين يصيرون إليها، الخالدين فيها بإسرافهم وهو شركهم بالله عزّ وجلّ.

ثم ختم كلامه بخاتمة لطيفة مؤثِّرة فيها تذكير بالمستقبل وبُعْد نظر، فقال:

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ أي سوف تعلمون صدق قولي لكم من أمر ونهي ونصح وإيضاح وتذكير في وقت لا ينفع فيه الندم، حين ينزل بكم العذاب الشديد في الآخرة، وأتوكل على الله وأستعين به ليعصمني من كلِّ سوء في مقاطعتي لكم ومباعدتكم، فإن الله بصير بعباده، خبير بهم، فيهدي من يستحق الهداية، ويضلّ من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة، والقدرة النافذة. قال مقاتل: هرب هذا المؤمن إلى الجبل، فلم يقدروا عليه.

ثم أخبر الله تعالى عن مصير هذا الرجل المؤمن الجريء الناصح الفصيح، فقال:

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ أي حفظه الله وحماه في الدنيا من سوء وشرّ ما أرادوا به من قتل، ونجّاه من بأس فرعون، كما نجَّى موسى عليه السلام، كما نجّاه في الآخرة من النار، وأنعم عليه بالجنة، ونزل بفرعون وقومه سوء العذاب في الدنيا بالغرق جميعاً في البحر، وسيعذبون في الآخرة بالنار.

ثم أوضح الله تعالى ذلك العذاب السيئ، فقال:

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ أي إن أرواح فرعون وقومه بعد موتهم في عالم البرزخ، وقبل مجيء القيامة تعرض على النار وتحرق فيها صباحاً ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار، ويقال للملائكة: أدخلوا آل فرعون في جهنم، حيث يكون العذاب فيها أشد ألماً وأعظم نكالاً.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل

الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار، فمن أهل النار، يقال له: هذا مقعدك، حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة».

وروى ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن أرواح آل فرعون ومن كان مثلهم من الكفار تعرض على النار، بالغداة والعشي، فيقال: هذه داركم». وفي حديث آخر عنه تقدّم: «إن أرواحهم في أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح كل يوم مرتين، فذلك عرضها».

وهذه الآية والأحاديث أصل أساسي في إثبات عذاب البرزخ في القبر، وأن عذاب القبر حقّ واقع لا شكّ فيه. روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، فقال: «نعم عذاب القبر حقّ» ولكن ليس في الآية دلالة على أن الأجساد في القبور تتألم مع الروح، وتتعذب معها، وإنما دلّت السُّنة على ذلك، كالحديث المتقدّم: «نعم عذاب القبر حقّ» وكذلك اقتصرت دلالة الآية على عذاب الكفار في البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن في قبره بذنب، ولكن يفهم ذلك من الأحاديث النّبوية المتقدّمة، لكن العذاب متفاوت بدليل ما رواه ابن أبي حاتم والبزار في مسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النّبي ﷺ قال:

«ما أحسن محسن من مسلم أو كافر إلا أثابه الله تعالى، قلنا: يا رسول الله، ما إثابة الله الكافر؟ فقال: إن كان قد وصل رحماً أو تصدّق بصدقة أو عمل حسنة، أثابه الله تبارك وتعالى المال والولد والصحة وأشباه ذلك، قلنا: فما إثابته في الآخرة؟ قال ﷺ: عذاباً دون العذاب» وقرأ: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - كان مؤمن آل فرعون في نصحه لقومه من أشدّ الناس إخلاصاً لهم وحبّاً وحرصاً على إنقاذهم من ورطة الكفر، والدخول في ساحة الإيمان بالله عزّ وجلّ وحده لا شريك له.

٢ - لقد كرّر النّصح وأكّده، ونوّع الخطاب والترغيب والترهيب، مبتدئاً بالدعوة إلى الإيمان بالله، وسلوك طريق الهدى وهو الجنة، ونادى قومه بلطف هنا للمرة الثانية.

٣ - ثم حذّر من الاغترار بزخارف الدنيا ولذائذها وشهواتها، وزهّدهم فيها بعد أن آثروها على الآخرة، ولا يسع العاقل البصير إلا عدم التعلق الشديد بالدنيا الفانية، وإيثار الآخرة دار الاستقرار والخلود.

٤ - وأبان لقومه كيفية المجازاة في الآخرة، فمن اقترف معصية - وأكبرها الشرك - فلا يجزى إلا مثلها من العذاب عدلاً من الله، ومن عمل بما أمر الله به واجتنب ما نهى عنه، وهو مصدق بقلبه بالله وبالأنبياء، فهو من أهل الجنة، فضلاً ورحمة من الله، ورزق الجنة دائم واسع لا تقدير فيه.

٥ - ثم نادى قومه للمرة الثالثة مؤكّداً دعوتهم إلى الإيمان الذي يوجب النجاة، وترك الكفر الذي يوجب النار، علماً بأنه لا دليل ولا برهان يقبل على صحة الدعوة إلى الشرك، وإنما الدليل القاطع والبرهان الساطع متوافر في صحة الدعوة إلى الإيمان بالله المتصف بصفات الألوهية الحقّة من الْخَلْق والقدرة والإرادة والعلم والعزّة والمغفرة والتعذيب.

٦ - حقاً إن ما يعبد من دون الله من البشر أو الأصنام ليس له استجابة دعوة تنفع، وليس له شفاعة في الدنيا ولا في الآخرة. وكان فرعون أولاً يدعو الناس إلى عبادة الأصنام، ثم دعاهم إلى عبادة البقر، فكانت تُعْبَد ما كانت شابة، فإذا هَرِمت أمر بذبحها، ثم دعا بأخرى لتعبد، ثم لما طال عليه الزمان قال: أنا ربّكم الأعلى.

٧ً - إن المسرفين وهم المشركون، والسفهاء، وسفاكو الدماء بغير حقها، والجبارون والمتكبرون، والذين تعدّوا حدود الله، هم أصحاب النار.

٨ً - ثم لجأ مؤمن آل فرعون إلى نوع من التهديد والوعيد، مبيناً أن قومه سيتذكرون يوم القيامة وحين حلول العذاب بهم، ما قاله لهم، وأما هو فقد توكّل على الله وأسلم أمره إليه؛ لأنهم أرادوا قتله، ولكن من يتوكل على الله فهو حسبه.

٩ً - لقد حفظ الله هذا المؤمن من إلحاق أنواع العذاب به، فطلبوه فما وجدوه؛ لأنه فوّض أمره إلى الله تعالى.

١٠ً - وأما آل فرعون فإنه نزل بهم العذاب الشامل في الدنيا وهو الغرق، وسيعذبون في الآخرة، ويعرضون أيضاً في البرزخ في القبور على النار صباح مساء.

وهذا كما تقدّم يدلّ على إثبات عذاب القبر، لقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ﴾ ما دامت الدنيا. قال جمهور المفسرين: هذه الآية تدلّ على عذاب القبر في الدنيا، ألا تراه يقول عن عذاب الآخرة: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾.

ورأى الرازي أن الآية لا تدلّ على عذاب القبر، وإنما ذكر الغدوة والعشية كناية عن الدوام في عذاب النار، كقوله تعالى بالنسبة لأهل الجنة: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ [مريم: ١٩/ ٦٢].[١]

(١) تفسير الرازي: ٢٧/ ٧٣

المناظرة بين الرؤساء والأتباع في النار

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَٰٓؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَٰتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَٰٓؤُا الْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾

القراءات:

﴿رُسُلُكُم﴾ :

وقرأ أبو عمرو (رُسْلكم).

الإعراب:

﴿تَبَعًا﴾ أورده بلفظ الواحد، وإن كان خبراً عن جماعة؛ لأنه مصدر، والمصدر يصلح للجميع.

﴿مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا﴾ مفعول به لـ ﴿مُّغْنُونَ﴾

﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ ﴿كُلٌّ﴾ : مبتدأ، وهو في تقدير الإضافة، و﴿فِيهَآ﴾ : خبره، والجملة من المبتدأ والخبر في موضع رفع خبر (إن). ولا يجوز أن ينصب ﴿كُلٌّ﴾ على البدل من ضمير ﴿إِنَّا﴾ ؛ لأن ضمير المتكلم لا يبدل منه؛ لأنه لا لبس فيه، حتى يوضح بغيره. وقرئ (كلّاً) على التأكيد؛ لأنه بمعنى كلنا، وتنوينه عوض عن المضاف إليه.

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ﴾ جواب مجزوم، والأكثر في كلام العرب أن يكون جواب الأمر وشبهه بغير فاء، وهو الأفصح.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾ واذكر يا محمد وقت تخاصم الكفار في النار، والمحاجّة: المجادلة والتخاصم بين اثنين فأكثر. ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ أتباعاً جمع تابع، كخدم جمع خادم. ﴿مُّغۡنُونَ﴾ دافعون أو حاملون. ﴿نَصِيبٗا﴾ جزءاً وقسطاً، أي فهل أنتم حاملون عنّا جزءاً من العذاب أو دافعون جزءاً؟

﴿إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ﴾ نحن وأنتم، فكيف نغني عنكم؟ ولو قدرنا لأغنينا عن أنفسنا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ فأدخل المؤمنين الجنة، والكافرين النار. و﴿حَكَمَ﴾ قضى، ولا معقّب لحكمه. ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ هم القوّام بتعذيب أهل النار، جمع خازن. ﴿يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ قدر يوم ﴿مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ شيئاً من العذاب. ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي الخزنة تهكّماً. ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الظاهرات. ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أقروا بإرسال الرسل، لكنهم كفروا بهم. ﴿قَالُواْ فَٱدۡعُواْ﴾ قال الخزنة لأهل النار: فادعوا أنتم، فإنه لم يؤذن لنا في الدعاء لأمثالكم، وإننا لا نشفع للكافرين، وفيه إقناط من الإجابة، فقال تعالى حاكياً ما أخبروهم به: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ خسران وضياع وانعدام.

المناسبة:

هذا ابتداء قصة لا تختص بآل فرعون، فبعد أن أوضح الله تعالى أحوال النار في عظة مؤمن آل فرعون، ذكر تعالى عقيبها قصة المناظرة والجدل التي تجري بين الرؤساء والأتباع من أهل النار.

التفسير والبيان:

﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ

﴿تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ أي واذكر أيها الرسول لقومك للعظة والعبرة وقت تخاصم الكفار أهل النار وهم فيها، ومنهم فرعون وقومه، فيقول الضعفاء الأتباع للرؤساء والسادة والقادة الذين استكبروا عن اتِّباع الأنبياء، ومكروا لصدّ الناس عن الإيمان: إنا كنّا تابعين لكم، وقد أطعناكم فيما دعوتمونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال، ودخلنا النار بسبب اتِّباعكم، فهل تدفعون عنّا قسطاً أو جزءاً من العذاب، أو تتحملونه عنّا؟ فأجابهم الرؤساء بما حكاه تعالى:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ أي قال المستكبرون للمستضعفين: إنا نحن وأنتم جميعاً في جهنم، فكيف نغني عنكم؟ فلو قدرنا على دفع شيء من العذاب لدفعناه عن أنفسنا، إن الله قضى قضاءه العادل المبرم بين العباد، بأن فريقاً في الجنة، وفريقاً في السعير، وقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كلّ منّا، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٧/٣٨].

ولما يئسوا من السادة اتّجهوا إلى خزنة جهنم يطلبون منهم الدعاء، فقال تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ أي وقال أهل النار من الأمم الكافرة لسدنة جهنم وقوّامها (وهم الملائكة القائمون عليها لتعذيب أهل النار): ادعوا الله ربّكم لعله أن يخفف عنا مقدار يوم من العذاب، بأن يشفعوا لنا عند الله تعالى لتخفيف يسير، وذلك لما علموا أن الله عزّ وجلّ لا يستجيب منهم، ولا يستمع لدعائهم.

فردّت الخزنة عليهم موبِّخين ملزمين لهم الحجة، كما قال تعالى:

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؟ قالت الخزنة لأهل

النار: أو ما جاءتكم الرسل في الدنيا بالحجج والأدلة الواضحة على توحيد الله، والتحذير من سوء العاقبة؟! ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الزمر: ٣٩/ ٧١].

﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ قال أهل النار: بلى قد جاءتنا الرسل، فكذبناهم، ولم نؤمن بهم ولا بما جاؤوا به من الحجج.

فلما اعترفوا قالت لهم الخزنة تهكّماً:

﴿قَالُوا فَٱدْعُوا وَمَا دُعَٰٓؤُا ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي قالت الخزنة لأهل النار: إذا كان الأمر كما ذكرتم، فادعوا أنتم لأنفسكم، فنحن لا ندعو لمن كفر بالله وكذّب رسله بعد مجيئهم بالحجج الواضحة، ونحن برآء منكم، ثم أخبروهم بأن دعاءهم لا يفيد شيئاً، فما دعاء الكافرين بالله ورسله إلا في ضياع وبطلان وذهاب لا يقبل ولا يستجاب.

أخرج الترمذي وغيره عن أبي الدرداء قال: «يُلْقى على أهل النار الجوع، حتى يَعْدِل ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون منه، فيغاثون بالضريع لا يسمن ولا يغني من جوع، فيأكلونه لا يغني عنهم شيئاً، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذي غُصَّة، فيَغَصُّونَ به، فيذكُرون أنهم كانوا في الدنيا يجيزون الغَصَص بالماء، فيستغيثون بالشراب، فيرفع لهم الحميم بالكلاليب، فإذا دنا من وجوههم شَواها، فإذا وقع في بطونهم قطَّع أمعاءهم وما في بطونهم، فيستغيثون بالملائكة يقولون: ﴿ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فيجيبوهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَٱدْعُوا وَمَا دُعَٰٓؤُا ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ - أي خسران وتبار».

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت الآيات على ما يأتي:

١ً - يشتدّ الجدال والخصام يوم القيامة في نار جهنم بين الأتباع الضعفاء والمتبوعين الرؤساء الذين استكبروا عن الانقياد للأنبياء، فيقول الأولون: إنّا كنّا أتباعاً لكم في الدنيا فيما دعوتمونا إليه من الشرك، فهل أنتم الآن متحملون عنّا جزءاً من العذاب؟

٢ً - أجاب الكبراء: إنا نحن وأنتم جميعاً في نار جهنم، وإن الله قضى بين العباد، وأخذ كل واحد منا ما يستحقه، ولا يؤاخذ أحد بذنب غيره، فكل منا كافر.

٣ً - لما يئس الكفار بعضهم من بعض طلبوا من خزنه جهنم وهم ملائكة العذاب أن يدعوا لهم ربّهم بأن يخفف عنهم شيئاً من عذاب جهنم، ولو يوماً واحداً.

فردت عليهم الخزنة: ألم تأتكم الرسل بالبيِّنات الدالة على طريق النجاة، والحيلولة بينكم وبين سوء العاقبة؟!

وهذا دليل على أن الواجب لا يتحقق إلا بعد مجيء الشرع، فلا تكليف قبل إرسال الرسل وإنزال الشرائع، ولا عقاب أيضاً، كما قال تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٥] .

٤ً - ثم قال الملائكة خزنة جهنم للكفار: ادعوا أنتم، فإنا لا نجترئ على ذلك، ولا نشفع إلا بشرطين:

أحدهما - كون المشفوع له مؤمناً.

والثاني - حصول الإذن في الشفاعة، ولم يوجد واحد من هذين الشرطين.

لكن ادعوا أنتم، للدلالة على الخيبة، لا لرجاء النفع، ثم يصرِّحون لهم بأنه لا أثر لدعائهم ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ أي خسران وبطلان وزوال.

نصر الرسل على أعدائهم في الدنيا والآخرة

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِى الْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِىِّ وَالْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ۚ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾

القراءات:

﴿رُسُلَنَا﴾:

وقرأ أبو عمرو (رُسْلنا).

﴿لَا يَنفَعُ﴾: قرئ:

١- (لاينفعُ) وهي قراءة نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي.

٢- (لاتنفعُ) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ﴾ ﴿وَيَوْمَ﴾: معطوف على موضع الجار والمجرور، وهو ﴿فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ مثل: جئتك في أمس واليوم. و﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ﴾ بدل من الأول.

﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَـٰبَ ، هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِى الْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾﴾

﴿هُدَى﴾ حال من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، ﴿وَذِكْرَىٰ﴾: معطوف عليه، وعامل الحال: ﴿وَأَوْرَثْنَا﴾.

﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ بكسر الهمزة: مصدر (أبكر إبكاراً) وقرئ بفتحها على أنه جمع بَكَر، مثل سحر وأسحار.

﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ إن بمعنى (ما) مثل ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ و﴿كِبْرٌ﴾ مرفوع بالظرف، وهو ﴿فِى صُدُورِهِمْ﴾ لأن الظرف قد فرّغ له، مثل: ما في الدار إلا زيد.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل، ويصح كونه مبتدأ، وما بعده خبره، والجملة خبر (إن).

البلاغة:

﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ بينهما طباق.

﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ صيغتا مبالغة.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ بالحجة والظفر على الكفرة. ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ هو يوم القيامة، و﴿ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ جمع شاهد، مثل أصحاب وصاحب، وهم الذين يشهدون للرسل بالبلاغ وعلى الكفار بالتكذيب، وهم الملائكة والأنبياء والمؤمنون، فيكون نصر الرسل في الدارين.

﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ عذرهم، وعدم نفع العذر؛ لأنه باطل، أو لأنه لا يؤذن للظالمين فيعتذرون. ﴿ٱللَّعْنَةُ﴾ الطرد والبعد من الرحمة. ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي الدار الآخرة، وهو شدة عذابها في جهنم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ما يهتدى به في الدين من التوراة المشتملة على الشرائع والمعجزات المثبتة للصدق. ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي تركنا التوراة من بعد موسى لهم. ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾ هداية وتذكرة لأصحاب العقول، أو هادياً ومذكراً.

﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا محمد على أذى المشركين. ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ بالنصر، لا يخلفه أبداً. ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ أمر له بالاستغفار للاستنان والتأسي به، أو المعنى أقبل على أمر دينك، وتدارك زلاتك، كترك الأولى، فإنه تعالى كافيك في النصر وإظهار الأمر. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ نزه الله مع حمده وشكره، أي دم على التسبيح والتحميد لربك. ﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾ في المساء ﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ في الصباح، وقيل: إن هذا الأمر بالصلاة في هذين الوقتين؛ لأن الواجب كان بمكة ركعتين بكرة، وركعتين عشياً. وفسره آخرون بأن ذلك يشمل الصلوات الخمس؛ لأن الإبكار: صلاة الفجر، والعشي وهو ما بعد الزوال ويشمل الصلوات الأربع الباقية.

﴿فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآن. ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ بغير حجة وبرهان. ﴿كِبْرٌ﴾ تكبر عن الحق، وطمع في الاستعلاء عليك، وتعظم عن التفكر والتعلم. ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ ببالغي دفع الآيات أو ببالغي مرادهم. ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ فالتجئ إليه من شرهم. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم. ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بأحوالهم وأفعالهم. قال السيوطي: ونزل ذلك في منكري البعث.

سبب النزول:

نزول الآية (٥٦):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: جاءت اليهود إلى رسول الله ﷺ، فذكروا الدجال، فقالوا: يكون منا في آخر

الزمان، فعظَّموا أمره؛ وقالوا: يصنع كذا ويملكون به الأرض، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾ فأمر نبيه أن يتعوذ من فتنة الدجال.

ومع أن الآية نزلت في مشركي مكة منكري البعث أو في اليهود كما تبين، فهي عامة في كل مجادل مبطل. لكن قال ابن كثير عما ذكره أبو العالية: وهذا قول غريب، وفيه تعسف بعيد، وإن كان قد رواه ابن أبي حاتم. والأصح أن الآية نزلت في المشركين والكفار عامة.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾ أي إننا لنؤيد رسلنا والمؤمنين، بأن نجعلهم الغالبين لأعدائهم، القاهرين لهم، في الدنيا، وفي الآخرة حين يقوم الأشهاد من الملائكة والأنبياء والمؤمنين، بأن يشهدوا للرسل بإبلاغ رسالاتهم، وعلى الأمم بتكذيبهم.

والنصر في الدنيا إما معنوي وإما حسي، فالمعنوي: كالنصر بالحجة والبرهان، أو بالمدح والتعظيم، أو بإعلاء الجاه وعزة السلطان، وانتشار الدين، كنصر داود وسليمان على من كذبوهم، ونصر محمد ﷺ على من كذبه من قومه، وجعل الدولة والسلطة له في الجزيرة العربية. والنصر الحسي يكون بالقهر والانتقام من المكذبين كإغراق قوم نوح وآل فرعون، وقتل زعماء قريش في بدر وأسر بعضهم، وسلب أموالهم، وقد يكون الانتقام بعد الموت، كنصر أشعياء بعد هلاكه بتسليط الظلمة على أعدائه، ونصر يحيى بن زكريا لما قتل، قتل به سبعون ألفاً.

والنصر في الآخرة: بإعلاء الدرجات في مراتب الثواب، والتكريم بالكرامات في الجنة، وصحبة الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ

أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٤/٦٩] ومجازاة أهل الإيمان بأعمالهم، ومجازاة الكفار بأعمالهم، باللعن ودخول النار، كما في الآية التالية:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ أي حين يقوم الأشهاد يوم القيامة، ذلك اليوم الذي لا يقبل من المشركين اعتذارهم ولا تقديم فدية منهم؛ لأن معذرتهم باطلة، وشبهتهم زائفة، ولهم الطرد والبعد من الرحمة، ولهم سوء الدار وشر ما في الآخرة وهو النار، والعذاب الأليم فيها.

وبعد بيان نصر الأنبياء في الدنيا والآخرة، ذكر تعالى بعض مظاهر النصر في الدنيا، فقال:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾﴾ أي تالله لقد أعطينا موسى التوراة والنبوة، فاشتملت التوراة على الأحكام والشرائع الهادية لقومه، وتأيدت نبوته بالمعجزات الظاهرة كاليد والعصا، ثم أبقينا التوراة بعد موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، يتوارثها الخلف عن السلف، هداية لهم وتذكرة لذوي العقول الصحيحة السليمة، أو هادياً ومذكراً لأهل العقول، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ [المائدة: ٥/٤٤] .

وإذا كان النصر مقرراً للرسل والأنبياء، فما عليهم إلا الصبر، لذا أمر الله به نبيه قائلاً:

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ أي إذا كان الأمر كذلك وهو تقرير النصر للرسل وأتباعهم، فاصبر أيها الرسول على أذى المشركين، كما صبر من قبلك من الرسل، فإن عاقبة الصبر خير، فالله ناصرك وعاصمك من الناس، ووعد الله

بالنصر وغيره حق ثابت لا يخلفه أبداً، وداوم على الاستغفار لذنبك كترك الأولى، أو لزيادة الثواب، أو لإرشاد المؤمنين والتأسي بك، فإن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ودم على تنزيه الله مقروناً بحمده في أواخر النهار وأوائل الليل، وقيل: المراد: صلِّ في الوقتين: صلاة العصر وصلاة الفجر، أو صلِّ الصلوات الخمس، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ [هود: ١١/ ١١٤] .

وهذا دليل على ضرورة الصبر والاستغفار من الأمة، وإنما خوطب به النبي ﷺ للإرشاد والتعليم، وهو دليل أيضاً على ملازمة التسبيح والتحميد أو أداء الصلوات المفروضة. ويلاحظ أنه تعالى قدم التوبة والمغفرة على العمل، فإنه لا يقبل العمل إلا بعد التوبة الخالصة، والتوبة قد تكون من خلاف الأولى الذي هو ذنب إذا قيس مع درجة النبي ﷺ، ولا يعد شيئاً في حق غيره.

ثم عاد البيان إلى توضيح سبب مجادلة المشركين في آيات الله، فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ أي إن الذين يناقشون ويجادلون في آي القرآن، ويدفعون الحق بالباطل، بغير برهان ولا حجة أتتهم من الله، ما في قلوبهم إلا تكبر وتعاظم عن قبول الحق والتفكر فيه، وطمع أن يغلبوا محمداً ﷺ وتكون لهم الرياسة والنبوة بعده، ولكن ما هم ببالغي ذلك، ولا بحاصل لهم، ولا محققي المراد، بل إن راية الحق ستظل مرفوعة، وقول المبطلين وفعلهم موضوع ذليل. والمعنى بإيجاز: إن سبب تكذيب المشركين هو ما تنطوي عليه نفوسهم من الكبر والحسد، وما هم بمحققي الآمال ولا بالغي المراد.

﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ أي إن طريق العصمة من باطل هؤلاء المجادلين المستكبرين هو الاستعاذة بالله من شرهم، واللجوء إليه

والاستعانة به لدفع كيدهم، فهو السميع لأقوالهم، البصير بأفعالهم، لا تخفى عليه خافية، وهو لهم بالمرصاد، وسيقهرون عما قريب.

فقه الحياة أو الأحكام:

يؤخذ من الآيات ما يأتي:

١ - إن الله تكفل بنصر عباده المرسلين وأوليائه المؤمنين في الدنيا والآخرة، قال السُّدِّي: ما قَتَل قوم قط نبياً أو قوماً من دعاة الحق من المؤمنين إلا بعث الله عز وجل من ينتقم لهم، فصاروا منصورين فيها، وإن قُتِلوا.

٢ - قال مجاهد والسدي: تشهد الملائكة للأنبياء بالإبلاغ، وعلى الأمم بالتكذيب، وقال قتادة: الملائكة والأنبياء.

٣ - إن الإكرام العظيم والتشريف الكامل عند حضور الجمع العظيم من أهل المشرق والمغرب يكون أتم وأبهج وأمتع.

٤ - قد يكون النصر والتكريم بسبب الدفاع عن المسلم، جاء في الحديث الثابت الذي رواه البيهقي عن أبي الدرداء، يقول النبي ﷺ: «من ردّ عن عرض أخيه المسلم، كان حقاً على الله عز وجل أن يردّ عنه نار جهنم، ثم تلا: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ » وعنه ﷺ أنه قال فيما رواه أحمد وأبو داود عن معاذ بن أنس: «من حَمَى مؤمناً من منافق يغتابه، بعث الله عز وجل يوم القيامة مَلَكاً يحميه من النار، ومن ذكر مسلماً بشيء يشينه به، وقفه الله عز وجل على جسر من جهنم حتى يخرج مما قال» .

٥ - من أنواع نصر الرسل في الدنيا والآخرة: إيتاء موسى عليه السلام التوراة والنبوة، وسميت التوراة ﴿هُدًى﴾ بما فيها من الهدى والنور. ثم جعل الله التوراة ميراثاً لبني إسرائيل، وموعظة لأصحاب العقول.

٦ً - أمر الله نبيه بأمور ثلاثة: الصبر على أذى المشركين، والاستغفار للذنب الصغير أو ما هو خلاف الأولى، أو ما صدر منه قبل النبوة أو محض التعبد، والتسبيح المقرون بالتحميد بالشكر له والثناء عليه، أو المواظبة على صلاة الفجر وصلاة العصر، قيل: هي صلاة كانت بمكة قبل أن تفرض الصلوات الخمس: ركعتان غُدْوة وركعتان عشية. وبعد نسخ ذلك لا بدّ من المواظبة على الصلوات الخمس. والأصح حمل الاستغفار على التوبة عن ترك الأولى والأفضل، أو على ما كان قد صدر عنه قبل النبوة.

٧ً - إن مجادلة المشركين في آيات الله هي بغير حجة عقلية أو نقلية، ودافعهم إليها الكبر عن اتباع الحق، وقصدهم إبطال آيات الله، وإثارة الشبهات حولها، ولكن لن يحقق الله آمالهم. وما على النبي ﷺ وأتباعه إلا الاستعاذة بالله من شر الكفار، والاعتصام به، والاستعانة بعزته وقدرته.

من دلائل وجود الله وقدرته وحكمته

﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ۚ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩) وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۗ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥)﴾

القراءات:

﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (يتذكرون).

﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ﴾:

وقرأ ابن كثير (ادعونيَ أستجب).

﴿سَيَدْخُلُونَ﴾:

وقرأ ابن كثير (سيُدْخَلون).

الإعراب:

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ مبتدأ أو خبر.

﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿قَلِيلًا﴾: صفة مصدر محذوف، تقديره: تذكراً قليلاً تتذكرون، و﴿مَّا﴾: زائدة، والمعنى: لا تذكُّر لهم؛ لأنه قد يطلق لفظ القلة، ويراد بها النفي، كقولك: قلما تأتيني، وتريد: ما تأتيني.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَاتِيَةٌ﴾ اسم إن وخبرها، واللام لام المزحلقة.

البلاغة:

﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ بينهما طباق، وكذا بين ﴿ٱلَّيْلَ﴾ و﴿وَٱلنَّهَارَ﴾.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ استعارة، استعار الأعمى للكافر، والبصير للمؤمن.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَاتِيَةٌ﴾ تأكيد بإن واللام.

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ مجاز عقلي، من إسناد الشيء إلى زمانه، وهو إسناد الإبصار إلى وقته. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ جناس ناقص.

﴿يَعْلَمُونَ﴾ ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿يَشْكُرُونَ﴾ ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ ﴿يَجْحَدُونَ﴾ سجع وتوافق الفواصل في الحرف الأخير.

المفردات اللغوية:

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ أي إن خلقها مع عظمها أولاً في ابتداء خلق الكون من غير أصل: أكبر وأعظم من خلق الناس مرة ثانية في حال الإعادة للبعث، فالقادر على الأكبر قادر على الأصغر. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا ينظرون ولا يتأملون لفرط

غفلتهم واتباعهم أهواءهم. ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ الغافل والمستبصر. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ أي ولا يستوي المحسن والمسيء، و(لا) زائدة في قوله: ﴿وَلَا الْمُسِيءُ﴾ وزيادتها؛ لأن المقصود نفي مساواة المسيء للمحسن فيما له من الفضل والكرامة. ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون أيها الناس، والمراد أن تذكرهم قليل جداً في حكم المعدوم، فكأنه لا تذكر لهم. وقراءة ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ بالتاء لتغليب المخاطب أو الالتفات، وقرئ بالياء: (يتذكرون).

﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ لا شك في مجيئها، لوضوح الدلالة على حدوثها وإمكانها. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدّقون بها لقصور نظرهم على ظاهر المحسوسات التي يحسون بها. ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ادعوني أثبكم، بقرينة ما بعده: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ صاغرين أذلاء، ويصح أن يراد بقوله: ﴿ادْعُونِي﴾ الدعاء والسؤال، ويكون المراد بقوله ﴿عِبَادَتِي﴾ الدعاء.

﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾، لتستريحوا فيه، بأن خلق الليل بارداً مظلماً ليؤدي إلى ضعف الحركات، وهدوء الحواس. ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ يُبْصَر فيه أو به، وإسناد الإبصار إليه مجاز. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ لا يوازيه فضل. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، الله، فلا يؤمنون، لجهلهم بالمنعم، وتكرار الناس لتخصيص الكفر بهم.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المخصوص بالأفعال المقتضية للألوهية والربوبية. ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أخبار مترادفة يخصص اللاحق منها السابق ويقرره. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تصرفون عن عبادة الله والإيمان به إلى عبادة غيره. ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي مثل إفك هؤلاء وانصرافهم إلى عبادة الأصنام يؤفك ويصرف كل من جحد بآيات الله ومعجزاته ولم يتأملها.

﴿قَرَارًا﴾ مستقراً. ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي سقفاً قائماً ثابتاً مثل القبة في أبنية العرب. ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ خلقكم في تناسب واستعداد لمزاولة أعمال الحياة. ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ اللذائذ. ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ تقدس وتنزه. ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ المنفرد بالحياة الذاتية غير المستمدة من آخر. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي هو الواحد؛ إذ لا موجود يساويه أو يدانيه في ذاته وصفاته. ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ فاعبدوه. ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ مخلصين له الطاعة، الخالية من الشرك والرياء.

المناسبة:

بعد الرد على المجادلين في آيات الله بتعريفهم أن جدلهم بغير سلطان ولا حجة، وكان من جدلهم إنكار البعث، ذكر الله تعالى في هذه الآيات وما يليها عشرة أدلة على وجود الله وقدرته وحكمته، للدلالة على إمكان يوم القيامة ووجوده بالفعل، منها هنا خلق السماوات والأرض، وتعاقب الليل والنهار، وجعل الأرض قراراً والسماء بناء، وخلق الإنسان في أحسن صورة، ورزقه من الطيبات، واتصافه تعالى بالحياة الذاتية والوحدانية، وكان يردف بعض هذه الأدلة بالأمر بعبادة الله وطاعته، والإخلاص فيها.

التفسير والبيان:

١ - ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي إن خلق السماوات والأرض وما فيهما من عوالم وأفلاك وكواكب وذخائر أكبر وأعظم من خلق نفوس الناس بدءاً وإعادة، فمن قدر على ذلك، فهو قادر على ما دونه، بطريق الأولى والأحرى، عملاً بمقاييس الناس وتقديراتهم، وإلا فالبدء والإعادة سواء على الله تعالى، فكيف ينكرون البعث؟ كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٣٦/ ٨١] وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٣٣].

ولكن أكثر الناس لا يعلمون بعظيم قدرة الله، ولا يتفكرون ولا يتأملون بهذه الحجة الدامغة، وهذا أول دليل على قدرة الله تعالى.

ثم ذكر الله تعالى مثلاً للغافل والمجادل بالباطل، وشبهه بالأعمى، ومثلاً للمتأمل المفكر المجادل بالحجة والبرهان، وشبهه بالبصير، لاستبصاره، فقال:

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي لا يتساوى الذي يجادل بالباطل، والذي يجادل بالحق، ولا يتساوى الكافر الذي لا يتأمل حجج الله وبيناته فيتدبرها، والمؤمن الذي يتفكر فيها ويتعظ بها، فالأول شبيه بالأعمى الذي تعطلت عنده حاسة البصر، والثاني شبيه بالبصير الذي تفتحت عيناه، فتأمل في الكون واتعظ، وهذا تشبيه بالمحسوسات، وبينهما فرق عظيم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي وكذلك لا يستوي المحسن بالإيمان والعمل الصالح، والمسيء بالكفر وارتكاب المعاصي، فما أقل ما يتذكر كثير من الناس ويتعظ بهذه الأمثال، ويدرك الفرق الواضح بين المؤمنين الأبرار المطيعين لربهم، وبين الكفرة الفجار المخالفين أمر ربهم.

وبعد تقرير الدليل الدال على إمكان وجود القيامة، أردفه بالإخبار عن وقوعها حتماً، فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي إن يوم القيامة آت لا ريب في مجيئه ووقوعه وحصوله، فآمنوا بذلك إيماناً قاطعاً لا شك فيه، ولكن أكثر الناس وهم الكفار لا يصدقون بالبعث، بل يكذبون بوجوده، لقصور أفهامهم، وضعف عقولهم عن إدراك الحجة.

ولما أثبت الله تعالى أن القيامة حق وصدق، أوضح طريق النجاة فيها وهو طاعة الله تعالى، فقال:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾أي وأخبر الله أنه إن دعاه العبد وعبده بحق، استجاب له، فإن «الدعاء مخ العبادة» كما في الحديث الآتي تخريجه، فالدعاء في نفسه عبادة، والدعاء: هو السؤال بجلب النفع ودفع الضر. ودعاء غير الله لا يفيد شيئاً؛ فإن القادر على إجابة الدعاء هو الله، والله سبحانه هو الذي أمر عباده بدعائه، ووعدهم بالإجابة، ووعده الحق. وإن الذين يتكبرون ويتعظمون عن دعاء الله وعبادته وحده، سيدخلون جهنم صاغرين أذلاء.

والآية اشتملت على أمر العبادة بالدعاء والتكفل لهم بالإجابة فضلاً من الله وكرماً، وهذا وعد، كذلك اشتملت أيضاً على وعيد شديد لمن استكبر عن دعاء الله، فالله هو الكريم الذي يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ويغضب على من لم يطلب من فضله العظيم وملكه الواسع ما يحتاج إليه من أمور الدنيا والآخرة.

أخرج الإمام أحمد والبخاري في الأدب والحاكم وأصحاب السنن (الترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه) وغيرهم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة» ثم قرأ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ الآية. وأخرج الترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء مخ العبادة» لكنه ضعيف وفي حديث آخر صحيح أخرجه الحاكم عن ابن عباس قال: «أفضل العبادة الدعاء».

وأخرج أحمد والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يدع الله عز وجل غضب عليه» وفي رواية أخرى لأحمد والبزار: «من لم يسأل الله يغضب عليه».

ثم تابع الله تعالى إيراد أدلة أخرى على قدرته، والتذكير بنعمته على عباده، فقال:

٢ - ٣: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ﴾ أي إن الله تعالى أوجد تعاقب الليل والنهار، فجعل الليل بارداً مظلماً للسكون والنوم والراحة وتجديد النشاط والحيوية من عناء النهار، وجعل النهار مضيئاً بالشمس لإبصار الحوائج، وطلب المعايش، ومزاولة الصناعة والتجارة والزراعة، والتنقل بالأسفار وزيارة الأقطار، وغير ذلك من مصالح العباد.

ويلاحظ أن ﴿جَعَلَ﴾ هنا بمعنى: خلق؛ لأنها متعدية إلى مفعول واحد، فإذا لم تكن بمعنى: خلق عديت إلى مفعولين مثل ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٤٣/٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي إن الله تعالى بهذه النعمة وغيرها مما لا يحصى هو المتفضل على الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون النعم ولا يعترفون بها، إما لجحودهم لها مثل الكفار، وإما لإهمالهم النظر وما يجب من شكر المنعم، مثل الجهال، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٢٢/٦٦]. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ١٤/٣٤]. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ [العاديات: ١٠٠/٦]. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ٣٤/١٣].

ثم ذكر الله تعالى أنه الخالق وحده، فتجب عبادته وحده، فقال:

٤ - ٥: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي ذلكم الذي فعل كل هذا المذكور وأنعم بهذه النعم هو الله المربي المدبر، فلا رب سواه، وهو خالق الأشياء كلها، لم يعاونه في الخلق أحد، وهو الإله الواحد الذي لا إله سواه، فكيف تنقلبون عن عبادته، وتنصرفون عن توحيده، وتعبدون غيره من الأصنام وغيرها مما لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا يخلق شيئاً، بل هو مخلوق؟!

وهذا الضلال مرض قديم، فقال تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي مثل هذا الإفك والضلال بعبادة غير الله، ضلَّ وأفِك الجاحدون لآيات الله، المنكرون لتوحيده، وصرفوا عن اتباع الصراط القويم، من غير حجة ولا برهان، بل بمجرد الجهل والهوى.

ثم أضاف الله تعالى دليلاً آخر على قدرته وحكمته، فقال:

٦ - ٧: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي إن الله هو الذي جعل الأرض موضع استقرار وثبات، تستقر عليها المباني والأمتعة، ويحيا فيها الأشخاص ويموتون، ويمشون ويتصرفون في أنحائها، وجعل أيضاً السماء سقفاً للعالم محفوظاً قائماً ثابتاً أيضاً، لا ينهدم ولا يتصدع، وزيَّنه بالكواكب والنجوم.

وبعد بيان بعض دلائل الآفاق والأكوان (وهي كل ما هو غير الإنسان من هذا العالم) وهي اثنان (أحوال الليل والنهار، وأحوال الأرض والسماء) ذكر الله تعالى دلائل الأنفس على وجوده وقدرته وهي ثلاثة (إحداث صورة الإنسان، وتحسينها، والرزق من الطيبات) فقال:

٨ - ٩: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ أي وخلقكم في أحسن صورة، وأجمل شكل، وأبدع تقويم في انتصاب القامة، وتناسب الأعضاء، والتهيؤ لمزاولة مختلف أنواع المكاسب والمعاشات، ورزقكم من طيبات الرزق ولذائذه من الطعام والشراب.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي ذلكم المتصف بهذه الصفات الجليلة، المنعم بهذه النعم العظيمة، هو الرب الذي لا تصلح الربوبية لغيره، فتقدس وتنزه الله رب العالمين من الإنس والجن عن صفات النقص وعما لا يليق به من الشريك والولد والصاحبة.

وبعد إثبات توحيد الربوبية أثبت توحيد الألوهية، فقال تعالى:

١٠ - ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي إن هذا الرب المدبر المتصرف في الكون هو الحي حياة ذاتية، الباقي الذي لا يفنى، الأول والآخر والظاهر والباطن، المنفرد بالألوهية، فلا تصلح الألوهية لسواه، فاعبدوه مخلصين له الطاعة والعبادة، موحدين له، مقرين بأنه لا إله إلا هو.

وهو سبحانه المستحق الحمد والثناء والشكر على نعمه، فقال آمراً ومعلماً عباده:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي إنه صاحب الحمد، المستحق الشكر والثناء، رب العالمين من الملائكة والإنس والجن. والجملة خبر فيها إضمار أمر، أي ادعوه واحمدوه.

روى ابن جرير عن ابن عباس قال: «من قال: لا إله إلا الله، فليقل على أثرها: الحمد لله رب العالمين» ثم قرأ هذه الآية: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

وروى أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن عبد الله بن الزبير قال: كان رسول الله ﷺ يقول في دُبُر كل صلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين، ولو كره الكافرون» .

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - إثبات البعث والاحتجاج على منكريه، فإن خلق السماوات والأرض أكبر وأعظم من إعادة خلق الناس، والقادر على الأكبر قادر على الأصغر، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك.

٢ً - لا تساوي إطلاقاً بين المؤمن والكافر والضال والمهتدي، والذي يعمل الصالحات والذي يعمل السيئات، كما لا تساوي بين البصير والأعمى، ولكن لا تذكر ولا اتعاظ ولا اعتبار.

٣ً - إن الساعة آتية لا ريب فيها، فكما أن القيامة ممكنة الوجود، فهي واقعة فعلاً وحادثة حتماً، ولكن أكثر الناس لا يصدقون بذلك، وعندها يبين الفرق ما بين الطائع والعاصي.

٤ً - لا ينتفع أحد في يوم القيامة الذي هو حق وصدق إلا بطاعة الله تعالى، وأشرف أنواع الطاعات: الدعاء والتضرع، جاء في الحديث المتقدم: «الدعاء هو العبادة» فما على الناس إلا توحيد الله وعبادته، والله - تفضلاً وكرماً - يتقبل العبادة ويغفر للعابدين. جاء في الحديث عن أنس بن مالك فيما رواه الترمذي وابن حبان: «ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها، حتى يسأله شِسْعَ نعله إذا انقطع» . والشسع: زَمام النعل.

٥ً - من إحسان الله العظيم أنه ذكر الوعيد الشديد على ترك الدعاء، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

٦ً - الله خلق الليل للسكن والراحة، وخلق النهار مضيئاً لإبصار الحوائج فيه والتصرف في طلب المعايش، والله ذو الفضل العظيم على عباده، ولكن أكثر الناس لا يشكرون فضله وإنعامه.

٧ً - الأدلة على وحدانية الله وقدرته بيِّنة واضحة، فهو الله المربي والمدبر، وخالق كل شيء، والواحد الأحد، فمن العجب كيف ينصرف الناس عن

الإيمان بعد توافر أدلته؟ وكما يصرف هؤلاء عن الحق مع قيام الدليل عليه يصرف عن الحق الجاحدون بآيات الله تعالى.

٨ً - الله تعالى خلق الأرض لعباده مستقراً لهم في حياتهم وبعد الموت، وخلق السماء سقفاً محفوظاً ثابتاً، وخلق الناس في أحسن صورة وتقويم.

٩ً - والله هو رازق الطيبات اللذائذ، وهو الحي الباقي الذي لا يموت، فما على الناس إلا عبادته بإخلاص، وحمده وشكره والثناء عليه.

١٠ً - يلاحظ أن الآيات انتهت بنهايات قوية مؤثرة تناسب المقام: وهي ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ ﴿يَجْحَدُونَ﴾ ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

النهي عن عبادة غير الله وسبب النهي

﴿۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾

القراءات:

﴿شُيُوخًا﴾:

وقرأ ابن كثير، وابن ذكوان، وحمزة، والكسائي (شِيُوخاً).

﴿فَيَكُونُ﴾:

وقرأ ابن عامر (فيكونَ).

المفردات اللغوية:

﴿تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ تعبدون. ﴿الْبَيِّنَاتُ﴾ الحجج ودلائل التوحيد أو الآيات القرآنية، فإنها مقوّية لأدلة العقل، منبهة عليها. ﴿أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أنقاد له ﴿نُّطْفَةٍ﴾ مني. ﴿عَلَقَةٍ﴾ دم غليظ. ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أطفالاً، والإفراد لإرادة الجنس. ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ أي لتصلوا إلى تكامل قوتكم من الثلاثين إلى الأربعين سنة، واللام متعلقة بمحذوف تقديره: ثم يبقيكم. ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ من قبل الشيخوخة أو بلوغ الأشد. ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ أي ويفعل ذلك لتبلغوا وقتاً محدداً، هو وقت الموت. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما في ذلك من الحجج والعبر ودلائل التوحيد، فتؤمنوا﴿قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أراد إيجاد شيء. ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ بتقدير أن، أي يوجد عقب الإرادة التي هي معنى القول المذكور. والفاء الأولى للدلالة على أن ذلك نتيجة ما سبق، من حيث إنه يقتضي قدرة ذاتية غير متوقفة على عُدَّة أو مادّة.

سبب النزول:

نزول الآية (٦٦):

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ﴾: أخرج جويبر عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة قالا: يا محمد، ارجع عما تقول بدين آبائك، فأنزل الله: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية.

المناسبة:

بعد إيراد دلائل القدرة والتوحيد وصفات الجلال والعظمة، نهى الله عن عبادة غيره، بقول لين لطيف، لصرف المشركين عن عبادة الأوثان، ثم أبان

سبب النهي وهو البينات التي جاءت النبي من ربه، من دلائل الآفاق والأنفس، أما الأولى فهي أربعة: الليل والنهار والأرض والسماء، وأما الثانية فذكر منها سابقاً ثلاثة وهي: تكوين الصورة، وحسن الصورة، ورزق الطيبات. وذكر منها هنا كيفية تكون الإنسان ومراحل تدرجه وأطوار حياته من الاجتنان إلى الولادة والطفولة، إلى الشباب والكهولة، ثم الشيخوخة، ثم الموت.

التفسير والبيان:

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ قل أيها الرسول لمشركي قومك في مكة وغيرها: إن الله ينهى أن يعبد أحد من غير الله من الأصنام والأنداد والأوثان، حين جاءتني الأدلة النقلية والعقلية من عند ربي، وهي آي القرآن، وما أودع في العقول السليمة من البراهين الدالة على التوحيد، وأمرت أن أستسلم وأنقاد وأخضع لله رب العالمين، وأخلص له ديني. ومن الآيات التي تنهى عن عبادة الأوثان قوله تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ، وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٩٥-٩٦].

ثم ذكر الله تعالى من دلائل الأنفس ما يدل على توحيد الله وهو كيفية تكون الإنسان ومراحل نشأته، فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي إن الله هو الذي خلق أباكم الأول آدم من التراب، وجعل ذريته أيضاً من تراب، إذ كل مخلوق من المني ناشئ من الدم، والدم من الغذاء، والغذاء من النبات، والنبات من الماء والتراب، فثبت أن كل إنسان متكون من التراب، ثم صيَّر الله ذلك التراب نطفة (منياً) ثم

علقة (قطعة دم متجمدة) ثم ولدتم وأخرجتم أطفالاً، ثم وصلتم إلى بلوغ الأشد أي مرحلة اكتمال القوة والعقل، ثم تصيرون شيوخاً (والشيخ: من جاوز الأربعين).

ومن الناس من يتوفى من قبل الشيخوخة أو الشباب أو الولادة، وقد فعل ذلك لتبلغوا الأجل المحدود وهو وقت الموت أو يوم القيامة، واللام لام العاقبة أو الصيرورة، ولكي تعقلوا ما في هذا التدرج والتطور في المراحل المختلفة من دليل دال على قدرة الله البالغة على البعث وغيره، وعلى توحيد ربكم، في خلقكم على هذه الأطوار:

طور الاجتنان، وطور الطفولة، وطور بلوغ الأشد، وطور الشيخوخة، ففي هذا التغير والانتقال دلالة على وجود الله، ثم أتبع ذلك بدليل آخر من التغير والانتقال فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾

أي وإن الله هو القادر على الإحياء والإماتة، والمتفرد بذلك لا يقدر عليه أحد سواه، فإذا قضى وقدر أمراً من الأمور التي يريدها، فإنما يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ أي يحدث فور الإرادة من غير توقف على شيء، ولا معاناة ولا كُلْفة. وهذا أقصى ما يمكن به تقريب الخلق إلى الأذهان، فإن المخلوق يوجد بسرعة فائقة جداً بمجرد تعلق الإرادة به.

فقه الحياة أو الأحكام:

أوضحت الآيات أموراً ثلاثة هي:

أ - النهي الجازم عن عبادة غير الله بعد قيام الأدلة على وجود الله وتوحيده، مما صرح به القرآن في آياته، ومما أرشد إليه العقل الصحيح في تفكيره، والعبادة تقتضي الانقياد التام والخضوع وإخلاص الدين لله رب العالمين، فلا أمل في عبادة الأصنام والأوثان وغيرها من أنواع الشرك.

والخلاصة: نهى الله تعالى عن عبادة الأوثان، ثم أمر بالاستسلام إليه، ثم أقام الدليل على وحدانيته وألوهيته، فيما ذكره من خلق الناس ومراحل تكوينهم، مع العلم بأن أصنام الوثنيين عارية عن أي شيء من مظاهر القدرة الإلهية على الخلق والإبداع.

٢ - بيان مراحل تطور الإنسان وتدرجه في التكوين والخلقة، فأصله من تراب، ثم يصبح نطفة فعلقة فمضغة، ثم يولد طفلاً، ثم يشب ويقوى بدنه وعقله، ثم يهرم ويشيخ، وقد يموت من قبل هذه الأحوال، ثم يحدث موت الكل. والإخبار عن تلك المراحل الانتقالية ليعقل الإنسان أنها ترشده وتعلمه أن لا إله إلا الله. آمنت بالله وحده.

٣ - التنبيه على قدرة الله في الإحياء والإماتة، وعلى سرعة إنجاز الخلق والتكوين بمجرد إرادة الله الفعل.

جزاء المجادلين بالباطل في آيات الله

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾

القراءات:

﴿رُسُلَنَا ۖ﴾ :

وقرأ أبو عمرو (رُسْلنا).

﴿قِيلَ﴾ :

بإشمام كسرة القاف الضم، قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

﴿فَبِئْسَ﴾ :

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (فبيس).

الإعراب:

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ بدل من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الأولى، أو خبر مبتدأ محذوف، أو منصوب على الذم.

﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾﴾ ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ : مرفوع معطوف على ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾ وتقديره: إذ الأغلال والسلاسل في أعناقهم. ومنهم من وقف على ﴿أَعْنَٰقِهِمْ﴾ وابتدأ ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ، فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ وتقديره: والسلاسل يسحبون بها في الحميم، فحذف الجار والمجرور. وقرئ (والسلاسلَ يَسْحَبون) بنصب اللام وفتح ياء الفعل، على أنه مفعول (يِسْحَبُون) أي يسحبون السلاسل. وقرئ (والسلاسلِ) بالجر، بالعطف على أعناقهم، وهي قراءة ضعيفة؛ لأنه يصير المعنى: الأغلال في الأعناق والسلاسل، ولا معنى للأغلال في السلاسل.

البلاغة:

﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ التفات عن الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في التوبيخ. ويوجد جناس ناقص بين ﴿تَفْرَحُونَ﴾ و﴿تَمْرَحُونَ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿يُجَادِلُونَ﴾ كرر ذم المجادلة لتعدد المجادل أو المجادل فيه، أو للتأكيد ﴿ءَايَتِ ٱللَّهِ﴾ القرآن ﴿أَنَّىٰ﴾ كيف ﴿يُصۡرَفُونَ﴾ يبعدون عن الإيمان بالله. ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ بالقرآن أو بجنس الكتب السماوية ﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ﴾ من سائر الكتب والوحي والتوحيد والبعث والشرائع ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ عقوبة تكذيبهم.

﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾ ﴿إِذِ﴾: ظرف للفعل المتقدم ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ بمعنى إذا للاستقبال، أي ليعلمون إذ الأغلال، وعبر بـ﴿إِذِ﴾ التي هي ظرف للماضي عن المستقبل، لتيقن وقوع الأمر المخبر به وكونه مقطوعاً به و﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾: جمع غل: وهو القيد الذي يوضع في العنق ﴿يُسۡحَبُونَ﴾ يجرّون بعنف بالسلاسل ﴿فِي ٱلۡحَمِيمِ﴾ جهنم، وهي الماء الحار ﴿يُسۡجَرُونَ﴾ يحرقون ويوقدون، يقال: سجَّر التنور: ملأه بالوقود، ومنه ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦﴾ المملوء ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ۝٧٣﴾ يقال لهم توبيخاً وتقريعاً: أين الأصنام التي كنتم تعبدون في الدنيا ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ غابوا واضمحلوا، فلا نراهم ﴿بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ أنكروا عبادتهم إياها، ثم أحضرت ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي مثل إضلال هؤلاء المكذبين يضل الله الكافرين، حتى لا يهتدوا إلى شيء ينفعهم في الآخرة.

﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب ﴿تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تبطرون وتتكبرون ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ وهو الشرك والطغيان وإنكار البعث ﴿وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ﴾ تختالون أشراً وبطراً وتتوسعون في الفرح ﴿أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ الأبواب السبعة المقسومة لكم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ مقدّراً لكم الخلود فيها ﴿مَثۡوَى﴾ مأوى.

المناسبة:

عاد الحق تعالى في هذه الآيات إلى ذم المجادلين في آيات الله، مبيناً عظيم

جرمهم في تكذيب القرآن وجزاءهم على ذلك، فليس فيه تكرار، إذ السابق لبيان منشأ الجدل وسببه، وهذا تعجيب من حال المجادلين وآرائهم الفاسدة، مع بيان عاقبتهم، والظاهر - كما ذكر أبو حيان - أنها في الكفار المجادلين في رسالة الرسول ﷺ والكتاب الذي أنزل عليه.

التفسير والبيان:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين المشركين المجادلين بالباطل في آيات الله الواضحة الموجبة للإيمان بها، كيف تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال؟ مع قيام الأدلة الدالة على صحتها، وأنها في نفسها موجبة للتوحيد.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أي إنهم هم الذين كذبوا بالقرآن وبالذي أرسلنا به الرسل من التوحيد وإخلاص العبادة لله والشرائع الصالحة لحياة الإنسان في الدنيا، والتبرؤ من الشرك والوثنية، والإيمان بالبعث، ثم هددهم وأوعدهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم ووبال كفرهم.

ثم ذكر مضمون التهديد الشديد والوعيد الأكيد بقوله:

﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أي فسوف يعلم هؤلاء المكذبون حين تجعل القيود في أعناقهم، ويسحبون بالسلاسل في الحميم: وهو الماء المتناهي في الحرارة، فتتقطع جلودهم وتنسلخ لحومهم، ثم يحرقون في النار التي توقد بهم وتحيط بهم، كما قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/٤٣-٤٤] وقال سبحانه بعد ذكر أكلهم الزقوم وشربهم الحميم: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصافات: ٣٧/٦٨] وقال عز وجل: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ

عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان: ٤٤/٤٧-٥٠].

ثم يسألون سؤال تقريع وتبكيت وتوبيخ عن أصنامهم المعبودة، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ أي يقال لهم من قبل الملائكة تقريعاً لهم وتوبيخاً: أين الأصنام والشركاء التي كنتم تعبدونها من دون الله، ما لهم لا ينقذونكم مما أنتم فيه، وينصرونكم اليوم وقت المحنة؟

قالوا مجيبين: غابوا عنا وذهبوا فلم ينفعونا، وفقدناهم فلا نراهم، والحق أننا لم نكن نعبد شيئاً، أي تبينا أننا لم نكن نعبد شيئاً ينفع؛ لأنه لا يبصر ولا يسمع، ولا يضر ولا ينفع، وذاك الذي صدر عنهم اعتراف صريح بأن عبادتهم إياها كانت باطلة.

ومثل ذلك الضلال يضل الله الكافرين حيث عبدوا هذه الأصنام التي أوصلتهم إلى النار، أي هكذا يتبين بطلان جميع أعمال الكافرين، وتنقطع العلائق والصلات بين العابدين والمعبودين.

ثم أبان الله تعالى سبب تعذيبهم فقال:

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي ذلكم العذاب والإضلال بسبب ما كنتم تظهرون في الدنيا من الفرح بمعاصي الله، والسرور بمخالفة رسله وكتبه، وبسبب ما كنتم تبطرون وتأشرون وهو جزاء المرح بغير الحق وهو الشرك وعبادة الأوثان.

ثم أوضح لهم نوع الجزاء تبكيتاً وتوبيخاً وتيئيساً لهم من تفادي العذاب، فقال:

﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾ أي ادخلوا أبواب جهنم السبعة المقسومة لكم، كما قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: ١٥/٤٤] وإنكم مخلدون فيها أبداً على الدوام، فبئس المنزل والمأوى الذي فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله وحججه.

فقه الحياة أو الأحكام:

يؤخذ من الآيات ما يأتي:

١ً - من العجب العجاب أن المشركين الذين يجادلون في آيات الله بغير حق ويكذبون بها يصرفون عن الهدى إلى الضلال، وعن الحق إلى الباطل.

٢ً - سيعلمون عما قريب بطلان ما هم فيه إذا دخلوا النار، وغُلَّت أيديهم إلى أعناقهم، وسحبوا بالسلاسل في الحميم، أي الماء المسخن بنار جهنم، وأحاطت بهم النار إحاطة تامة.

٣ً - تقول لهم الملائكة بعد دخولهم النار تقريعاً وتوبيخاً: أين أصنامكم التي كنتم تعبدونها من دون الله، ما لكم لا تنصرون بها اليوم؟

فأجابوا: لقد هلكوا وذهبوا عنا، وتركونا في العذاب، فلا نراهم ولا نستشفع بهم. ثم اعترفوا بأن عبادتهم الأصنام كانت باطلة، فإنها ليست بشيء؛ لأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع، وهكذا تبين لهم أنهم لم يكونوا شيئاً، كما تقول: حسبت أن فلاناً شيء، فإذا هو ليس بشيء، إذا جربته، فلم تجد عنده خيراً[1]. وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٦/٢٣].

---

(١) تفسير الرازي: ٢٧/٨٧

٤ - قال الله تعالى عقب هذا الاعتراف: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي كما فعل بهؤلاء من الإضلال، يفعل بكل كافر، وهو إضلال لا توفيق فيه عن طريق الجنة بعد اختيارهم الكفر وإصرارهم عليه، لا عن الحجة؛ إذ قد هداهم في الدنيا إليها.

٥ - ذلكم العذاب وسببه هو ما كانوا يفرحون به من المعاصي، ويظهرون في الدنيا من السرور بالمعصية وكثرة المال والأتباع والصحة، وهو أيضاً بسبب بطرهم وتكبرهم عن اتباع الحق وقبوله، واختيارهم الشرك وعبادة الأصنام.

٦ - ويقال لهم يوم القيامة: ادخلوا أبواب جهنم السبعة المقسومة لكم، فبئس المأوى مأوى المتكبرين عن آيات الله واتباع دلائله على توحيده وقبول شرائعه.

الصبر والنصر

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

الإعراب:

﴿فَإِمَّا﴾ إن الشرطية مدغمة، وما: زائدة تؤكد معنى الشرط أول الفعل، والنون تؤكد آخره، وقد لحقت الفعل بناء على وجود (ما) ولا تلحقه النون مع (إن) وحدها. وجواب الشرط محذوف مثل: فذاك.

البلاغة:

﴿أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾ جناس الاشتقاق.

﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ طباق السلب.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالعذاب وهلاك الكافرين ﴿حَقٌّ﴾ كائن لا محالة ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ أي بعض ما نعدهم به من العذاب في الدنيا بالقتل والأسر ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن تراه أي قبل رؤية تعذيبهم ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ للعذاب الشديد يوم القيامة، فنجازيهم بأعمالهم، وهو جواب ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ وهو يدل على شدة العذاب للاقتصار على ذكر الرجوع.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾ قيل: إن عدد الأنبياء مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، وروي أنه تعالى بعث ثمانية آلاف نبي: أربعة آلاف نبي من بني إسرائيل، وأربعة آلاف من سائر الناس. والمذكور قصتهم: أشخاص معدودون.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ لأنهم عبيد مربوبون لله، والمعجزات عطايا من الله بحسب حكمته ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ بنزول العذاب على الكفار في الدنيا والآخرة ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ بين الرسل ومكذبيهم، بإنجاء المحق وتعذيب المبطل ﴿بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي ظهرت خسارة المعاندين باقتراح الآيات، بعد وجود ما يغنيهم عنها.

المناسبة:

كان الكلام من أول السورة إلى هنا في تزييف طريقة المجادلين في آيات الله، ثم أمر الله تعالى هنا رسوله بالصبر على أذاهم وتكذيبهم، ووعده بالنصر عليهم، وإنزال العذاب على أعدائه.

التفسير والبيان:

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي فاصبر أيها الرسول على تكذيب بعض

قومك، فإن وعد الله بالنصر عليهم والانتقام منهم كائن لا محالة، إما في الدنيا، وإما في الآخرة.

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أي إن نُرك في حياتك أيها الرسول بعض ما نعدهم به من العذاب، كالقتل والأسر يوم بدر، ثم فتح مكة وسائر جزيرة العرب، فذاك ما يستحقونه، وقد تحقق ذلك في حياته ﷺ. أو نتوفينك قبل إنزال العذاب بهم، فإلينا مصيرهم يوم القيامة، فنذيقهم العذاب الشديد حينئذ، ونجازيهم على أعمالهم.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٤٢] .

ثم قال الله تعالى مؤانساً رسوله ﷺ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ أي ولقد أرسلنا رسلاً وأنبياء كثيرين من قبلك إلى أقوامهم، منهم من أنبأناك بأخبارهم وما لقوه من قومهم وهم خمسة وعشرون، ومنهم من لم نقصص عليك خبره، وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف، كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ٤/ ١٦٤] .

وأخرج الإمام أحمد عن أبي ذرّ قال: قلت: يا رسول الله، كم عدد الأنبياء؟ قال: «مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، الرسل من ذلك ثلاث مئة وخمسة عشر، جمّاً غفيراً» . والذين ذكرهم الله في القرآن من الرسل قريب من خمسة وعشرين رسولاً.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بمعجزة خارقة للعادة إلا أن يأذن الله له في ذلك، فيستدل

حينئذ على صدقه فيما جاءهم به. والمراد بالآية: المعجزة الدالة على نبوته. وكان أقوام الأنبياء يقترحون على الأنبياء إظهار المعجزات عناداً وتعنتاً.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي إذا حان الوقت المعين لعذابهم في الدنيا أو في الآخرة، قضي بالعدل فيما بينهم، فينجي الله بقضائه الحق عباده المرسلين المحقين والذين آمنوا معهم، ويُهلك الكافرين الذين يتبعون الباطل ويعملون به.

فما عليك يا محمد ﷺ إلا الصبر، تأسياً بالأنبياء قبلك، وإذا جاء أمر الله بالفصل بينك وبين قومك، قضي بينكم بالحق، فنُصرت، وخسر المبطلون من ملأ قريش الذين يصدُّون عن دعوتك.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على أمور أربعة:

١ً - الأمر بالصبر للنبي ﷺ تسلية له، وإعلامه بأن الله سينتقم له من قومه المكذبين لرسالته، إما في حياته، أو في الآخرة. وأمة النبي ﷺ مأمورة مثله بالصبر.

٢ً - أرسل الله تعالى للأمم المتقدمة رسلاً وأنبياء كثيرين، منهم من أخبر الله نبيه بأخبارهم وما لقوا من قومهم كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، ومنهم من لم يخبره الله بهم.

٣ً - ليس لنبي من قبل نفسه أن يأتي بآية بيِّنة أو معجزة لإثبات نبوته وصدقه، إلا بإذن من الله وتيسير له بذلك، فإن المعجزة وهي الأمر الخارق للعادة لا يستطيعها إلا من اتصف بالقدرة الإلهية، وهو الله وحده الذي يظهر المعجز على يد نبي أو رسول لما يرى من الحكمة والصلاح.

٤ - إذا جاء الوقت المسمى لعذاب المكذبين برسالة النبي في الدنيا أو في الآخرة، أهلكهم الله في الدنيا، وخسر في الآخرة المبطلون الذين يتبعون الباطل والشرك، وهذا وعيد شديد لهم.

وإنما يؤخر الله عنهم العذاب أحياناً ليترك الفرصة والمجال لإسلام من علم الله إسلامه منهم، ولمن في أصلابهم من المؤمنين.

دلائل أخرى كثيرة على وجود الله ووحدانيته

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾

الإعراب:

﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ ﴿فَأَىَّ﴾: استفهام، وهي منصوب بـ﴿تُنكِرُونَ﴾ والاستفهام إنما ينصب بما بعده؛ لأن له صدر الكلام. وهو استفهام توبيخ. وتذكير (أي) أشهر من تأنيثه، وهنا جاءت على اللغة المستفيضة، وقولك (فأية آيات الله) قليل؛ لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة: غريب، وهي في (أي) أغرب؛ لإبهامه.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلْأَنْعَٰمَ﴾ هي الإبل والبقر والغنم والمعز ﴿لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ منها ما يؤكل كالغنم، ومنها ما يؤكل ويركب كالإبل ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ كالألبان والجلود والأصواف والأوبار ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ بالمسافرة عليها وحمل الأثقال إلى البلاد، والحاجة: الأمر المهم

﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ السفن في البحر، وإنما قال: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ ولم يقل: في الفلك، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠/١١] للمزاوجة والمطابقة بينها وبين ما قبلها وهو: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ ولأن راكب السفينة يستعليها، فيصح كونه فيها؛ لأنها وعاء له، ويصح كونه عليها لاستعلائها.

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دلائله الدالة على كمال قدرته وفرط رحمته ووحدانيته ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على ما ذكر من تلك الآيات ﴿تُنكِرُونَ﴾ فإنها لوضوحها وظهورها لا تقبل الإنكار.

المناسبة:

بعد الإطناب في وعيد المكذبين المجادلين في آيات الله، بما فيه العبرة والكفاية، عاد الحق تعالى إلى إيراد دلائل أخرى تدل على وجود الله ووحدانيته، ويصلح تعدادها نعماً على العباد، ثم أجمل في الإحالة على أدلة كثيرة تحيط بالناس.

التفسير والبيان:

يمتن الله تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام ذات المنافع الكثيرة والدالة على قدرة الله فقال:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي إن الله تعالى هو الذي خلق لأجلكم الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم الشامل للمعز، لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها، فالإبل: تركب وتؤكل وتحلب ويحمل عليها الأثقال في الأسفار، والبقر: تؤكل ويشرب لبنها، ويحرث عليها الأرض، والغنم تؤكل ويشرب لبنها، والجميع تتناسل وتجز أصوافها وأشعارها وأوبارها، فيتخذ منها الأثاث والثياب والأمتعة، لذا قال تعالى:

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أي ولكم فيها منافع أخر غير الركوب والأكل، كأخذ الوبر والصوف والشعر والزبد والسمن والجبن وغير ذلك مما يستعمل للثياب والأمتعة والمأكولات، ولتحمل أثقالكم إلى البلاد النائية بيسر وسهولة، وعلى الإبل في البر، وعلى السفن في البحر تحملون وتنقلون من بلد إلى آخر، ومن موضع إلى آخر، وقد قيل: (الجمل سفينة الصحراء). ويلاحظ أنه تعالى قرن بين الامتنان بنعمة الركوب في البر، ونعمة الامتنان بركوب البحر.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام ٦/ ١٤٣-١٤٤] وقوله سبحانه: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٥-٧].

ولما ذكر الله هذه الدلائل الكثيرة الدالة على قدرة الله التي لا تنكر قال:

﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ أي إن الله تعالى يُري عباده عياناً هذه الآيات والبراهين التي عددها في الآفاق والأنفس، والتي هي كلها ظاهرة باهرة دالة على كمال قدرته ووحدانيته، فما الذي تنكرونه منها؟ وهي كلها ظاهرة واضحة، بحيث لا ينكرها ذو بصيرة نيِّرة إن كان منصفاً، أي إنكم في الواقع لا تقدرون على إنكار شيء من آياته، إلا أن تعاندوا وتكابروا، كما قيل:

وفي كل شيء له آيةٌ تدل على أنه واحد

والسبب في إدخال اللام على ﴿لِتَرْكَبُوا﴾ و﴿وَلِتَبْلُغُوا﴾ وعدم دخولها على البواقي: هو الاهتمام بجل المنافع وهو الركوب والحمل عليها، وأما الأكل والانتفاع بالأوبار والأشعار فهو غرض أقل وأبسط.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه أدلة أخرى على كمال قدرة الله ووحدانيته، وتشير إلى عظم نعم الله على عباده، وهي تتمثل في خلق الأنعام للأكل والركوب، والانتفاع بها في منافع كثيرة للثياب والأمتعة والمأكولات، وحمل الأثقال، والتنقل عليها في الأسفار وقطع المسافات، سواء في البر والبحر.

وتتمثل أيضاً في إظهار الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله وقدرته، فكيف يسوغ لإنسان عاقل إنكار هذه الآيات الباهرة؟

وإذا كنتم أيها المشركون لا تنكرون أن هذه الأشياء من الله، فلم تنكرون قدرته على البعث والنشر؟! ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ [النازعات: ٧٩/٢٧-٢٨] ؟! وإن تلك الآيات كثيرة لا يمكن إنكار شيء منها عقلاً.

تهديد المكذبين المجادلين في آيات الله وتركهم الشرك حين رؤية العذاب

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

القراءات:

﴿رُسُلُهُم﴾:

وقرأ أبو عمرو (رُسْلهم).

﴿بَأْسَنَا﴾ :

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (باسنا).

﴿سُنَّتَ﴾ :

رسمت بالتاء، فوقف عليها بالهاء ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي. ووقف الباقون بالتاء.

الإعراب:

﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ﴿كَيْفَ﴾ : خبر مقدم لـ ﴿كَانَ﴾ و﴿عَٰقِبَةُ﴾ : اسمها المؤخر، و﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ صلة الموصول.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ ما الأولى: نافية أو استفهامية منصوبة بـ ﴿أَغْنَىٰ﴾ ، والثانية: موصولة أو مصدرية مرفوعة به.

﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ ﴿مِّنَ﴾ : للتبيين، أي تبيين (ما) أي فرحوا بالشيء الذي عندهم من العلم. أو تبيين (البينات) وفي الآية تقديم وتأخير، والتقدير: فلما جاءتهم رسلهم بالبينات من العلم، فرحوا بما عندهم. والأوجه هو الأول.

﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ منصوب على المصدر، بفعل مقدر من لفظه، أي سن الله ذلك سنة ماضية في العباد، وهي من المصادر المؤكدة بمنزلة (وعد الله) وما أشبهه من المصادر المؤكدة.

البلاغة:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؟ استفهام للإنكار، إنكار عدم السير المترتب عليه النظر السليم.

المفردات اللغوية:

﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ﴾ استئناف مبين لحالهم ﴿وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ما أبقوه من القصور والمصانع والحصون ونحوها ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات والآيات الواضحات ﴿فَرِحُواْ﴾ أي الكفار فرح استهزاء وضحك، متنكرين له ﴿بِمَا عِندَهُم﴾ عند الرسل ﴿مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ أي واستحقروا علم الرسل، والمراد بالعلم: عقائدهم الزائغة وشبههم الداحضة، وسماها علماً على زعمهم تهكماً بهم، والآية كقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [النمل: ٢٧/ ٦٦] أي تكامل واستحكم علمهم بأحوالها في الآخرة، وهو تهكم بهم لفرط جهلهم بها، وعلمهم: هو قولهم: لا نبعث ولا نعذب، وما أظن الساعة قائمة، ونحوها.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي نزل بهم ما هزئوا به من العذاب، وهذا يؤيد أن المراد بفرحهم: استهزاؤهم بالرسول وضحكهم منه ﴿بَأۡسَنَا﴾ شدة عذابنا ﴿وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ يعنون الأصنام ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ﴾ أي لم يصح ولم يستقم، لامتناع قبوله ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾ أي سن الله ذلك سنة ماضية في العباد أو الأمم ألا ينفعهم الإيمان وقت نزول العذاب ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ تبين خسرانهم لكل أحد، وهم خاسرون في كل وقت قبل ذلك. و﴿هُنَالِكَ﴾ أي وقت رؤيتهم البأس، وهو اسم مكان استعير للزمان.

وسبب ترادف الفاءات هو كما أبان الزمخشري: أما قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم﴾ فهو نتيجة لقوله: ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ﴾. وأما قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ فهو كالتفسير والبيان لقوله تعالى﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم﴾ كقولك: رزق زيد المال، فمنع المعروف، فلم يحسن إلى الفقراء. وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ تابع لقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ﴾ كأنه قال: فكفروا، فلما رأوا بأسنا آمنوا؛ لأن رؤية البأس مسببة عن مجيء الرسل. وكذلك ﴿فَلَمۡ يَكُ

﴿يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ﴾ تابع لإيمانهم لما رأوا بأس الله، وامتناع نفع الإيمان مسبب عن رؤية البأس[١].

المناسبة:

اشتملت السورة على فصلين: فصل في دلائل الألوهية وكمال القدرة والرحمة والحكمة، وفصل في التهديد والوعيد، وهذه الآيات التي ختمت بها السورة متعلقة بالفصل الثاني في تهديد الكفار الذين يجادلون في آيات الله، المتكبرين على رسله المكذبين لهم، اغتراراً منهم بدنياهم وأموالهم وأولادهم، وطلباً للرياسة والجاه، وهو تهديد يبين نهاية من هم أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، فلم ينفعهم شيء من ذلك حين حلول بأس الله، بل إن إيمانهم بالله وتركهم الشرك حين رؤية البأس لم ينفعهم أيضاً.

التفسير والبيان:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي أفلم يسر في البلاد هؤلاء المجادلون في آيات الله من المشركين، فينظروا في أسفارهم كيف كان مصير الأمم السابقة التي عصت الله، وكذبت رسلها، ويشاهدوا آثارهم الموجودة في ديارهم التي تدل على ما نزل بهم من عقوبة وعذاب شديد، مع أنهم كانوا أكثر من مشركي قريش عدداً، وأقوى منهم أجساداً، وأوسع منهم أموالاً، وأبقى في الأرض آثاراً بالعمائر والمصانع والحصون والمزارع والسدود، ونحو ذلك من مظاهر الحضارة والعمران والفن والعلوم.

فلما حلَّ بهم العذاب لم يغن عنهم كل ما عملوه في دنياهم من مكاسب

---

(١) الكشاف: ٣/ ٦٢

وجاه، ولم ينفعهم مالهم ولا أولادهم، ولا ردَّ عنهم أمر الله، أو نزول العذاب الشديد بهم، ولا أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ أي فلما جاءت الرسل بالحجج الواضحات والمعجزات الظاهرات إلى تلك الأمم المكذبة، لم يلتفتوا إليهم، ولا أقبلوا عليهم، واستغنوا بما عندهم من العلم، أي الشبهات الداحضة والدعاوى الزائغة التي ظنوها علماً نافعاً لهم، مثل قولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٢٤] وقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨/٦] وقولهم: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨/٣٦] وفرحوا بهذه الترهات والأباطيل؛ لأنهم كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧/٣٠].

ولكن نزل وأحاط بهم ما كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه وهو العذاب، استهزاء وسخرية، أي نزل بالكفار عقاب استهزائهم برسالات الرسل.

وقد سمى الله تعالى ما عندهم من العقائد الزائفة والشبه الداحضة (علماً) تهكماً بهم واستهزاء منهم، كما تقدم.

ثم صوّر تعالى ما يكون من شأن الإنسان حين تطبيق العقاب عليه، فقال:

﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾ أي فلما عاينوا وقوع العذاب بهم، صدقوا بالله ووحدوه، وكفروا بمعبوداتهم الباطلة التي اتخذوها شركاء لله، وهي الأصنام التي كانوا يعبدونها، ولكن لم ينفعهم ذلك الإيمان، ولم تنفعهم المعذرة، كما قال تعالى:

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ أي لم يصح ولم يستقم أن إيمانهم

ينفعهم عند معاينة عذابنا؛ لأن ذلك الإيمان ليس بالإيمان النافع لصاحبه، فهو إيمان اضطراري عن إكراه، وإنما ينفع الإيمان الاختياري، لا الإيمان الاضطراري؛ لأنه عند معاينة الأمر الحتمي لا يبقى للتكليف مجال، فالكل يؤمن حينئذ، وهكذا لا ينفع الإيمان عند رؤية العذاب أو الموت أو الغرق أو في الآخرة، ولم يكن الشخص آمن في الدنيا.

وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ فقال الله تعالى: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس ١٠/ ٩٠-٩١] فلم يقبل الله منه إيمانه.

ثم ذكر الله تعالى حكماً عاماً، فقال:

﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أي إن هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب أنه لا يقبل، وإن الله سبحانه سن هذه السنة في الأمم كلها أنه لا ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب.

وخسر الكفار وقت رؤيتهم بأس الله ومعاينتهم لعذابه، والكافر خاسر في كل وقت، ولكنه يتبين لهم خسرانهم إذا رأوا العذاب. جاء في الحديث الثابت: «إن الله تعالى يَقْبلُ توبةَ العبد ما لم يُغَرْغِرْ»[1] أي فإذا غرغر، وبلغت الروح الحنجرة، وعاين المَلَك، فلا توبة حينئذ، ولهذا قال تعالى هنا: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وقال: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [غافر: ٤٠/ ٧٨] . فليحذر الكافر والمقصر، وليتدارك الأمر قبل فوات الأوان، ولات ساعة مَنْدمِ.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

(١) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر.

١ً - إن آثار تدمير الأمم الغابرة بسبب كفرهم وتكذيبهم الرسل عبرة للمعتبر، فلو سار الناس في نواحي الأرض، لعرفوا أن عاقبة المتكبرين المتمردين، ليست إلا الهلاك والبوار والدمار، مع أنهم كانوا أكثر عدداً ومالاً وجاهاً من هؤلاء المتأخرين، والدنيا كلها فانية ذاهبة، فلا يغترن أحد بمال ولا جاه ولا سلطان.

٢ً - كان سبب تدمير أولئك الأقوام في الماضي هو تكذيبهم رسلهم الذين جاؤوهم بالمعجزات والآيات الواضحات، وفرحهم بعقائدهم الزائفة وشبههم الباطلة، مثل قولهم: لن نعذب ولن نبعث، واستهزاؤهم بما جاء به الرسل، فأحدق بهم العقاب من كل جانب.

٣ً - لقد آمن هؤلاء المشركون بالله وحده، وكفروا بالأوثان التي أشركوها في العبادة مع الله، عند رؤية العذاب.

٤ً - ولكن الإيمان بالله عند معاينة العذاب، وحين رؤية البأس لا ينفع ولا يفيد صاحبه.

٥ً - سنَّ الله عز وجل في الكفار أنه لا ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب، وأضحى عدم قبول الإيمان حال اليأس من النجاة سنة الله المطردة في كل الأمم.

٦ً - والغاية أن يحذر أهل مكة وغيرهم من المشركين سنة الله في إهلاك الكفرة، وأن يعلموا أن الإيمان وقت رؤية الهلاك لا ينفع، وأن ما يدَّعونه من علم وحضارة لا يغني عن دين الله ورسالة الأنبياء، فشريعة الله هي الأصح.

٧ً - ليعلم أولئك الذين يصفون شريعة الإسلام بالهمجية والوحشية والقسوة، وهم الذين احتضنوا أفكار الغرب غير الدينية، وآمنوا بالقوانين الوضعية الحديثة، وأحلوها محل شريعة الله تعالى، ليعلموا أنهم جَهَلة بهذه

الشريعة، وأنهم كفروا بالإسلام من حيث لا يشعرون، وأن بواعث تحضّرهم، وادعاءهم إرادة التقدم والمدنية والأخذ بمعطيات الحضارة الحديثة يؤدي لهدم شرع الله تعالى. ولو فهموا هذا الشرع بدقة لحقق لهم كل ما يريدون ضمن ضوابط شاملة، ولم يتورطوا بوصف الشريعة الإسلامية بأنها من الشرائع البدائية أو التقليدية في أنظمة المعاملات المدنية أو الجنائية أو قواعد الإثبات، فإن التزام قواعد الشريعة خير وأحكم وأمنع مما يعيش به مجتمع القرن العشرين من فقد الأمن وكثرة الجريمة وانحلال القيم والأخلاق، وإن قواعد الإثبات فيها أولى من إعطاء حرية الإثبات المطلقة لتقدير القاضي وقناعته الشخصية، فذلك قد يؤدي إلى إهدار الحقوق، وتجريم البريء.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةُ فُصِّلَتْ

مكية، وهي أربع وخمسون آية

تسميتها:

سمّيت سورة ﴿فُصِّلَتْ﴾ لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ وقد فصَّل الله تعالى فيها الآيات، وأوضح الأدلة والبراهين على وجوده وقدرته ووحدانيته، من خلقه هذا الكون العظيم وتصرفه فيه. وتسمى أيضاً (حم، السجدة) لأن رسول الله ﷺ عند قراءة أولها على زعماء قريش حتى انتهى إلى السجدة منها، سجد.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر مناسبتها لما قبلها وهي سورة (غافر) من وجهين:

الأول - افتتاح كلتيهما بوصف الكتاب الكريم وهو القرآن العظيم.

الثاني - اشتراكهما في تهديد ووعيد وتقريع المشركين المجادلين في آيات الله في مكة وغيرها، ففي آخر السورة المتقدمة توعدهم بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [٨٢]، وفي القسم الأول من هذه السورة هددهم مرة أخرى بقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [١٣]. وهذا كله مناسب لآخر سورة المؤمن من عدم انتفاع مكذّبي الرُّسل حين رؤية

العذاب، كما أن قريشاً لم ينتفعوا حينما حلَّ بصناديدهم القتل والأسر والنهب والسَّبي، واستؤصلوا مثلما حلَّ بعاد وثمود من استئصال.

مشتملاتها:

موضوع هذه السورة مثل موضوع باقي السُّور المكية وهو إثبات أصول العقيدة: «الوحدانية، الرِّسالة والوحي، البعث والجزاء».

ابتدأت بوصف القرآن العظيم بأنه المنزَّل من عند الله بلسان عربي مبين، والذي يبيِّن أدلة قدرة الله وتوحيده، وكونه المبشِّر المنذر، والذي يثبت صدق النَّبي محمد ﷺ فيما جاء به من عند ربِّه.

وأبانت موقف المشركين وإعراضهم عن تدبُّره، وقررت حقيقة الرسول ﷺ وأنه بشر خصَّه الله تعالى بالوحي المتضمن إعلان وحدانية الله عزّ وجلّ، وإيضاح جزاء الكافرين وجزاء المؤمنين الذين عملوا الصالحات.

ثم أنكرت على المشركين الكفر، وأقامت الأدلة على وحدانية الله من خلق السماوات والأرض، وأنذرتهم بإنزال عقاب مماثل لعقوبة الأمم الغابرة، كعاد وثمود الذين أهلكوا ودمرت ديارهم بسبب تكذيب رسل الله، ولكن بعد إنجاء المؤمنين المتّقين.

وحذَّرت من حساب القيامة، وأخبرت بأن أعضاء الإنسان تشهد عند الحشر على أصحابها، وأن قرناء السوء زيَّنوا لهم أعمالهم، وأنهم هم صدّوا عن سبيل الله ودينه، وقالوا: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ وطلبوا إهانة من أضلوهم ليكونوا من الأسفلين.

وفي مواجهة أولئك أشاد تعالى بأهل الاستقامة وبشَّرهم بالجنة والكرامة، ووصف من يُلَقّى الجنة وهم الصابرون على طاعة الله تعالى.

ثم عاد الله تعالى إلى إيراد أدلة أخرى من إيجاد العالم العلوي والسفلي على وجود الله ووحدانيته وقدرته، وبيان إحكام القرآن وكونه كتاب هداية وشفاء ورحمة، وأن من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها دون جور ولا ظلم.

وأعقب ذلك التعريف بعلم الله المحيط بكل شيء، والإشارة لعظيم قدرته، والكشف عن طبع الإنسان من التّكبر عند الرّخاء، والتّضرع عند الشدة والعناء.

وختمت السورة بوعد الله أن يطلع الناس في كل زمان على بعض أسرار الكون وتعرّف آيات الله في الآفاق والأنفس الدالة على الوحدانية والقدرة الإلهية، ثم ذكرت أن المشركين يشكون في البعث والحشر، ولكن الله محيط بهم وبكل شيء، وذلك ردّ حاسم عليهم.

فضلها:

أخرج الإمام العالم عبد بن حميد في مسنده وأبو يعلى والبغوي وغيرهم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال:

«اجتمعت قريش يوماً، فقالوا: انظروا أعلمَكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي قد فرّق جماعتنا، وشتّت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه ولننظر ماذا يرُدُّ عليه. فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة.

فقالوا: ائته يا أبا الوليد، فأتاه عتبة فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال عتبة: إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم، فتكلَّمْ حتى نسمع قولك، إنا والله ما رأينا سَخْلة قط أشأم على قومك منك، فرَّقت جماعتنا، وشتَّتَّ أمرنا، وعبت ديننا وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في

قريش كاهناً، والله، ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى.

أيها الرّجل، إن كان إنما بك الحاجة، جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً واحداً، وإن كان إنما بك الباءة(١)، فاختر أي نساء قريش شئت، فلنزوجك عشراً؟ فقال رسول الله ﷺ:

فرغت؟ قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ:

بسم الله الرّحمن الرّحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ - حتى بلغ -: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ فقال عتبة: حسبك حسبك، ما عندك غير هذا؟ فقال رسول الله ﷺ: لا.

فرجع إلى قريش، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمون به إلا كلمته، قالوا: فهل أجابك؟ قال: نعم، لا، والذي نصَبَها بِنْيةً (أي الكعبة) ما فهمت شيئاً مما قاله غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، قالوا: ويلك، يكلِّمك الرجل بالعربية، لا تدري ما قال، قال: لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة».

وفي رواية البغوي: «والله لقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً، ولكني أتيته، وقصصت عليه القصة، فأجابني بشيء، والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقرأ السورة إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ ».

وفي رواية محمد بن إسحاق في سيرته: «قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

(١) الميل إلى النساء.

قال: ورائي أني سمعت قولاً، والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها لي، خلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب، فمُلْكه ملككم، وعِزَّه عِزّكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم».

القرآن الكريم وإعراض المشركين عنه وبشرية الرسول ﷺ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٨﴾﴾

القراءات:

﴿قُرۡءَانًا﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (قرانا).

الإعراب:

﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ﴾ ﴿تَنزِيلٌ﴾: مبتدأ، و﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: صفة له، و﴿كِتَٰبٌ﴾: خبره، أو خبر مبتدأ محذوف، أي هذا تنزيل.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ ﴿قُرْءَانًا﴾: حال وعامله: ﴿فُصِّلَتْ﴾ أو منصوب بـ ﴿فُصِّلَتْ﴾ أو منصوب على المدح، أي أمدح قرآناً عربياً. و﴿لِقَوْمٍ﴾ متعلق بـ ﴿فُصِّلَتْ﴾.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ حال من ﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾ وعامله: ﴿فُصِّلَتْ﴾ أو حال من ﴿كِتَٰبٌ﴾ لأنه قد وصف، وعامله (هذا) إذا قدرت، لما فيه من معنى التنبيه أو الإشارة، أي هذا كتاب فصلت آياته.

﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ﴾ ﴿أَنَّمَآ﴾: مرفوع بـ ﴿يُوحَىٰٓ﴾ على أنه نائب الفاعل للفعل المبني للمجهول.

البلاغة:

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ بينهما طباق.

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ استعارة تصريحية، شبَّهوا إعراضهم عن القرآن ونفرتهم ومباعدتهم عنه وشدّة كراهيتهم بمن حجبت قلوبهم عن العلم، وأسماعهم عن الفهم والإدراك.

المفردات اللغوية:

﴿حمٓ ۝١﴾ للتنبيه على إعجاز القرآن وتحديه، وعلى خطر ما يذكر في السورة من أحكام .﴿فُصِّلَتْ﴾ بيّنت وميّزت أتمّ بيان وأوضح تفصيل للأحكام والقصص والمواعظ .﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ بلغة العرب كله، وفيه امتنان بسهولة قراءته وفهمه .﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لقوم يفهمون ذلك، وهم العرب.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ صفة القرآن، فهو مبشِّر للعاملين به، ومنذر للمخالفين له﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ عن تدبُّره وقبوله .﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع تأمل وطاعة وقبول، أي لا يقبلون ولا يطيعون .﴿وَقَالُوا۟﴾ للنبي ﷺ ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ

﴿أَكِنَّةٍ﴾ أغطية، جمع كِنان، كغطاء وأغطية، والكنان: جعبة (أو خريطة) السهام، والمراد أنها في أغطية سميكة متكاثفة. ﴿وَقْرٌ﴾ صمم أو ثقل سمع. ﴿حِجَابٌ﴾ ستار أو ساتر يمنعنا عن التواصل، والمراد: خلاف في الدين، وقوله: ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا﴾ للدلالة على أن الحجاب مبتدأ منهم ومنه، بحيث استوعب المسافة المتوسطة، ولم يبق فراغ. ﴿فَاعْمَلْ﴾ على دينك. ﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ على ديننا.

﴿أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي لست ملكاً أو جِنّياً لا يمكنكم الالتقاء به. ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي إنما أدعوكم إلى التوحيد والاستقامة في العمل. ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ توجهوا إليه بالإيمان والطاعة. ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ اطلبوا المغفرة مما أنتم عليه من سوء العقيدة والعمل. ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ من فرط جهالتهم واستخفافهم بالله. والويل: كلمة عذاب، وهو كلمة تهديد لهم، أو واد في جهنم. ﴿لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ لبخلهم وعدم إشفاقهم على الخَلْق، وذلك من أعظم الرّذائل. وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿هُمْ﴾ الثانية تأكيد، والجملة حالية مشعرة بأن امتناعهم عن الزكاة لاستغراقهم في طلب الدنيا وإنكارهم للآخرة. ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع، ولا يمنّ به عليهم، من المنّ.

التفسير والبيان:

﴿حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢)﴾ هذه الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن وللدلالة على خطر ما يتلى بعدها، هذا القرآن منزّل من الله تبارك وتعالى ذي الرحمة الواسعة لعباده، فهو المنعم بعظائم النّعم ودقائقها، إنه منزّل على عبده ونبيّه محمد ﷺ. وتخصيص هذين الوصفين ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ بالذّكر هنا للدلالة على أن هذا القرآن هو البلسم الشافي للأمم والأفراد والجماعات، وهو الرّحمة الكبرى للعالم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٧].

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٦/ ١٠٢] ، وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٩٢-١٩٥] .

﴿كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ وهو كتاب بُيِّنت آياته بياناً شافياً، وأوضحت معانيه، وأحكمت أحكامه: ﴿كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١١/ ١] ، وقد أنزلناه بلغة العرب، ليسهل فهمه، فمعانيه مفصّلة، وألفاظه واضحة غير مشكلة، وإنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الراسخون الذين يعلمون أن القرآن منزل من عند الله، ويعلمون معانيه، لنزوله بلغتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف: ١٢/ ٢] ، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤] .

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾ أي إن هذا القرآن يبشِّر المؤمنين أولياء الله بالجنة لاتِّباعهم له وعملهم به، وينذر الكافرين أعداء الله بالنار لمخالفتهم أحكامه، وإصرارهم على التكذيب به حتى الموت، ولكن أعرض أكثر الكفار المشركين عمّا اشتمل عليه من الإنذار، وعن الإصغاء إليه، فهم لا يسمعون آياته سماع تدبُّر وانتفاع، ولم يقبلوه ولم يطيعوا أحكامه؛ لإعراضهم عنه، بالرغم من بيانه ووضوحه.

ثم صرَّحوا بأسباب ثلاثة لنفرتهم ومباعدتهم عنه، كما حكى تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾ أي وقال أولئك المشركون: قلوبنا في أغطية، فهي لا تفقه ما تقول، ولا يصل إليها قولك ودعوتك إلى الإيمان بالله وحده، وترك عبادة الآباء والأجداد، وفي آذاننا صمم وثقل سمع يمنعها من استماع قولك، ومن بيننا وبينك ساتر يستر عنا رؤيتك، ويمنعنا من إجابتك.

وهذه تمثيلات ثلاثة منهم لنبو قلوبهم عن إدراك الحق، ومجّ أسماعهم له، وامتناع المواصلة بينهم وبين رسول الله ﷺ. قيل: إن أبا جهل استغشى على رأسه ثوباً وقال: يا محمد بيننا وبينك حجاب، استهزاء منه.

فاعمل على دينك وطريقتك، إننا عاملون على ديننا وطريقتنا، لا نتابعك، واعمل في هلاكنا وإبطال أمرنا، فإنا عاملون في هلاكك وإبطال أمرك وفضّ الناس من حولك.

وأذكر هنا رواية أخرى لما ذكرت في فضل هذه السورة، روي أن عتبة بن ربيعة ذهب إلى رسول الله ﷺ ليعظم عليه أمر مخالفته لقومه، وليقبح عليه فيما بينه وبينه، وليبعد ما جاء به؛ فلما تكلّم عتبة، قرأ رسول الله ﷺ ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ ومرّ في صدرها حتى انتهى إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ فأرعد الشيخ، ووقف شعره، فأمسك على فم رسول الله ﷺ بيده، وناشده بالرّحم أن يمسك وقال حين فارقه:

«والله لقد سمعت شيئاً ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، ولقد ظننت أن صاعقة العذاب على رأسي» .

وبعد أن ذكروا أسباب إبائهم الإيمان بالله وحده، أجيبوا بأن محمداً مجرد بشر لا يقدر على جبرهم على الإيمان، فقال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي قل أيها الرسول مجيباً قومك المكذبين المشركين عن شبهتهم: ما أنا إلا بشر كواحد منكم لولا الوحي، وإني لا أقدر أن أحملكم على الإيمان جبراً وقهراً، فإني بشر مثلكم، لكني أبلغكم ما أوحي إليّ به، وخلاصة ذلك الوحي أمران: العلم والعمل، أما العلم فأساسه معرفة التوحيد، لأن الحق هو أن الله واحد، وليس معه شريك من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرِّقين، وهو المراد بقوله﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ والحق يجب علينا أن

نعترف به. والعمل أساسه: الاستقامة والاستغفار والتوبة من الذنوب، أي الطاعة وإخلاص العبادة، وطلب العفو عن الذنوب السالفة، ورأسها الشرك، لذا أعقبه بتهديد المشركين، فقال تعالى:

﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ، ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾﴾ أي الهلاك والدمار والخسارة للمشركين الذين أشركوا مع الله إلهاً آخر، والذين تجرّدوا من حبّ الإنسانية والشفقة على خلق الله فلا يؤدون الزكاة، ويمنعونها عن الفقراء، ولا ينفقون في الطاعة، وهم جاحدون الآخرة، منكرون البعث والحساب والجزاء.

فالله تعالى أثبت الويل لمن اتّصف بصفات ثلاث:

أولها - أن يكون مشركاً، وهو ضدّ التوحيد.

وثانيها - كونه ممتنعاً من أداء الزكاة، وهو ضدّ الشفقة على خلق الله تعالى.

وثالثها - كونه منكراً للقيامة، مستغرقاً في طلب الدنيا ولذاتها.

وإنما ذكر الله تعالى هذه الأوصاف؛ لأن الإيمان أساس العقيدة، والشرك هدم لها، ولأن الزكاة دليل الإيمان؛ لأنها اقتطاع جزء من أحب الأشياء إلى النفس وهو المال قرين الروح، لذا قيل: الزكاة قنطرة الإسلام، فمن قطعها نجا، ومن تخلَّف عنها هلك. ومنع الزكاة قسوة على عباد الله، وبذلها دليل على صدق النِّيّة.

وأما الإيمان بالآخرة: فهو خلاصة الإيمان وهدفه وتقرير للمصير. وإنكار البعث والقيامة: تدمير لكل الأعمال في الدنيا، وانصراف إليها وإعراض عن الآخرة.

وهذه الآية تهديد لمن يشرك بالله، ويمنع الزكاة التي تطهِّر النّفس من داء

الشُّح والبخل، وينكر البعث والجزاء والحساب يوم القيامة وينصرف إلى الدنيا ولذاتها. ونحو الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩١/٩-١٠] .

ثم أعقب وعيد الكفار بوعد المؤمنين للجمع المألوف في القرآن بين التّرهيب والتّرغيب، فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾ أي إن الذين صدقوا بالله ورسوله، وعملوا بما أمر الله به وانتهوا عما نهى عنه، لهم عند ربّهم أجر وثواب غير مقطوع ولا ممنوع، ولا يمنُّ عليهم به؛ لأن المنّة بالتّفضل، وأما الأجر فحقّ أداؤه، كما قال تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١١/١٠٨] ، وقال سبحانه﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ۝٢٥﴾ [الانشقاق: ٨٤/٢٥] . قال السُّدِّي: نزلت في الزَّمْنى والمَرْضى والهَرْمى إذا ضعفوا عن الطاعة، كتب لهم من الأجر كأصحّ ما كانوا يعملون فيه.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - وصف الله تعالى القرآن في مطلع هذه السورة بصفات عشر: هي كونه تنزيلاً، وكون ذلك التنزيل من الرحمن الرحيم، وكونه كتاباً، وفصِّلت آياته، وكونه قرآناً، وكونه عربياً، ولقوم يعلمون ليفهموا منه المراد، وبشيراً، ونذيراً، وكونهم معرضين عنه لا يسمعون ولا يلتفتون إليه.

٢ - ذهب أكثر المتكلمين إلى أنه يجب على المكلّف تنزيل ألفاظ القرآن على المعاني التي هي موضوعة لها بحسب اللغة العربية، وحملها على معانٍ أُخر بغير هذا الطريق باطل قطعاً.

٣ً - ليس في القرآن الكريم لفظ غير عربي، وهذا ردّ على من قال: اشتمل القرآن على سائر اللغات، مثل ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ و﴿سِجِّيلٍ﴾ من اللغة الفارسية، و﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ من لغة الحبشة، و﴿بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ من لغة الروم.

٤ً - إن ألفاظ الإيمان والكفر والصلاة والزكاة والصوم والحج هي ألفاظ عربية لغوية، لا شرعية، وإنما خصصها الشرع ببعض أنواع مسمياتها، فالإيمان مثلاً خصصه الشرع بنوع معين من التصديق، والصلاة خصصها الشرع بنوع معين من الدعاء، وهكذا البواقي؛ لقوله تعالى السابق﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ وقوله المتقدم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾.

٥ً - إن وصف القرآن بكونه ﴿عَرَبِيًّا﴾ في معرض المدح والتعظيم دليل على أن لغة العرب أفضل اللغات.

٦ً - دلّ قوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ على أنه لا يجوز أن يحصل في القرآن شيء غير معلوم؛ لأن المعنى: إنما جعلناه عربياً ليصير معلوماً.

٧ً - دلّ قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ على أن الهادي من هداه الله، وأن الضالّ من أضلّه الله. وهذا بعد اختيار أصل الهداية وأصل الكفر والضّلال، فليس المعنى: هو الجبر على الهداية أو الجبر على الضّلالة، فإن المشركين أعرضوا عن القرآن بعد توافر موجبات ثلاث للإيمان، وهي: كون القرآن نازلاً من عند الله الرّحمن الرّحيم، وكونه عربياً، وكونه بشيراً ونذيراً.

٨ً - دلّت آية: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ الآية على أن الكفار كانوا في غاية النّفرة والمباعدة عن القرآن باختيارهم وتصريحهم.

٩ً - لا يختلف النّبي ﷺ وغيره من الأنبياء عن سائر الناس إلا بإنزال الوحي عليهم، فهم بشر عاديون كسائر البشر، لكن اصطفاهم ربّهم للنّبوة والرسالة وتبليغ وحيه إلى الناس.

١٠ً - إن مناط السعادة تعظيم أمر الله، والشفقة على خلق الله، ولقد أخلّ المشركون بالأمرين معاً، فكانوا أشقياء، فهم لم يعظموا الله بتوحيده، ولم يخلصوا العبادة والطاعة، ولم يبادروا إلى الاستغفار من الشرك، ولم يرحموا عباد الله بمنعهم الزكاة، ولم ينفقوا في الطاعة، ولم يستقيموا على أمر الله، وأنكروا البعث والحشر والحساب والجزاء. وفيه دلالة على أن الكافر يعذب بكفره مع منع وجوب الزكاة عليه، فإنه تعالى ألحق الوعيد الشديد له على أمرين: كونه مشركاً، وأنه لا يؤتي الزكاة، فدلّ على أن لعدم إيتاء الزكاة من المشرك تأثيراً عظيماً في زيادة الوعيد.

١١ً - إن الذين آمنوا بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، وأدّوا الفرائض والطاعات، واجتنبوا المنكرات والمحظورات، لهم عند ربّهم أجر وثواب لا ينقطع أبداً.

دليل وجود الله تعالى وكمال قدرته وحكمته

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)﴾

الإعراب:

﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ الواو: واو الحال من ضمير ﴿خَلَقَ﴾ وتقديره: قل: أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين مجعولاً له أنداداً.

﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ ﴿سَوَآءً﴾ بالنصب على المصدر، بمعنى (استواء) وتقديره: استوت استواء. وقرئ بالرفع (سواءٌ) لأنه خبر لمبتدأ محذوف، وتقديره: هو سواء، وقرئ بالجر مجروراً على الوصف لـ ﴿أَيَّامٍ﴾ أو لـ ﴿أَرْبَعَةِ﴾ والمشهور: النصب.

﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ حال.

﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ جمعها جمع العقلاء؛ لأنه وصفها بالقول والطاعة، مثل: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ فقد وصفها بالسجود، وهو من صفات العقلاء، وجمعها جمع من يعقل.

﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾: في موضع نصب على البدل من هاء ونون ﴿فَقَضَاهُنَّ﴾.

البلاغة:

﴿أَئِنَّكُمْ﴾ استفهام إنكاري، ولام ﴿لَتَكْفُرُونَ﴾ لتأكيد الإنكار، وتقديم الهمزة لصدارتها.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ استعارة تمثيلية، مثَّل تأثير قدرته في السماوات والأرض بأمر السلطان أحد رعيته بتنفيذ شيء، وامتثال الأمر بسرعة.

﴿طَوْعًا﴾ و﴿كَرْهًا﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ﴾ الكفر به: إلحادهم في ذاته وصفاته. ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ في مقدار يومين أو بنوبتين، وخلق في كل نوبة ما خلق في أسرع ما يكون. ﴿أَندَادًا﴾ شركاء، جمع ندّ، أي شريك. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي خلق الأرض في يومين.

﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خالق جميع ما وجد من الممكنات ومالكها ومربِّيها، و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جمع عالم: وهو ما سوى الله، وجُمع لاختلاف أنواعه تغليباً للعقلاء.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت، وهو كلام مستأنف غير معطوف على ﴿خَلَقَ﴾ للفصل بما هو خارج عن صلة ﴿بِٱلَّذِى﴾. ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ مرتفعة عليها. ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أكثر خيرها، بأن خلق فيها أنواع النبات والحيوانات والمياه. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ قسم فيها أقواتها للناس والبهائم. ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ في تمام أربعة أيام تمّ الجعل والتقدير، أي في تتمة أربعة أيام باليومين المتقدمين.

﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي استوت الأربعة استواء لا تزيد ولا تنقص، أي إنها أربعة أيام كاملة لا زيادة فيها ولا نقصان، و﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: هذا الحصر للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها، أو متعلق بـ ﴿وَقَدَّرَ﴾ أي قدر فيها الأقوات للطالبين لها.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ قصد وعَمَد نحوها، أي تعلقت إرادته بها. ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أي مادة غازية مظلمة، تشبه الدخان في رأى العين. ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي ائتيا في الوجود، إذا كان الخلق السابق بمعنى التقدير، أو اخضعا لمرادي منكما من التأثير والتأثر، حال كونكما طائعتين أو مكرهتين. ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ منقادين بالذات، وفيه تغليب المذكر العاقل. قال البيضاوي: والأظهر أن المراد تصوير تأثير قدرته فيها، وتأثرهما بالذات عنها، وتمثيلهما بأمر المطاع، وإجابة المطيع الطائع، كقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ خلقهنّ خلقاً إبداعياً وصيَّرهنّ وأكملهنّ وفرغ منهنّ، والضمير يرجع إلى السماء؛ لأنها في معنى الجمع الآيلة إليه. ﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾ فرغ منها في تمام يومين، وهذا موافق لآيات خلق السماوات والأرض في ستة أيام.

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ﴾ شأنها وما يتأتى منها من الطاعة والعبادة. ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ نجوم. ﴿وَحِفْظًاۚ﴾ منصوب بفعل مقدر، أي حفظناها حفظاً من استراق الشياطين السمع، بالشُّهب، أو من الآفات. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الخلق. ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ تقدير البالغ التمام في القدرة والعلم، فهو القوي القادر في ملكه، العليم بخلقه.

المناسبة:

بعد أن أمر الله تعالى بتوحيده في الألوهية والربوبية، أردفه بما يدلّ على وجوده: وهو الخلق والتقدير للسماوات والأرض في مدة قليلة، وفي ذلك أيضاً ما يدلّ على كمال قدرته وحكمته، فمن كانت هذه صفته، فكيف يسوغ جعل الأصنام والأوثان شركاء له في الألوهية والعبودية، وهي عاجزة عن الخلق والتقدير؟!

التفسير والبيان:

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾﴾ قل أيها الرسول لقومك المشركين توبيخاً وتقريعاً: كيف تكفرون بالله الذي خلق الأرض في مقدار يومين، قيل: هما يوم الأحد ويوم الاثنين، أو في نوبتين نوبة جعلها جامدة بعد أن كانت كرة غازية، ونوبة جعلها طبقات بذخائرها المائية والمعدنية.

وتجعلون له أمثالاً وأضداداً مساوين له في القدرة من الملائكة والجنّ والأصنام والأوثان، فذلك المتصف بالخلق والإبداع هو ربّ العالمين كلهم، أي مربِّي الإنس والجنّ ومالكهم وخالقهم ومدبِّرهم، فكيف تجعلون بعض مخلوقاته شركاء له في عبادته؟! ومن قدر على خلق هذه الأشياء العظيمة كيف يعقل الكفر به؟!

إنه تعالى خلق الأرض في يومين، وتمّم بقية مصالحها في يومين آخرين، وخلق السماوات بأسرها في يومين آخرين. والمراد باليوم: الوقت مطلقاً، لا اليوم المعروف؛ لأنه لم يكن هذا النظام قد وجد بعد.

والخلاصة: إن الآية إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره، وهو الخالق لكل شيء، القاهر لكل شيء، المقتدر على كل شيء.

ثم أتمّ تعالى ما يقتضيه حسن العيش في الأرض بإيجاد ثلاثة أنواع فيها، فقال:

١ - ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ أي جعل في الأرض جبالاً ثوابت مرتفعة عليها، فهي التي تحفظ الأرض من الاضطراب، وتخزن المياه والمعادن، وترشد إلى الطرق، وتحفظ الهواء والسحاب، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ [المرسلات: ٧٧/ ٢٧] .

٢ - ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أي جعل الأرض مباركة كثيرة الخير، بما خلق فيها من منافع العباد، إذ جعل تربتها مصدراً للخير والرزق بإنبات النباتات المختلفة فيها، وإيداعها الثروة المعدنية والنفطية والمائية.

٣ - ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ أي قدّر فيها أرزاق أهلها، وما يصلح لمعاشهم من الأشجار والمنافع، وجعل في أقطارها ما يناسب سكانها من أطعمة ونباتات، وأوجد في كل أرض ما لا يصلح في غيرها.

﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أي إنه تعالى أتمّ معايش أهل الأرض في تتمة أيام أربعة باليومين المتقدّمين. وإنما ذكر هذه الأيام الأربعة للدلالة على أنها كانت مستغرقة بالأعمال من غير زيادة ولا نقصان، وذلك في يومي الثلاثاء والأربعاء، فهما مع اليومين السابقين أربعة.

فإتمام حوائج الأرض ومتطلباتها في أيام أربعة كاملة لأجل السائلين، أي

الطالبين للأقوات المحتاجين إليها، أو جواباً عن سؤال السائلين القائلين بطبيعتهم: في كم خلقت الأرض وما فيها؟ وإنما قال: ﴿سَوَآءً﴾ للدلالة على أن تلك الأيام الأربعة كانت متساوية غير مختلفة. وتخصيص الأرض بالأنواع الثلاثة: الرواسي والبركة وتقدير الأقوات إشارة إلى الاعتناء بأمر المخاطبين، فكان الأجدر بهم ألا يحصل منهم كفر أو شرك.

ثم ذكر الله تعالى خلق السماء، فقال:

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ أي ثم عَمَد وقصد وتوجه توجّهاً كاملاً إلى السماء حسبما تقتضي الحكمة، وهي كتلة غازية مظلمة تشبه الدخان أو السحاب أو السديم (وهو عالم السديم في اصطلاح العلماء) فأمر بأن تكون بشمسها وقمرها ونجومها، كما أمر بتكوين ما في الأرض من أنهار وثمار ونبات، فتمّ خلقهما، وأتت السماء والأرض منقادتين خاضعتين للأمر الإلهي طائعين أو مكرهين. وهذا هو المراد بقوله تعالى لتلك العوالم السماوية والأرضية: ائتيا طائعتين أو كارهتين، فأجابتا بقولهما: أتينا طائعين. قيل: إن خلق السماوات وما فيها تمّ في يوم الخميس والجمعة. وفائدة قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾ إظهار كمال القدرة والتقدير.

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾: قال الله تبارك وتعالى للسماوات: أطلعي شمسي وقمري ونجومي، وقال للأرض: شققي أنهارك، وأخرجي ثمارك، قالتا: أتينا طائعين.

وبه يتبين أن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ هو كناية عن إيجاد السماء والأرض. وإنما خصص الاستواء بالسماء دون الأرض مع توجهه توجهاً كاملاً لخلقهما هو رعاية السماء في مقابل تقدير الأرض.

والتوفيق بين هذه الآية: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ وآية ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات: ٧٩/ ٣٠] ، المشعر بأن خلق الأرض حصل بعد خلق السماء: هو أن يقال - كما ذكر الرازي -: إنه تعالى خلق الأرض في يومين أولاً، ثم خلق بعدها السماء، ثم بعد خلق السماء دحا الأرض أي بسطها، فيزول التناقض[1]. ثم ناقش الرازي هذا الجواب واستشكله من وجوه.

وقال أبو حيان: والمختار عندي أن يقال: خَلْق السماء مقدم على خلق الأرض، وتأويل الآية أن الخلق ليس عبارة عن التكوين والإيجاد، بل الخلق عبارة عن التقدير، وهو في حقّه تعالى حكمه أن سيوجد، وقضاؤه بأن سيحدث كذا في مدة كذا: لا يقتضي حدوثه في ذلك الحال، فلا يلزم تقديم إحداث الأرض على إحداث السماء[2].

والمقصود بهذا أن المراد من خلق الأرض، وجعل الرواسي فيها، والمباركة فيها، وتقدير أقواتها فيها هو التقدير، أي قدر خلق الأرض والسماء، ويكون الإتيان طوعاً أو كرهاً بياناً لكيفية التكوين إثر بيان كيفية التقدير. وعلى كل حال يمكن فهم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ بأن الترتيب في الذكر فحسب، لا الترتيب في الواقع، فإن خلق السماء كان في رأي أبي حيان قبل خلق الأرض.

والسبب في ذكر السماء مع الأرض وأمرهما بالإتيان، والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين: هو أن الله قد خلق جرم الأرض أولاً غير مدحوة أي غير منبسطة، ثم دحاها بعد خلق السماء، كما قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات: ٧٩/ ٣٠] ، والمعنى: ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف، ائت يا أرض مدحوة قراراً ومهاداً لأهلك، وائت يا سماء مقببة سقفاً لهم، ومعنى الإتيان: الحصول والوقوع.

---

(١) تفسير الرازي: ٢٧/ ١٠٤ - ١٠٥

(٢) تفسير البحر المحيط: ٧/ ٤٨٧ - ٤٨٨

ودحو الأرض وبسطها إنما هو بالنسبة لنظر الناظر وموقع الإنسان الذي يعيش عليها، والحقيقة أن الأرض كرة منذ أول حدوثها.

وإتيان الأرض طائعة يدلّ على حركتها المستمرة الطائعة على وفق قانون الجاذبية الأرضية، فهي مجذوبة إلى الشمس التي هي أصلها بحركة دورية دائمة طوعاً لا قسراً، وإتيان الأرض والسماء دليل على حركتهما، فالأرض تدور حول نفسها وحول الشمس، والشمس تدور حول نفسها وحول شموس أخرى أكبر منها.

وبعد أن ذكر الله تعالى تمام خلق الأرض، ذكر كيفية تكوين السماوات السبع وبيان نظامها، فقال: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ أي فأتّم خلق السماوات السبع وأحكمهنّ وفرغ منهن في مقدار يومين أو نوبتين سوى الأيام الأربعة التي خلق فيها الأرض، فأصبح خلق السماوات والأرض في أيام ستة كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[1]. قال مجاهد: ويوم من الأيام السّتة كألف سنة مما تعدّون،

وأوحى في كل سماء أمرها، أي جعل فيها النظام الذي تجري عليه الأمور فيها، قال قتادة: أي خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها (مداراتها) وما فيها من الملائكة والبحار والبرد والثلوج.

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي وزيّنا سماء الدنيا بكواكب منيرة مضيئة مشرقة على أهل الأرض، متلألئة عليها كتلألؤ المصابيح، وخلقنا المصابيح زينة وحفظاً من الشياطين الذين يسترقون السمع، وحفظناها من الاضطراب في سيرها، ومن اصطدام بعضها ببعض، فهي تسير في نظام محكم وعلى منهج ثابت.

---

(١) [الأعراف: ٥٤، يونس: ٣، هود: ٧، الفرقان: ٥٩، السجدة: ٤، ق: ٣٨، الحديد: ٤].

ذلك النظام البديع هو من ترتيب الله القادر على صنع كل شيء، والذي يعلم كل شيء، فهو القوي القاهر الذي غلب كل شيء وقهره، وهو العليم بمصالح العباد وبحركاتهم وسكناتهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت الآيات على ما يأتي:

١ - أمر الله تعالى بتوبيخ الكفار المشركين والتّعجب من فعلهم وكفرهم بالله الذي هو خالق السماوات والأرض، واتّخاذهم الأضداد والشركاء من الأصنام وغيرها معبودات مع الله الذي خلقها وخلق جميع العوالم من الملائكة والإنس والجن وغيرهم، وخلق الأرض في يومي الأحد والاثنين.

٢ - إن الخلق والتكوين والإبداع هو دليل قاطع على وجود الله وكمال قدرته وحكمته وعلمه الشامل.

٣ - والله تعالى أيضاً هو الذي جعل في الأرض جبالاً ثوابت مرتفعة عليها، وبارك فيها بما خلق فيها من المنافع، وقدّر أرزاق أهلها ومصالحهم، وذلك في يومي الثلاثاء والأربعاء، فذلك تمام الأيام الأربعة مع اليومين المتقدمين في خلق الأرض، وهي أيام أربعة مستوية لا زيادة فيها ولا نقصان، للسائلين وغير السائلين، أي خلق الأرض وما فيها لمن سأل ولمن لم يسأل، ويعطي من سأل ومن لا يسأل.

٤ - ثم عمد تعالى إلى السماوات وهي في حالة دخان أي كتلة غازية مظلمة، فنقلها من صفة الدخان إلى حال الكثافة، وتمّ الأمر الإلهي للأرض والسماء بأن يجيئا بما خلق فيهما من المنافع والمصالح والخروج للخلق، فاستجابتا للأمر وانقادتا له.

٥ - أكمل الله تعالى خلق السماوات السبع وفرغ منهن في مقدار يومين هما

يوما الخميس والجمعة، سوى الأيام الأربعة التي خلق فيها الأرض، فصار خلق السماوات والأرض في أيام ستة، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

٦ - لم يكن خلق السماوات خالياً من النظام، وإنما نظم تعالى أمرها، فخلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها، وأوجد في كل سماء ملائكة، وأودع فيها خزائن المطر، وجعل لها نظاماً بديعاً تسير عليه دون توقُّف ولا تعثُّر ولا تصادم مع غيرها، وجعل الكواكب مختصة بالسماء الدنيا، وحفظها من كل اضطراب ومن الشياطين الذين يسترقون السمع.

٧ - ظاهر هذه الآية يدلّ على أن الأرض خلقت قبل السماء، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ، رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات: ٧٩/٢٧-٣٠] ، وهذا يدلّ على خلق السماء أولاً.

فقال ابن عباس: خلقت الأرض قبل السماء، فأما قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ فالدّحو غير الخلق، فالله خلق الأرض، ثم خلق السماوات، ثم دحا الأرض، أي مدَّها وبسطها. وأيّده ابن كثير قائلاً: ففصل ها هنا في هذه الآيات ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولاً؛ لأنها كالأساس، والأصل أن يبدأ بالأساس، ثم بعده بالسقف، كما قال عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢/٢٩] . وأما آية دحو الأرض فكان بعد خلق السماء، وأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنّص، كما ذكر ابن عباس رضي الله عنه(١). وهذا مفاد كلام الرازي المتقدم.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٩٢/٤

وقال مقاتل: خلق الله السماوات قبل الأرض، وتأويل قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: ثم كان قد استوى إلى السماء وهي دخان، وقال لها قبل أن يخلق الأرض، فأضمر فيه (كان) كما قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٢/٧٧]، معناه: إن يكن سرق. وردّ عليه الرّازي بأن كلمة (ثم) تقتضي التأخير[١].

تهديد المشركين بمثل صاعقة عاد وثمود

﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾

القراءات:

﴿نَّحِسَاتٍ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (نَحْسَات).

الإعراب:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ ﴿وَأَمَّا﴾: حرف تفصيل فيه معنى الشرط، لذا

(١) تفسير الرازي ٢٧/ ١٠٥

جاءت الفاء في ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ الذي هو خبر المبتدأ، الذي هو ﴿ثَمُودُ﴾. والأصل في الفاء أن تكون مقدَّمة على المبتدأ، إلا أنهم أخروها إلى الخبر، لئلا يلي حرف الشرط فاء الجواب، فهي في تقدير التقديم، لذا جاز أن يعمل ما بعدها فيما قبلها، مثل: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝﴾ [الضحى: ٩٣/٩-١٠] فنصب ﴿ٱلْيَتِيمَ﴾ و﴿ٱلسَّآئِلَ﴾ بما بعد الفاء؛ لأنها في تقدير التقديم.

ومن قرأ (ثمودَ) بالنصب، نصبه بفعل مقدر، يفسره هذا الظاهر، تقديره: مهما يكن من شيء، فهدينا ثمودَ فهديناهم. وقرئ (ثمودُ وثمودٌ) بالصرف وترك الصرف، فمن صرفه (ثمودٌ) جعله اسم الحي، ومن لم يصرفه (ثمودُ) جعله اسم القبيلة، فلم يصرفه للتعريف والتأنيث.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ أن: مفسرة؛ لأن مجيء الرسل بالوحي فيه معنى القول، ولا: ناهية، أو مصدرية ولا: ناهية، أو مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن.

البلاغة:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ بعد قوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة، إظهاراً لعدم المبالاة بهم والاستخفاف بشأنهم، ففي دعوتهم للإيمان خوطبوا اجتذاباً لهم، وفي حال إعراضهم عن الإيمان بعد البيان، أهملوا.

﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ أي كفار مكة عن الإيمان بعد هذا البيان. ﴿أَنذَرْتُكُمْ﴾ خوفتكم بنزول العذاب. ﴿صَٰعِقَةً﴾ عذاباً شديداً يهلكهم كأنه صاعقة. ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي مثل العذاب الذي أهلكهم. والصاعقة في الأصل:

صيحة الهلاك أو قطعة النار النازلة من السماء مع رعد شديد .﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾ ﴿إِذْ﴾ هنا: ظرف ﴿صَٰعِقَةِ﴾ الثانية؛ لأنها بمعنى عذاب، أو حال منها لإضافتها، وقد جاءهم هود وصالح داعيين إلى الإيمان بهما، وبجميع الرسل ممن جاء .﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي من قبلهم ومن بعدهم، فكأن الرسل جميعاً قد جاؤوهم.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ (أن) مفسرة بمعنى أي، أو أنها مخففة من الثقيلة، أصله: بأنه لا تعبدوا، أي بأن الشأن والحديث قولنا لكم: (لا تعبدوا) .﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا﴾ مفعول شاء محذوف، أي لو شاء ربنا إرسال الرسل .﴿لَأَنزَلَ﴾ علينا. ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي فإذا أنتم بشر، ولستم بملائكة، فإنا لا نؤمن بكم وبما جئتم به. وقوله ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم﴾ ليس إقراراً منهم بالإرسال، وإنما هو على حسب كلام الرسل، أي في زعمكم، وفيه تهكم، كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٦/٢٧] وقولهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ خطاب منهم لهود وصالح ولسائر الأنبياء الذين دعوا إلى الإيمان بهم.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي فتعظموا فيها على أهلها بغير استحقاق .﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي لا أحد، وهذا اغترار بقوتهم وعزيمتهم، كان واحدهم يقلع الصخرة العظيمة من الجبل بيده، ثم يجعلها حيث يشاء .﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ يعلموا .﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي قدرة، فإنه قادر بالذات، مقتدر على ما لا يتناهى، قوي على ما لا يقدر عليه غيره .﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ المعجزات .﴿يَجْحَدُونَ﴾ ينكرونها مع معرفتهم بأنها حق، ﴿وَكَانُواْ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾.

﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ شديدة البرد، تهلك بشدة بردها، مأخوذ من الصرّ: وهو البرد الذي يصرّ، أي يجمع، أو هي شديدة الصوت في هبوبها، من الصرير،

فهي باردة شديدة الصوت بلا مطر. ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ مشؤومات عليهم. ﴿عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ عذاب الذل. ﴿أَخْزَىٰ﴾ أشد ذلاً. ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ بمنعه عنهم.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي بينا لهم طريق الهدى والحق، بإرسال الرسل وبيان الحجج والأدلة. ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾أي فاختاروا الضلالة والكفر على الإيمان. ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ صاعقة من السماء فأهلكتهم، والهون: المهين أو الذل. ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من اختيار الضلالة.

المناسبة:

بعد بيان إعراض عبدة الأوثان عن الإيمان بالله بالرغم من الأدلة الدالة على وجوده وتوحيده وقدرته من خلق السماوات والأرض، أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن ينذرهم بعذاب شديد مماثل للعذاب الذي نزل بعاد وثمود من قبلهم، مع بيان سبب العذاب النازل بكل قبيلة على حدة.

التفسير والبيان:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق: إن أعرضتم عن الإيمان بالله وبرسالتي، ولم تتدبروا وتتفكروا في هذه المخلوقات الكونية العظيمة، فإني أخوفكم بعذاب شديد قاتل في الحال مشابه لعذاب الأمم الماضية المكذبين بالرسل، كعاد وثمود ونحوهما ممن فعل فعلهما.

﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ عذبوا بعد أن جاءتهم الرسل المتقدمون الذين بلغتهم رسالاتهم وكلامهم والرسل المتأخرون الذين رأوهم بأنفسهم، وأمروهم بعبادة الله وحده، فكذبوهم وأدبروا عنهم، وتذرعوا بأن الرسل ملائكة لا بشر كما قال تعالى:

﴿قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي قالوا لرسلهم: لو شاء ربنا إرسال الرسل لأرسل إلينا ملائكة، ولم يرسل إلينا بشراً من جنسنا لا فضل لهم علينا، فإنا بما أرسلتم به أيها البشر - في زعمكم - كافرون منكرون، فلا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا.

ولا بأس من إعادة قصة عتبة هنا برواية أخرى مفيدة لمعرفة مدى تأثير القرآن وهذه الآيات بالذات في النفوس إذا تجردت عن الأهواء والعصبيات، أخرج البيهقي في الدلائل وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال: «قال أبو جهل والملأ من قريش: قد التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم رجلاً عالماً بالسحر والكهانة والشعر، فكلّمه، ثم أتانا ببيان من أمره. فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت السحر والكهانة والشعر، وعلمت من ذلك علماً، وما يخفى عليّ إن كان كذلك، فأتاه، فقال: يا محمد، أنت خير أم هاشم، أنت خير أم عبد المطلب؟ فلم يجبه، قال: لِمَ تشتم آلهتنا وتضللنا؟ إن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا، وإن تك بك الباءة (الميل للنساء) زوجناك عشر نسوة تختارهن، أيَّ بنات من شئت من قريش، وإن كان المال مرادك جمعنا لك ما تستغني به، ورسول الله ساكت، فلما فرغ، قال ﷺ:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ - إلى قوله - ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾، فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم، فرجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش، فلما احتبس عنهم قالوا: لا نرى عتبة إلا قد صبأ، فانطلقوا إليه، وقالوا: يا عتبة، ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت، فغضب وأقسم لا يكلم محمداً أبداً، ثم قال: والله لقد كلمته، فأجابني بشيء ما هو بشعر ولا سحر ولا كهانة، ولما بلغ ﴿صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أمسكت بفيه، وناشدته الرحم، ولقد علمت أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب».

ثم بدأ الله تعالى بتفصيل ما حصل من قوم عاد وثمود، بعد الإجمال، فقال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي فأما قوم عاد فتكبروا عن الإيمان بالله وتصديق رسله، واستعلوا على من في الأرض بغير استحقاق، وبغَوْا وعَتَوْا وعَصَوْا ربهم، وقالوا: لا أحد أقوى منا، حتى يقهرنا، وقد كانوا ذوي أجسام طوال وقوة شديدة، فاغتروا بأجسامهم حين تهددهم هود عليه السلام بالعذاب، ومرادهم بهذا القول أنهم قادرون على دفع ما ينزل بهم من العذاب.

فردّ الله عليهم موبخاً، فقال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي أو لم يعلموا ويتفكروا فيمن يبارزون بالعداوة؟ فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وما فيها من القوى، وإن بطشه لشديد، فهو قادر على أن ينزل بهم من أنواع عقابه ما شاء بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ وهم يعرفون مدى أحقية آياتنا وثبوتها، ولكنهم يجحدون بها ويعصون الرسل، وينكرون معجزاتهم والأدلة الدامغة التي هي حجة عليهم.

ثم ذكر الله تعالى نوع عقابهم، فقال:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (١٦)﴾ أي فأرسلنا عليهم ريحاً شديدة البرد وشديدة الصوت تحرق وتدمر ما أتت عليه في فترة أيام مشؤومات متتابعات، كما قال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٦٩/٧].

وغاية ذلك العذاب أن نذيقهم عذاب الذل والهوان في الدنيا بسبب استكبارهم، وإن عذاب الآخرة أشد إهانة وإذلالاً من عذاب الدنيا، وهم لا يجدون ناصراً ينصرهم ولا دافعاً يدفع عنهم العذاب، لا في الآخرة ولا في الدنيا.

ثم فصل تعالى جناية ثمود، فقال:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ أي وأما قبيلة ثمود، فبيَّنا لهم طريق الحق والهدى والنجاة، بإرسال الرسل إليهم، وبيان الأدلة الكونية من مخلوقات الله على توحيدنا، فاختاروا الكفر على الإيمان، وآثروا العصيان على الطاعة، وكذبوا رسولهم، وعقروا ناقة الله التي هي دليل صدق نبيهم.

فكان عذابهم ما أخبر عنه تعالى:

﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي فبعثنا عليهم صيحة ورجفة وعذاباً مهيناً بسبب كسبهم وهو التكذيب والجحود. وقوله: ﴿صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ أي داهية العذاب الهوان.

﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي وأنقذنا من العذاب صالحاً عليه السلام ومن معه من المؤمنين برسالته، المتقين ربهم بإقامة فرائضه وترك معاصيه، لم يمسهم سوء، ولا نالهم من ذلك ضرر ولا مكروه.

فقه الحياة أو الأحكام:

يؤخذ من الآيات ما يأتي:

١ - إن الإصرار على الكفر سبب لعذاب الدنيا والآخرة، فلما أصر كفار قريش على الكفر والجهل، لم يبق علاج في حقهم إلا إنزال العذاب عليهم، ولكن الله برحمته أراد إنذارهم أولاً وتخويفهم هلاكاً مثل هلاك عاد وثمود.

٢ - لم يترك الله سبيلاً لثني كفار عاد وثمود عن كفرهم، فأرسل إليهم كما أرسل إلى من قبلهم رسلاً يدعونهم إلى عبادة الله وحده، فتذرعوا بأن الرسول ينبغي أن يكون من الملائكة، والله قادر على إنزال ملائكة بدل الرسل، وأضافوا بأنهم كافرون بما جاء به الرسل من الإنذار والتبشير.

٣ً - كان من جناية عاد أنهم تكبروا في الأرض على عباد الله: هود ومن آمن معه، بغير حق ولا موجب للتكبر، واغتروا بأجسامهم حين تهدَّدهم هود عليه السلام بالعذاب. ولكنهم قوم حمقى فإن الله أقدر منهم وأقوى، فلم يتفكروا في ذلك، وكفروا بالمعجزات. وتضمن استكبارهم أمرين:

الأول - إظهار الكبر وعدم الالتفات إلى الغير.

والثاني - الاستعلاء على الغير.

٤ً - تدل الآية على إثبات القدرة والقوة لله تعالى، كما قال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥١/٥٨] وقدرة العبد متناهية محدودة، وقدرة الله لا نهاية لها وغير محدودة. فقوله تعالى: ﴿أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ليس المراد به المفاضلة أو النسبة التفضيلية، وإنما هو على منوال قولنا: (الله أكبر) فلا يراد بالتفضيل معناه المعروف، فهو كما يقولون: ليس على بابه.

٥ً - عذّب الله في الدنيا قبيلة عاد بإرسال ريح باردة شديدة البرد، وشديدة الصوت والهبوب، في مدى سبعة أيام مشؤومات متتابعات، وسيكون عذابهم يوم القيامة في النار أشد وأعظم من عذاب الدنيا، ولا يجدون ناصراً ينصرهم من العذاب.

٦ً - لقد بيَّن الحق تعالى لقبيلة ثمود الهدى والضلال، فاختاروا الكفر على الإيمان، والمعصية على الطاعة، والضلالة على الرشد، فأرسل الله عليهم قارعة صاعقة مدمرة محرقة هي الصيحة والرجفة والذل والهوان بسبب تكذيبهم صالحاً عليه السلام وعقرهم الناقة.

٧ً - جرت سنة الله عدلاً وفضلاً ورحمة على إنجاء المؤمنين، فقد نجّى الله تعالى صالحاً عليه السلام ومن آمن به، وميَّزهم عن الكفار، فلم يحلّ بهم ما حلّ بالكفار، وهذا كعادة القرآن في قرن الوعد بالوعيد.

والعبرة من إيراد قصة عاد وثمود: العظة والعبرة والتخويف والتحذير، وتهديد مكذبي الرسل، والإخبار بأنه تعالى يفعل بمؤمني قوم النبي ﷺ وكفارهم ما فعل بعاد وثمود، وكل ذلك بقصد التخويف للإقلاع عن موجبات العذاب. أما في الواقع فإن مثل ذلك العذاب لا يقع في أمة محمد ﷺ، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٣] وجاء في الأحاديث الصحيحة: أن الله تعالى رفع عن هذه الأمة هذه الأنواع من الآفات الشاملة.

كيفية عقوبة الكفار في الآخرة

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤) ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥)﴾

القراءات:

﴿يُحْشَرُ أَعْدَاءُ﴾:

وقرأ نافع (نَحْشُرُ أعداءَ).

الإعراب:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ﴾ ﴿وَيَوْمَ﴾: منصوب بفعل دلّ عليه. ﴿يُوزَعُونَ﴾ وتقديره: يساق الناس يوم يحشر، أو منصوب بتقدير: اذكر.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ أن وصلتها: في موضع نصب، بتقدير حذف حرف الجر، وتقديره: وما كنتم تستترون عن أن يشهد عليكم، فحذف (عن) فاتصل الفعل به.

﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾: مبتدأ، و﴿ظَنُّكُمُ﴾: خبره، و﴿أَرْدَاكُمْ﴾: خبر ثان.

البلاغة:

﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ﴾ أي واذكر حين يجمع، فعل مبني للمجهول أو للفاعل وهو الله تعالى، وقرئ: (نَحْشُرُ أعداءَ). ﴿يُوزَعُونَ﴾ يساقون بعد أن يحبس أولهم ليلحق آخرهم لئلا يتفرقوا، من وزعته: كففته، والمراد: كثرة أهل النار. ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا﴾ ﴿حَتَّىٰ﴾ غاية لقوله: ﴿يُوزَعُونَ﴾ و﴿مَا﴾ صلة زائدة لتأكيد ارتباط المجيء بشهادة الأعضاء، واتصال الشهادة بالحضور. ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بأن ينطقها الله فعلاً، أو تظهر عليها آثار تدل على ما اقترف بها، فتنطق بلسان الحال.

﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ سؤال توبيخ أو تعجب، والجلود: الجلود المعروفة، وقيل: هي الجوارح أو الفروج. ﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي ما نطقنا باختيارنا، بل أنطقنا الله الذي أراد نطق كل شيء، ولو كان النطق مؤوّلاً بدلالة الحال، بقي الشيء عاماً في الموجودات الممكنة. ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يحتمل أن يكون من تمام كلام الجلود. وأن يكون استئنافاً من كلام الله تعالى، كالذي بعده. والمعنى: إن القادر على إنشائكم ابتداءً، وإعادتكم بعد الموت أحياءً، قادر على إنطاق جلودكم وأعضائكم.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾ أي ما كنتم تتسترون وتستخْفون عند ارتكاب الفواحش من أن تشهد عليكم أعضاؤكم، وما ظننتم أن أعضاءكم تشهد عليكم؛ لأنكم لم توقنوا بالبعث. وفيه تنبيه على أن المؤمن ينبغي أن يشعر في كل حال بوجود رقيب عليه. ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ظننتم ألا يعلم الله بكم، فلذلك اجترأتم على المعاصي. ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ظنهم هذا. ﴿أَرْدَاكُمْ﴾ أهلككم. ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ إذ جعلتم ما هو سبب للسعادة سبباً للشقاوة.

﴿فَإِن يَصْبِرُوا﴾ على العذاب. ﴿فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ مأوى. ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا﴾ يطلبوا العتبى، أي الرضا. ﴿فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ المرضيين المجابين إلى ما يطلبون، أي المقبولين عتابهم، يقال: استعتبته فأعتبني، أي استرضيته فأرضاني، وأعتبني فلان: إذا عاد إلى مسرتي راجعاً عن الإساءة. ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ هيأنا لهم ويسرنا شياطين الإنس والجن، يستولون عليهم. ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الدنيا واتباع الشهوات. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمر الآخرة، بقولهم: لا بعث ولا حساب. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ ثبت ووجب عليهم القول بالعذاب، وهو: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [هود: ١١/١١٩] وهو القضاء المحتم. ﴿فِي أُمَمٍ﴾ في جملة أمم. ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ هلكت. ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ وهم الذين عملوا مثل عملهم. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٢):

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾: أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كنت مستتراً بأستار الكعبة، فجاء ثلاثة نفر:

قُرَشيّ وخَتَناه[١] ثَقَفِيّان - أو ثَقَفِيّ وخَتَناه قرشيان - كثيرٌ شحمُ بطونهم، قليلٌ فِقْهُ قلوبهم، فتكلموا بكلام لم أسمعه، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه، وإذا لم نرفعه لم يسمعه، فقال الآخر: إن سمع منه شيئاً سمعه كلَّه - قال -: فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى كيفية عقوبة أولئك الكفار الجاحدين في الدنيا، أردفه ببيان كيفية عقوبتهم في الآخرة، ليكون ذلك أتم في الزجر والتحذير. ثم ذكر تعالى بقوله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ سبب بقائهم في الكفر. قال الزمخشري: فإن قلت: كيف جاز أن يقيض لهم القرناء من الشياطين وهو ينهاهم عن اتباع خطواتهم؟ قلت: معناه: أنه خذلهم ومنعهم التوفيق لتصميمهم على الكفر، فلم يبق لهم قرناء سوى الشياطين، والدليل عليه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/٣٦][٢].

التفسير والبيان:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي واذكر أيها الرسول لقومك قريش حال الكفار يوم القيامة ليرتدعوا وينزجروا حين يساقون جميعاً إلى النار بعنف، بعد إيقاف أولهم ليلحق بهم آخرهم كيلا يتفرقوا، وليتلاحقوا ويجتمعوا، فتجمع الزبانية أولهم على آخرهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: ١٩/٨٦] .

---

(١) الختن: الصهر؛ والثقفي: عبدُ ياليل، وخَتَناه: ربيعة وصفوان بن أمية.

(٢) الكشاف: ٣/ ٧٠

وأعداء الله تعالى: كل من كذب رسله واستكبر عن عبادته. وفي الآية إشارة إلى جموع الكفار وكثرتهم وإهانتهم في سوقهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي يوزعون إلى أن يصلوا إلى النار ويقفوا عليها، فيسألون عما أجرموا، فإذا أنكروا تشهد عليهم جوارحهم بما اقترفت من الشرك والمعاصي وما عملوا في الدنيا، بأن ينطقها الله بما كتمت الألسن كما أنطق الشجرة، بأن يخلق فيها كلاماً، والجلود: هي جلودهم المعروفة، وقيل: المراد بالجلود: الجوارح (الأعضاء) وشهادة الجلود: بالملامسة للحرام وما أشبه ذلك مما يفضي إليها من المحرَّمات. واقتصر من الحواس الخمس على ثلاث منها وهي السمع والبصر واللمس، فإن آلة اللمس: هي الجلد، باعتبارها وسائل قوية للعصيان. أما الذوق فهو داخل في اللمس، وأما الشم فهو حسّ ضعيف في الإنسان، وليس لله فيه تكليف ولا أمر ولا نهي. وقوله ﴿سَمْعُهُمْ﴾ مفرد مضاف فيعم، ويصبح نظير جمع الأبصار والجلود.

فيحدث التعجب من الإنسان، كما حكى تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾

أي يقول هؤلاء على جهة اللوم والمؤاخذة لأعضائهم وجلودهم حين شهدوا عليهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾؟ فتجيبهم الأعضاء معتذرين: لقد أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء من مخلوقاته، فإنه كما أنطق الألسن في الدنيا، فكذلك أنطقنا في الآخرة، فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٦٥].

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي من قدر على خلقكم وإنشائكم في ابتداء الأمر، قدر على إعادتكم ورجوعكم إليه، فإليه المصير بعد

الموت، فيحاسب ويجازي كل نفس بما كسبت. وهذا إما تتمة كلام الجلود، أو من كلام الله تعالى.

أخرج مسلم في صحيحه والبزار وغيرهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنا عند رسول الله ﷺ، فضحك، فقال: هل تدرون مِمَّا أضحك؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: من مخاطبة العبد ربه، يقول - أي العبد لربه - : ألم تُجِرْني من الظلم[1]؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، قال: يقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيُخْتَمُ على فيه (فمه) فيقال لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله، قال: ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بُعْداً لكنّ وسُحْقاً، فعنكُنّ كنتُ أناضِلُ» .

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ هذا إما من كلام الجلود أو من كلام الله سبحانه كسابقه أو من كلام الملائكة، أي ما كنتم تستترون وتستخْفون حين فعل الأعمال القبيحة ومباشرتكم الفواحش، حذراً أو مخافة من شهادة الجوارح عليكم، بل كنتم تجاهرون بالكفر والمعاصي.

ولما كان الإنسان لا يقدر على أن يستخفي من جوارحه عند مباشرة المعصية، كان معنى الاستخفاء هنا ترك المعصية، خوفاً من هذه الشهادة.

﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي ولكنكم ظننتم ظناً مخطئاً أن الله حال ارتكابكم المعاصي لا يعلم كثيراً مما تعملون من المعاصي، فاجترأتم على فعلها.

---

(١) هذه رواية مسلم، ورواية البزار: «يقول: أي ربي، أليس وعدتني ألا تظلمني»؟

وفي الآية إيماء إلى أنه ينبغي للمؤمن أن يفكر دائماً بوجود رقيب عليه.

﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ أي إن ظنكم بأن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون، وهو ظن فاسد، جرّأكم على المعصية، فتسارعتم فيها، وذلك أهلككم وطرحكم في النار، فصرتم من الخاسرين، إذ جعلتم ما هو سبب للسعادة سبباً للشقاوة.

أخرج أحمد وأبو داود وابن ماجه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن بالله الظن، فإن قوماً قد أرداهم سوء ظنهم بالله، فقال الله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾».

﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي فإن يصبروا لم ينفعهم الصبر، أو لم يصبروا، هم في النار، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها، فهي مأواهم ومحل استقرارهم، وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذاراً عن ذنوبهم، فما لهم أعذار، ولا يقبل منهم الاعتذار والاسترضاء؛ لأنهم فارقوا الدنيا التي هي دار العمل والتكليف، قال عليه الصلاة والسلام فيما ذكره ابن الأثير وغيره عن ابن عباس: «ولا بعد الموت من مُسْتَعتَب» أي ليس بعد الموت من معذرة أو استرضاء؛ لأن الآخرة دار جزاء، لا دار عمل.

ثم أبان الله تعالى سبب بقائهم في الكفر، فقال:

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي وسلّطنا عليهم قرناء من شياطين الإنس والجن، فحسَّنوا لهم أعمالهم في الماضي والمستقبل، وزيَّنوا لهم ما بين أيديهم من أمور الدنيا وشهواتها، وأغروهم بالمعاصي، وزينوا لهم ما خلفهم من أمور الآخرة، فقالوا: لا بعث ولا حساب، ولا جنة ولا نار، فلم يروا أنفسهم إلا محسنين، كما قال تعالى:

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/٣٦-٣٧] .

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ أي وثبت لهم العذاب في جملة أمم كافرة مضت على الكفر قبلهم، فعلوا كفعلهم من الجن والإنس، فوجب لهم العذاب نفسه، وإنهم كانوا وإياهم متساوين في الخسارة والدمار، بتكذيبهم وسوء أفعالهم، ولم يربحوا شيئاً.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى الأحكام التالية:

١ - يجمع الكافرون جمعاً واحداً يوم القيامة، فيحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا، ثم يساقون ويدفعون جميعاً إلى جهنم.

٢ - إذا جاؤوا إلى النار شهدت عليهم جوارحهم وأسماعهم وأبصارهم وجلودهم، وهي الجلود المعروفة بأعيانها في قول أكثر المفسرين. وكيفية الشهادة: أنه تعالى يخلق الفهم والقدرة والنطق فيها، فتشهد كما يشهد الرجل على ما يعرفه، وهذا هو الظاهر المناسب للآية بعدها، وقيل: أن يظهر على تلك الأعضاء أمارات وأحوال تدل على صدور تلك الأعمال من الإنسان.

٣ - يتعجب الكفار من شهادة أعضائهم عليهم، فيسألونهم: لِمَ شهدتم علينا، وإنما كنا نجادل عنكم؟ فيجيبون: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء، فالذي قدر على إحيائكم في المرة الأولى في الدنيا ثم إعادتكم أحياء في الآخرة، قادر على أن ينطق الجلود وغيرها من الأعضاء.

٤ - يجيبون أيضاً: ما كنتم تستخفون من أنفسكم، حذراً من شهادة الجوارح عليكم؛ لأن الإنسان لا يمكنه أن يخفي من نفسه عمله، فيكون الاستخفاء بمعنى ترك المعصية.

ولقد ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً من أعمالكم، فجادلتم على ذلك، حتى شهدت عليكم جوارحكم بأعمالكم. وكما تكون الشهادة بالشر والسوء تكون بالخير.

ذكر أبو نعيم الحافظ عن مَعْقِل بن يَسار عن النبي ﷺ قال: «ليس من يوم يأتي على ابن آدم إلا ينادى فيه: يا بن آدم، أنا خَلْق جديد، وأنا فيما تعمل غداً عليك شهيد، فاعمل فيّ خيراً أشهد لك به غداً، فإني لو قد مضيت لم ترني أبداً، ويقول الليل مثل ذلك».

٥ - وإن ظنكم أن الله لا يعلم كثيراً من أعمالكم هو الذي أهلككم، فأرداكم النار، قال قتادة: «الظن هنا بمعنى العلم» والظن هنا قبيح فاسد. والظن الفاسد: هو أن يظن بالله تعالى أنه يعزب عن علمه بعض هذه الأحوال.

وقال قتادة أيضاً: الظن نوعان: ظن مُنْجٍ وظن مُرْدٍ، فالمنجي: قوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٢٠] وقوله: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢/ ٤٦] . وأما الظن المردي: فهو قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾.

وقال العلماء: الظن قسمان:

أ - حسن: وهو أن يظن بالله عز وجل الرحمة والفضل والإحسان، قال الله تعالى في الحديث القدسي فيما أخرجه مسلم والحاكم عن أنس: «أنا عند ظن عبدي بي».

ب - قبيح: وهو أن يظن أن الله لا يعلم بعض الأفعال.

وقال الحسن البصري: إن قوماً ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة، ويقول أحدهم: إني أحسن الظن بربي، وقد كذَب، ولو أحسن

الظن لأحسن العمل، وتلا قول الله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

٦ - سواء صبر الكفار على العذاب أم لم يصبروا، فالنار مثواهم ومأواهم ومستَقَرُّهم، وإن أرادوا الاعتذار عن كفرهم واسترضاء ربهم، لم يجابوا إلى طلبهم.

٧ - سلَّط الله على الكفار قرناء من الجن والشياطين، ومن الإنس أيضاً، فحسَّنوا وزينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا حتى آثروها على الآخرة، وزينوا وحسنوا لهم ما بعد مماتهم، ودعوهم إلى التكذيب بأمور الآخرة، ووجب عليهم من العذاب ما وجب على الأمم الذين من قبلهم الذين كفروا ككفرهم، وخسروا أعمالهم في الدنيا وأنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

وهذا يدل على أن الله تعالى يريد الكفر من الكافر، لكن لم يأمره به ولم يرضه له، وحذره منه ومن الإصرار عليه. والإرادة للدلالة على أنه لا يقع شيء في الكون من دون إرادة الله، وإلا كان وقوع الشيء قهراً وعجزاً، والله لا يقهر ولا يغلب.

الصد عن سماع القرآن الكريم

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (القران).

﴿أَرِنَا﴾:

وقرأ ابن كثير، والسوسي، وابن عامر (أرْنا).

الإعراب:

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ﴾: مبتدأ وخبر، و﴿ٱلنَّارُ﴾: إما بدل من ﴿جَزَآءُ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو النار، وتكون هذه الجملة بياناً للجملة الأولى، أو مبتدأ وخبره: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾.

﴿جَزَآءً بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ﴿جَزَآءً﴾ منصوب على المصدر بفعله، أي يجازون جزاءً.

المفردات اللغوية:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إذا قرأ النبي ﷺ القرآن. ﴿وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ عارضوه بالكلام اللغو الذي لا معنى له، وارفعوا أصواتكم بذلك في زمن قراءته لتشوشوا على القارئ. وقرئ بضم الغين والمعنى واحد، يقال: لَغِيَ يَلْغَى، ولغا يَلْغُو وألْغى: إذا هذى. ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ تغلبونه على قراءته، فيسكت عن القراءة.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ المراد بهم هؤلاء القائلون وعامة الكفار. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي لنجازينهم بسيئات أعمالهم أو أعمالهم السيئة، أو المراد لنجازينهم بأقبح جزاء عملهم. ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ﴾ أي ذلك العذاب الشديد وأسوأ الجزاء هو جزاء أعداء الله الذين كذبوا رسله واستكبروا عن عبادته﴿دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ دار الإقامة المستمرة التي لا انتقال فيها. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ القرآن. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي وهم في النار. ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ

﴿أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي إبليس وقابيل اللذين سنّا الكفر والقتل. ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ ندوسهما بالأقدام في النار انتقاماً منهما. ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ الأذلين المهانين.

المناسبة:

بعد بيان الوعيد الشديد للكفار في الدنيا والآخرة، وبيان سببه الذي أوقعهم في الكفر وأبقاهم فيه، ذكر الله تعالى موقفاً معادياً آخر لهم، وهو صدّ الناس عن سماع القرآن والتشويش عند قراءته، لينصرفوا عنه، وهم أنفسهم عند الوقوع في العذاب الشديد يطلبون الانتقام ممن صيَّرهم إلى هذا المصير المشؤوم.

التفسير والبيان:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي وقال بعض الكفار لبعض: لا تُنْصِتوا لسماع هذا القرآن عند تلاوته أو لا تطيعوه ولا تنقادوا لأوامره، وعارضوه باللغو الذي لا معنى له، من إنشاد الأشعار، ورفع الأصوات والتصفيق والتصفير، والتخليط بالخرافات، حتى تشوشوا على القارئ، ولكي تغلبوه على قراءته، فيسكت.

وقد كان النبي ﷺ وهو في مكة يجهر بتلاوة القرآن لإسماعه الكفار لعلهم يؤمنون به، فكانت قريش يوصي بعضهم بعضاً بالتصفيق والتصفير وإنشاد الشعر. قال ابن عباس: قال أبو جهل إذا قرأ محمد، فصيحوا في وجهه حتى لا يدري ما يقول. وهذا دليل على تكذيب مشركي قريش بالقرآن وكفرهم، مثل كفر قوم هود وصالح وغيرهم.

وبعد بيان ذلك هدَّدهم الله تعالى بالعذاب الشديد، فقال:

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ

﴿٢٧﴾ أي فلنجازين جميع الكفار بعذاب شديد، ومنهم كفار قريش في مقابلة معاداتهم لسماع القرآن، ومحاولة صدّ الناس عن استماعه، ولنجازينهم في الآخرة جزاء أقبح أعمالهم التي عملوها في الدنيا، وهو الشرك، ونهمل ما عملوا من محاسن الأعمال، كصلة الرحم، وإكرام الضيف؛ لأن ذلك باطل لا أجر لهم فيه مع حالة الكفر.

وهذا وعيد شديد لجميع الكفار، وتعريض بمن لا يخشع ولا يتدبر حين سماع القرآن، فقد أمر الله عباده المؤمنين بالاستماع للقرآن والإنصات له، فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٠٤] .

ثم ذكر الله تعالى صفة ذلك العذاب قائلاً:

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي ذلك الجزاء لأقبح أعمال الكفار وهو دخول النار، هو جزاء أعداء الله الذين كذبوا رسله، واستكبروا عن عبادته، لهم في النار دار الإقامة المستمرة التي لا انقطاع لها، ويجزون ذلك جزاءً بسبب جحدهم أن القرآن من عند الله تعالى، وإنكارهم صحة آياته وسلامتها.

ثم بيَّن الله تعالى ما يطلبه الكفار من الانتقام ممن أضلوهم عند الوقوع في العذاب الشديد، فقال:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي طلب الكفار من ربهم أن يريهم من أضلهم من فريقي شياطين الجن والإنس الذين كانوا يزينون لهم الكفر والمعاصي، لكي يدوسوهم بأقدامهم، تشفياً وانتقاماً منهم، وليكون الفريقان من الأذلين المهانين، في الدرك الأسفل من النار، أشد عذاباً منهم، فأجابهم تعالى في موضع آخر: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٨] .

والشياطين: إما جني وإنسي، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ٦/ ١١٢] وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس: ١١٤/ ٥-٦].

وقيل: هما إبليس وقابيل؛ لأنهما سَنَّا الكفر والقتل بغير حق، ويشهد لهذا القول الحديث المرفوع عند الترمذي: «ما من مسلم يقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْل من ذنبه؛ لأنه أول من سنّ القتل» وقال علي رضي الله عنه: هما ابن آدم الذي قتل أخاه، وإبليس، أي لأنهما هما اللذان سنَّا المعصية.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يلي:

١ً - لم يترك كفار قريش سبيلاً لمعارضة القرآن بالباطل، بعد أن عجزوا عن معارضته بالحق، فلجؤوا إلى الغوغائية والتغليط في الكلام والتصفيق والتصفير عند سماع القرآن، وهذا شأن الجهلة والسفلة أمام صيحة الحق في كل زمان يستخدمون أسلوب اللغو في طمس الحقائق، واللغو: ما لا يعلم له حقيقة ولا تحصيل.

٢ً - كان جزاؤهم بسبب كفرهم وتكذيبهم رسول الله ﷺ هو أن يذوقوا في الآخرة العذاب الشديد الذي يتوالى فلا ينقطع، ويحيط بهم في جميع أجزائهم، وأن يجزوا في الآخرة جزاء أقبح أعمالهم التي عملوها في الدنيا، وأسوأ الأعمال: الشرك.

٣ً - ذلك العذاب الشديد وهو النار هو جزاء جميع الكفار أعداء الله الذين كذبوا الرسل واستكبروا عن عبادة الله تعالى.

٤ً - طلب الكفار وهم في النار أن يريهم الله من أضلهم من الجن والإنس،

ليدوسوهم تحت أقدامهم في جهنم، وليكونوا من الأذلين المهانين، وفي الدرك الأسفل من النار، تشفياً وانتقاماً منهم، ومرادهم أن يُضعِّف الله عذاب من كان سبب ضلالتهم من الجن والإنس. وهذا مطابق لما قضى به الله من مضاعفة عذاب الرؤساء الذين يدعون إلى الضلال، فيعطي كلاً منهم ما يستحقه من العذاب والنكال، بحسب عمله وإفساده، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ١٦/٨٨] .

ما وعد الله به أهل الاستقامة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾﴾

الإعراب:

﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ (أن): مفسرة بمعنى أي أو مخففة من الثقيلة، وأصله: بأنه لا تخافوا، والهاء: ضمير الشأن.

﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ، نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾﴾ ﴿مَا﴾: اسم موصول، وعائده محذوف تقديره: تدّعونه. و﴿نُزُلٗا﴾: إما منصوب على المصدر، وإما منصوب على الحال من الكاف واللام في ﴿وَلَكُمۡ﴾. وهو جمع (نازل) كشارف وشُرُف، وتقديره: ولكم فيها نازلين. والأظهر أن يكون ﴿نُزُلٗا﴾ في هذه الآية كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/٥٦] ليس هو جمع (نازل) وإنما هو ما أُعدّ لهم من الجزاء، وهو حال من ﴿مَا تَدَّعُونَ﴾

المفردات اللغوية:

﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ اعترافاً بربوبيته وإقراراً بوحدانيته ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ ثبتوا وداوموا على الاستقامة في العمل الصالح والإقرار بالوحدانية ومقتضياته. وما روي عن الخلفاء الراشدين في معنى الاستقامة من الثبات على الإيمان، وإخلاص العمل، وأداء الفرائض فجزئياتها. وقوله ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي عن الإقرار بالربوبية في المرتبة والفضل، من حيث إن الإيمان مبدأ الاستقامة ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن، أو تتنزل بالبشرى في ثلاثة مواطن: عند الموت، وفي القبر، وإذا قاموا من قبورهم بألا تخافوا ولا تحزنوا، لا تخافوا من الموت وما بعده، ولا تحزنوا على ما خلَّفتم من أهل وولد، ونحن نخلفكم فيه، والخوف: غمّ يطرأ على النفس لتوقع مكروه في المستقبل، والحزن: غمّ يطرأ على النفس لفوات نفع في الماضي.

﴿أَوْلِيَاؤُكُمْ﴾ أعوانكم في شؤونكم، نحفظكم ونوفقكم لما فيه الخير، ونلهمكم الرشد والحق ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بدل ما يفعل الشيطان بالكفرة ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بالشفاعة والكرامة حتى تدخلوا الجنة، وحيثما تتعادى الكفرة وقرناؤهم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ من اللذائذ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ تتمنون وتطلبون، مأخوذ من الدعاء بمعنى الطلب، وهو أعم من الأول ﴿نُزُلًا﴾ ما أُعِدّ لهم من الجزاء الحسن، وأصل النزل: الطعام المعدّ للضيف.

سبب النزول:

نزول الآية (٣٠):

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾: قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ وذلك أن المشركين قالوا: ربنا الله، والملائكة

بناته، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله، فلم يستقيموا. وقال أبو بكر: ربنا الله وحده لا شريك له، ومحمد ﷺ عبده ورسوله، فاستقام.

وأخرج الترمذي والنسائي والبزار وغيرهم عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَـٰمُواْ﴾ قال: «قد قال الناس، ثم كفر أكثرهم، فمن مات عليها، فهو ممن استقام».

المناسبة:

هذه الآية شروع في بيان أحوال المؤمنين ومصيرهم، بعد بيان أحوال المشركين وعاقبتهم، ليتبين الفرق بين المؤمن والكافر، وبين الطيب والخبيث.

فبعد أن أطنب الله تعالى في وعيد الكفار، أردفه بهذا الوعد الشريف للمؤمنين، كما هي سنة القرآن في إقران وإتباع أحدهما بالآخر، مثل ﴿۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ١٥/٤٩-٥٠].

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَـٰمُواْ﴾ أي إن الذين أقروا بربوبية الله وتوحيده، فهو الله وحده لا شريك له، ثم داوموا على التوحيد، فلم يلتفتوا إلى إله غير الله، واستقاموا وثبتوا على أمر الله، فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته، حتى ماتوا، وهذا يشمل التزام أحكام الشرع الحنيف في العقائد والعبادات والمعاملات والمحظورات قولاً وفعلاً؛ لأن الاستقامة لفظ عام. وقد ذكر في حديث بعض مظاهرها، أخرج أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله، حدثني بأمر أعتصم به، فقال: «قل: ربي الله، ثم استقم» قلت: يا رسول الله، ما أكثر ما تخاف علي؟! فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه ثم قال: «هذا».

وكذلك ورد عن الخلفاء الراشدين تفسير الاستقامة ببعض جزئياتها، فقال أبو بكر رضي الله عنه: استقاموا فعلاً كما استقاموا قولاً. وقال أيضاً: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾: لم يشركوا بالله شيئاً. وقال عمر رضي الله عنه وهو يخطب على المنبر: استقاموا والله على الطريقة لطاعته، ثم لم يروغوا روغان الثعالب. وقال عثمان رضي الله عنه: ثم أخلصوا العمل لله. وقال علي رضي الله عنه: ثم أدّوا الفرائض.

وأقوال التابعين بمعنى ما ذكر.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي تتنزل عليهم الملائكة بما يشرح صدورهم، ويدفع عنهم المخاوف والأحزان، كالبشارة بالنجاة في مواطن ثلاثة: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث، وإزالة الخوف من أمور الآخرة، وإذهاب الحزن عما فاتهم من أمور الدنيا من أهل ومال وولد. وإذا أزيلت مخاوف المستقبل وأحزان الماضي، فقد زالت المضار والمتاعب بالكلية، وحدثت الطمأنينة والسعادة.

وتقول لهم الملائكة: أبشروا بدخول الجنة التي وعدتم بها في الدنيا على ألسنة الرسل، فإنكم واصلون إليها، مستقرون بها، خالدون في نعيمها.

ثم أخبر عما تقوله الملائكة للمؤمنين، فقال تعالى:

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي نحن المتولون لحفظكم ومعونتكم في أمور الدنيا وأمور الآخرة، نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة، نؤنسكم من وحشة القبور، وعند النفخة في الصور، ونُؤَمّنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم. وهذا من قول الملائكة أو من قول الله تعالى، وهو في مقابلة ما ذكر سابقاً في وعيد الكفار حيث قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ، نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ أي ولكم في الجنة من جميع ما تختارونه من صنوف اللذات وأنواع الطيبات، ومهما طلبتم وجدتم، وكل ما تتمنون حصلتم عليه، حال كونه معداً لكم ضيافة وعطاء وإنعاماً، من غفور لذنوبكم، رحيم بكم، رؤوف بأحوالكم، حيث غفر وستر، ورحم ولطف. وقد تقدم أن قوله﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أعم مما سبقه.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت هذه الآيات دلالة قطعية على أن الجزاء منوط بالعمل، فمن أقر بالربوبية والوحدانية والألوهية لله عز وجل، واستقام على أوامر الله وطاعته، واجتنب معاصيه وسخطه وغضبه، له الجزاء المفضل في الدنيا والآخرة.

فتلهمه الملائكة ما تَقَرُّ به نفسه وينشرح له صدره، ويزيل مخاوفه، ويبدد أحزانه، وتقول له الملائكة الذين تتنزل بالبشارة: نحن قرناؤكم الذين كنا معكم في الدنيا، نحفظكم ونلهمكم الحق، وإذا كان يوم القيامة لا نفارقكم حتى ندخلكم الجنة. وهذا إما من قول الملائكة، أو من قول الله تعالى، والله ولي المؤمنين ومولاهم، ومن كان الله وليه فاز بكل مطلب، ونجا من كل مخافة.

ولكم في الآخرة كل ما تشتهيه أنفسكم من الملاذ، ولكم كل ما تسألون وتتمنون، رزقاً طيباً، وضيافة كريمة، ونعمة عظيمة، من الله الغفار الستّار لذنوب عباده التائبين، الرحيم الرحمن الرؤوف بعباده في جميع الأحوال.

وقد دلت هذه الآية على أن كل هذه الأشياء المذكورة جارية مجرى النزل، والكريم إذا أعطى النُّزُل، فلا بدّ أن يحقق السعادة للمعطى، وتلك السعادة تحدث عند رؤية الله عز وجل والتجلي والكشف التام.

الدعوة إلى الله تعالى وآداب الدعاة

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

الإعراب:

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ﴾ ﴿ٱلَّذِى﴾: مبتدأ، و﴿كَأَنَّهُۥ﴾ الخبر، وإذا الفجائية: ظرف مكان لمعنى التشبيه، والفاء للسببية .﴿وَإِمَّا﴾ أدغمت نون (إن) الشرطية في (ما) الزائدة.

البلاغة:

﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾ و﴿ٱلسَّيِّئَةُ﴾ بينهما طباق.

﴿كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ تشبيه مرسل مجمل أي ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه.

المفردات اللغوية:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ أي لا أحد أحسن قولاً ﴿دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي دعا إلى توحيده وعبادته ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فيما بينه وبين ربه من إقامة الفرائض واجتناب المنكرات ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قال ذلك اعتزازاً وتفاخراً باتخاذ الإسلام ديناً ومذهباً، وصرح أنه من المستسلمين لأمر الله، المنقادين له، قال أبو حيان: والظاهر العموم في كل داع إلى الله، أي فهي عامة لمن استجمع تلك الصفات، وقيل: نزلت في النبي ﷺ، وقيل: في المؤذنين.

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ لا تستويان في الجزاء وحسن العاقبة، و﴿وَلَا﴾ الثانية: مزيدة لتأكيد النفي، و﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾ ما ترضي الله ويتقبلها، و﴿ٱلسَّيِّئَةُ﴾ ما يكرهها الله ويعاقب عليها ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي ادفع وردّ السيئة حيث اعترضتك بالخصلة التي هي أحسن منها وهي الحسنة، كمقابلة الغضب بالصبر، والجهل بالحلم، والإساءة بالعفو، والمراد بالأحسن: الزائد مطلقاً، فيكون القصد منه: الحسنة التي وضع الأحسن موضعها.

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ إذا فعلت ذلك صار عدوك كالصديق القريب في محبته، فالحميم: الصديق ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ ما يؤتى هذه السجية ويحتملها وهي مقابلة الإساءة بالإحسان ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ لأن الصبر يحبس النفس عن الانتقام ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي ما يؤتاها ويتقبلها إلا صاحب الحظ العظيم من الخير وكمال النفس.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ أي إن يصرفك وسواس من الشيطان عن الخصلة الخيّرة فاستعذ، وأصل النزغ: النخس، شبه وسوسة الشيطان بالنخس؛ لأنها بعث على ما لا ينبغي ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ التجئ إليه من شره ولا تطعه، وجواب الأمر محذوف: أي يدفعه عنك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك أو قولك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنيتك وفعلك.

سبب النزول:

نزول الآية (٣٣):

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾: قال ابن عباس: هو رسول الله ﷺ، دعا إلى الإسلام، وعمل صالحاً فيما بينه وبين ربه، وجعل الإسلام نِحْلة. وقال أيضاً: هم أصحاب رسول الله ﷺ. وقالت عائشة وعكرمة ومجاهد: نزلت في

المؤذنين. قال أبو حيان: وينبغي أن يتأول قولهم على أنهم - أي المؤذنون - داخلون في الآية، وإلا فالسورة بكاملها مكية بلا خلاف، ولم يكن الأذان بمكة، إنما شرع بالمدينة، والدعاء إلى الله يكون بالدعاء إلى الإسلام وبجهاد الكفار وكفّ الظلمة.

نزول الآية (٣٤):

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ﴾: نزلت في أبي سفيان بن حرب، وكان عدوّاً مؤذياً لرسول الله ﷺ، فصار ولياً مصافياً.

وروي أيضاً أنها نزلت في أبي جهل، كان يؤذي النبي ﷺ، فأمر ﷺ بالعفو عنه، وقيل له: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى﴾[١].

المناسبة:

بعد بيان ما يفعله قرناء السوء من الدعوة إلى المعاصي، ذكر الله تعالى حال أضدادهم الذين يدعون الناس إلى توحيد ربهم وطاعته، وأبان آدابهم وأوصافهم من مقابلة السيئة بالحسنة، والاستعاذة من شر الشيطان واللجوء إلى الله إذا حاول الشيطان صرف الإنسان عن حكم شرعه الله تعالى.

التفسير والبيان:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي لا أحد أحسن ممن اتصف بالخصال الثلاث التالية:

أ - الدعوة إلى توحيد الله وطاعته وعبادته، فذلك خير ما يقوله إنسان لإنسان. وهذا نص عام يشمل كل داعية مخلص إلى الله، سواء الداعية الأول

(١) أحكام القرآن لابن العربي: ٤/ ١٦٥١

وهو رسول الله ﷺ، والمؤذنون، والقائمون بالدعوة إلى الإسلام في كل زمان ومكان بالقول أو الخطابة أو الكتابة.

٢ً - العمل الصالح: وهو تأدية ما فرض الله على الإنسان، مع اجتناب ما حرَّمه عليه.

٣ً - اتخاذ الإسلام ديناً ومنهجاً ومذهباً، فلا شيء أحسن منه قولاً، ولا أصح منه عقيدة، ولا أوضح منه طريقة، ولا أكثر من عمله ثواباً.

وبعد بيان أصول الدعوة إلى الله وتوثيق العلاقة بين العبد وربه، ذكر الله تعالى آداب الدعاة وتحسين العلاقة بين العباد بعضهم ببعض، فقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي لا تساوي بين الفعلة الحسنة التي يرضى الله بها ويثيب عليها، وبين الفعلة السيئة التي يكرهها الله ويعاقب عليها، والمداراة من الحسنة، والغلظة من السيئة. ادفع أيها الداعية من أساء إليك بالإحسان إليه، من الكلام الطيب ومقابلة الإساءة بالإحسان، والذنب بالعفو، والغضب بالصبر، والإغضاء عن الهفوات، واحتمال المكروهات.

قال عمر رضي الله عنه: ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

ثم أبان الله تعالى نتيجة الإحسان وأثره البعيد، فقال:

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أي إنك إن فعلت ذلك، فقابلت الإساءة بالإحسان، صار العدو كالصديق. وما أحسن هذه النتيجة أن يتحول الناس الأعداء أو الحساد إلى أصدقاء أو كالأقارب يستعان بهم عند المحنة، بسبب الشفقة والإحسان.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ أي

وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها، ويؤتى القدرة على هذه الخصلة وهي دفع السيئة بالحسنة إلا الذين صبروا على كظم الغيظ، واحتمال المكروه، والصبر شاقّ على النفوس، وما يتقبلها ويحتملها إلا ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة، وذو حظ في الثواب والخير.

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم، كأنه ولي حميم.

ثم ذكر الله تعالى طريق علاج الوساوس والأهواء ونزغات الشيطان، فقال:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ أي إن وسوس إليك الشيطان، وحاول صرفك عن الدفع بالتي هي أحسن، وزيّن لك أن تقابل السيئة بمثلها، فاستعذ بالله من شره، والتجئ إلى الله لكفه عنك ورد كيده، فالله هو السميع لاستعاذتك منه، والتجائك إليه، العليم بوساوس الشيطان وبما يعزم عليه الإنسان وبصدق الطلب والرجاء.

وقد كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول فيما رواه أحمد والترمذي عن أبي سعيد الخدري: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه».

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩٩-٢٠١].

فقه الحياة أو الأحكام:

يؤخذ من الآيات ما يأتي:

١ً - لا كلام أحسن من القرآن، والدعوة إلى توحيد الله وطاعته أحسن من كل ما سواها، والنبي ﷺ هو الأنموذج الأول للدعاة، والقدوة الحسنة لهم، كان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول: هذا رسول الله، هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا والله أحبّ أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه[١].

وقالت عائشة رضي الله عنها وعكرمة وقيس بن أبي حازم ومجاهد: نزلت في المؤذنين.

والحق أن هذه الآية كما تقدم وكما قال الحسن: عامة في كل من دعا إلى الله، نزلت في كل مؤمن. والدعوة إلى الله: بإقامة الأدلة والبراهين القطعية على صحة العقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية.

٢ً - لا بدّ من أن يجمع الداعية بين العمل الصالح (وهو اجتناب المحارم، وكثرة المندوبات، وأداء الفرائض) وبين التصريح بالاعتقاد بالله في ذلك كله، وإخلاص العمل لوجه الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ردّ على من يقول: أنا مسلم إن شاء الله[٢].

٣ً - هناك فرق عظيم بين الحسنة والسيئة وأثر كل منهما، والحسنة: دعوة الرسول ﷺ إلى دين الحق، والصبر على جهالة الكفار، وترك الانتقام، وترك الالتفات إليهم. والسيئة: ما أظهره المشركون من الجلافة في قولهم المتقدم أوائل السورة: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ وأمثلة الحسنة: قول لا إله إلا الله، والطاعة لله تعالى ورسوله ﷺ، والمداراة، والعفو،

(١) أحكام القرآن لابن العربي: ٤/ ١٦٥٠

(٢) المرجع والمكان السابق.

والعلم، وحبّ آل الرسول ﷺ ونحو ذلك. وأمثلة السيئة أضداد ذلك كالشرك، والغلظة، والانتقام، والفحش، وبغض آل الرسول ﷺ.

٤ً - الحكمة والسياسة في الأخلاق الاجتماعية: دفع السيئة بالإحسان، كالكلمة الطيبة والمصافحة، جاء في الأثر الذي رواه ابن عدي عن ابن عمر، وهو ضعيف: «تصافحوا يذهب الغِلّ» فإذا أحسنت إلى من أساء إليك، قادته تلك الحسنة إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك حتى يصير كأنه ولي حميم، أي قريب إليك، من الشفقة عليك، والإحسان إليك. قال ابن عباس - كما تقدم -: أمره (أمر نبيه) الله تعالى في هذه الآية بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعل الناس ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم.

وقيل: كان هذا قبل الأمر بالقتال، ثم نسخ به، والظاهر دوام العمل بهذه الآية، فهي تقرر أمراً خلقياً محموداً وفضيلة سامية، بدليل قوله بعدها: ﴿وَمَا يُلَقَّـٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ الآية.

٥ً - لا يتخلق بهذه الفضيلة إلا من صبر على الإساءة بكظم الغيظ واحتمال الأذى، وذو النصيب الوافر من الخير، فهذا أسلوب دفع الغضب والانتقام وترك الخصومة.

ويضم إليه أسلوب آخر في الوقاية من الشر قبل حدوثه: وهو الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، والالتجاء إلى الله من كيده وشره ووساوسه، والله حتماً سميع للاستعاذة، عليم بصير بالأفعال والأقوال.

الأدلة الدالة على وجود الله وتوحيده وقدرته وحكمته

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

الإعراب:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ ﴿ٱلَّيْلُ﴾: مبتدأ، ﴿وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾: عطف عليه. ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ﴾: الخبر. وقوله: ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ الهاء والنون في ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ تعود على الآيات، ولا تعود على الشمس والقمر والليل والنهار؛ لأن المذكر والمؤنث إذا اجتمعا غُلّب جانب المذكر على جانب المؤنث.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً﴾: أن وما عملت فيه: في موضع رفع بالظرف، على مذهب سيبويه والأخفش؛ لأن (أن) المصدرية إذا وقعت بعد الظرف ارتفعت به، كما يَرْفع الظرف إذا وقع خبراً لمبتدأ، أو صفة لموصوف، أو صلة لموصول، أو حالاً لذي حال، أو معتمداً على همزة الاستفهام أو حرف النفي، فالخبر ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾فجزاء: مرفوع بالظرف، والصفة مثل: مررت برجل في الدار أبوه، والصلة مثل: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الرعد: ١٣/ ٤٣] والحال مثل ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٦] فهدى: مرفوع بالظرف؛ لأنه حال من الإنجيل،

والمعتمد على همزة الاستفهام مثل ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ١٠] وحرف النفي مثل: ما في الدار أحد. و﴿خَٰشِعَةً﴾: حال من ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ لأن ﴿تَرَى﴾ من رؤية العين. ﴿وَرَبَتْ﴾: أصله ربوت، فتحركت الواو وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، وحذفت الألف لسكونها وسكون تاء التأنيث. وقرئ: (ربأت) أي ارتفعت.

البلاغة:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ هذه الآية في قمة البلاغة والبيان وجمال الأسلوب والتناسق الفني في التعبير والأداء، فكأن الحركة ولمس معالم القدرة الإلهية وبعث الحياة تتمثل في جنباتها.

المفردات اللغوية:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ جمع آية: وهي البرهان والحجة الدالة على وحدانية الله وقدرته ﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ أي خلق الآيات الأربع وسواها ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أمر بالسجود ثم ذكر العبادة؛ لأن السجود أخص العبادات، وهو موضع سجدة التلاوة عند الشافعية، لاقتران الأمر به، وعند أبي حنيفة: آخر الآية الأخرى؛ لأنه تمام المعنى.

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الامتثال أو السجود لله وحده ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ أي الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ يصلون له دائماً؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ لا يملُّون.

﴿خَٰشِعَةً﴾ جامدة يابسة لا نبات فيها، وأصل الخشوع: التذلل، استعير لحال الأرض الجدبة اليابسة ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ تحركت ﴿وَرَبَتْ﴾ انتفخت وعلت بالنبات ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الإحياء والإماتة.

المناسبة:

بعد بيان أن أحسن الأعمال والأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى، ذكر الله

تعالى الدلائل الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته، كمادة للدعوة إلى الله، وتنبيهاً على أن الدعوة إليه تعالى هي تقرير الدلائل الدالة على ذات الله وصفاته. وقد ذكر هنا الدلائل الكونية الفلكية الأربعة وهي الليل والنهار والشمس والقمر، ثم أتبعها بآية أرضية في مرأى العين، وهي إنبات النباتات بالمطر في الأرض.

التفسير والبيان:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ أي ومن العلامات الدالة على قدرة الله وعظمته وحكمته وجود الليل والنهار وتعاقبهما، وخلق الشمس المضيئة والقمر المنير، وتقدير منازلهما في فلكيهما، واختلاف سيرهما في مداريهما في السماء، ليعرف بذلك مقادير الليل والنهار والأسابيع والشهور والأعوام، وتعرف أوقات العبادة وآجال الحقوق والديون والمعاملات.

ولما كانت الشمس والقمر أنفع وأحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي، نبّه الله تعالى إلى أنهما مخلوقان خاضعان لسلطان الله وتسخيره، فلا يعظمان وإنما يعظم خالقهما، فقال تعالى:

﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي إياكم من السجود للشمس والقمر؛ لأنهما مخلوقان من مخلوقات الله، فلا يصح أن تكونا شريكين له في ربوبيته، ولا تصح عبادتهما فهي لا تنفع مع عبادة الله، وتكون عبادتهما شركاً.

وإنما الواجب السجود لمن خلق هذه الآيات الأربع وغيرها، إن كنتم تريدون العبادة الصحيحة الخالصة لله تعالى.

وآخر الآية ردّ على الصابئة الذين عبدوا الكواكب، وعبدة الشمس في

عصرنا، الذين زعموا أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله، فنُهوا عن ذلك وأُمروا ألا يسجدوا إلا لله الذي خلق هذه الأشياء.

وموضع سجود التلاوة في مذهب الشافعي رضي الله عنه كما تقدم هو قوله: ﴿تَعۡبُدُونَ﴾ لأن قوله: ﴿وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ﴾ متصل به. وعند أبي حنيفة رضي الله عنه هو قوله: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ الآتي؛ لأن الكلام إنما يتم عنده.

وبعد أن أمر الله تعالى بالسجود له، قال بعده:

﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ ﴿٣٨﴾﴾ أي فإن تكبر هؤلاء المشركون عبدة الكواكب عن الامتثال وإفراد العبادة لله، وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره، فلا يهم أمرهم، فالملائكة عند ربك الذين هم خير منهم - عندية مكان لا قرب مكان - لا يستكبرون عن عبادته تعالى، بل يواظبون على تسبيح الله سبحانه بالليل والنهار، وهم لا يملون ولا يَفْتُرون، كقوله عز وجل﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٨٩] . وهذه الآية: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ تدل على أن الملائكة أفضل من البشر.

وبعد ذكر الدلائل الفلكية، ذكر تعالى الدلائل الأرضية، فقال:

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ أي ومن دلائل قدرته تعالى على البعث وإعادة الموتى أحياء أنك ترى الأرض هامدة لا نبات فيها، بل هي ميتة، فإذا أنزل الله عليها المطر تحركت بالنبات، وانتفخت وعلت، وأخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار.

إن الذي أحيا هذه الأرض الجدبة بالنبات والزرع، قادر على أن يحيي الأموات، فإنه الرب القدير الذي لا يُعْجِزُه شيء كائناً ما كان.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّكَ تَرَى﴾ الخطاب لكل عاقل.

وهذا دليل حسي متكرر في القرآن يقرب للأذهان صورة الإحياء بعد الإماتة، والمعول عليه هو قدرة الله الخالق ابتداء وانتهاء وكل وقت.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - من الآيات الواضحة والعلامات الظاهرة على وحدانية الله وقدرته خلق الليل والنهار والشمس والقمر.

٢ - هذه المخلوقات ذات المنافع الكثيرة لا تستحق العبادة مع الله، وإنما المستحق للعبادة هو موجدها؛ لأنه تعالى هو الخالق، ولوشاء لأعدم الشمس والقمر، أو طمس نورهما، فهما مخلوقان يدلان على وجود الإله، والسجدة التي هي نهاية التعظيم لا تليق إلا بمن كان أشرف الموجودات.

٣ - إن الله غني عن عباده، فلا تنفعه طاعة، ولا تضره معصية، وإذا أحجم الناس عن عبادته، وأعرض الكفار عن السجود لله، فهناك خلق آخر وهم الملائكة مواظبون على التسبيح، لا ينفكون عنه لحظة واحدة، ولا يملّون عبادته، ولا يشتغلون بأمر آخر سوى العبادة.

٤ - لا خلاف في أن آية ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ آية سجدة، وإنما الخلاف كما تقدم في موضع السجود، فقال الجمهور: موضعه: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ لأنه متصل بالأمر: ﴿وَاسْجُدُوا﴾ وقال أبو حنيفة: موضعه: ﴿وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ لأنه تمام الكلام وغاية العبادة والامتثال.

٥ - تضمنت هذه الآية صلاة كسوف القمر والشمس؛ لأن العرب كانت

تقول: إن الشمس والقمر لا يكسفان إلا لموت عظيم، فصلى النبي ﷺ صلاة الكسوف، وهي ثابتة في صحاح البخاري ومسلم وغيرهما.

٦ - ومن الآيات الدالة على قدرة الله وإحياء الموتى والبعث: إحياء الأرض اليابسة التي لا زرع فيها ولا نبات بنزول الغيث عليها، فإن القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو القادر على إحياء هذه الأجساد بعد موتها.

وقد تكرر هذا الدليل مراراً في القرآن، والدليل الأصلي هو قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وتقديره كما ذكر الرازي: أي عودة التأليف والتركيب إلى تلك الأجزاء المتفرقة ممكن لذاته، وعود الحياة والعقل والقدرة إلى تلك الأجزاء بعد اجتماعها أيضاً أمر ممكن لذاته، والله تعالى قادر على الممكنات، فوجب أن يكون قادراً على إعادة التركيب والتأليف والحياة والقدرة والعقل والفهم إلى تلك الأجزاء، مما يدل دلالة واضحة على أن حشر الأجساد ممكن لا امتناع فيه[١].

تهديد الملحدين في آيات الله تعالى وتنزيه القرآن العظيم عن الطعن فيه

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾

(١) تفسير الرازي: ٢٧/ ١٣٠

القراءات:

﴿يُلْحِدُونَ﴾:

وقرأ حمزة (يَلْحدون).

﴿شِئْتُمْ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (شيتم).

﴿قِيلَ﴾:

بإشمام كسرة القاف الضم، قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

الإعراب:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ فيه وجهان: إما أنه محذوف، وتقديره: إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم يعذبون أو نجازيهم. وإما قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١/٤٤] قال الرازي: والأول أصوب. وجملة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: بدل من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾.

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ﴾ ﴿مَا قَدْ قِيلَ﴾: في تأويل مصدر، نائب فاعل لـ ﴿يُقَالُ﴾.

البلاغة:

﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بينهما مقابلة، والمراد بالهمزة هنا التي هي للاستفهام: الإقرار بأن الملحدين يلقون في النار، وأن المؤمنين يأتون آمنين.

﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ أمر يراد به التهديد والوعيد..

﴿مَغۡفِرَةٖ﴾ و﴿عِقَابٍ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿يُلۡحِدُونَ﴾ يميلون عن الحق والاستقامة، أي يؤولون الآيات تأويلاً باطلاً، ويطعنون فيها ويحرّفونها عن مواضعها ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ آيات القرآن والدلائل الدالة على قدرة الله وحكمته ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾ أي فنجازيهم على إلحادهم ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا﴾؟ قابل الإلقاء في النار بالإتيان آمناً، مبالغة في الإشادة بحال المؤمنين ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ تهديد شديد ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وعيد بالمجازاة.

﴿بِٱلذِّكۡرِ﴾ القرآن ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾ منيع لا يتأتى إبطاله وتحريفه ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ لا يتطرق إليه الباطل من جميع جهاته سواء الأخبار الماضية أو الأحكام التشريعية ﴿حَكِيمٍ﴾ في جميع أفعاله، يضع الأمور في نصابها الصحيح ﴿حَمِيدٖ﴾ يحمده جميع خلقه بما أنعم من النعم الكثيرة عليهم.

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ أي ما يقول لك كفار قومك من تكذيب ﴿إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ أي إلا مثل ما قال لهم كفار قومهم ﴿لَذُو مَغۡفِرَةٖ﴾ للمؤمنين ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ﴾ مؤلم للكافرين أعداء الله والمؤمنين.

سبب النزول:

نزول الآية (٤٠):

﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ﴾: أخرج ابن المنذر عن بشير بن فتح قال: نزلت هذه الآية في أبي جهل وعمار بن ياسر: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾؟

المناسبة:

بعد الأمر بالدعوة إلى دين الله تعالى، وبيان أسلوب الدعوة بذكر دلائل التوحيد والعدل وصحة البعث والقيامة، هدد الله تعالى من ينازع في تلك الآيات والدلائل، ويحاول إلقاء الشبهات فيها، ثم نوّه بوصف القرآن، وآنس نبيه ﷺ على آلامه من تكذيب قومه، وأمره بأن يصبر على أذاهم، وألا يضيق قلبه بإعراضهم عن رسالته، فتلك عادة الأمم مع الأنبياء والرسل.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾ أي إن الذين يميلون عن الحق، فيضعون الكلام في غير موضعه، ويحرّفون كلام الله تعالى وآياته الدالة على قدرته وحكمته، لا يخفون علينا، بل نحن نعلمهم، فنجازيهم بما يعملون بالعقوبة والنكال.

وفي هذا تهديد شديد ووعيد أكيد، يقتضي الحذر والخوف.

ونوع الجزاء هو:

﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾؟ أي هل يستوي من يلقى في النار قسراً وقهراً لإلحاده بالآيات وتكذيبه للرسول ﷺ، ومن يكون آمناً يوم القيامة من العذاب؟ وهذا استفهام بمعنى التقرير، والمراد أن الملحدين في الآيات يلقون في النار، وأن المؤمنين بها يأتون آمنين يوم القيامة، فاحكموا أيها العقلاء أيُّ الحالين أفضل؟!

ثم أكد التهديد للكفرة بقوله تعالى:

﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ اعملوا أي شيء تريدون فعله من خير أو شر، فإن الله عالم بكم، وبصير بأعمالكم، ومجازيكم بحسب ما تعملون، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وهذا وعيد وتهديد، صرف فيه الأمر إلى التهديد، قال الزجاج: لفظ ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ لفظ الأمر، ومعناه الوعيد.

ثم أبان صفة أولئك الملحدين وجزاءهم فقال وهو أيضاً تهديد:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي إن الذين كفروا بالقرآن لما جاءهم، وكذبوا به، معذبون هالكون يجازون بكفرهم.

ثم أشاد بأوصاف ثلاثة للقرآن تنبيهاً للأنظار والعقول، فقال:

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ، لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ أي وإن القرآن الذي يلحدون فيه عزيز عن المعارضة أو الطعن، منيع عن كل عيب، لا يتأتى لأحد أن يأتي بمثله؛ وليس لأحد أن يبطله من جميع جوانبه، ولا يكذبه كتاب سابق قبله، ولا لاحق بعده، محفوظ من النقص والزيادة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ١٥/٩] ؛ وإنه تنزيل من حكيم في أقواله وأفعاله، محمود في جميع ما يأمر به وينهى عنه، مشكور من جميع خلقه على كثرة نعمه وأفضاله، وأجلها بحق: تنزيل هذا الكتاب، فهو النعمة العظمى والرحمة الكبرى، الذي بيَّن للناس طريق الهداية، وعرفهم محذراً سبيل الغواية والضلالة.

ثم آنس الله تعالى رسوله ﷺ على ما يناله من أذى المشركين وطعنهم في كتابه وتكذيبهم لرسالته، وأمره بالصبر والثبات على دعوته، فقال:

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ أي ما يقال لك من هؤلاء الكفار المشركين من وصفك بالسحر والكذب والجنون إلا مثل ما قيل للرسل من قبلك، فإن قومهم كانوا يقولون لهم مثلما يقول لك هؤلاء، فكما كُذبتَ كذِّبوا، وكما صبروا على أذى قومهم لهم، فاصبر أنت على أذى قومك لك، وإن ربك لغفار لمن تاب إليه، ومعاقب بعقاب مؤلم لمن استمر على كفره، وأصر على طغيانه وعناده، ومات كافراً ولم يتب.

ونظير الآية كثير مثل: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥١/٥٢].

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيِّب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٍ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحداً العيش، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد».

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - أورد تعالى تهديدات أربعة متعاقبة في هذه الآيات، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾ ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾ ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ﴾

٢ - هدّد الله تعالى أولاً الملحد في آيات القرآن، وهو المنحرف عن الحق إلى الباطل فقال: ليس القرآن من عند الله، أو هو شعر أو سحر، وحاول الصد عن سماعه بالتصفيق والتصفير واللغو والغناء، وبدَّل الكلام ووضعه في غير موضعه.

٣ - الغرض من قوله: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾التنبيه على أن الذين يلحدون في آيات الله، يلقون في النار، والذين يؤمنون بآيات الله يأتون آمنين يوم القيامة. وهذا هو التهديد الثاني.

٤ - والتهديد الثالث: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ أي بعدما علمتم أن الملحد الكافر والمؤمن لا يستويان، فلا بدّ لكم من الجزاء، فمن اختار لنفسه طريق الكفر عوقب بالنار، ومن اختار منهج الإيمان جوزي بالجنة.

٥ - والتهديد الرابع: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ﴾أي إن الذين

جحدوا بالقرآن وكونه منزلاً من عند الله تعالى يجازون بكفرهم؛ لأن القرآن اشتمل على جميع ما يحتاج إليه الناس من العقائد الصحيحة، والشرائع المحكمة، والأحكام الصالحة لكل زمان ومكان.

٦ً - ذكر الله تعالى هنا للقرآن الكريم أوصافاً ثلاثة هي:

أولاً - أنه كتاب عزيز منيع الجانب، لا نظير له، ولا يطعن فيه، ولا يعارضه أحد، كريم على الله تعالى، محفوظ من الله سبحانه.

ثانياً - لا يكذبه شيء مما أنزل الله من قبل من الكتب المتقدمة كالتوراة والإنجيل والزبور، ولا يجيء كتاب من بعده يكذبه، ولا يستطيع أحد أن يزيد فيه أو ينقص منه، ولا باطل فيما أخبر عنه في الماضي والمستقبل، وما حكم بكونه حقاً لا يصير باطلاً، وما حكم بكونه باطلاً لا يصير حقاً.

ثالثاً - تنزيل من حكيم في جميع أحواله وأفعاله، حميد أي محمود على ما أسدى لجميع خلقه بسبب كثرة نعمه.

٧ً - ما يتعرض له الرسول ﷺ من الأذى والتكذيب، تعرض له الأنبياء والرسل السابقون عليه، فلا بدّ من الصبر على الأذى، وألا يضيق القلب بسبب الإعراض عن رسالته.

٨ً - إن الله تعالى تام العدل، فهو ذو مغفرة للمؤمنين التائبين، وذو عقاب مؤلم وجيع لأعدائه الكفار الذين كذبوا رسله.

التأكيد على عروبة القرآن الكريم

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾

الإعراب:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبتدأ، وصلته ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وخبره جملة: ﴿فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ و﴿وَقْرٌ﴾: مبتدأ، و﴿فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ خبره، والجملة من المبتدأ والخبر خبر المبتدأ الأول.

البلاغة:

﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ بينهما طباق. والاستفهام: استفهام إنكار.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ استعارة، شبّه حالهم في إعراضهم عن سماع القرآن وقبوله بحال من يُنادى من مكان بعيد، بجامع عدم السماع وعدم الفهم في كل منهما.

المفردات اللغوية:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ﴾ أي القرآن - الذِّكر. ﴿أَعْجَمِيًّا﴾ أي كلاماً لا يفهم، سواء بلغة العرب أو العجم. ﴿لَوْلَا﴾ هلا. ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ بينت آياته بلغتنا، حتى نفهمها. ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ أكلام أعجمي ومخاطب عربي؟ والمقصود: الدلالة

على أنهم لا ينفكون عن التعنت في الآيات كيف جاءت. ﴿هُدًى﴾ من الضلالة إلى الحق. ﴿وَشِفَآءٌ﴾ من الجهل والشك والشبهة. ﴿وَقْرٌ﴾ ثقل، فلا يسمعون. ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ معمًّى فلا يفهمونه، لتعاميهم عما يريهم من الآيات. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ هذا تمثيل لحالهم في عدم قبولهم واستماعهم له بحال من يصيح بهم من مسافة بعيدة، أي فهم كالمنادى من مكان بعيد لا يسمع ولا يفهم ما يُنادى به.

﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة. ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ بالتصديق والتكذيب كما اختلف في القرآن. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير الحساب والجزاء للخلائق إلى يوم القيامة. ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا فيما اختلفوا فيه. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي وإن المكذبين به وهم اليهود أو الذين لا يؤمنون. ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من التوراة والقرآن. ﴿مُرِيبٍ﴾ موجب للاضطراب موقع في الريبة.

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي يعود نفع عمله لنفسه. ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي يعود ضرر إساءته على نفسه. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي بذي ظلم، فيفعل بهم ما ليس له أن يفعله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤/ ٤٠].

سبب النزول:

نزول الآية (٤٤):

﴿لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾: أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: قالت قريش: لولا أنزل هذا القرآن أعجمياً وعربياً؟ فأنزل الله: ﴿لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ الآية. والمراد أن نزول هذه الآية بسبب تعنت الكفار.

المناسبة:

الواقع أن سبب النزول هذا لا يقبل؛ لأنه - كما ذكر الرازي - يقتضي

ورود آيات لا تعلق لبعض فيها ببعض، مما قد يؤدي إلى الطعن في عدم انتظام القرآن، فضلاً عن ادعاء كونه معجزاً. والحق أن هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام واحد، على ما حكى الله تعالى عنهم من قولهم: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ وهذا الكلام متعلق به، وجواب له.

والتقدير: أنا لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم، لكان لهم أن يقولوا: كيف أرسلت الكلام العجمي إلى القوم العرب؟ ويصح لهم أن يقولوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ أي من هذا الكلام. ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ منه؛ لأنا لا نفهم ولا نحيط بمعناه.

والمراد تأكيد عروبة القرآن، إذ لو فرض نزوله بلغة أعجمية لحق للعرب أن يقولوا: لا نفهم، أما وإنه نزل بلغتهم وبألفاظهم، فلم يبق لهم عذر في الإعراض عنه، وقولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾ من هذه اللغة. ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ من تلك اللغة[1].

التفسير والبيان:

﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ﴾ أي لو فرض أن جعلنا هذا القرآن بغير لغة العرب أي بلغة العجم، لقال كفار قريش: هلا بينت آياته بلغتنا حتى نفهمه، فإنا عرب لا نفهم لغة العجم؟ وقالوا أيضاً: أكلام أعجمي ومرسل إليه عربي؟

والمقصود أن القرآن عربي فلم لا يفهمونه ولا يعملون به؟! ولو نزل بلسان أعجمي لأنكروا ذلك، وقالوا: هلا بينت آياته باللغة التي نفهمها؟ وقالوا

(١) تفسير الرازي: ٢٧/ ١٣٣

أيضاً: أكلام أعجمي والمرسل إليهم عرب؟ أي كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه؟!

ولما كان جميع القرآن عربياً في لفظه ومعناه، ومع هذا لم يؤمن به المشركون، دلَّ على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٩٨-١٩٩] .

ثم أبان الله تعالى هدف القرآن الكريم وغايته، فقال:

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين القائلين: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾: إن هذا القرآن هداية لقلب من آمن به، وشفاء لما في الصدور من الشكوك والرِّيَب، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٢] .

ثم أوضح موقف المشركين من القرآن الكريم، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي والذين لا يصدقون بالله ورسوله ورسالته: في آذانهم صمم عن سماعه وفهم معانيه، فهم لا يفهمون ما فيه، ولهذا تواصوا باللغو فيه، وهو عليهم معمًّى، لا يهتدون إلى ما فيه من البيان، ولا يبصرون ما اشتمل عليه من براهين ومواعظ. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٧١] .

ثم أكد الله تعالى عدم استعدادهم لفهم القرآن، فقال:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي إن حالهم كحال من ينادى من مسافة بعيدة، يسمع صوت من يناديه منها، ولا يفهم أو لا يفقه ما يقال له؛ لأنهم أعرضوا ولم يريدوا سماع القرآن.

ثم أوضح تعالى أن التكذيب بكتاب الله عادة قديمة في الأمم، فقال:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أي لا تستغرب يا محمد، فتلك عادة الأمم مع أنبيائهم، فإنهم يختلفون في الكتب المنزلة عليهم، والمثال على ذلك: أننا أرسلنا موسى وآتيناه التوراة، فاختلفوا فيها بين مصدّق ومكذب، وكُذِّب موسى وأُوذي، فلا تأس على فعل قومك، واصبر على الأذى، واستعن بالله ولا تعجز، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٣٥] .

ثم بيّن الله تعالى سبب تأخير العذاب عنهم فقال:

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي ولولا ما سبق من حكم الله بتأخير العذاب والحساب عن المكذبين من أمتك إلى يوم المعاد، لعجل لهم العذاب، كما فعل بالأمم المكذبة، وكما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٨] وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٣٥/ ٤٥] .

ووردت آيات أخرى في تأخير العذاب مثل: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٥٤/ ٤٦] ومثل: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النحل: ١٦/ ٦١] .

وموجب الهلاك قائم فيهم، فقال تعالى:

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي وإن كفار قومك لفي شك من القرآن، موقع في الريبة والقلق، فما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا: بل كانوا شاكين فيما قالوه، غير متحققين لشيء كانوا فيه.

ثم حدد الله تعالى قانون الجزاء، فقال:

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ أي من عمل عملاً صالحاً في الدنيا، فائتمر بأمر الله، وانتهى عما نهى الله عنه، فإنما يعود نفع ذلك على نفسه، ويجازى على وفق عمله، ومن أساء فعصى الله، فإنما يرجع وبال ذلك عليه، ويعاقب على جرمه، كما قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: ٥٣/٣٩] . وعليه، فإن آمنوا فنفع إيمانهم يعود عليهم، وإن كفروا فضرر كفرهم يعود إليهم.

والجزاء للفريقين حق وعدل مطلق، فلا ينقص المحسن شيئاً من ثوابه، ولا يعاقب أحداً من الناس إلا بذنبه، ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ - إن القرآن عربي، نزل بلغة العرب، وليس أعجمياً، فإذا ترجم إلى لغة أخرى، لم يكن قرآناً.

٢ - إن نزول القرآن بلغة العرب كان بقصد التحدي ليتقرر به الإعجاز؛ إذ العرب هم أعلم الناس بأنواع الكلام نظماً ونثراً، وإذا عجزوا عن معارضته، كان من أدل الأدلة على أنه من عند الله تعالى، ولو كان بلسان العجم لقالوا: لا علم لنا بهذا اللسان، وإذا كان كلامه بلسانهم ولغتهم، لا بلغة أجنبية، فلا يعذرون بعدم الإيمان به، ولا يصح لهم أن يقولوا: إن قلوبنا في أكنة منه، بسبب جهلنا بهذه اللغة.

٣ - وهذا أمر منطقي؛ لأن فهم الخطاب التشريعي أساس التكليف، ولا يعقل كما قال تعالى ﴿ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ أن يكون القرآن أعجمياً، والأمة المخاطبة به عربية. والعجمي: الذي ليس من العرب، كان فصيحاً أو غير فصيح. والأعجمي: الذي لا يفصح، كان من العرب أو من العجم.

٤ - إن القرآن هدى للناس من الضلالة، وشفاء لكل من آمن به من الشك والريب والأوجاع، وكونه هدى؛ لأنه دليل على الخيرات، مرشد إلى كل السعادات، وكونه شفاء، لأنه إذا حصل الاهتداء تحقق الشفاء من مرض الكفر والجهل.

٥ - لكن غير المؤمنين بالقرآن في آذانهم صمم عن سماع القرآن، ولهذا تواصوا باللغو فيه، وهو عليهم عمى لا يفهمونه ولا يدركون مقاصده، فهم أو كل واحد منهم كالمنادى له من موضع بعيد، فهو لا يسمع النداء ولا يفهمه، فلا خير فيه.

٦ - إن تكذيب الأمم للرسل عادة قديمة غير جديدة في عهد النبي ﷺ، فلقد أنزل الله التوراة على موسى عليه السلام، وسمع نخبة من قومه كلام الله له، فمنهم من آمن به، ومنهم من كذب به، فلا يحزنك يا محمد اختلاف قومك في كتابك، فقد اختلف مَنْ قبلَهم في كتابهم.

وقبل بعضهم هذا الكتاب، وهم أصحابك، وردّه الآخرون، وهم يقولون: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾.

٧ - لولا قضاء الله القديم المحكم، وحكمه المبرم في إمهال الكفار وتأخير عذاب الاستئصال عنهم إلى يوم القيامة، لقضي بينهم بتعجيل العذاب، لأنهم في شك من القرآن شديد الريبة. قال الكلبي في هذه الآية: لولا أن الله أخر عذاب هذه الأمة إلى يوم القيامة، لأتاهم العذاب كما فعل بغيرهم من الأمم.

٨ - إن الجزاء من جنس العمل، فمن أطاع الله فالثواب له، والله عز وجل مستغن عن طاعة العباد، ومن أساء فالعقاب عليه.

٩ - نفى الله تعالى الظلم عن نفسه، قليله وكثيره، فقال هنا: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ١٠/

٤٤] وجاء في الحديث القدسي الثابت الذي أخرجه مسلم عن أبي ذر الغفاري: «يا عبادي، إني حرّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرَّماً، فلا تَظالموا».

وأيضاً فالله تعالى هو الحكيم المالك، وما يفعله المالك في ملكه لا اعتراض عليه؛ إذ له التصرف في ملكه بما يريد.

تم بحمد اللّه الجزء الرابع والعشرون

فهرس المجلد الثاني عشر

فهرس الجزء الثالث والعشرين

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

فهرس الجزء الرابع والعشرين

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *